نَفَحاتُ القرآنِ

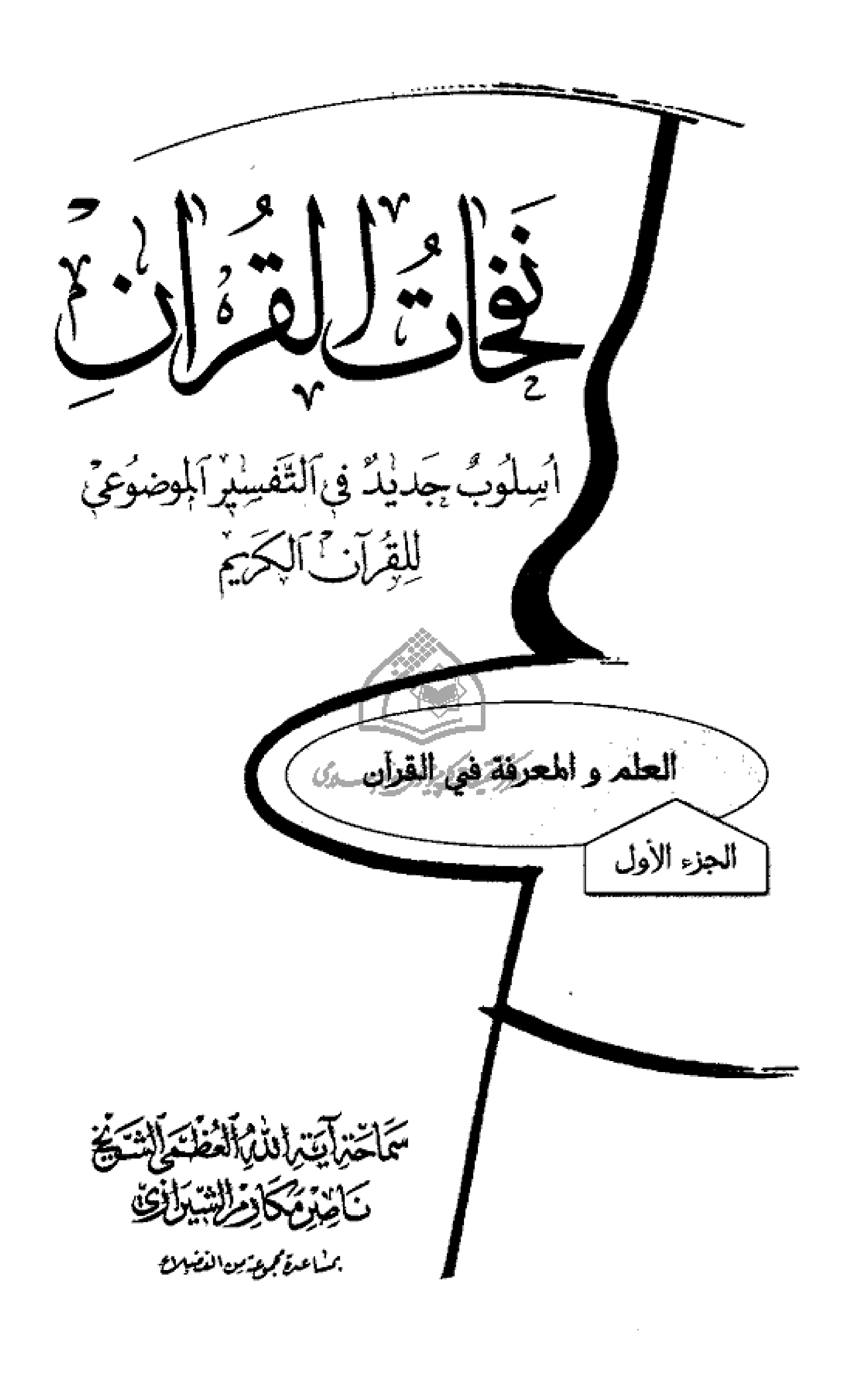
أسلوبٌ جديدٌ في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم



العلم و المعرفة

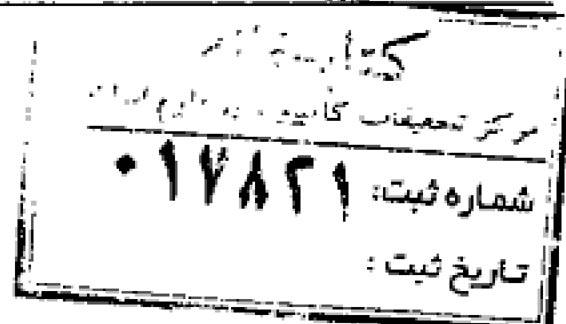
سماحة آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

بمساعدة مجموعة من الفضلاء



نفحات القرآن
أسلوب جديد في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم
العلم و المعرفة في القرآن
الجزء الأول
سماحة آية الله العظمى الشيخ
ناصر مكارم الشيرازي
بمساعدة مجموعة من الفضلاء

مكارم شيرازى، ناصر، ١٣٠٥ -
نفحات القرآن / مكارم الشيرازى؛ بمساعدة مجموعة من الفضلاء - قم: مدرسه الامام على بن ابى طالب عليه السلام، ١٤٢٦ ق. = ١٣٨٤.
١٠ ج. ISBN:964-8139-75-X (دوره)
كتابنامه ISBN:964-8139-88-1 (ج. ١)
١. تفاسير شيعه - قرن ١٤. الف. مدرسه الامام على بن ابى طالب عليه السلام.
ب. عنوان
BP ٩٨ / ٧ ن ٧ م ١٣٨٤ ٢٩٧ / ١٧٩



نفحات القرآن / الجزء الأوّل
المؤلّف: سماحة آية الله العظمى مكارم الشيرازي (مدّ ظلّه) بمساعدة مجموعة من الفضلاء
الكميّة: ٢٠٠٠ نسخة
الطبعة: الاولى (التّصحيح الثّاني)
تاريخ النّشر: ١٣٨٤ ش - ١٤٢٦ هـ
عدد الصّفحات: ٣٨٠ صفحة
حجم الغلاف: كبير
المطبعة: سليمانزاده
النّاشر: مدرسة الإمام على بن أبى طالب عليه السلام
ردمك: ١-٨٨-٨١٣٩-٩٦٤
ردمك الدورة: X -٧٥-٨١٣٩-٩٦٤



ايران - قم - شارع شهدا - فرع ٢٢
تلفكس: ٧٧٣٢٤٧٨-٢٥١-٩٨++
www.amiralmomeninpub.com

سعر الدورة: ٣٥٠٠٠ تومان


بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء:

إلىٰ الذين أحبّوا القرآن

إلىٰ الذين يريدون أن ينهلوا المزيد من معين الحياة الصافي

إلىٰ الذين يتوقون إلىٰ معرفة القرآن وفهمه أكثر فأكثر.



بمساعدة العلماء الأفاضل وحجج الإسلام السادة:

محمّد رضا الآشتياني

محمّد جعفر الإمامي

عبدالرسول الحسني

المرحوم محمّد الأسدي

حسين الطوسي

سيّد شمس الدين الروحاني

محمّد محمّدي الاشتهاردي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

١ ـ أنواع التفسير.

٢ ـ ما هو التفسير الموضوعي؟

٣ ـ ما هي المشكلات التي يمكن حلُّها بواسطة التفسير الموضوعي؟ (وكيفية الاستفادة من هذا النوع من التفسير).

٤ ـ تاريخ التفسير الموضوعي.

٥ ـ الأُسلوب الأمثل في التفسير الموضوعي.

٦ ـ العقبات التي تعترض التفسير الموضوعي.

٧ ـ لماذا لم يتطور هذا اللون من التفسير؟

أنواع التفسير:

عندما نريد الحديث عن تفسير القرآن الكريم يتبادر إلىٰ الذهن التفسير المتعارف *(التفسير الترتيبي)* حيث تجري عملية بحث آيات القرآن الكريم بالترتيب ويتمّ توضيح مضمونها وماهيتها، وهو الأُسلوب المتّبع في تفسير القرآن منذ صدر الإسلام وإلىٰ يومنا هذا، وقد قام علماء الإسلام بتأليف مئات أو آلاف الكتب تحت عنوان *«تفسير القرآن الكريم»* على هذه الطريقة.

وهناك نوع آخر من التفسير الرائج إلىٰ حدّ ما والذي يهدف إلىٰ تفسير *«مفردات القرآن»*

أي أنّه يتناول كلمات القرآن كلٌّ علىٰ حدة وبالتسلسل حسب الحروف الأبجدية وعلىٰ هيئة مُعْجم، ومن أبرز نماذج هذا التفسير هو كتاب *«مفردات الراغب»* و *«وجوه القرآن»* و*«تفسير غريب القرآن»* للطريحي، وأخيراً كتاب *«التحقيق في كلمات القرآن الكريم»* و*«نثر طوبى»* أو *«دائرة معارف القرآن الكريم»*.

بينما توجد هناك أنواع اُخرىٰ من تفسير القرآن منها *«التفسير الموضوعي»* الذي يحقق ويبحث آيات القرآن الكريم علىٰ أساس مختلف المواضيع المتعلقة باُصول الدين وفروعه والاُمور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية.

وهناك نوع آخر من التفسير نطلق عليه *«التفسير الإرتباطي»* أو التسلسلي، حيث يتناول مواضيع القرآن المختلفة من حيث علاقتها ببعضها.

فعلىٰ سبيل المثال، بعد بحث موضوع *«الإيمان»*، و*«التقوىٰ»* و*«العمل الصالح»* كلٌّ على حدة في التفسير الموضوعي تتمّ عملية بحث علاقة هذه المواضيع الثلاثة ببعضها من خلال الإعتماد علىٰ الآيات والملاحظات الواردة في ذلك، ومن المسلَّم أنّ حقائق جديدة سوف تنكشف لنا عن كيفية ارتباط هذه المواضيع ببعضها تكون بالغة الأهمية والفائدة.

إنّ أفضل طريقة للبحث حول عالم الخلقة والتكوين وما يتضمنه ويحويه من كائنات هو دراسة العلاقة بين هذه الكائنات التي تؤلف هذا العالم، ففي الحقيقة أنّ الشمس والقمر والأرض والإنسان والمجتمعات البشرية هي موجودات لا تنفصل عن بعضها البعض وهي تشكّل في مجموعها كياناً واحداً مترابطاً، والاُسلوب الصائب في دراستها هو أن نبحثها من حيث ارتباطها مع بعضها.

وهكذا الأمر في كتاب *«التدوين»* أي القرآن الكريم، فهنالك علاقات دقيقة وظريفة بين مواضيع القرآن الكريم، ولابدّ من تفسيرها من حيث ارتباطها مع بعضها.

النوع الآخر من التفسير هو *«التفسير العام»* أو *«الرؤية الكونية للقرآن»* وهنا يتناول المفسّر جميع مضمون القرآن فيما يتعلق بعالم الوجود، وبتعبير أكثر وضوحاً: يربط كتاب *«التكوين»* مع كتاب *«التدوين»* وينظر إليهما معاً، وتتم دراستهما من حيث ارتباطهما ببعضهما.

وعلى هذا الأساس فإنّ هناك خمسة أنواع من التفاسير:

١ ـ تفسير مفردات القرآن.

٢ ـ التفسير الترتيبي.

٣ ـ التفسير الموضوعي.

٤ ـ التفسير الإرتباطي.

٥ ـ التفسير العام، أو النظرة الكونية للقرآن.

والمشهور والمعروف من بين هذه الأنواع الخمسة هو النوع الأوّل والثّاني، وإلىٰ حدٍ ما النوع الثالث، أي أنّ التفسير الموضوعي لا زال يسير في مراحله الأولية، على أمل أن يقطع مراحله التكاملية تدريجياً من خلال الإهتمام الذي أولاه علماء الإسلام به مؤخراً ومن خلال المزيد من الجد والمثابرة، وأن يحتل مكانه اللائق في المستقبل القريب.

أمّا النوع الرابع والخامس من تفسير القرآن فلم يحظيا باهتمام المفسّرين بعد، وهذا العمل يقع علىٰ عاتق الجيل الحاضر وأجيال المستقبل بأن يتناولوا هذا الباب بعد تكامل التفسير الموضوعي بما فيه الكفاية، ويقوموا بأداء حقّهِ بالقدر المستطاع.

ما هو التفسير الموضوعي؟

قبل الإجابة على هذا السؤال لابدّ من طرح سؤال آخر وهو: لماذا لم يُرتب القرآن بأُسلوب موضوعي يشبه الكتب المتداولة؟ بل أنّه جمع بشكل يختلف عنها جميعاً.

والجواب هو: إنّ المؤلف أو المؤلفين يأخذون بنظر الاعتبار مختلف المواضيع المتشابهة في حقل واحد من أجل اعداد الكتب المتداولة، فمثلاً في علم الطب يؤخذ بنظر الاعتبار «مختلف الأمراض التي ترتبط بمسألة صحة الإنسان» ثمّ تُقسم المسائل المتعلقة بهذه المواضيع علىٰ فصول وأبواب (أمراض القلب، الأمراض العصبية، أمراض الجهاز الهضمي، أمراض جهاز التنفس، الأمراض الجلدية وسائر الأمراض).

ومن ثمّ يبحثون كلَّ فصلٍ وكلَّ بابٍ من خلال الاعتماد علىٰ المقدّمات ونتائجها وبهذا

النحو يتمّ تأليف كتاب باسم كتاب «الطب».

بيد أنَّ القرآن ليس كذلك، فهذا الكتاب نزل على مدىٰ ٢٣ سنة وفقاً للحاجات والظروف الاجتماعية المختلفة والوقائع المتباينة، والمراحل التربوية المتفاوتة، وكافة شؤون حياة المجتمع الإسلامي، وفي نفس الوقت لم يتعلق بزمانٍ ومكانٍ معينين!

ففي وقت تدور كافة بحوث القرآن حول محور مقارعة الوثنية والشرك وبيان التوحيد بكل فروعه، والسّور والآيات النّازلة في هذه المرحلة كلّها في المبدأ والمعاد: (كالسور التي نزلت في مكّة خلال السنوات الثلاث عشرة الأُولىٰ من البعثة).

وفي زمان آخر نرىٰ محور البحث والحديث ساخناً وقوياً حول الجهاد وكيفية مواجهة الأعداء في الداخل والخارج والمنافقين.

وعندما تقع غزوة الأحزاب فتنزل سورة الأحزاب، وما لا يقل عن ١٧ آية منها تتحدث عن هذه المعركة والتجارب والقضايا التربوية فيها ووقائعها.

وحينما جرت واقعة صلح الحديبية نزلت سورة الفتح وبعدها فتح مكّة وغزوة حنين نزلت سورة الإخلاص وآيات أُخرىٰ.

والخلاصة، فتزامناً مع انتشار الإسلام والتحرك العام للمجتمع الإسلامي كانت تنزل الآيات المناسبة وتصدر الأوامر اللازمة، وهذا ما كان يكمّل المسيرة التكاملية للإنسان.

واستناداً إلىٰ ما ذكرنا آنفاً، يتضح المغزىٰ من التفسير الموضوعي وهو جمع الأحداث والوقائع المتعلقة بذلك الموضوع وترتيبها لتتجلىٰ وجهة نظر القرآن الكريم بشأن ذلك الموضوع وأبعاده.

فمثلاً، تُجمع الآيات المتعلقة ببراهين معرفة الله كالفطرة، وبرهان النظم وبرهان الوجوب والإمكان وباقي البراهين، وحيث إنّ القرآن يفسّر بعضُه بعضاً تتضح أبعاد هذا الموضوع[1].

---

١. لقد رويت عبارة «القرآن يفسّر بعضه بعضاً» عن ابن عباس، وليس من المستبعد أن يكون قد أخذها عن النبي ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام نتيجة لعلاقته القوية معهما في مسائل القرآن، كما ورد مضمونها في نهج البلاغة ☜

وهكذا بالنسبة للآيات المتعلقة بالجنّة أو النار، والصراط وصحيفة الأعمال، والآيات المتعلقة بالقضايا الأخلاقية والتقوىٰ وحسن الخلق والشجاعة، و... والآيات المتعلقة بأحكام الصلاة والصوم والزكاة والخمس والأنفال، والآيات المتعلقة بالعدالة الاجتماعية وجهاد الأعداء وجهاد النفس و...

والمسلّم به أنّ هذه الآيات التي نزلت في مناسبات مختلفة، عندما تُجمع كلُّ طائفةٍ منها علىٰ حدةٍ وتنظم وتُفسَّر فسوف تنكشف عنها حقائق جديدة، ومن هنا تتّضح أهميّة التفسير الموضوعي، حيث سيأتي الكلام عنه في البحث الآتي إن شاء الله.

ما هي المشاكل التي يُمكن حلُّها بواسطة التفسير الموضوعي؟

إنّ الجواب علىٰ هذا السؤال واضحٌ للغاية من خلال ملاحظة ما مرَّ ذكره آنفاً، ولكن للمزيد من التوضيح ينبغي الالتفات إلىٰ هذا الأمر وهو:

إنّ الكثير من آيات القرآن الكريم تتناول بُعداً واحداً من أبعاد موضوع ما، فمثلاً، فيما يخص مسألة *«الشفاعة»* فقد ورد في بعض الآيات أصل إمكان الشفاعة.

وفي البعض الآخر *«شروط الشفاعة»* (سبأ ٢٣، مريم ٧٨).

وفي بعضها شروط *«المشفّع لهم»* (الأنبياء ٢٨، غافر ١٨).

وفي بعضٍ تُنفىٰ الشفاعة عن الجميع ما عدا الله تعالىٰ (الزمر ٤٤).

وفي بعض آخر ثبتت الشفاعة لغير الله (المدثر ٤٨).

نجد أنَّ حالةً من عدم الوضوح تحيط بأُمور الشفاعة بدءً من حقيقة الشفاعة وحتىٰ سائر الشروط والخصوصيات الأُخرىٰ، ولكن عندما تأخذ آيات الشفاعة من القرآن

☜ حيث يقول: «وَذكرت أنّ الكتاب يصدّقُ بعضُه بعضاً» (نهج البلاغة، الخطبة ١٨) وقد أورد بعض العلماء في كتبهم جملة «القرآن يفسر بعضه بعضاً» علىٰ أنّها حديثٌ، كما في صفحه ١٠٦ من كتاب (تنزيه التنزيل) للمرحوم الشهرستاني، إذ وردت هذه العبارة باعتبارها رواية بدون أن ترد عليها مؤاخذة، كما تُلاحظ في نهج البلاغة إشارة أُخرىٰ إلىٰ هذا الأمر، حينما يقول بشأن القرآن الكريم: «وينطقُ بعضه ببعض ويشهد بعضُه علىٰ بعض» (نهج البلاغة، الخطبة ١٣٣).

ونضعهاجانب بعضها ونفسّرها على ضوء بعضها البعض يرتفع هذا الغموض ويحلّ الابهام علىٰ أحسن وجه.

وكذلك الآيات المتعلقة بالجهاد، أو فلسفة أحكام وتعاليم الإسلام، أو الآيات المتعلقة بالبرزخ، أو مسألة علم الله، وكذلك موضوع علم الغيب، وهل أنّ العلم بالغيب ممكنٌ لغير الله أم لا؟ فلو وُضعت آيات كل موضوع في جانبٍ فمن الممكن أداء حق هذا الموضوع وحل الإشكالات الموجودة عن طريق التفسير الموضوعي.

وعلى هذا الأساس فإنّ الآيات المتعلقة بـ«*المحكم*» و«*المتشابه*» والتي تدعو تفسير «*المتشابهات*» بالاستعانة «*بالمحكمات*» يعدُ نوعاً من التفسير الموضوعي.

ومن هنا يبدو أنّه من خلال تفسير الآيات المتعلقة بموضوع ما بالاستعانة بالآيات الأُخرى تنبثق عنها معارف وعلوم جديدة، هذه العلوم تكمن فيها معارف القرآن والحلول لكثير من المعضلات العقائدية وأحكام الإسلام.

من هذا الباب يُمكن تشبيه آيات القرآن بالكلمات المتفرقة، حيث إنَّ لكلٍّ منها مفهوماً ذاتياً، ولكن حينما تُرتَّبُ وتجمع في جمل مفيدة فهي تُعطي مفاهيم جديدة.

أو تشبيهها بالعناصر الحياتية مثل «الاوكسجين» والهيدروجين» التي حينما تتفاعل مع بعضها ينتج عنها الماء الذي هو عنصر حياتي آخر.

خلاصة القول إنّه لا يمكن حلّ الكثير من اسرار القرآن إلّا عن هذا الطريق، ولا يُمكن النفوذ إلىٰ مكنوناتها إلّا من خلال هذا السبيل، ونعتقد بأنّ هذا القدر كافٍ لتوضيح أهميّة التفسير الموضوعي.

وباختصار يمكن تلخيص فوائد التفسير الموضوعي في النقاط التالية:

١ ـ إزالة الإشكالات التي تبرز في بعض الآيات للوهلة الولىٰ، وحلّ أسرار وألغاز المتشابه في القرآن.

٢ ـ الاطّلاع علىٰ خفايا ودقائق وعلل وأسباب ونتائج المواضيع والقضايا المختلفة الواردة في القرآن الكريم.

٣ ـ الحصول علىٰ معلومات جامعه لمواضيع مختلفة مثل «التوحيد» و«معرفة الله» و«المعاد» و«العبادات» و«الجهاد» و«الحكومة الإسلامية» وعلوم مهمّة أُخرىٰ.

٤ ـ كشف أسرار وخفايا جديدة من القرآن من خلال الجمع بين الآيات.

تاريخ التفسير الموضوعي:

يمكننا ملاحظة نماذج من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم في نفس آيات القرآن الكريم حيث أمرت هذه الآيات بتفسير المتشابه منها بالمحكم، ويعد هذا الأُسلوب نوعاً من التفسير الموضوعي.

وفي كلام أئمّة الهدى عليهم السلام أمثلة كثيرة تهدينا إلىٰ أُسلوب جمع الآيات المتعلقة بموضوع معين وترتيبها ثم الاستفادة منها، ولأجل إثبات هذا الأمر نكتفي بذكر عدد من الأمثلة:

١ ـ في الرواية المعروفة [١] بعنوان وصيّة النبي صلى الله عليه وآله وموعظته لعبدالله بن مسعود المذكورة في بحار الأنوار ـ وهي رواية طويلة وكثيرة المضامين، وفيها أمثلة كثيرة بنحو يمكن القول أنّ الرواية تدور حول محور التفسير الموضوعي ـ عندما يتكلم صلى الله عليه وآله عن ذم الدنيا حيث يقول: *«يا ابن مسعود إنّ الأحمق من طلب دنيا زائلة»*، ثم يستدل علىٰ هوانِ الدنيا وزخارف هذا العالم بالآيات التالية:

﴿اعلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَينَكُمْ وَتكَاثُرٌ فِي الأَموَالِ وَالأَوْلَادِ...﴾. (الحديد / ٢٠)

﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِم أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾. (الزخرف / ٣٣ و ٣٤)

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾. (الاسراء / ١٨)

وفي محل آخر يتحدث عن (القول بغير علم)، ويقول صلى الله عليه وآله: يا ابن مسعود لا تقل شيئاً

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٩٤.

بغير علم ولا تتفوه بشيء ما لم تسمعه وتراه، ثم يذكر آيات عديدة حول هذا الموضوع:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾. (الاسراء / ٣٦)

وقال تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ﴾. (الزخرف / ١٩)

وقال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. (ق / ١٨)

وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾. (ق / ١٦)

وكذلك ذكرت الرواية ابحاثاً حول الذكر والإنفاق في سبيل الله، ومكارم الاخلاق وغيرها اعتماداً على جمع الآيات وتبويبها.

٢ ـ جاء في حديث آخر عن أمير المؤمنين علي عليه السلام تقسيم لمعنى «*الكفر في القرآن المجيد*»:

إنّ الكفر في القرآن على أربعة أقسام:

الأوّل: الكفر بمعنى الجحود والانكار، وهو على قسمين:

أ) إنكار اصل وجود الله والجنّة والنار والقيامة كما يحكي القرآن عن لسانهم ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾. (الجاثيه / ٢٤)

ب) الكفر المقارن للمعرفة واليقين كما جاء في القرآن:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾. (النمل / ١٤)

الثاني: الكفر بمعنى المعصية وترك الطاعة كما أخبر الله سبحانه عن قوم من بني اسرائيل يؤمنون ببعض الكتاب ويكذبون ببعض اذ يقول سبحانه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾. (البقرة / ٨٥)

الثالث: الكفر بمعني البراءة والتنصّل كما قال سبحانه عن لسان ابراهيم عليه السلام لعبدة الأصنام ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾. (الممتحنة / ٤)

وقال سبحانه أيضاً ﴿يَوْمَ القيامَةِ يَكْفُرُ بعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾. (العنكبوت / ٢٥)

الرابع: الكفر بمعنى عدم شكر النعمة كما قال سبحانه: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ

كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾. (ابراهيم / ٧)

ثم يجمع عليه السلام الآيات الواردة في الشرك وأقسامه في القرآن فيقسمها إلىٰ الشرك في العقيدة، والشرك في العمل، والشرك في الطاعة، وشرك الرياء، ويوضح كلاً منها بذكر الآيات القرآنية [1].

وكما تلاحظ فإنّ الإمام عليه السلام بتقسيمه لآيات الكفر والشرك يلقي نظرة كلية علىٰ هذا الموضوع، ويوضح بأنّ لهذين المصطلحين مفهوماً واسعاً شاملاً، فالكفر يشمل كل اخفاء للحق سواء كان في العقائد أو في العمل أو في المواهب الإلهيّة، والشرك يعني أن نجعل لله شريكاً أو نداً سواءً كان في العقائد أو في العمل أو الطاعة للقوانين، ويتضح جيداً بهذا العرض الجميل للتفسير الموضوعي في المثالين المذكورين لكلمات الإمام عليه السلام الدور الكبير لهذا التفسير في سعة ذهنية الإنسان والفهم العميق للآيات القرآنية.

والنموذج البديع الآخر ما ورد في كلام الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام مع هشام بن الحكم.

فالإمام عليه السلام وفي مقام بيان منزلة العقل يذكر الآيات المرتبطة بـ«أُولي الألباب» ويجمعها كلها ويقول لهشام: *«أنظر كيف أنّ الله سبحانه وصف أُولي الألباب علىٰ أحسن وجه وزينهم بأفضل لباس»*، ثم يذكر سبع آيات من القرآن المجيد تتكلم عن منزلة أُولي الألباب وهي (البقرة / ٢٦٩ ـ آل عمران / ٧ ـ آل عمران / ٩ ـ المؤمن / ٥٤) [2].

فالقيام بجمع هذه الآيات والنظر اليها منضمة بعضها إلىٰ البعض يعطي للإنسان رؤية عميقة يستطيع معها فهم معنى أُولىٰ الألباب ومقامهم ومنزلتهم، وهذا عمل لا يتمّ إلّا عن طريق التفسير الموضوعي.

هذه نماذج من أُصول التفسير الموضوعي في كلمات قادة الإسلام العظام، النبي صلى الله عليه وآله وأئمّة الهدىٰ عليهم السلام، وهناك نماذج عديدةٌ أُخرى لم نذكرها تجنباً للاطالة.

---

١. بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ١٠٠ ـ ١٢٠ (خلاصة الحديث).

٢. أُصول الكافي، ج ١، ص ١٥ كتاب العقل والجهل.

التفسير الموضوعي في كلمات العلماء السابقين:

لم يكن التفسير الموضوعي متداولاً إلّا في فترات محدودة وحول موضوعات خاصة، إلّا أنّه ورد كثيراً علىٰ ألسنة العلماء السابقين، ولكن يجب الاعتراف بأننا لا نعرف أحداً منهم تناول التفسير الموضوعي في جميع المجالات.

ومن الروّاد الأوائل في هذا المضمار، العلّامة المجلسي ﷺ حيث نراه قد تصدىٰ لجمع كل الآيات ذات العلاقة بالموضوع عند دخوله في كل فصل من فصول بحار الأنوار، ثم يلقي عليها نظرة شاملة وينقل أحياناً آراء المفسرين، ويسعىٰ لتوضيح ما يذكره من الآيات.

فنرىٰ مثلاً في الجزء ٦٧ عندما يتكلم حول *«القلب» و«السمع» و«البصر»* ومعنىٰ كلٍّ منها في القرآن الكريم، يجمع عشرات الآيات ثم يذكر رواية من الكافي ثم يقوم بذكر بيان جامع لها، فيستغرق بحثه في هذا المجال عشر صفحات تقريباً[1].

وفي الجزء ٥٨ في باب حقيقة الرؤيا وتعبيرها يذكر أولاً أكثر من عشر آيات من القرآن حول هذا الموضوع ثم يبحث في تفسيرها عدة صفحات[2].

وفي الجزء ٢٢ في الباب الأول يبحث عن ما جرىٰ لليهود والنصارىٰ والمشركين بعد الهجرة، فيذكر عشرات الآيات من مختلف السور حول هذا الموضوع ثم يقوم بتفسيرها[3].

وقد اتبع هذا المحقق العظيم نفس الأُسلوب في الفصول الأُخرى من الكتاب.

ومن الأمثلة الأُخرىٰ للتفسير الموضوعي في كلمات المتقدمين، الكتب المؤلفة تحت عنوان آيات الأحكام، ففي هذه الكتب ذكرت الآيات المتعلقة بالأحكام الفقهية، مثل الآيات التي لها ارتباط بأجزاء وشروط الصلاة وأقسام وشروط الصوم، والحج والنكاح والطلاق وأحكام الحدود والديات والقضاء وغيرها، حيث جمعت الآيات وتمّ بحثها علىٰ نحو موضوعي بالاستعانة ببعضها الآخر.

---

١. بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٢٧ إلى ٤٣.

٢. المصدر السابق، ج ٥٨، ص ١٥١ إلىٰ ١٥٨.

٣. المصدر السابق، ج ٢٢، ص ١ إلىٰ ٦٢.

ويبدو أنّ أوّل كتاب أُلّفَ في هذا المجال هو كتاب *(أحكام القرآن)* تأليف (محمد بن صاحب الكلبي)، وهو من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام والمتوفى سنة ١٤٦ هـ فهو سابق حتىٰ للشافعي الإمام المعروف المتوفى سنة ٢٠٤ هـ بتأليف كتاب في هذا المجال.

وبعده تصدىٰ العديد من الفقهاء والعلماء لتأليف الكتب في مجال آيات الأحكام (تارة بهذا الاسم وتارة بأسماء أُخرىٰ) وقد ذكر المرحوم المحدّث الطهراني في كتاب *«الذريعة»* ثلاثين كتاباً من هذه السلسلة[١]. واشهرها بين العلماء والفقهاء المعاصرين كتاب آيات الأحكام للمحقّق الأردبيلي رحمه الله المسمى *«زبدة البيان»*، وآيات الأحكام للفاضل المقداد المسمى *(كنز العرفان)*.

وجاء في الكتاب الأخير أنّ مِن المشهور بين العلماء أنّه توجد خمسمائة آية في القرآن المجيد حول الأحكام الفقهية. إذا أخذنا في الحسبان الآيات المتكررة في هذا المجال وإلّا فالعدد أقل من ذلك[٢].

وقد كُتب في هذا المجال كتاب *«إعجاز القرآن في العلوم المعاصرة»* وفيه الآيات ذات العلاقة بالاكتشافات العلمية المعاصرة، والتي تعدّ من المعجزات العلمية للقرآن، وكتاب *«المجتمع والتاريخ»* و *«الحقوق في القرآن المجيد»*، وكلها تعبير عن السعي المستمر في التأليف في حقل التفسير الموضوعي.

كما أُلفت كتب حول قصص القرآن تمّ فيها توضيح الوقائع الواردة في قصص الأنبياء بواسطة جمع آيات القرآن.

ولكن مع هذا يجب الإذعان بأن كل هذه المحاولات ناظرة للتفسير الموضوعي في مجال معين وزاوية محددة، وهي ليست بصدد تفسير جامع وشامل لكل موضوعات القرآن، وفي الفترة الأخيرة بذلت محاولات وجهود لتفسير القرآن تفسيراً موضوعياً واسعاً، وهذه الجهود تستحق كل تقدير.

---

١. الذريعة إلىٰ تصانيف الشيعة، ج ١، ص ٤٠ ـ ٤٤.

٢. كنز العرفان، ج ١، ص ٥.

ومن جملة هذه الكتب يمكن ذكر كتاب «*مفاهيم القرآن*» وقد صدر عدد من أجزائه بالفارسية والعربية وهو كتاب قيّم.

ولكن مع هذه المساعي التي تستحق التقدير يجب الاعتراف بأنّ مسألة التفسير الموضوعي للقرآن لا زالت في مرحلة البداية، وتحتاج إلىٰ زمان كي تحتل المكانة المناسبة لها كالتفسير الترتيبي، وهذا لا يتم إلّا بالسعي المستمر الدائب للعلماء والمفسرين، وبالاستفادة من تجارب الماضين وتنميتها وايصالها إلىٰ درجة الكمال المطلوب.

وما تراه في هذا الكتاب هو حلقة من هذه السلسة التي نأمل لها أن تنضمّ إلىٰ الحلقات المعتبره الأُخرىٰ، والمهم أن يتجنب أصحاب النظر والمعرفة الأعمال المكررة في هذا المجال، وأن يبادر كل منهم إلىٰ الإبداع والتجديد حتىٰ نتمكن تحت ظل هذه الإبداعات أن نطوي هذا الطريق الطويل.

***

الأسلوب الصحيح في التفسير الموضوعي:

يوجد أُسلوبان للتفسير الموضوعي:

الأسلوب الأول: الذي اختاره بعض المفسرين في عملهم، وهو أنّهم يتناولون المواضيع المختلفة كالموضوعات العقائدية (التوحيد والمعاد و..) والموضوعات الأخلاقية (التقوىٰ حسن الخلق و...)، وبعد ذكر بحوث فلسفية وكلامية أو أخلاقية يذكرون بعض الآيات القرآنية المرتبطة بالموضوع بعنوان الشاهد على ذلك.

الأسلوب الثاني: وهو الذي يتمّ فيه قبل كل شيء جمع الآيات الواردة حول الموضوع من جميع أجزاء القرآن، وقبل أيّ حكم أو ابداء نظر يتمّ جمع الآيات وتفسيرها مجتمعة، وبجمعها وملاحظة العلاقة فيما بينها نحصل منها على الصورة الكاملة.

وهنا لا يملك المفسّر شيئاً من عنده مطلقاً، ويسير كالظل خلف آيات القرآن فيفهم كل شيء من القرآن، ويكون كل همّه كشف محتوىٰ الآيات، وإذا أراد الإستعانة بآراء الآخرين

بل حتىٰ بالأحاديث، فذلك في المرحلة الثانية وبصورة مستقلة.

وقد إخترنا هذا الأُسلوب في *(نفحات القرآن)* حيث جمعنا كل الآيات الواردة في كل موضوع وجعلناها في مقدمة كل بحث، وجعلنا كل مسائل البحث تسير تحت ظل الآيات، ونعتقد أن هذا هو السبيل الأمثل لإيصالنا إلىٰ حقائق القرآن.

وهذان الأُسلوبان متبعان في التفسير المعتاد (التفسير الترتيبي حسب السور والآيات) فجماعة يحملون آيات القرآن علىٰ آرائهم وجماعة أُخرىٰ يجعلون آراءهم تابعة لآيات القرآن، ومن الواضح أنّ الأُسلوب التفسيري الصحيح هو الثاني.

القرآن *(نور وكتاب مبين)* فهو يبين كل الحقائق المرتبطة بسيادة الإنسان: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾. (المائدة / ١٥)

٭٭٭

عقبات تواجه التفسير الموضوعي:

يواجه المفسّر في طريقه ثلاث عقبات مهمّة.

١ ـ ليس التفسير الموضوعي بأن تجعل فهارس الآيات أمامك وتجمع الآيات التي ورد فيها ذكر لكلمات المواضيع التي تريد البحث فيها، مثل الجهاد والتقوىٰ، لأنّ الكثير من الآيات تتكلم حول هذه المواضيع بدون أن تُذكر فيها كلمة التقوىٰ أو الجهاد، ولا بأس هنا أن نذكر مثالاً واحداً، نحن نعلم أنّ الله سبحانه «رحمٰن» و«رحيم» و«أرحم الراحمين» وهذا المعنىٰ وارد، في الكثير من آيات القرآن، ولكن توجد آيات تبيّن هذه الحقيقة بدون استعمال مادة *«رحم»*، منها: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾[1]. (النحل / ٦١)

---

١. لابدّ من الإشارة إلىٰ أنّ الآية الأُولىٰ تشير إلىٰ ظلم الناس وفي الآية الثانية جاء بدل الظلم الاكتساب، ومن جمع الآيتين معاً يظهر أنّ الكثير من الأعمال التي تصدر من الناس ليست خالية من نوع من أنواع الظلم.

ونفس هذا المعنى مع اختلاف يسير ذكر في الآية ٤٥ من سورة فاطر: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.

هاتان الآيتان تشيران إلىٰ رحمة الله ولطفه المطلق علىٰ عباده من غير أن تُستعمل مادة (رحم) في الآيتين.

٢ ـ العقبة الأُخرىٰ التي تعترض التفسير الموضوعي مشكلة جمع الآيات وأخذ النتيجة منها، فهذه العملية تحتاج إلىٰ دقة وظرافة وذوق ووعي كامل واحاطة تامّة بالآيات القرآنية والتفاسير، وعندما تكون الآيات المرتبطة بموضوع ما كثيرة ويكون لكل منها بعدٌ خاصٌ بها فإنّ الجمع سيكون أكثر تعقيداً.

مضافاً إلىٰ ذلك فإنّ التفسير الموضوعي لا يزال يخطو خطواته الأُولىٰ ولم يُبذل في هذا النطاق جهد وسعيٌ حثيث، وهذا يجعل الأمر أكثر صعوبة وتعقيداً بالنسبة للمبتدئين ويختلف كثيراً عن التفسير المعتاد المتّبع منذ نزول القرآن.

٣ ـ العقبة الكبيرة الثالثة: إنّ موضوعات القرآن الكريم، هذا الكتاب الإلهي العظيم لا حدّ لها ولا حصر، ففيه المسائل العقائدية والعلمية، وفيه المسائل الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وآداب العشرة وأحكام الحرب والسلم وتاريخ الأنبياء وأُمور الكون و..الخ.

وفي كل واحدة من هذه الأُمور موضوعات كثيرة بحثها القرآن، ومناقشة كل هذه المسائل تحتاج إلىٰ وقت طويل وصدر واسع.

وأحياناً تبحث الآية الواحدة في التفسير الموضوعي أبحاثاً عديدة من جهات مختلفة، وفي كل بُعد من أبعادها يجب بحث فصل خاص به، في حين تفسر الآية في التفسير الترتيبي تفسيراً واحداً فقط.

❊❊❊

لماذا لم يتطور هذا الموضوع من التفسير؟

يبدو أنّ جواب هذا السؤال قد اتّضح من الأبحاث السابقة. فالمشكلات الكثيرة التي تواجه التفسير الموضوعي، قد منعت من تطوره خاصة، وأنّ التفسير الموضوعي يحتاج إلىٰ معاجم دقيقة وجامعة بحيث يمكن استخراج الآية منها بسهولة ولم تكن توجد في السابق، ولكنها اليوم بحمد الله في متناول الأيدي.

ومن الطريف ما جاء في مقدمة المعجم القرآني المعروف بـ«*المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم*» حيث قال: (إنّ المتقدمين اهتموا كثيراً بالعلوم القرآنية ولكن لم يهتموا باعداد معجم دقيق لتعيين آيات القرآن، والسبب في ذلك أنّ أغلبهم كان من حفظة القرآن)!

ولا نعلم مدى صحة هذا الرأي، ولو افترضنا كون الإنسان حافظاً للقرآن فهذا لا يجعله مستغنياً عن المعجم، الذي هو وسيلة لابدّ منها من أجل تسهيل عملية التفسير الموضوعي (وإن كانت بوحدها ليست كافية). وهذا العمل لم يتم في السابق إلّا بنحو ناقص ودون الطموح أحياناً.

ولابدّ من الإشارة إلىٰ مسألة هنا وهي أن جمعاً من المفكرين الغربيين والأجانب المحبين للقرآن المجيد بذلوا جهوداً من أجل إعداد معاجم لهذا الكتاب السماوي ومن نماذجها المعتبرة كتاب «*نجوم الفرقان في اطراف القرآن*» إعداد المستشرق الالماني «*فلوكل*» وتأليفات أُخرىٰ قام بها المسلمون مثل «*مفتاح كنوز القرآن*» وكتاب «*فتح الرحمن*».

وبناءً على ما ورد في مقدمة «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» فإنّ هؤلاء هم الذين مكنوا المؤلف من إعداد هذا المعجم الغني البديع وجعلِه في متناول أيدي علماء الإسلام.

وآخر ما نقوله هنا هو أنّه علىٰ الرغم من جميع المشكلات والمعوقات الموجودة في طريق التفسير الموضوعي، فإنّ بركاته ومعطياته كثيرة وبنفس النسبة وخاصة بالنسبة للعلماء والمحققين، حيث تنكشف لهم في ضوئه الحقائق التي تزيدهم إيماناً وقوة ونشاطاً

لمواصلة العمل، وتؤجج في قلوبهم نار الشوق والمحبة حيث إنّ مَثَل الآية القرآنية عندما تتحدث حول موضوع ما لوحدها، كمثل النقطة التي إذا اجتمعت مع نقاط اُخرىٰ ورتبت كونت شكلاً جذاباً وصورة بديعة لم تكن موجودة من قبل، وهذا أمر مهمّ جدّاً ويبعث علىٰ النشاط والاشتياق، وكما ذكرنا فإنّ النبي ﷺ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، أرشدونا منذ البداية إلىٰ التفسير الموضوعي ووردت في كلامهم نماذج مختلفة جميلة وجذابة وقد أشرنا إلىٰ البعض منها.

✿✿✿

وحيث ننتهي من هذه المقدّمة نجد أنفسنا أمام هذا العمل العظيم المملوء بالمصاعب، ولا ريب في أننا لا نستطيع ـ اعتماداً علىٰ أنفسنا ـ أن نحمل هذه الأمانة ونوصلها إلىٰ الهدف إلّا بلطف الله وعونه وعنايته، ونحن هنا بكامل وجودنا نتوجه إلىٰ الله سبحانه وتعالى ونمد إليه أيدينا قائلين.

إلهنا! خذ بأيدينا في هذا الطريق، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم، احفظنا في هذا الطريق الكثير المزالق من السقوط في وادي الضلالة، وتفضل علينا بالتوفيق لإتمام هذا العمل علىٰ النحو الأحسن.

آمين يا رب العالمين

قم ـ الحوزة العلمية ـ ناصر مكارم الشيرازي

٢٦ / محرم الحرام / ١٤٠٨ هـ

كل عمل باسم الله

تمهيد:

علّمنا القرآن الكريم في بداية كل سورة (عدا سورة التوبة) وفي آيات كثيرة أُخرىٰ أن نبدأ عملنا باسم الله وأن نعطّر أجواء قلوبنا وأرواحنا بطيب اسمه.

باسم «الله» وهو الجامع للصفات الكمالية.

باسم «الرحمٰن» و«الرحيم».

باسمه الذي هوعلى كل شيء قدير.

باسمه الذي هو بكل شيء عليم.

إنّ هذا الاسم المقدّس ينوّر القلب ويهب للروح الصفاء والقوة والنشاط.

ذِكر رحمته الخاصّة والعامّة تبعث في الإنسان عالماً من الأمل.

ذكر قدرته وجبروته يبعث في الإنسان الجرأة لمواجهة المصاعب.

ذكر علمه واحاطته بكلّ فرد وبكل شيء يُطمئِنُ الإنسان بأنّه ليس لوحده.

فإذا بدأنا عملنا بهذه الروح فاننا سنصل إلىٰ الغاية المطلوبة بلا شك، وكل سعي وجهاد يبذل وفق هذا المنهج فسوف تكون نتيجته الموفقية والفلاح.

لذلك فقد ارتأينا أن أفضل ما نبدأ به بحثنا في هذا الكتاب هو موضوع (بداية كل عمل باسم الله).

فنبدأ أولاً بمناقشة الآيات ذات العلاقة بهذا المعنىٰ، ثم نقوم بعملية التفسير والجمع، وفي المرحلة الأخيرة نذكر بحوثاً مكملة تحت عنوان «توضيحات» وسنواصل اتباع هذا الأسلوب بالترتيب المذكور إلىٰ آخر الكتاب إن شاء الله.

الآيات:

١ ـ ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾. (كل سور القرآن عدا سورة براءة)

٢ ـ ﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾. (العلق / ١)

٣ ـ ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. (هود/٤١)

٤ ـ ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾. (النمل / ٢٩ ـ ٣١)

شرح المفردات:

«الاسم»: يعتقد الكثير من علماء اللغة أنّ هذه الكلمة في الأصل مشتقة من مادة «سمو» (على وزن علو) بمعنى الارتفاع، وحيث إنّ التسمية سبب للمعرفة والظهور وعلو المنزلة لكل شيء استخدمت كلمة اسم في هذا المعنى[١].

«الرحمٰن» و «الرحيم»: كلمتان مشتقتان من مادة «رحمة» والمعروف أنّ (الرحمٰن) يعني ذو الرحمة العامة الشاملة للجميع، و(الرحيم) يوصف بها ذو الرحمة الخاصة. وعلىٰ هذا رحمانية الله جعلت فيضه ونعمته شاملة للعدو والصديق والمؤمن والكافر. ولكن رحيميته أوجبت للمؤمنين مواهب خاصة في الدنيا والآخرة في حين أنّ هذه المواهب محرّمة علىٰ الغافلين والبعيدين عن الله.

والشاهد على هذا الاختلاف ما يلي:

١ ـ *«الرحمٰن»* صيغة مبالغة والرحيم صفة مشبهة، وصيغة المبالغة تفيد معنىٰ التأكيد

---

١. البعض يرىٰ أنّ الاسم من مادة (وَسْم) بمعنى (العلامة) ولكن يبدو أنّ هذا غير تام لأنّ جمعه علىٰ هيئة أسماء وتصغيره بـ(سُمّي) و(سمّيه) يدل علىٰ عدم وجود (الواو) في أصله والبعض يعتبره مشتقاً من كلمة (شما) وهي اصطلاح عبري وعند التعريب صارت بهيئة اسم وسماء (التحقيق في كلمات القرآن الكريم) ولكن هذا مستبعد أيضاً ولا شاهد عليه، والشاهد الآخر على عدم كون الاسم مشتقاً من مادة (وسم) أنّ الهمزة في اسم تسقط عند وصل الكلام ولو كانت من مادة (وسم) فالهمزة بدلاً عن الواو ولا ينبغي أن تسقط.

بنحو أكثر وتدل على سعة هذه الرحمة، ولكن البعض يرىٰ أنّ كليهما صفة مشبهة أو أنّ كليهما صفة مبالغة، ولكن مع ذلك صرحوا بأنّ الرحمٰن تفيد معنىٰ المبالغة الكثيرة [1].

٢ ـ وقال البعض: إنّ الرحيم صفة مشبهة وتُفيد الإستمرار والثبات، لذلك هي مختصة بالمؤمنين، لكن الرحمٰن صيغة مبالغة ولا تدل علىٰ المعنى المذكور.

٣ ـ *«الرحمٰن»* اسم خاص بالله ولا يطلق علىٰ غيره، في حين أنّ الرحيم يقال لله ولغيره، وهذا دليل على أنّ مفهوم الرحمٰن يدل علىٰ رحمة أوسع.

٤ ـ هناك قاعدة معروفة في الآدب العربي وهي: *(زيادة المباني تدل علىٰ زيادة المعاني)*، يعني أنّ الكلمة التي حروفها أكثر فإنّ مفهومها يكون أكبر وحيث إنّ *(رحمٰن)* خمسة أحرف و(رحيم) أربعة أحرف فمفهوم (رحمٰن) أوسع [2].

٥ ـ كما أنّ البعض استفاد هذا المعنىٰ من آيات القرآن حيث إنّ *(الرحمٰن)*، ذكر غالباً بنحو مطلق، في حين أنّ (رحيم) ذكر مقيداً في كثير من الموارد، مثلاً، قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. (البقرة / ١٤٣)

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾. (النساء / ٢٩)

أمّا الرحمٰن فذكر من غير قيود فهو يدل علىٰ عموم رحمته.

٦ ـ وتشهد بعض الروايات علىٰ هذا الاختلاف، ففي حديث ذي مغزىٰ ومعانٍ عن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ: *«الرحمٰن اسمٌ خاص بصفة عامة والرحيم اسم عام بصفة خاصة»* [3].

ولكن مع هذا لا يمكن أن ننفي استخدام الكلمتين في معنىٰ واحد، كما ورد في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة: *«يا رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما»* ويمكن أن يعدّ هذا استثناءً فلا ينافي الاختلاف المذكور.

«مجراها» و «مرساها»: كلتا الكلمتين اسم زمان أو اسم مكان بمعنى مكان الحركة

١. راجع تفاسير مجمع البيان وروح المعاني والميزان، ج ١، ص ٢٠ و ٥٥ و ١٦ علىٰ التوالي.

٢. تفسير شبرّ، ص ٣٨؛ روح المعاني، ج ١، ص ٥٦.

٣. تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٢١.

وزمانها، أو مكان التوقف وزمانه [١].

الأُولىٰ مشتقة من مادة (جريان) والثانية من مادة (رسو) علىٰ وزن (رَسم) بمعنىٰ الثبات والاستقرار، لذلك يقال للجبال (الرواسي) جمع (راسية) لأنّها ثابتة ومستقرة.

جمع الآيات وتفسيرها

لماذا نبدأ فقط باسم الله؟

في الآية الأُولىٰ *(بسم الله الرحمٰن الرحيم)* التي تصدرت كل سور القرآن (ما عدا سورة براءة) يعني نعلمكم أن تبدأوا عملكم باسم الله الرحمٰن الرحيم وتستعينوا به في أداء عملكم وتنفيذ خططكم [٢].

إنّ أعمالنا مهما تكن فهي فانية زائلة وصغيرة محدودة، أمّا عندما ترتبط بالذات القدسية الباقية الخالدة التي لا حدّ لها ولا نهاية، فانّها ستصطبغ بصبغته وتستلهم من عظمته وازليته.

قدراتنا مهما تكن فهي ضعيفة لا تمثل إلّا قطرة في بحر، لكن عندما ترتبط تلك القطرات بالبحار العظيمة للقدرة الإلهيّة فانّها ستجد العظمة وتكتسب روحاً جديدة وهذا كله سرُّ بسم الله في بداية كل عمل.

في الآية الثانية كلام عن خطاب جبرئيل الأمين في بداية البعثة للنبي الأكرم ﷺ عندما احتضن النبي وضمه وقال: ﴿إِقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾.

وبهذا فقد بدأ جبرئيل منهاج رسالته عند بعثة النبي ﷺ باسم الله.

---

١. قال بعض المفسرين إنّها اسم زمان فقط كما في (مجمع البيان) والبعض اعتبرها اسم مكان فقط كما في (الميزان) والبعض اعتبرها اسم زمان ومكان كما في (تفسير شبّر).

٢. البعض يعتقد أنّ هناك جملة محذوفة وهي (ابتديء)، والبعض قال هي (استعينُ)، نعم في صورة كون الجملة عن الله سبحانه (كما في جميع السور عدا الحمد) فحينئذ يتعيّن المعنىٰ الأول ولكن في خصوص سورة الحمد حيث إنّ الجمله تعبير عن لسان العباد فيكون فيها المعنىٰ الأول أو الثاني أو كلاهما وعلىٰ هذا فإنّ (ب) في بسم الله إمّا بمعنى الاستعانه أو بمعنىٰ الإبتداء (تأمل جيداً).

الآية الثالثة تتحدث عن قصّة نوح عندما حلت لحظة الطوفان والجزاء الإلهي الشديد على قومه الكفرة والطغاة، وعندما استعدت السفينة للحركة وصدر الأمر لأصحاب نوح الذين لم يتجاوز عددهم الثمانين بأن يركبوا في الفلك قال (بسم الله مجريها ومرسٰها) ثم استعان بمغفرة الله ورحمته وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

❀

وفي الآية الأخيرة كلام عن كتاب سليمان إلىٰ ملكة سبأ بعد أن أخبره الهدهد عن قوم سبأ وعبادتهم للاصنام.

وعندما تناولت ملكة سبأ الكتاب جمعت أعوانها وافراد البلاط وقالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

❀

من مجموع الآيات الأربع المذكورة ندرك جيداً أنّ ابتداء كل عمل يجب أن يكون بـ (بسم الله)، سواء كان في التعليم والهداية مثل سور القرآن أو كان دعاءً من العباد مع الذات القدسية مثل سورة الفاتحة، أو بداية البعثة والرسالة وأول نداء للوحي مثل بداية سورة العلق، أو أنّه بداية الحركة للنجاة من الأخطار والطوفان وبداية توقف السفينة والنزول منها للابتداء بالمنهج الجديد كما في قصة نوح، أو ابتداء الكتاب المرسل من أجل الدعوة للتسليم إلىٰ الحق كما في كتاب سليمان لملكة سبأ.

وخلاصة الكلام أنّ العمل سواء كان من الله سبحانه أو من الخلق أو من جبرئيل أو من الأنبياء مثل نوح وسليمان أو من عامة الأفراد، يجب أن يبدأ بـ*(بسم الله)* ويرتبط بالذات المقدّسة ويستمد منه القوّة والعلم والإدراك.

وهذا هو معنىٰ الحديث المعروف للنبي ﷺ: *«كل أمر ذي بال لم يذكر فيه اسم الله فهو ابتر»*[1].

---

١. سفينة البحار، ج ١ مادة (سما).

والأمر الذي ينبغي ملاحظته أنّ الصفات التي ذكرت بعد بسم الله في الآيات المذكورة تناسب العمل الذي بدأ بـ(بسم الله) ففي قصة نوح جاء ذكر *(غفور رحيم)* وهو إشارة شمول الرحمة الإلهيّة لأصحاب نوح، وفي قصة نزول أول آية جاء ذكر صفة الربوبية والخـالقية ونحن نعلم أنّ مسألة الوحي بداية لعمل تربوي وعلى هذا فإنّ التـربية التشـريعية تـقترن بالتربية التكوينية.

وبهذا نعلمُ أنّ الاستفادة من ذكر الصفات المناسبة هو بمثابة درس للجميع حول كيفية ابتداء أعمالهم بـ(بسم الله).

ﮊﮋ

توضيحات

١ ـ الأهميّة الخاصة لـ«البسملة»

نلمس في الروايات الإسلامية أهميّة كبيرة لهذه الآية المباركة وأنّها في درجة (اسم الله الأعظم)، كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: ***«بسم الله الرحمن الرحيم أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناظر العين إلى بياضها»***[1].

وفي حديث آخر عن الإمام الرضا عليه السلام: ***«أقرب من سواد العين إلى بياضها»***[2].

إنّ لـ*(بسم الله)* أهميّة بالغة إلى درجة بحيث أنّ بعض الروايات ذكرت أنّ فـي تـركها تعريض النفس للعقاب الإلهي، كما ورد في رواية أنّ عبدالله بن يحيى دخل في مجلس أمير المؤمنين عليه السلام وكان أمامه سرير فأمره الإمام أن يجلس عليه فتحطم السرير فـجأة ووقـع عبدالله على الأرض وجرح رأسه وخرج منه الدم فأمر أمير المؤمنين عليه السلام بماء فغسلوا الدم ثم وضع الأمير يده على الجرح فأحس عبد الله بألم شديد في أوّل الأمر ثم بريء جرحه فقال الإمام عليه السلام: ***«الحمد لله الذي يغسل ذنوب شيعتنا ويطهرها بالحوادث المؤلمة»***.

---

١. تفسير البرهان، ج ١، ص ٤١، ح ٢.

٢. المصدر السابق، ح ٩.

فقال عبد الله: يا أمير المؤمنين لقد نبهتني، أخبرني أي ذنب ارتكبته حتىٰ أصاب بهذا الحادث المؤلم كي لا أعود إلىٰ ذنبي فإنّ ذلك يسعدني.

فقال عليه السلام: «*عندما جلست على السرير لم تقل: (بسم الله الرحمن الرحيم) ألم تعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال عن لسان ربّه: (إنّ كل عمل ذي بال لم يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر ولا ثمرة فيه)*».

فقال عبد الله: فديتك لا أدعها بعد هذا أبداً.

فقال الإمام عليه السلام: «*إذن ستكون سعيداً*»[1].

ولكن من الواضح أنّ الاسم الأعظم أو بسم الله الذي هو أقرب ما يكون إليه ليس المقصود منه جريان ألفاظه على اللسان، فالتلفظ لوحده لا يحل العقد المستعصية ولا يفتح أبواب الخيرات والبركات ولا ينتظم به شتات الأمور، بل المراد هو التخلق به.

يعني أنّ مفهوم بسم الله يجب أن يذوب في روح الإنسان وباطنه، وعندما يتلفظ بها بلسانه يشعر أنّ كامل دقائق وجوده قد دخل في الحمىٰ الإلهيّة وصار من أعماق وجوده يستمد من ذاته المقدّسة.

وينبغي الانتباه إلىٰ أنّ التأكيد علىٰ الابتداء ببسم الله ليس فقط في الكلام وإنّما في الكتابة أيضاً كما في كتاب سليمان عليه السلام إلىٰ بلقيس.

في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «*لا تدع البسملة ولو كتبت شعراً*» ثم ذكر الإمام عليه السلام أنّهم كانوا يبدأون رسائلهم قبل الإسلام بعبارة (بسمك اللهم).

ولما نزلت الآية الكريمة ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، بدأوا رسائلهم بعبارة (بسم الله).

وفي حديث آخر نقرأ أنّ الإمام الهادي عليه السلام وصى أحد وكلائه وهو داود الصرّمي الذي قال: أمرني عليه السلام بحوائج كثيرة فقال لي: قل كيف تقول؟، فلم أحفظ مثل ما قال لي، فمدّ الدواة وكتب ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ اذكر إن شاء الله والأمر بيد الله، فتبسمت، فقال: «*ما*

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٣٠٥ مع التلخيص.

لك» قلت خير. فقال: *«أخبرني»*. قلت: جعلت فداك ذكرت حديثاً حدثني بـه رجـل مـن أصحابنا عن جدك الرضا(عليه السلام) إذا مرّ بحاجة كتب: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ اذكر إن شاء الله فتبسمت، فقال لي: *«يا داود لو قلت إنّ تارك التسمية كتارك الصلاة لكنت صادقاً»*[1].

إنّ لبسم الله أهميّة بالغة وعظيمة بحيث نقرأ في حديث عن رسول الله ﷺ أنّه قال: *«إذا قال المعلّم للصبي بسم الله الرحمن الرحيم (ويكرر الطفل ذلك) كتب الله براءة للصبي وبراءة لأبيه وبراءة للمعلّم»*[2].

ونختم هذا الكلام، بمقالة مشهورة بين جماعة من المفسرين وهي:

إنَّ معاني كل الكتب الإلهيّة مجموعة في القرآن.

ومعاني كل القرآن مجموعة في سورة الحمد.

ومعاني كل سورة الحمد في بسم الله.

ومعاني بسم الله مجموعة في الباء[3].

وتمركز جميع مفاهيم القرآن والكتب الإلهيّة في باء بسم الله يمكن أن يكون لكون أن كل المخلوقات في عالم التكوين، وكل التعليمات في عالم التشريع تستمد وجودها من الذات المقدّسة حيث إنّها علة العلل لجميع الكائنات، ونعلم أن باء بسم الله هي الوسيلة للاستعانة وطلب النصرة من الله وهذه مسألة جديرة بالدقة والتأمل.

٢ ـ هل أنّ بسم الله جزء لكلّ سورة؟

لم يعدّ المفسرون وعلماء العلوم القرآنية البسملة من آيات السور عند حسابهم للآيات القرآنيه إلّا في سورة الفاتحة، التي أجمع الفقهاء واتفقوا علىٰ أنّ البسمله جزء منها ولذلك

---

١. سفينة البحار، ج ١، ص ٦٦٣، مادة (سما).

٢. تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٣، ح ٣٢.

٣. تفسير روح المعاني، ج ١، ص ٣٧.

فقد ذكروا أنّ آياتها سبع ومنها البسملة.

وكذلك فإنّ أحد الأسماء المعروفة لهذه السورة هو «السبع المثاني» لأنّها سبع آيات «مثاني» ، لأنّها نزلت علىٰ رسول الله ﷺ مرتين نظراً لاهميتها.

ولكن مع هذا فإنّ كتابة البسملة في جميع المصاحف القديمة والجديدة دليل قاطع علىٰ جزئيتها للسور.

روى عن عبد الله بن عمر، أنّه كان إذا بدأ الصلاة بعد التكبير قرأ بسم الله الرحمٰن الرحيم، وكان يقول إذا لم تقرأ بسم الله الرحمٰن الرحيم فلماذا كتبت في القرآن؟! [1].

واورد السيوطي في المجلد الأول في تفسيره الدر المنثور وهو عالم معروف من أهل السنة روايات كثيرة حول جزئية بسم الله لسورة الحمد.

وهناك روايات كثيرة من طرق أئمّة الهدىٰ وأهل البيت عليهم السلام وردت في جزئية بسم الله لسورة الفاتحة ولبقية سور القرآن الكريم، لذلك فإنّ علماء الشيعة متفقون ومجمعون علىٰ جزئيتها في جميع الموارد [2].

ونذكر مثالاً علىٰ الأحاديث الواردة من طرق أهل السنة ما ورد عن «جابر بن عبد الله» أنّ النبي ﷺ قال له: *«إذا قمت للصلاة فكيف تقرأ؟»* فقال جابر: أقول الحمد لله ربّ العالمين (أي بدون بسم الله) فقال له النبي ﷺ قل: *«بسم الله الرحمٰن الرحيم»* [3].

ومن أجل رفع سوء الفهم والتوهم أصرّ النبي ﷺ أن يجهر بالبسملة في كثير من الصلوات، تقول عائشة: *«ان رسول الله ﷺ كان يجهر ببسم الله الرحمٰن الرحيم»* [4].

وفي حديث آخر يقول أحد أصحاب النبي ﷺ : كنت اصلّي خلف النبي ﷺ وكان

---

١. سنن البيهقي، ج ٢، ص ٤٣ ـ ٤٧.

٢. راجع كتب الخلاف للشيخ الطوسي، ج ١، ص ١٠٢ مسألة ٨٢؛ سنن البيهقي، ج ٢، ص ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦؛ تفسير در المنثور، ج ١، ص ٧ ـ ٨؛ البيان في تفسير القرآن، ص ٥٥٢.

٣. تفسير در المنثور، ج ١، ص ٨.

٤. المصدر السابق.

يجهر ببسم الله في صلوات المغرب والعشاء والصبح وصلوة الجمعة خاصة[١].

والملفت للنظر ما رواه البيهقي من أنّ معاوية صلىٰ بأهل المدينة فتلا: بسم الله الرحمٰن الرحيم في أوّل سورة الحمد، ولكن لم يقرأ بسم الله للسورة التي بعدها ولم يكبر حتىٰ ذهب للركوع، فعندما سلّم للصلاة اعترض عليه جماعة من المهاجرين وقالوا: أسرقت من الصلاة أم نسيت ؟ فكان معاوية بعد ذلك يقرأ بسم الله للسورة بعد الحمد أيضاً[٢].

ولكن مع ذلك فإنّ جماعة من علماء السنة لا زالوا يتركون البسملة في الصلاة وحتىٰ في سورة الحمد أو يقرأونها اخفاتاً!، ومما يلفت النظر أنّ الفخر الرازي ذكر في تفسيره تسعة عشر دليلاً علىٰ إثبات أنّ بسم الله الرحمٰن الرحيم جزء من سورة الحمد وأكثرها روايات عن النبي الأكرم ﷺ.

الآلوسي مفسّر القرآن المعروف ناقش هذه الادلة في تفسيره (روح البيان)، ولكنه يصرّح بأنّ البسملة آية مستقلة في القرآن وإن كانت ليست جزءً من سورة الحمد[٣]!

فهو يعترف بأنّ البسملة جزء من القرآن، لكن لا نعلم لماذا يصر علىٰ أنّها آية مستقلة وليست جزءً من سورة الحمد؟

ومهما كان فلا يخفىٰ أنّ البسملة موجودة في جميع المصاحف طوال التاريخ الإسلامي في بداية جميع السور إلّا سورة البراءة، ومن المسلّم أنّ هذا بأمر من النبي ﷺ ولا يمكن أن نعقل أنّ النبي ﷺ أمر أن يكتب في القرآن شيء ليس منه، وعلىٰ هذا فلا حجّة لنا إذا فصلنا البسملة من السور لأنّ هذا نوع من أنواع التحريف للقرآن الكريم.

ولهذا يقول الإمام الباقر عليه السلام في مثل هؤلاء: ***«سرقوا أكرم آية في كتاب الله : بسم الله الرحمٰن الرحيم»***[٤].

---

١. تفسير در المنثور، ج ١، ص ٨.

٢. ذكر «الحاكم» هذه الرواية في المستدرك، ج ١ ص ٢٣٣ واعتدّ بسندها، وورد نفس هذا المضمون بتفاوت ضئيل في تفسير در المنثور، ج ١، ص ٨؛ وتفسير روح المعاني، ج ١، ص ٣٩.

٣. تفسير روح المعاني، ج ١، ص ٣٧.

٤. تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٢، ح ١٥.

ويضيف الإمام الصادق عليه السلام: ***«ما لهم قاتلهم الله عمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أنّها بدعة إذا أظهروها وهي بسم الله الرحمن الرحيم»*** [١]

ولهذا فقد ورد عن الأئمة عليهم السلام الاصرار على الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم خاصة وفي جميع الصلوات الليلية والنهارية لأجل القضاء على هذه البدعة الموروثة.

وخلاصة الكلام أنّ أهميّة البسملة بين آيات القرآن أوضح من أن تحتاج إلى البحث ولذلك يجب أن نعطيها أهميّة كبيرة، ومن المؤسف أنّ البعض من فاقدي الذوق السليم وخشية من أن تقع كتاباتهم بأيدي الأفراد غير المتوضئين أو أن تُداس بالأقدام أو تقع في الأزقة والأسواق، يمتنعون من كتابة البسملة في رسائلهم وكتاباتهم، ويضعون محلها عدداً من النقاط غافلين عن أنّ سيئة ترك بسم الله أشدّ بكثيرٍ من هذه المساوىء.

نحن مأمورون بأن نكتبها، وأن نسعىٰ من أجلِ المحافظة عليها واحترامها، وإذا لم يراع الآخرون الحرمة اللازمة فلسنا مسؤولين عن أعمالهم، ولا ينبغي لنا أن نترك البسملة لهذا العذر لأنّ الضرر الذي يصيبنا سيكون أكبر.

لذلك ينقل لنا التاريخ أنّ أول سكة ضربت في الإسلام كانت في زمان «عبد الملك بن مروان» وبأمرٍ من الإمام الباقر عليه السلام وكتب على أحد وجهيها ***«لا اله إلّا الله»*** وعلى الوجه الآخر ***«محمد رسول الله صلى الله عليه وآله»***، ومن الواضح أنّ هذه السكة تقع في أيدي عامة الناس حتى غير المسلمين الذين كانوا يعيشون في محيط الإسلام، فلم تكن مراعاة هذا الأمر مانعة من ضرب السكة والشعارات الإسلامية الحية ولا ينبغي لها أن تكون [٢].

ﮩﮨ

٣ـ لماذا لم تُذكر بسم الله في بداية سورة براءة؟

الجواب على هذا السؤال ورد صريحاً في حديث روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: ***«لم تنزل بسم الله الرحمن الرحيم على رأس «سورة براءة» لأنّ بسم الله للأمان والرحمة، ونزلت***

---

١. تفسير البرهان، ج ١، ص ٤٢.

٢. تاريخ التمدن الاسلامي، جرجي زيدان، ج ١، ص ١٤٣.

براءة لرفع الأمان وبالسيف»[١] يعني رفع الأمان عن الكفار الناكثين للعهود.

ويعتقد جماعة بان هذه السورة تتمة لسورة الأنفال لأنّ سورة الأنفال تتكلم عن العهود ولهذا لم يذكر بينهما *«بسم الله الرحمن الرحيم»*.

وهذا المعنىٰ ذكر في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: *«الأنفال والبراءة واحدة»*[٢].

واحتُمل أيضاً أنّ الله سبحانه ومن أجل أن يبيّن حقيقة أنّ البسملة جزء في جميع سور القرآن لم يذكرها في بداية هذه السورة.

والجمع بين هذه الأقوال الثلاثة ممكن.

وهناك آيات متعدّدة حول البسملة في القرآن وخصوصاً في مورد ذبح الحيوانات، والكلام عنها ينبغي أن يكون في محل آخر.

٤ ـ لا تقرنوا اسم الله باسم غيره!

إنّ القادر المطلق والرحيم الحقيقي هو الذات الإلهيّة المقدّسة سبحانه وتعالى.

وما عالم الوجود إلّا مائدة من موائد احسانه، وكل ما لدنيا منه فيجب طلب الحاجة والعون منه والابتداء باسمه، والآيات المتعلقة *«ببسم الله»* والروايات الواردة في هذا المجال كلها تؤكّد علىٰ هذا المعنىٰ.

ولهذا فإنّ الذين يقرنون مع اسم الله اسم غيره كالطواغيت الذين يضعون أسماء السلاطين المتجبرين والمتكبرين إلىٰ جنب اسمه سبحانه ويفتتحون بها ويبدأون بها، أو الأشخاص الذين يبدأون أعمالهم باسم *(الله) و«الشعب»*، كل هؤلاء في الحقيقة مصابون بنوع من الشرك، وحتىٰ اسم النبي صلى الله عليه وآله لا ينبغي أن يُقرن إلىٰ جنب اسم الله في هذا المجال فلا يقال بسم الله ونبيّه.

ففي حديث ورد في تفسير الإمام الحسن العسكري (عليه السلام): *«إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان*

---

١. تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢ وهذا الحديث ذكره الفخر الرازي عن ابن عباس عن علي عليه السلام مع اختلاف يسير وقال عليه السلام هناك: لأنّ بسم الله الرحمن الرحيم أمان وهذه السورة نزلت بالسيف ونبذ العهود وليس فيها أمان.

٢. تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ١.

جالساً يوماً مع أمير المؤمنين على ﷺ فسمعا شخصاً يقول « ماشاء الله وشاء محمد» وآخر يقول « ما شاء الله و شاء علي».

فقال رسول الله ﷺ :*« لا تقرنوا محمداً ولا علياً بالله عزّ وجلّ».*

ثم اضاف :*«ولكن إذا أردتم فقولوا ما شاء الله ثم شاء محمد ، ما شاء الله ثم شاء علي»* .

يعني اعلموا أنّ مشيئة الله قاهرة وغالبة عليٰ كل شيء فليس لها في الوجود من مساوٍ أو نظير أو قرين ، وما محمد في دين الله وأمام قدرة الله إلّا كطير يحلّق في فضاء هذا الكون الواسع وكذلك علي [1].



١. إثبات الهداة، ج ٧، ص ٤٨٢، ح ٧٩ (مع قليل من التلخيص).


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

نظرية المعرفة

تمهيد:

إنَّ أول قضية تواجه الإنسان في ابحاثه العلمية هي قضية المعرفة، وأول أسئلة تنقدح في ذهن الإنسان هي:

١ ـ هل هناك عالَم موجود خارج وجودنا أم أنّ ما نسمعه ليس إلّا كالرؤيا والأحلام التي نراها في منامنا وأنّ ما وراء الطبيعة ما هو إلّا وهم وخيال؟

٢ ـ إذا كان هناك عالم ما وراء الطبيعة فهل بإمكاننا إدراكه ومعرفته؟

٣ ـ إذا وجد عالم في الخارج وأمكننا معرفته، فما هي الطرق التي يجب أن نسلكها للوصول إلىٰ معرفته وما هي مصادر معرفته ؟

هل أنّ طريق الاستدلالات العقلية كاف لذلك، أم عن طريق التجربة والعلوم التجريبية الطبيعية؟

أم عن طريق الوحي أو بواسطة طرق اُخرىٰ؟ وأيّ هذه الطرق أفضل وأكثر اعتماداً؟

٤ ـ أضف إلىٰ ذلك ما هي الوسائل التي نستطيع بها معرفة العالم ؟

٥ ـ وبعد قبول المسائل المذكورة يطرح هذا السؤال وهو: ما هي الأمور التي تؤدّي إلىٰ تقوية وتوسيع مجالات وآفاق المعرفة عند الإنسان، وتجعل روحه وقلبه أكثر استعداداً لتلقي المعارف ؟

وما هي الموانع والعقبات التي تقف حائلاً بين الإنسان والمعارف الحقيقية لعالم الوجود، وتجره إلىٰ الحيرة والضلال ؟

هل هناك عالم خارج أذهاننا؟

حول هذه المسألة الأُولىٰ انقسم الفلاسفة إلىٰ قسمين:

١ ـ «*الواقعيون*» (*رئاليسم*).

٢ ـ «*المشككون أو المثاليون أو التصوريون*» (*أيدياليسم*).

والقسم الثاني في الواقع هم فرع من السوفسطائيين المنكرين للحقائق بل إنّ البعض يعتقد أنّ السوفسطائيين هم أنفسهم المثاليون الذين يعترفون بوجود أنفسهم وأذهانهم ويعتبرون ما سواه وهماً وخيالاً، وإلّا فكيف يمكن لعاقل أن ينكر كل شيء حتىٰ وجود نفسه إلّا أن يكون مصاباً بخلل عقلي.

وعلىٰ أيّة حال فإنّ أفضل الطرق لإدراك ما وراء الطبيعة هو ايكال الأمر إلىٰ الوجدان، الوجدان العام لكل الناس ولجميع العقلاء، بل حتىٰ وجدان المثاليين أنفسهم شاهد علىٰ هذا المدّعىٰ.

لأنّ كل المخلوقات عندما تشعر بالعطش تقوم بالبحث عن الماء، فالعطش والماء وتأثير الماء في رفع العطش أُمور يدركها حتىٰ الأطفال والحيوانات، والسوفسطائيون أيضاً لا يختلفون في عملهم عن الآخرين، فعندما يريد الإنسان أن يعبر شارعاً مزدحماً يقف جانب الشارع قبل كل شيء وينظر يميناً وشمالاً، وينتظر حتىٰ يخلو الشارع من السيّارات فيعبر الشارع مع الاحتياط، خشية أن تدهسه سيارة فيصاب بأذىً أو جراح.

هذا العمل يتساوىٰ فيه الواقعيون والمثاليون فالكل يعترف بوجود الشارع والسيارات وخطر الدهس والاصطدام والأمور الأُخرىٰ، وكلهم يعبرون الشارع مع الحيطةِ والتحفظ.

وهكذا عندما يمرض الإنسان ويرىٰ الآثار غير العادية للمرض في نفسه، فيراجع الطبيب فيأمره الطبيب بان يجري له التحليل وبعد ذلك يكتب له الطبيب وصفة الدواء، ويحدد له الغذاء المناسب واوقات تناول الدواء والغذاء ومقاديره، فيرىٰ المريض نفسه مكلفاً بأن يمتثل لهذه الأوامر كي يستعيد صحته السابقة.

وفي كل ذلك لا فرق بين الواقعيين والمثاليين، فالكل يستجيبُون للمرض بواسطة

ادراكهم الوجداني ويعترفون بالمشرات من الحقائق العينية، من آثار المرض إلىٰ وجـود الطب والطبيب والمختبرات والدواء والغذاء.

وبهذا الدليل نقول «ان المثاليين في الحقيقة واقعيون» !

وان المشككين عندما يردونَ ميدان الحياة يتناسون كلامهم ويرون أنفسهم امام الواقع العيني فيتعاملون معه وفق ما يقتضيه.

وقد أيّد القرآن الكريم في آياته الكريمة صحة هذا المعنىٰ فكلّ آيات القرآن تخبر عن الحقائق والواقع العيني الخارجي، من سماوات وأرض وملائكة وبشر وعالم الطبيعة ومـا وراءه والدنيا والآخرة.

وإنّ هذا الأمر في القرآن بدرجة من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلىٰ بحث أكثر، لذلك ننهي هذه المسألة وننتقل إلىٰ مسألة إمكان المعرفة [1].



---

١. نؤكّد هنا مرّة أُخرىٰ بأنّ هدفنا في جميع مباحث هذا الكتاب ليس متابعة الآراء الفلسفية أو التاريخية أو... بـل هدفنا في الأصل التفسير الموضوعي يعني متابعة البحث من نظر القرآن ومدىٰ انعكاس الموضوع فـي الآيـات المختلفة ... وإذا وجدت ضرورة للبحوث الفلسفية وغيرها فسنفرد لها بحوثاً منفصلة بعنوان توضيحات في الخاتمة.



القرآن

و ضرورة المعرفة

٤٠ ملاحظة قرآنية حول أهميّة العلم والمعرفة


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

القرآن وضرورة المعرفة

تمهيد:

لم يعتبر القرآن الكريم مسألة معرفة الإنسان لماوراء الطبيعة أمراً ممكناً فحسب بل اعتبرها من أهم الضرورات.

فالقرآن يدعو إلىٰ معرفة أسرار عالم الوجود وحل رموز الكون والمخلوقات، ويستخدم القرآن في دعوته لأتباعه ـ للتزود بالعلم ـ الأساليب الصريحة والظاهرة المباشرة وغير المباشرة.

والبحث فيما صرح به القرآن في هذا المجال يفتح أمام أعيننا أُفقاً جديداً، ويرينا أنّ أمر المعرفة من الواجبات المؤكّدة وبمستوىٰ عال جداً من الأهميّة.

والطريف: إنَّ هذه الدعوة قد جاءت في زمان ومكان كانت قد غطت الأُفق فيه سحب الجهل الظلماء، حقّاً إنّ عمق وسعة ماورد في القرآن يدل قبل كل شيء علىٰ عظمة القرآن وصدق المبعوث به.

ومن أجل ذلك نطالع آيات القران ونبحث عن ماورد من تعابير مختلفة في هذا المجال.

هذه الدعوة لها وجوه متنوعة وبشكل كامل، وقد جمعنا (أربعين أنموذجاً) من الآيات المختلفة وكل واحد منها ينظر إلىٰ هذه المسألة المصيرية من زاوية خاصة.

وفي الضمن ذكرنا في الحواشي الروايات المعتبرة المتناسبة مع الآيات، ليتضح التنسيق والسنخية الكاملة بين الكتاب والسنة .

₰

١ ـ وجوب تحصيل العلم

وردت في (٢٧) آية من القرآن المجيد دعوة صريحة للتزود بالعلم، والاستفادة من جملة «اعلموا» إليكم نماذج منها:

١ ـ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (البقرة / ٢٠٩)

٢ ـ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾. (البقرة / ٢٣١)

٣ ـ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. (البقرة / ٢٣٣)

٤ ـ ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. (الحديد / ١٧)

٥ ـ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرونَ﴾. (البقرة / ٢٠٣)

٦ ـ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. (المائده / ٩٢)

٧ ـ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمتُم مِّنْ شَيءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾. (الأنفال / ٤١)

٨ ـ ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ﴾. (الحديد / ٢٠)

الآيات الأُولىٰ والثانية والثالثة تنظر إلىٰ الذات الإلهيّة المقدّسة وإلىٰ صفاته الأعم من «صفات الذات» و«صفات الفعل».

الآية الرابعة تشير إلىٰ الحياة والخلق.

الآية الخامسة تتحدث عن القيامة والحشر.

الآية السادسة تتكلم عن النبوة وسالة النبي ﷺ.

الآية السابعة تبين الأحكام العملية الإسلامية.

والآية الثامنة ترينا الوجه الحقيقي للدنيا وتظهر لنا تفاهتها، كأسلوب للدعوة إلىٰ الزهد والتقوىٰ والنجاة من حُبّ الدنيا وما يترتب عليه من ذنوب.

وبهذا نستنتج أنّ كل ما يرتبط بالعقائد والأعمال ومنهج الحياة قد ورد مشفوعاً بكلمة (اعلموا) وهي تتضمّن دعوة للتسلّح بالوعي والمعرفة في كلّ هذه المجالات[١].

---

١. ورد أيضاً التأكيد الكثير في الروايات الإسلامية علىٰ طلب العلم، والحديث المعروف (طلب العلم فريضة علىٰ

٢ ـ التأكيد المتواصل على عدم ترك التفكر

تارة يقول سبحانه: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾. (الأنعام / ٥٠)

وتارة يقول بعد بيان الآيات الإلهيّة المختلفة الأعم من التكوينية والتشريعية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. (البقرة / ٢١٩) و(الاعراف / ١٧٦)

وأحياناً يقول: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾. (الروم / ٨)

كل هذه الآيات تدلّ علىٰ ضرورة التفكر، وهذه الضرورة في التفكر تدلّ علىٰ إمكان المعرفة[١].

٨٠٠٣

٣ ـ التأكيد علىٰ لزوم التعليم والتعلم

جاء في سورة التوبة:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. (التوبة / ١٢٢)

هذه الآية الكريمة لا تؤكد على تعلّم الدين الإلهي فحسب بل تحث على تعليمه ونشره بعد تعلمه أيضاً.

والتعبير بـ(نفر) تطلق علىٰ الخروج إلىٰ ميدان الجهاد وقد استعمل في الآيات القرآنية الأُخرىٰ بهذا المعنىٰ وعلى هذا فإنّ أفراد الأُمة الإسلامية في غير الحالات الضرورية لا يجوز لهم الخروج بأجمعهم إلىٰ ساحة القتال، بل ينبغي علىٰ مجموعة منهم أنْ تبقىٰ في المدينة لتتعلم الأحكام الإلهيّة وتعلّمها للآخرين بعد رجوعهم.

☜ كل مسلم ومسلمة) المروي عن النبي ﷺ شاهد واضح علىٰ هذا المعنى، بحار الأنوار، ج ٦، ص ١١٧، والإمام الصادق عليه السلام: «طلب العلم فريضة علىٰ كل حال»، ج ٢، ص ١٧٢.

١. جاء في حديث عن النبي ﷺ: «اغدُ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامس» المحجة، ج ١، ص ٢٢.

والتفسير الآخر للآية هو: أنّ المسلمين يجب أن ينقسموا إلىٰ قسمين: قسم يبقىٰ في المدينة ليحافظ عليها، وقسم يذهب إلىٰ ميدان الجهاد ليُشاهدَ آثار العظمة الإلهيّة والمعجزات والامدادات الغيبية والنصر الإلهي، ثم وبعد رجوعهم يُخبروا سائر الناس بذلك.

وهناك احتمال ثالث في تفسير الآية وهو ضرورة نفير بعض سكان ضواحي المدينة إليها ليتفقهوا في أحكام الدين وتبليغها للآخرين عند الرجوع، ومكث البعض الآخر في تلك المناطق لحفظ نظام الحياة هناك[1].

ولكلٍّ تفسير ميزة لا توجد في التفسير الآخر[2].

ولكنْ بغضّ النظر عن الاختلاف في التفاسير، فإنّ ما نسعىٰ لإثباته ـ وهو وجوب التعلم والتعليم ـ ثابت بلا منازع، وتأكيد القرآنِ علىٰ هذين الواجبين دليل واضح علىٰ إمكان وضرورة المعرفة[3].

٤ ـ العلمُ والمعرفة هما الهدف من خلق العالم

﴿اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْماً﴾. (الطلاق / ١٢)

لقد شرحنا المراد من السماوات السبع والأرضين ما فيه الكفاية في التفسير «الأمثل»[4].

---

١. تفسير الكبير، ج١٦، ص٢٢٥؛ تفسير الميزان، ج٩، ص٤٢٧؛ تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٨٣.

٢. في التفسير الأول مرجع الضمير في جملة (ليتفقهوا) و(لينذروا) اسم محذوف والتقدير هو «وتبقىٰ طائفة»، وهذا فيه حذف، والحذف يعتبر خلاف الظاهر. بينما (نفر) جاء بمعنىٰ الجهاد هنا، هذه نقطة قوة التفسير الأول. في التفسير الثاني مرجع الضمير مذكور وهو (طائفة)، لكنّ الثاني ضعيف لأنّ ميدان الجهاد ليس محلاً للتعلم إلّا بالتوجيه الذي ذكر، وفي التفسير الثالث يقدر المحذوف، لكنه يتفق مع الروايات التي تفسر النفير (بالهجرة للتفقه في الدين). «ذكر في تفسير الثقلين ٩ روايات في هذا المجال».

٣. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لوددتُ أن اصحابي ضربتُ رؤوسهم بالسياط حتىٰ يتفقهوا» (اصول الكافي، ج١، ص ٣١).

٤. بالنسبة للسموات السبع يرجع إلىٰ ذيل الآية ٢٩ من سورة البقرة وبالنسبة للارضين السبع إلىٰ ذيل الآية ١٢ من سورة الطلاق.

وكيفما كان فإنّ الآية تبين بوضوح حقيقة أنّ أحد أهداف الخلق هو العلم والمعرفة، وتعريف الإنسان بعلم الله وقدرته وصفاته وذاته، وهذه الآية صريحة في بيان إمكان المعرفة إلىٰ حدٍ بعيد[1].

٥ ـ الهدف من بعثة الأنبياء هو التعليم والتربية

إنّ القران الكريم ذكر هذه المسألة بشأنِ الرسول الكريم ﷺ عدة مرّات، من جملتها ما جاء في سورة البقرة:

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾. (البقرة / ١٥١)

وقد جاء هذا المعنىٰ في كلّ من الآيات ١٢٩ من سورة البقرة و ١٦٤ من سورة آل عمران و ٢ من سورة الجمعة.

فإذا كانت المعرفة غير ممكنة، فكيف أمكن أن تشكل المعرفة أحد الأهداف المهمّة لبعثة الرسول الأكرم ﷺ[2].

٦ ـ التفكّر والتدبّر هو الهدف من نزول القرآن

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾. (ص / ٢٩)

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. (سورة محمد / ٢٤)

---

١. جاء في حديث أنّ الإمام الحسين بن علي عليه السلام خاطب أصحابه قائلاً: «أيها الناس إنّ الله جلّ ذكره ما خلق العباد إلّا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه» (بحار الأنوار، ج ٥٠، ص ٣١٢).

٢. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «كفىٰ بالعلم شرفاً أن يدّعيه من لا يحسنه ويفرح إذا نسب إليه وكفىٰ بالجهل ذمّاً أنْ يبرأ منه مَن هو فيه» (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٥).

مادتها (دَبر) وتعني ظهر الشيء، ومن ثم استعملت بمعنىٰ التفكّر والتفكير بعواقب الأُمور، وذلك لأنّ عواقب الأُمور ونتائجها تتّضح بالتفكّر.

إنّ الآية الأُولىٰ أوضحت أنّ التدبر هو هدف نزول القرآن كي لا يقتنع الناس بقراءة الآيات ككلمات مقدسة فحسب وينسوا الهدف الأخير منها.

والآية الثانية اعتبرت ترك التدبر دليلاً علىٰ أقفال القلوب وتعطيل الحس.

وعلىٰ أيٍّ فإنّ هاتين الآيتين دعوة عامة للتدبر، دعوة تثبت بوضوح إمكانية المعرفة [١].

٭٭٭

٧ ـ المعرفة هي الهدف من المعراج

﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. (الاسراء / ١)

ونفس معنىٰ الآية هذه ورد في سورة النجم، حيث تحدثت عن المعراج بأسلوب آخر، والآية هي:

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾. (النجم / ١٨)

تبين هاتانِ الآيتان ـ علىٰ الأقل ـ أحد الأهداف المهمّة لمعراج النبي ﷺ وهي قضية رؤية آيات الحق الكبرىٰ، الرؤية التي تعتبر أهم مصادر المعرفة [٢].

٨ ـ الدعوةُ للإسلام بدأت بالدعوة للعلم

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. (العلق / ١ ـ ٥)

إنّ هذه الآيات التي تعتبر أول أنوار الوحي التي شعّت في قلب الرسول الطاهر ﷺ في

---

١. يقول الإمام الكاظم عليه السلام لهشام بن الحكم: «ما بعث الله أنبياءه إلىٰ عباده إلّا ليعقلوا عن الله فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة». (أصول الكافي، ج ١، ص ١٦).

٢. للتفصيل راجع التفسير الأمثل، ذيل الآيه ١٨ من سورة النّجم.

غار «حراء» في جبل «ثور»، بدأت بقضية المعرفة وختمت بها.

إستهلّت الآيات بحَث الرسول الأعظم ﷺ علىٰ القراءة التي هي احدىٰ وسائل المعرفة، وختمت بالبحث عن المعلِّم الأعظم للكون أي الله الذي يُعتبر الإنسان تلميذه المُبْتَدِيء.

أليست هذه كلها دلائل واضحة علىٰ إمكانية المعرفة؟!

٭٭٭

٩ ـ العلم نور وضيا.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾. (الرعد / ١٦)

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۞ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ۞ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾. (فاطر / ١٩ و ٢١)

إنّ هذه الآيات جعلت الظلمات في عداد العمىٰ، والنور في عداد البصر، وهي إشارة إلىٰ أنّ العلم نور وضياء، والجهل يساوي العمى وهي من أجمل التعابير للتشجيع علىٰ المعرفة [١].

٭٭٭

١٠ ـ إدراك أسرار الوجود خاصّ بالعلما.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾. (الروم / ٢٢)

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾. (العنكبوت / ٤٣)

في الآية الأولىٰ عُدَّ إدراك اسرار كتاب التكوين خاصاً بالعلماء، وفي الثانية عُدَّ فهم كتاب التدوين خاصاً بهم كذلك.

وهذا تشجيع لطلب العلم والمعرفة من جهة، ودليل علىٰ مسألة المعرفة من جهة أخرىٰ.

٭٭٭

---

١. يقول الرسول الأكرم ﷺ: «العلم نور يقذفه الله في قلب من يريد أن يهديه». (الوافي، ج ١، ص ٧).

١١ ـ الله أول معلّم

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. (البقرة / ٣١)

﴿الرَّحْمنُ* عَلَّمَ الْقُرآنَ* خَلَقَ الإِنْسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾. (الرحمن / ١ ـ ٤)

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾. (العلق / ٤)

﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. (العلق / ٥)

إنّ معلم الكون العظيم تارة يعلم آدم الأسماء، وتارة أُخرى يعلم الإنسان ما يحتاجه ومالم يعلمهُ (بواسطة التكوين والتشريع).

وتارة يوعز للإنسان بتناول القلم لِتَعلّمِ الكتابة، وتارةً أُخرى يجري علىٰ لسانه حرفاً أو حرفين ويعلمه الكلام، وهذا يكشف عن احدىٰ صفاته عزوجل هي تعليم العباد، التعليم الذي هو وسيلة للمعرفة.

ഌ㋍

١٢ ـ بالعلم يتميّز الإنسان عن الموجودات الأُخرىٰ

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. (البقرة / ٣٣)

إنّ هذا الخطاب الذي ورد في الآية كان موجهاً للملائكة بعد أن أمرهم بأن يسجدوا ويخضعوا لخليفته (آدم) عندما خلقه، لكي يوقروه بعد علمهم بمكانته وتفوقه عليهم، وقد فهم الملائكة أهلية آدم عليه السلام لخلافة الله سبحانه وتعالىٰ في الأرض بعد أن وجدوا فيه القابلية والاستعداد لتقبل العلم والمعرفة بأقصىٰ درجاتهما، كما أعربوا عن شديد أسفهم وندمهم حيال ما ساورهم من تردد أو استفسار عن أهليته للخلافة الإلهيّة في باديء الأمر[١].

ഌ㋍

١. يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «أكثر الناس قيمة أكثرهم علماً وأقل الناس قيمة أقلهم علماً». (بحارالأنوار، ج ١، ص ١٦٤).

١٣ ـ درجات القرب من الله تتناسب مع درجات المعرفة

﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾. (المجادلة / ١١)

بدأت الآية بالحديث عن الأُصول الأخلاقية في آداب المجلس، ثم عن درجات العلماء والمؤمنين بعنوان النتيجة والجزاء لعملهم بهذه الأُصول الأخلاقية.

«الدرجات» جمع *«درجة»* وهي تستعمل للسلم عندما يرتفع إلىٰ الأعلىٰ، تقابلها «الدركات» جمع «دركة» التي تستعمل لنفس السلم عندما ينزل إلىٰ الأسفل كسلم السرداب (الطابق الأسفل).

إنّ استعمال «درجات» نكرةً ايحاءً إلىٰ عظمة تلك الدرجات، واستعمالها جمعاً لا مفرداً يمكنه أن يكون إشارةً إلىٰ اختلاف درجات العلماء.

بالطبع أنّ الرفع هنا لم يقصد به الرفع المكاني، بل السمو في طريق القرب من الساحة الربانية.

استنتج العلّامة الطباطبائي ﷺ في تفسير (الميزان) أنّ المؤمنين قسمان:

قسم (المؤمنون العالمون) وقسم (المؤمنون غير العالمين)، والمؤمنون العالمون أفضل درجة من المؤمنين غير العالمين ثم استدل بالآية: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. (الزمر / ٩)

ويحتمل أنّ الآية تشير إلىٰ علاقة الإيمان بالعلم [١]، وسنشير إلىٰ هذه الآية تفصيلاً إن شاء الله [٢].

ﮪ

١٤ ـ الأنبياء يُطالبون بعلم أكثر

﴿وَقُلْ رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾. (طه / ١١٤)

---

١. تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٢١٦.

٢. جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الثواب بقدر العقل». (بحار الأنوار، ج ١، ص ٨٤).

إنّ الآية الكريمة تخاطب الرسول الأعظمﷺ وتدعوه إلىٰ طلب العلم بالرغم من أنّ الرسول الأعظمﷺ يحضىٰ بمقام علمي شامخ وعظيم، وهذا يكشف عن أنّ الإنسان لا تقتصر عملية طلبه للعلم على مرحلة من المراحل، بل إنّ طريق العلم مستمر وليس له نقطة انتهاء.

﴿قَالَ لَهُ مُوسىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾. (الكهف / ٦٦)

فموسىٰ عليه السلام بالرغم من أنّه من اولي العزم وبالرغم من انشراح صدره بمقتضىٰ الآية:

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾. (طه / ٢٥)

وبمقتضىٰ الآية ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾. (القصص / ١٤)

وبالرغم من هذا المقام العلمي الرفيع، إلّا أنّه كان مطالباً بأن يخضع أمام «الخضر» ويتعلم منه كالتلميذ.

وعلىٰ أي حالٍ، فإنّ هذه الآيات أدلة واضحة علىٰ إمكانية وضرورة طلب العلم، والسعي المستمر في طريق التعلم والمعرفة[1].

١٥ ـ المعرفة مفتاح نجاة الإنسان

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾. (سبأ / ٤٦)

إنّ خطاب رسول الله ﷺ في هذه الآية موجه لأعدائه المنغمسين في الكفر والشرك، ومختلف أنواع الفساد الأخلاقي.

وقد بيّن لهم أنّ مفتاح نجاتهم من هذا المستنقع الخطر هو التفكّر والعلم الذي هو طريق وسبيل المعرفة.

وعلى هذا الأساس بالامكان معرفة جذور أي ثورة وأي تحول أساسي في المجتمعات البشرية من خلال معرفة ثوراتهم الفكرية والثقافية.

---

١. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «العلم ميراث الأنبياء والمال ميراث الفراعنة». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٥).

فلو كانت المعرفة غير ممكنة فلماذا التفكير؟ بالخصوص بعد حصر الموعظة بـالتفكّر وذلك باستعمال «إنّما» التي تفيد الحصر، وهنا يثبت أنّ مفتاح النجاة هو المعرفة فقط!

لكن هذا التفكر سواءاًكان ـ جماعياً أو فردياً ـ ينبغي أن يكون متزامناً مع القيام لله وفي سبيله، ولهذا يقول ﴿أَنْ تَقُومُوا لله﴾ أي بعيداً عن التعصب والعناد، والهوىٰ النفساني الذي سيأتي شرحه في موانع المعرفة إن شاء الله.

وقد أكّد النبي يوسف عليه السلام علىٰ هذا الموضوع، وقال عند جلوسه علىٰ عرش السلطة في مصر:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. (يوسف / ١٠١)

من الملفت للنظر هنا هو أن علم تعبير المنام من العلوم ذات الأهمّية القليلة، وبالرغم من ذلك فإنّ قصة يوسف عليه السلام في القرآن تكشف بوضوح عن أن علمه بـتعبير الرؤيـا أدّىٰ إلىٰ إنقاذه من سجن عزيز مصر، كما أدىٰ إلىٰ إنقاذ مصر من القحط والمجاعة، لأنّ العزيز رأىٰ مناماً عجيباً عجز المفسرون عن تأويله، إلّا أنّ أحد السجناء الذين قد أُطلق سراحهم وسبق ليوسف انْ فَسَّرَ رؤياه في السجن كان حاضراً في البلاط آنذاك فقال: إنّي أعرف من يفسّر الرؤيا جيداً، وعندما فسّر يوسف عليه السلام له ما رآهُ في منامه الذي يتعلق بالأُمور الاقـتصادية لـسبع سنوات مقبلة، أُطلق سراحه وتهيّأت مقدمات حكومته من جهة، ومن جـهة أُخـرى استطاع أن يضع برنامجاً دقيقاً لانقاذ أهل مصر من المجاعة خلال سنوات القحط المقبلة.

إنّ الآية السابقة التي تحدثت عن علم تأويل الأحاديث *(في المنام)* بعد حـديثها عـن ملك يوسف (حكومته)، يمكن أنّها تشير إلىٰ العلاقة بين هذين الاثنين.

وكيفما كان فإنّ هذه الآية توحي بأنّ مفتاح النجاة هو العلم والمعرفة.

وحتىٰ أنّ أبسط العلوم يمكن أن يكون سبباً لانقاذ دولة [١].

٭٭٭

---

١. يقول الإمام علي عليه السلام مخاطباً كميل: «ياكميل ما من حركة إلّا وأنت محتاج فيها إلىٰ معرفة» (تحف العقول، ص ١٩).

١٦ ـ العلم فخر بجميع أشكاله

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾. (النمل / ١٥ و ١٦)

بالرغم من ملك وعظمة «سليمان» و«داود» اللذين لم يكن لهما مثيل بل ويحتمل عدم قيام حكومة كحكومتهما علىٰ مرّ التاريخ كما في الآية ٣٥ من سورة (ص) ﴿وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِيَ﴾ خصوصاً وأن حكومتهما لم تخص الانس، بل امتدت حتى شملت الجنّ والحيوانات وحتىٰ القوىٰ الطبيعية كالريح، مع هذا كله فالله عندما يَهَبُ نعمه إلىٰ الوالد وولده، يبدأ بنعمة العلم والمعرفة، لذا كانا يشكرانه لما فضّلهما علىٰ كثير من عباده (يحتمل أن يكون الشكر بهذا الأسلوب) «علىٰ كثير من عباده» لا غير لأنّه كان هناك من أُوتوا علماً أوفر مما أُوتيَ سليمان وداود)، والجدير بالذكر هو أنّ (سليمان) بالرغم من ملكه العظيم «بحيث إنّ كل من شك في ذلك ضحكت علىٰ عقله الطيور والأسماك»، رغم هذا، فانه كان يفتخر بعلوم قليلة الأهميّة مثل معرفته بلغة الطيور قبل افتخاره بملكه وحكومته ومواهبه الإلهيّة الأُخرى.

إنّ هذه النصوص الجميلة تُبيّنُ عظمة مقام العلم بجميع أبعاده، وهو بنفسه دليل واضح علىٰ إمكانية وضرورة المعرفة[١].

١٧ ـ المعرفة شرط أساسي للادارة والقيادة

عندما اقترح علىٰ يوسف التصدي لمسؤولية مهمة في حكومة مصر، قال:

﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾. (يوسف / ٥٥)

عندما أعلن بنو اسرائيل عن استعدادهم لمقارعة الملك الظالم آنذاك «جالوت» الذي شردهم، طالبوا نبيّهم بأن يعين لهم قائداً كي يجاهدوا «جالوت» الظالم، تحت رايته، قال لهم النبي:

---

١. جاء في حديث للإمام الصادق عليه السلام: «العلم أصل كل حال سني ومنتهى كل منزلة رفيعة» (المحجة البيضاء، ج ١، ص ٦٨).

﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. (البقرة / ٢٤٧)

والجدير بالذكر إنّ «طالوت» الذي كُلِّفَ بمهمة قيادة بني اسرائيل لمقارعة الملك القوي والظالم، كان قروياً مجهولاً يعيش في احدىٰ القرىٰ الساحلية وكان يرعىٰ مواشي أبيه ويزرع!

لكنّه كان ذا قلبٍ واعٍ، وجسم قوي، ومعرفة دقيقة وعميقة بكثير ممّا يجري حوله، ولهذا عندما رآه النبي «اشموئيل» عينّه قائداً علىٰ بني اسرائيل ولم يعبأْ باعتراضاتهم علىٰ تعيينهِ، تلك الاعتراضات الناشئة عن معايير وهمية في انتخاب القائد كامتلاك الثروة والأموال الطائلة والسمعة والتقاليد الموروثة من الآباء، حيث كانوا يعترضون بأنّه مع ما عندنا من أشخاص ذوي سمعة وثروة، وهم أجدر من طالوت لهذه المسؤولية، فكان يجيبهم النبي: إنّ هذا الاختيار هو انتخاب الهيّ، والكل يجب أن يسلّم لأمره.

إنَّ هاتين الآيتين تدلان بوضوح علىٰ أنّ المعرفة والعلم من عناصر القيادة والإدارة، وتؤكدان ما قلناه عن المعرفة حتىٰ الآن[1].

١٨ ـ العلم منبع الإيمان

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾. (سبأ / ٦)

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾. (الاسراء / ١٠٧ ـ ١٠٨)

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾. (طه / ٧٠)

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ...﴾. (الحج / ٥٤)

١. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «الملوك حكام علىٰ الناس والعلماء حكام علىٰ الملوك».

﴿... وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. (آل عمران / ٧)

إنّ الآية الأخيرة تلقي الأضواء على العلاقة الوثيقة بين العلم والإيمان، وتبيّن بأنّ المطلع والمتبحر هو الأرسخ في الإيمان والتسليم [١].

إنّ هذه الآيات تبين بوضوح أن المعرفة هي إحدى السّبل المؤدية إلى الإيمان، والإيمان الذي ينبع منها سيكون راسخاً قوياً ومتجذراً إلى مستوى بحيث نقرأ في قصة موسى عليه السلام السحرة في عصر فرعون، أنّ إيمانهم بموسى عليه السلام كان بسبب معرفتهم بأنّ ما جاء به موسى عليه السلام لم يكن سحراً، فما كان من فرعون إلّا أنْ هدّدهم بشدّة قائلاً لهم: ﴿آمنتُم لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ؟!﴾ فالطغاة يريدون التحكم حتى بعقول الناس وإيمانهم القلبي وفهمهم ولا يتصرف أحدٌ بأي شيء إلّا باذنٍ منهم، وقد جاء في تهديد فرعون لهم أنّه قال:

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ...﴾. (طه / ٧١)

لكنهم كانوا بدرجة من الصمود بحيث كانوا يقولون له:

﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾. (طه / ٧٢)

وفعلاً فقد نفّذ فرعون وعيده الذي قطعهُ على نفسه بالإنتقام من السحرة المؤمنين، واستشهدوا من أجل المعتقد الذي ذابوا فيهِ عشقاً ونالوا مبتغاهم الاسمى وهو الشهادة.

يقول المفسر الكبير المرحوم الطبرسي إنّهم: «كانوا في أول النهار كفاراً سحرة وفي آخر النهار شُهَداء بَرَرَةٌ».

إنّ ثمرات العلم له تنحصر بالإيمان فحسب بل تشمل الإستقامة والصمود أيضاً.[٢،٣]

---

١. ما ذكرناه حقيقة لا تنكر سواء قلنا بأن كلمة «الراسخون» معطوفة على «الله»، أو قلنا بأنها مبتدأ وخبرها الجملة اللاحقة، لأنّه على كلا الفرضين، الضمير في «يقولون» يرجع إلى «الراسخون في العلم» وبه تتّضح العلاقة بين الإيمان والعلم في الآية.

٢. يعتقد البعض أنّ «العلم» و«الإيمان» شيءٌ واحد. فإذا كنا نعلم بأنّ هناك خالقاً لهذا العالم وهو قادر وعالم، فنفس هذا العلم إيمان به، لكن المحققين يقولون بفصل الإيمان عن العلم، لأنّ الإيمان يمكن أن يكون ثمرة من ثمار العلم (وليس الثمرة الضرورية والدائمية) لكنه ليس عين العلم والإيمان التسليم القلبي والقبول والاعتراف الرسمي، بينما

١٩ ـ العلم منشأ تقوىٰ الله وخشيته

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾. (فاطر / ٢٨)

يقول الراغب في مفرداته «الخشية هي الخوف الذي يكون متزامناً مع التعظيم، وغالباً ما ينشأ عن العلم».

﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾. (البقرة / ١٩٧)

إذ لم تكن هناك علاقة بين «العلم» و«التقوىٰ» لم يخاطب الله سبحانه وتعالى «أُولو الألباب» داعيهم للتقوىٰ في الآية، وهذا الخطاب دليل علىٰ هذه العلقة المباركة.

﴿فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. (المائده / ١٠٠)

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾. (البقرة / ١٨٧)

إنَّ هذا التعبير في الآية الأخيرة يدل بوضوح علىٰ أنّ الله تعالى يبين الآيات كمقدمة لإيجاد الوعي لدى الناس، والوعي يكون أحد سُبل التقوىٰ.

بالطبع ليس كلما كان العلم كانت التقوىٰ، لأنّ هناك علماء غير عاملين، لكن المتيقن أنّ العلم مقدمة وأرضية خصبة للتقوىٰ، ويعتبر من المصادر الأساسية للتقوىٰ، والتقوىٰ غالباً ما تكون قرينة العلم، العلم الذي يكون مقروناً بالإيمان سيكون منشأً للتقوىٰ كذٰلك.

والعكس بالعكس، فالجهل غالباً ما يؤدىٰ إلىٰ نفي التقوىٰ والورع [٤].

---

٢٠ ـ العلم منشأ الزهد

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾. (القصص / ٨٠)

☜ كثيراً ما يحصل أن يعتقد الإنسان بشيء ولم يسلم به، كما يحكي القرآن عن البعض في سورة النمل الآية ١٤ ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾.

٣. يقول الرسول الأكرم ﷺ: «العِلمُ حياة الإسلام وعماد الإيمان». (كنز العمال، ج ١٠، ص ١٨١).

٤. يقول أمير المؤمنين عليه السلام «أعظم الناس علماً أشدّهم خوفاً من الله». (غرر الحكم، الحكمة ٣٢٦).

أشارت هذه الآية التي جاءت في أواخر سورة القصص إلىٰ قصة (قارون) ونقلت نصيحة علماء بني اسرائيل لكافة الناس، الذين تمنوا امتلاك ثروة قارون عند استعراضه لثروته.

فعندما شاهد أهل الورع من علماء بني اسرائيل تَعَلُّقَ الناس بالدنيا وحبهم الشديد لها وارتباطهم الوثيق بها خاطبوهم قائلين: ويلكم يا عبدة الدنيا! لا تخدعكم الثروة وبهارج الدنيا، فالجزاء الإلهي خير لكم في الدنيا والآخرة إن عملتم صالحاً وكنتم مؤمنين، لكن لا ينالُ هذا الثواب الإلهي إلّا الصابرون الرافضون الظلم والاغراءات المادية.

إنّ عبارة *(أوتوا العلم)* تدل بوضوح علىٰ وجود علاقة بين (الورع والزهد) من جهة والعلم والمعرفة) من جهة أُخرى، وأنّ العارفين بزوال الدنيا وحقارة الثروات المادية في قبال الجزاء الإلهي وخلود الآخرة، فانّهم لا ينخدعون بالماديات ولم يتمنوا ثروة قارون [1].

ﮓ

٢١ ـ التطور المادي مرهون بالعلم

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾. (القصص ٧٨)

الكلام الذي ورد في الآية الكريمة قاله قارون الغني والمغرور والأناني عندما نصحه علماء قوم موسىٰ، أن استثمر ثروتك في مجال منافع العباد ولا تنسَ نصيبك من الدنيا، وأحسن لعباد الله كما أحسنَ الله اليك ولا تتخذ ثروتك وسيلة للفساد.

لكنه أجاب قائلاً: إنّي جمعت هذه الثروة بفضل علمي ومعرفتي.

والذي ينبغي ذكره هنا هو أنّ الله لم ينفِ ادّعاءهُ هذا.

بل يقول تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾. (القصص / ٧٨)

---

١. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ ممّا خاطب الله به موسىٰ بن عمران قال: إنّ عبادي الصالحين زهدوا فيها بقدر علمهم بي». (بحار الأنوار ج ١٨، ص ٣٣٩).

إنَّ هذا التأييد الضمني يكشف أنّ لقارون علماً تمكن بواسطته أن يجمع ثروته العظيمة (سواء كان ذلك العلم هو علم الكيمياء ـ كما يدعي بعض المفسرين أو كان معرفته لقواعد وفنون التجارة والأعمال).

إنَّ المسلَّم به هو أنّ ادعاء قارون لم يصلح حجة لمنع انتفاع الناس بثروته، وذلك أنّ الإنسان مهما كانت لديه من مؤهلات وقابليات، لا يمكنه لوحده أن يكسب ثروة بهذا الحجم فلابدّ أنّه قد استفاد من الآخرين في سبيل تحصيلها، لذا فهو مدينٌ للمجتمع ولتعاونهم معه.

وعلىٰ أي حالٍ، فإنّ ما تبينه هذه الآية هو وجود علاقة بين «العلم المادي» والتطور المادي»، وهذا ما نشاهده بوضوح في عصرنا الحاضر، حيث إنّ أقواماً تقدموا مادياً في مجال الصناعة والحضارة المادية وذلك بفضل علومهم وتقنيتهم وصناعاتهم [١].

٢٢ ـ العلم مصدر القوة أو (العلم قوّة)

﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ (النمل / ٤٠)

هذه الآية لها علاقة بقصة سليمان وملكة سبأ، فعندما أراد سليمان أن يأتي بعرشها، تعهد عفريتٌ من زعماء الجنّ بأن يأتي به قبل أن يقوم سليمان من مجلسه، لكن وزير سليمان «آصف بن برخيا» الذي كان عنده علم من الكتاب ، والذي كان علمه يمكنه من القيام بأعمال خارقة للعادة قال لسليمان: إنّي استطيع أن آتي به قبل أن يرتد إليك طرفك وفعل ما قال، فشكر سليمان ربّه علىٰ الفضل الذي آتاه إيّاه من الأنصار والأعوان والأصدقاء.

وهذه الآية وإن جاءت في مورد خاص، لكنها تكشف بوضوح عن العلاقة الموجودة بين العلم والقوّة، وترغب وتشجع علىٰ كسب العلم [٢].

١. يقول الإمام علي عليه السلام: «لا غنى أخصب من العقل ولا فقر أحط من الحمق». (اصول الكافي، ج ١، ص ٢٩).
٢. يقول الإمام الصادق عليه السلام: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس». (اصول الكافي، ج ١، ص ٢٩٠).

٢٣ ـ العلم و التزكية

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. (البقرة / ١٢٩)

ما ورد في الآية الكريمة الذي يعد بمثابة دعاءٍ دَعا به «إبراهيم» و«إسماعيل» عليهما السلام في ضمن أدعية دعيا بها الله، يكشف بوضوح عن العلاقة الوثيقة بين «العلم والحكمة» من جهة، و«التزكية والتربية» من جهة أُخرى وقد تقدم العلم هنا على التزكية.

لكن في الآيتين التاليتين واللتين تناولتا منهج الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بعد البعثة، تـقدمت التزكية على العلم فيهما، حيث يقول الله تعالى هناك:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. (آل عمران / ١٦٤)

كما أنّ الآية الثانية من سورة الجمعة تشبه الآية المتقدّمة مضموناً.

الظاهر أنّ الاختلاف في التعبير حين يقدم العلم على التزكية تارة والتزكية على العـلم تارة أُخرى ناشيءٌ من التأثير المتبادل بـين هـذين الاثـنين، فـإنّ العـلم مـصدر التـربية الأخلاقية، والتربية الأخلاقية تصلح لأنّ تكون في ـ بعض مراحلها ـ مصدراً للعلم.

وعلى هذا، فكل منهما يهيىء الأرضية للآخر، وهذا هو معنى التأثير المـتبادل لـلعلم والتزكية (وسيأتي شرح هذا الموضوع في بحث مؤهلات المعرفة إن شاء الله)[1].

٢٤ ـ علاقة العلم بالصبر

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾. (الكهف / ٦٨)

هذا الحديث نطق به العالم الرباني (الخضر) مخاطباً به موسى بن عمران، عندما سأله أن

---

١. يقول أمير المؤمنين في حديث له حول العلم: «ومن ثمراته التقوى، واجتناب الهـوى ومـجانبة الذنـوب». (بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٦).

يعلمه من علومه، فاجابه الخضر: إنّك لم تَحُط بأسراري وألغاز أعمالي، ولن تتحملها وذلك لقلّة احاطتك ومعرفتك.

وهذا التعبير يبين بوضوح أنّ عدم العلم والمعرفة يؤدّي إلىٰ نفاد صبر الإنسان.

بالطبع أنّ الصبر قد يكون مصدراً لزيادة العلم والمعرفة، وعليه فهذان الإثنان بينهما تأثير متبادل كما يصرح بذلك القرآن في عدد من الآيات:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

(ابراهيم / ٥)، (لقمان / ٣١)، (سبأ / ١٩)، الشورىٰ / ٣٣)

ومن الواضح أن طريق العلم والمعرفة طريق صعب مليء بالمنغّصات، ولا يمكن أن يدرك العلم إلّا بالصبر والتحمل والصمود، وأنّ العلماء والمخترعين والمكتشفين لم يصلوا إلىٰ ما وصلوا إليه إلّا بالمثابرة والصبر.

٢٥ ـ العلم والمعرفة خير كثير

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾. (البقرة / ٢٦٩)

وكلمة «الحكمة» مشتّقة من مادة «حَكَم» علىٰ وزن (خَتْم) وتعني الصدّ والمنع بهدف الإصلاح ولهذا يقال لزمام الحيوان «حَكَمَة» علىٰ وزن (شَجَرة)، وبما أنّ العلم والمعرفة يحول دون اتخاذ الإنسان سلوكاً مشيناً،فلهذا سميت «حكمة».

كما أنّ «العقل» يعني الامساك والحفظ، ولهذا قيل للحبل الذي تُربط به رِجلا الجمل «عقال»، فالعقل قيل له عقلاً لأنّه يصون الإنسان من الانحراف عن جادة الصواب.

وعلىٰ أيّة حال، فإنّ القرآن الكريم وصف العلم بأبلغ وأجمل توصيف حيث قال (خيراً كثيراً)، وهذا التعبير يشمل جميع النِعَم والمواهب الإلهيّة المادية منها والمعنوية.

إنَّ المستخلص من خمسة وعشرين عنواناً ذكر حتىٰ الآن حقيقة بيّنه واضحة وهي: إنّ القرآن وبالاستعانة بعبارات شيقة ولطائف البيان يحثّ الإنسان علىٰ طلب العلم والمعرفة

ويعدّهما أفضل موهبة ونعمة إلهية، ويستفاد من التعبيرات السابقة بالدلالة الالتزامية أنّ طريق العلم مفتوح للجميع، ولا شيء أنفع منه، وهذا هو الشيء الذي نحن بصدده[1].

والآن ننتقل إلىٰ عناوين أُخرىٰ تدور حول محور «الجهل» وبملاحظة آثاره السلبية والمدمرة، نشق طريقنا نحو العلم والمعرفة وما ينتج عنهما من آثار إيجابية وحيوية.

٢٦ ـ أصحاب السعير هم الجاهلون

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾. (الاعراف / ١٧٩)

إنّ كلمة «ذرأ» مأخوذة من مادة ذَرْء علىٰ وزن (زَرْع) وتعني الخلق، لكن المستخلص من «مقاييس اللغة» أنّ أصلها يعني «نثر البذور».

ويحتمل لهذا السبب ذكر الراغب في «مفرداته» أن معناها الأصلي هو «الاظهار والايضاح»، بينما قال البعض كما في «التحقيق في كلمات القرآن»: إنّ معناها الأصلي هو «النثر والنشر».

فإذا أُريد منها الخلق فيكون معنىٰ الآية: إنّ أُولئك الذين وهب الله لهم السمع والبصر والفؤاد ... (وسائل المعرفة) ولم يستفيدوا منها لا مصير لهم غير جهنم، وإذا كانت «ذرأ» بمعنىٰ النشر والنثر، فالآيةُ تُشير إلىٰ أنّ أشخاصاً كهؤلاء سينثرون في جهنم.

وعلىٰ أيّة حال فهذه الحقيقة تكشف عن أنّ عاقبة الجهل وتعطيل وسائل المعرفة ليست سوىٰ نار جهنم.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾. (الملك / ١٠ و ١١)

---

[1]. يقول الإمام علي عليه السلام: «لاكنز أنفع من العلم». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٣).

نعم إنّ ذنبهم العظيم هو أنّهم لم يستفيدوا من عقولهم وعطلوها عن النهوض بمهامها، ولم يصغوا لقول الحق وبهذا أغلقوا أبواب المعرفة والعلم، وفتحوا أبواب جهنم ليدخلوها داخرين.

إنّ سياق الآية الثانية التي تنسب الإثم إلىٰ أصحاب السعير وهم يعترفون بأنّ مصيرهم ما كان هذا لو أنهم استفادوا من عقولهم، وهذا الاعتراف الكاشف عن الندم، دليل علىٰ أنّ سلوكهم لهذا الطريق كان باختيارهم، وإذا زعم بعض المفسّرين كالفخر الرازي عند تفسيره للآية الأولىٰ أنّها دليل على الجبر، فإنّ الثانية تنفي مزاعمه وتصلح لأنّ تكون مفسرةً للاولىٰ لأنّ «القرآن يفسر بعضه بعضاً».

وعلىٰ أيّة حال فإنّ العلاقة بين «جهنم» و«الجهل» لاجدال فيها في القرآن وسوف تتضح في الأبحاث القادمة أكثر[1].

٢٧ ـ الجهل مصدر انحطاط البشر

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾. (الأنفال / ٢٢)

إنّ هذه الآية والتي قبلها تُشيران إلىٰ موضوع واحد لكنّ الأخيرة تشير له صراحة والسابقة تلميحاً. والموضوع هو: إنّ الإنسان متىٰ ما ترك الاستعانة بوسائل المعرفة التي منحها الله له فانّه سينحط ويسقط إلىٰ مستوىٰ يجعله أضل من جميع الدواب التي علىٰ وجه الأرض. ولَم لا يكون كذلك مَن بإمكانه أن يصل إلىٰ أعلىٰ عليين في جوار ربّ العالمين، وأن يصل إلىٰ مقام «لا يرىٰ به إلّا الله»، ولكن بتركه جميع المواهب والمِنَح الإلهيّة فإنّه سيسقط إلىٰ أسفل سافلين.

إضافةً إلىٰ هذا، فإنّ الإنسان الذي لا يسير في جادة الخير والهداية، فانه ربّما يستخدم تلقائياً جميع المواهب والقابليات الإلهيّة في طريق الشر، وسيرتكب جرائم مفجعة ويخترع

---

١. في حديث للرسول ﷺ يقول فيه: «إنّ الله أوحىٰ إليّ أنّه مَن سلك مسلكاً يطلب فيه العلم سهلت له طريقاًالجنة». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٧٣).

وسائل رهيبة لم يدنُ إلىٰ مستوىٰ وحشيته أيٌّ من الحيوانات المفترسة، كما نشاهد نماذجه في عصرنا الحاضر عند أُناس بعيدين عن الله والبشرية [1].

ﮰﮱ

٢٨ـ الجهل عمىً

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾.

(الرعد / ١٩)

تضع الآية الكريمة العلماء وذوي الفكر في مقابل العُمي، والتقابل هذا يكشف عن أنّ العمىٰ والجهل سواء، وقد جاء هذا المعنىٰ في آيات أُخرى بأسلوب آخر:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ...﴾[2]. (فاطر / ١٩ ـ ٢٢)

ﮰﮱ

٢٩ـ الحياة مع الجهل هي أرذل العمر

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا...﴾. (الحجّ / ٥)

وقد جاء في سورة النحل الآية ٧٠ نفس ما جاء في هذه الآية من معنىً مع اختلاف ضئيل.

إنّ كلمة «أرذل» مشتقة من مادة «رذل» وتعني الموجود الضال، كما في كثير من معاجم اللغة مثل «المقاييس» و«صحاح اللغة» و«المفردات» وغيرها، وبتعبير آخر الشيء الذي لا يُعتنىٰ به أو لا قيمة له.

---

١. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الجهل مطية شموس من ركبها زلّ ومن صحبها ضلّ». (غرر الحكم، ج ١، ص ٨٥).

٢. يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «من لم يصبر على ذلّ التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٧٧).

وعليه فالمراد من «أرذل العمر» أيّام وساعات من العمر التي تقلّ قيمةً عن بقية أيّام العمر، وقد نعت القرآن الأيّام الأخيرة من الشيخوخة التي تتزامن مع نسيان العلوم وفقدانها بـ«أرذل العمر»، وعليه فأفضل أيّام العمر وساعاته هي الأيّام والساعات التي تكون مقرونه بالعلم والمعرفة[1].

٣٠ ـ الجهل مصدر الكفر

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾. (الأعراف / ١٣٨)

إنّ ما يثير العَجب هو أنّ بني اسرائيل شاهدوا بأم أعينهم الإعجاز والعظمة الإلهيّة في غرقِ الفراعنة، ونجاتهم عندما عبروا النيل، وبالرغم من ذلك كله يقترحون علىٰ موسىٰ أن يجعل لهم صنماً يعبدونه.

لكن موسىٰ أجابهم أنّ جهلكم دعاكم إلىٰ عبادة الأصنام.

وفي الحقيقة أنّ عبادة الأصنام دائماً تنشأ عن الجهل، وإلّا فكيف يمكن للإنسان أن يعبد ما يصنع بيده؟ وكيف له أن يطلب حل المعضلات والمشاكل الكبرىٰ التي تعتري حياته من قطعة من خَشب أو معدن؟!

إنّ تاريخ عبادة الأصنام يكشف عن أنّ هذا العمل القبيح نَما وتطور تحت ظلٍّ من الخرافات والأوهام، وكلما تقدمت الشعوب في مجال العلوم والتقنية كلما تراجع الشرك وعبادة الأصنام وازدادت أنوار التوحيد ضياءً:

إنّ النبي العظيم «هود» كان يصرح لقوم «عاد» بهذا الأمر إلّا أنّه عندما شاهد فيهم الإصرار علىٰ عبادة الأصنام طلب من الله سبحانه أن يُنزل العذاب عليهم قال:

﴿إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَـٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

(الاحقاف / ٢٣)

---

١. يقول الإمام علي عليه السلام: «الجهل في الإنسان أضرّ من الأكلة في الأبدان» (غرر الحكم).

إنَّ التعبير بـ«تجهلون» أي بصيغة المضارع الذي عادة ما يدل على الاستمرار، يوضح أنّ «الجهل المستمر» كان منبع الشرك وعبادة الأصنام، وفي الحقيقة إنَّ تعاضد ثلاثة أنواع من الجهل ولدت هذه الحالة الاجتماعية، وهي: الجهل بالله وبأنّه لا كفو ولا مثيل له، والجهل بمقام الإنسان وأنّه أشرف المخلوقات، والجهل بالطبيعة وأنّه لا قيمة للجمادات في قبال موجود كالإنسان.

ترى! كيف سمح الإنسان لنفسه أنْ يجعل قطعة من الحجر اقتطعت من الجبل تارة في درجات السلّم في منزلة يسحقها بأقدامه، وتارة يصنع منها صنماً يركع ويسجد له ويطلب منها حل مشكلاته الكبرى؟، يعدون هذا جهلاً[1]؟

٣١ ـ الجهل السبب الأساسي للفشل

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾. (الأنفال / ٦٥)

الظاهر أنّ الآية ناظرة إلى معركة «بدر» وعدم تساوي عدد المشركين والمؤمنين فيها، وهي تنفي اسطورة توازن القوى، كإيعاز إسلامي إلهي تأمر الآية بعدم التراجع في المعركة حتى لو كان عدد جنود الإسلام عُشرَ جنود العدوّ! لكن الذي يسدُّ النقص الكمي في القوات الإسلامية ـ كما تصرح الآية ـ هو شيئان: الأول هو الصبر والاستقامة والثبات عند المؤمنين، والثاني هو جهل وحماقة الأعداء.

وهذا يدل بوضوح على أنّ الاستقامة والصبر هما الطريق للنصر، وأنّ الجهل هو سبب الخسران والفشل.

الجهل بالقابليات والطاقات الإلهيّة المودعة في ذات الإنسان.

---

١. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الجاهل لا يرتدع، وبالمواعظ لا ينتفع». (غرر الحكم، ج ١، ص ٦٨). ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «ليس بين الإيمان والكفر إلا قلّة العقل». (اصول الكافي، ج ١، ص ٢٨).

الجهل بقدرة الله عزّ وجلّ وعظمته.

الجهل بتقنيات وقواعد المعركة، وأنواع أُخرى من الجهالة [١].

٣٢ـ الجهل مصدر لاشاعة الفساد

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾. (النمل / ٥٥)

إنّهم قوم لا يؤمنون بالله يجهلون بهدف الخلق وقوانينه، ويجهلون الآثار السيئة لهذا الإثم والعار يعني «اللواط»

إنّ هذا الحديث الذي نطق به النبي العظيم «لوط» يشير بوضوح إلىٰ أنّ ميل أولئك القوم إلىٰ هذا العمل البشع والقبيح (اللواط) نشأ عن الجهل وعدم المعرفة.

والنبي يوسف عليه السلام يُشير إلىٰ هذا المعنىٰ بأسلوب آخر:

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾. (يوسف / ٣٣)

إنّ ذكر النساء بصيغة الجمع يدلّ علىٰ أنّ نساء مصر كُنّ يُردنَ أن يُخرجنَ يوسف عن جادة العفاف وليس امرأة عزيز مصر (زليخا) فقط، ويوسف عليه السلام كان مستعداً لتقبل السجن برحابة صدر علىٰ الابتلاء بحبّ نساء مصر له.

إنّ الجملة الأخيرة من الآية السابقة تُشير إلىٰ أنّ العشق الملوّث بالإثم والانحرافات الجنسية (علىٰ الأقل في كثير من الموارد) ناشيءٌ عن الجهل، الجهل بالقيم المجبول عليها الإنسان، الجهل بالآثار القيمة للعفاف والطهارة والنزاهة، والجهل بمردودات الإثم، وأخيراً الجهل بالأوامر والنواهي الإلهيّة.

وكما نرىٰ في قصة يوسف بوضوح أنّ السبب الأساسي في ارتكاب الجريمة من قِبَلِ

١. يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «من عمل على غير علم كان ما يُفسدُ أكثر ممّا يصلح». (مشكاة الأنوار، ص ١٣٥).

إخوانه هو الجهل وعدم معرفتهم:

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾. (يوسف / ٨٩)

نعم أنتم الذين عذبتم أخاكم أولاً، ثم ألقيتموه في الجب عن جهل ثانياً! أنتم الذين كذبتم على أبيكم ذلك الشيخ العجوز وأدْمَيْتُمْ قلبه عندما أخفيتم ابنه عنه، وفي النهاية بيعه بعدة دراهم بخسة كما يُباع الرق ولم تفوا بعهدكم الذي عاهدتم بـه أبـاكـم تـجاه الأخ الآخـر «بنيامين» عندما اتُّهِمَ بالسرقة فتركتموه وحيداً.

وجهلكم هو وحده منشأ جميع هذه الأفعال[1].

٣٣ ـ الجهل أساس التعصب والعناد

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ...﴾. (الفتح / ٢٦)

إنَّ كلمة «حمية» مشتقة من مادة «حَمْي» على وزن «حَمْد»، وكما يـذكر الراغب فـي «مفرداته» أنّ معناها الأولي هو الحرارة الناشئة من أشياء مثل النار والشمس والقوة الباطنية في جسم الإنسان (الحرارة الذاتية والباطنية للأشياء)، ولهذا يقال لارتفاع درجة حرارة المريض (حُمّىٰ) علىٰ وزن (كُبْرىٰ)، وبما أنّ التعصب والغضب يولدان حرارة وحرقة في باطن الإنسان قيل «حمية»، وقد جاء في كتاب «التحقيق في كلمات القرآن الكريم» أنّ «الحمية» هي شدة الحرارة والعلاقة والتعصب في الدفاع عن النفس[2].

إنَّ هذه الآية نزلت في حوادث صلح الحديبية وتوضيح قصة سبب التزول: أنّ الرسول الأعظم ﷺ قصد مكة للحج في السنة السادسة من الهجرة، إلّا أنّ المُشركين منعوا المسلمين من دخول مكّة تعصباً لجاهليتهم، مع أنّ السماح بزيارة مكة كان مباحاً للجميع

---

١. يقول الرسول الأكرم ﷺ: «فقيه واحد أشدُّ علىٰ إبليس من ألف عابد». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٧٧).

٢. «هي شدة الحرارة، والعلاقة والتعصب في الدفاع عن نفسه والتعفّف والترفع». (مادة حمىٰ).

حسب قوانينهم وسننهم المتعارفة، فهم بهذا انتهكوا حرمة الحرم الإلهي، ونقضوا سنتهم، إضافة إلىٰ أنّهم وضعوا حائلاً ضخماً بينهم وبين الحقائق.

إنّ إضافة «الحمية» إلىٰ «الجاهلية» من قبيل إضافة «السبب» إلىٰ «مسببه»، التعصب والعناد والغضب ينشأُ عن الجهل دائماً، لأنّ الجهل لا يسمحُ للإنسان أن يفكر بعواقب أعماله، ولا يسمحُ له قبول أن فكرته قد تكون خاطئة، وأنَّ هناك علماً أوسع وأكبر من علمه، ولهذا نرىٰ أنّ شدّة عناد وتعصّب الأقوام الجاهلة أكثر منها في الأقوام الأُخرى، ولهذا السبب نجد أن الأنبياء والرسل عندما يبعثون إلىٰ قوم بالرسالات والأنوار الإلهيّة الساطعة، يواجهون مقاومة عنيفة، ويتهمون بمختلف التهم، وقد أورد القرآن الكريم نموذجاً من ذلك: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾. (ص / ٤ ـ ٧)

حيث ترىٰ أنّ حديثهم مملوء بالعناد، الناشيء عن الجهل والغرور [١].

٣٤ ـ الجهل مصدر لاختلاق الحجج

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. (البقرة / ١١٨)

هناك قضية تتكرر دائماً في تاريخ الأنبياء والرسل وهي أنّ الجاهلين والمعاندين يختلقون الحجج الواهية من أجل الهروب من الإيمان بالأنبياء والرسل والتسليم للحق الذي يرونه بأم أعينهم من خلال المعاجز الإلهيّة ووسائل الاقناع التي يأتي بها الرسل فتراهم تارة يقولون لِمَ بَعثَ اللهُ بشراً رسولاً؟ لِمَ لَمْ يأت مَلَك محله؟

---

١. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «العلم أصل كل خير والجهل أصل كُل شر». (غرر الحكم، ص ٢٠ و ٢١).

وتارة يقولون: لِمَ لم ينزل علينا كتاباً نقرأه؟

و أُخرىٰ يقولون: لنْ نؤمن ما لَمْ نرَ اللهَ والملائكة جهرة.

وتارة أُخرى يقولون: لن نؤمن لك حتىٰ تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنّة من نخيل وعنب وتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، كما في سورة (الإسراء) في الآيات ٩٠، ٩٣.

كما أنّ هناك أمثلة ونماذج أُخرى ذكرت في القرآن الكريم.

في الحقيقة أنّ ذوي العلم يكتفون بدليل منطقي واحد، وإذا تعددت الأدلة عندهم ازدادوا رسوخاً وإيماناً.

لكن المتعصبين والجاهلين المعاندين غير مستعدين للتخلي عن عقائدهم وخرافاتهم، فيتمسكون كل يوم بحجّة في سبيل الهرب من الحقيقة، وإذا ما دُحِضَتْ حجتهم تركوها وتمسكوا بحجة أُخرى، ذلك لأنّ هدفهم ليس طلب الحقيقة بل التملص منها[١].

❊❊❊

٣٥ ـ الجهل هو سبب التقليد الأعمىٰ

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. (الأنبياء / ٥٢ ـ ٥٤)

إنَّ كلمة «التماثيل» جمع «التمثال» والتي تعني الموجود الذي له وجه، وتطلق علىٰ التماثيل المنحوتة والرسوم.

وكلمة «عاكفون» مشتقة من مادة «عكوف» وتعني التوجه المستمر نحو شيءٍ والمتزامن مع التعظيم، واصطلاح «اعتكاف» يطلق علىٰ العبادة الخاصة المعروفة التي تقام في المسجد وهي مشتقة من نفس المادة.

نعم، إنَّ عبدة الأصنام لم يكن لهم دليل منطقيٌ علىٰ عملهم القبيح هذا، وغالباً ما كانوا

---

١. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الجاهل صغير وإن كان شيخاً كبيراً والعالم كبير وإن كان حدثاً». (بحار الأنوار، ج ١، ص ١٨٣).

يقتنعون بتقليدهم الأعمىٰ، ولهذا نعتهم ابراهيم عليه السلام بأنهم وآباءهم في ضلالٍ مبين.

إنّ ابراهيم عليه السلام في بقية محاكمته التاريخية لعبدة الأصنام في بابل يقول: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾؟! ثم يضيف ﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. (الأنبياء / ٦٦ ـ ٦٧)

يعني أنّ هذا التقليد الأعمىٰ ناشيءٌ عن عدم التعقل والتأمل وهو نابع من الجهل، ودليله واضح، فإنّ ذوي العلم يتمتعون باستقلال فكري، واستقلالهم الفكري هذا لا يسمحُ لهم بالتقليد الأعمىٰ، بينما الجاهلون تراهم مرتبطون بهذا وذاك وبشكل أعمى فيتبعون الآخرين على غير بصيرة.

٣٦ ـ الجهل عامل الخلاف والفرقة

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾. (الحشر / ١٤)

إنّ كلمة «قرىٰ» تعني جمع «قرية» ومعناها الأماكن المعمورة أعم من الأرياف والمدن، وقد تطلق علىٰ مجموعة يسكنون في مكانٍ ما، و«قرىً محصّنة» تعني المناطق الآمنة من العدو بسورٍ أو ابراج أو خنادق أو غيرها.

إنّ هذه الآية تتحدث عن طائفة «بني النضير» (إحدىٰ ثلاث طوائف يهودية تقطنُ المدينة) حيث تكشف عن فزعهم وخوفهم الباطني واختلافهم وفرقتهم، فتصرح الآية للمسلمين: إنّكم تحسبونهم جميعاً ومتحدين لكنّ الواقع أنّ شملهم متفرق بسبب جهلهم وعدم معرفتهم.

إنّ الاختلاف ينشأ عن الجهل، والاتحاد ينشأ عن المعرفة دائماً، فالجاهلون لا يجهلون الأخطار الجسيمة للفرقة، ولا يجهلون فوائد الاتحاد وبركاتِهِ فحسب، بل يجهلون أُسس التعايش السلمي، وأُسلوب التعاون وشروط النشاطات المشتركة، وهذه المسألة أدّت بهم إلىٰ الاختلاف والفرقة.

إنّ المتعصبين والمعاندين والمتكبرين والحاقدين والسفهاء، لا يمكنهم الاتحاد مع الآخرين، لأنّ كلاً من هذه الصفات تكون مانعاً كبيراً امام الوحدة، ويجب أن نعلم بان منشأ جميع هذه الرذائل هو الجهل[١].

☙❧

٣٧ ـ الجهل هو سبب سوء الظن بالآخرين

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ... ﴾. (آل عمران / ١٥٤)

تحدثت هٰذه الآية عن الليلة المضطربة والملتهبة التي عاشها المسلمون بعد معركة أُحُد، حيث احتمل بعض المسلمين هجوم قريش في تلك الليلة مرّة أُخرىٰ لتدمير آخر ما تبقىٰ من مقاومة المسلمين بعد ما أُنهكوا في المعركة نهاراً.

في هذه الأثناء أنزل الله علىٰ المسلمين نعاساً مهدئاً لهم، إلّا أنّ ضعيفي الإيمان قد تاهوا في أفكارٍ رهيبة فما استطاعوا النوم آنذاك، وكانوا يتساءلون: يا ترىٰ هل أن وعود الرسول حقّة؟ هل أننا سننتصر في النهاية مع ما حصل لنا في أحد؟ هل سننجو من هذه المهلكة؟ أو أنّ كل ما قيل لنا كان كذباً؟ وما إلىٰ ذلك من الوساوس وإساءة الظن الجاهلي.

لكن الحوادث التي حصلت فيما بعد بينت لهم خطأهم الفاحش، وأنّ كافة الوعود الإلهيّة حقة، ولو أنّهم انفصلوا عن أفكار الجاهلية تماماً لَما أساءوا الظن بالله ورسوله.

والتعبير في الآية يوحي بأنّ الجهل هو أحد أسباب إساءة الظن، وأنّ عدم قدرتهم علىٰ التحليل الصحيح للحوادث جعلهم يسيئون الظن، ولو كانت لهم القدرة الكافية علىٰ تحليل الحوادث وفهمها لما وقعوا في شباك سوء الظن.

☙❧

---

١. يقول الإمام علي عليه السلام: «لو سكت الجاهل ما اختلف الناس». (بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٨١).

٣٨ ـ سوء الأدب ينشأ عن الجهل

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. (الحجرات / ٤)

كان البعض يضايق الرسول الأكرم ﷺ حيث كانوا يقفون عند باب بيته منادين بصوت عالٍ: «يا محمد!» «يا محمد! اخرج إلينا» فكان رسول الله ﷺ يتأذى من أسلوبهم هذا، ولكنّه كان يكظم غيظه وذلك لما كان يتصف به من خُلُقٍ عظيم، إلىٰ أن نزلت هذه الآية، فعلمتهم أدب الحديث مع الرسول ومخاطبته (في سورة الحجرات).

والتعبير بـ«*أكثرهم لا يعقلون*» إشارة جميلة إلىٰ أنّ سوء الأدب غالباً ما ينشأ عن الجهل فكلما فُقِد العلم حل سوء الأدب مكانه، وكلما تواجد العلم تواجد الأدب معه.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. (البقرة / ٦٧)

إنَّ الآية تتعلق بقضية قتلٍ حدثت في بني اسرائيل كادت أن تجر إلىٰ معارك كبيرة بين قبائل بني اسرائيل لجهلهم بالقاتل: فأمر الله أن يذبحوا بقرة ويضربوا بقسمٍ منها المقتول كي ينطق ويُعرفهم قاتله.

وبما أنّ هذه القضية كانت معجزة ومدهشة للغاية بالنسبة لبني اسرائيل، فقد قالوا لموسىٰ ابتداءً: أتتخذنا هزواً؟

فأجاب موسىٰ ؑ: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين أي أنّ الاستهزاء من معالم الجهل ودليل علىٰ العجب والتكبر والغرور، فإنّ الذين يتمتعون بهذه الصفات يتخذون الآخرين هزواً كي يحقّروهم، ونعلم أن التكبر والعجب ينشآن عن الجهل حتىٰ أن كثيراً من الجاهلين يستهزئون بالعلماء [١].

٣٩ ـ الجهل سبب الندم والمشاكل الاجتماعية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ

---

١. يقول أمير المؤمنين ؑ: «العلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم». (بحار الأنوار، ج ٧٨، ص ٨١).

مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾. (الحجرات / ٦)

إنَّ هٰذه الآية تمثل قاعدة أساسية تأمر المسلمين بأنْ يتبيّنوا ويتأكّدوا من كون الرواة ناقلي الأخبار من الثقات ويحققوا في الخبر الذي وصلهم من فاسق أو شخص لا يُعتمد عليه فلا يستعجلوا باتخاذ الإجراءات علىٰ ضوء ما نُقِلَ لهم من خبر، لأنّه قد يوجب لهم كثيراً من الندم والمشاكل والمصائب الاجتماعية.

فمن البديهي أنَّ الجاهلَ لا يُمكنه أنْ يتّخذ موقفاً صحيحاً تجاه مختلف القضايا، وعدم معرفته هٰذه تؤدّي به إلىٰ كثير من المآسي والمشاكل الاجتماعية والتي نهايتها النّدم.

٤٠ ـ الجهلُ وتبدّل القيم

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. (البقرة / ٢١٦)

إنَّ نشاطات الإنسان وفعالياته تنسجم دائماً مع القيم التي يعتقد بها، ومعرفة هذه القيم لها دور أساسي في تبلور وتوجيه نشاطات الإنسان وفعالياته.

فالجهلُ وعدم المعرفة قد يؤدي به إلىٰ الوقوع في الخطأ عند التمييز بين (القيم) وبين (أضدادها)، أي أنْ يشخص ما هي القيم التي تكون سبباً في التقدّم والخير والبركة، ويفرق بينها وبين ما هو عامل الشرّ والشقاء والانحطاط.

إنّ الآية السابقة تقول: إنّ للجهاد في سبيل الله قيمة ـ فهو سبب للعزة وصيانة ماء الوجه والفخر والموفقية ـ لكنكم تكرهونه لجهلكم وعدم معرفتكم بآثاره، وتعتبرون القعود وترك الجهاد قيمةً وعاملاً للسلامة والسعادة، لكنه عامل وسبب لشقائكم.

وعلىٰ هذا، فالجهل هو سبب الخطأ في تمييز القيم، وهو عامل اتخاذ المواقف غير الصحيحة وغير المدروسة تجاه القضايا المختلفة والحوادث المتنوعة التي تحدث في الحياة اليومية وعامل للافراط والتفريط[1].

١. يقول الإمام علي عليه السلام: «لا ترىٰ الجاهل إلاّ مفرِطاً أو مُفرِّطاً». (نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة ٧٠).

الخلاصة و النتيجة:

إنّ المستخلص من البحوث القرآنية السابقة والتي دُرجت تحت أربعين عنواناً، ولربّما تكون أكثر حيث (لا ندعي تحديدها بهذه العناوين أبداً) والتي تحثُّ علىٰ طلب العلم والمعرفة، تمثل اهتمام القرآن البالغ بمسألة المعرفة في جميع المجالات، سواء في مجال معرفة الذات والصفات الإلهيّة، أو في مجال معرفة الكون والسماوات والأرض وجميع الكائنات والإطّلاع علىٰ أسرار المخلوقات الأرضية والسماوية الطبيعيّة أو ما وراء الطبيعة، ومعرفة النفس والإلمام بمختلفِ العلوم.

ومن خلال البحث في الآيات السابقة نستخلص بوضوح الأُمور التالية:

١ ـ إنَّ طريق العلم والمعرفة ميسر للناس كافة، وكلٌّ حسب استعداده وسعيه يستطيع أن يطوي ما أمكنه منه، وبدون ذلك فالدعوة للعلم والتأكيد علىٰ أهميته لا معنىٰ لها.

٢ ـ إنَّ قيمة الإنسان لها علاقة مباشرة بمقدار معرفته لله وأسرار عالم الوجود.

٣ ـ إنَّ أكبر مفخرة وموهبة للإنسان هو قابليته واستعداده لتقبل المعارف بالرغم من ضعفه الجسماني.

٤ ـ إنَّ طلب العلم هو طريق الانتصار والغلبة علىٰ مختلف المشاكل: وهو طريق تزكية النفس.

٥ ـ من أجل مواجهة الشقاء ومختلف المفاسد نحتاج إلىٰ العلم والمعرفة قبل أي شيءٍ آخر.

نؤكّد أنَّ هذه الآيات نزلت في زمان خيمت فيه غيوم الجهل السوداء، وغطت أفق المنطقة بل العالم ظلاماً، في حين أنّ شمس العلم قد غابت وغرق الناس في أمواج الجهل.

حقّاً إنّه لشيءٌ عجيب أن تكون مثل هذه البيئة مهداً لهذه الرسالة ذات التعاليم السامية أن يكون إنساناً أُمياً رسولاً لمثل هذه المدرسة العظيمة مدرسة الإسلام الخالد وهذا دليل حي على حقانية القرآن.

إنَّ الملفت للنظر هو احصاء سبعمائة آية من قبل بعض المحققين تتحدث عن العلم

والمعرفة وأرضياتها ومصادرها، وبالقياس إلىٰ آيات الأحكام والتي تقدر بخمسمائة آية، نستطيع أن نستنتج أن القرآن أولىٰ أهميّة كبرىٰ للعلم والمعرفة فاقت الأهميّة التي أوْلاها للأحكام الشرعية.

﴿﴾

توضيحات

١ ـ إمكانية المعرفة من وجهة نظر فلسفية

إنَّ وجود عالم خارج الذهن أمر مسلم وبديهي لايحتاج إلىٰ برهان، ويعترف بهذا عملياً حتىٰ السوفسطائيون أو المثاليون الذين ينكرون وجود الأعيان الخارجية.

لكن البحث ينصب في هل من سبيل إلىٰ معرفة هذه الواقعيات؟

وإذاكان الجواب بالايجاب فما هي سُبُل المعرفة ووسائلها؟

﴿﴾

ما هي شروط الوصول إلىٰ المعرفة؟

وبتعبير آخر، هل يمكن تبديل الواقعيات الخارجية إلىٰ حقائق ذهنية، أي انعكاس صورة ما في الخارج عيناً في الذهن أم لا؟ إنَّ جميع تعاريف المعرفة والاختلافات الحاصلة حول ذلك ترجع إلىٰ هذا الموضوع [١].

ومن جهة أُخرى فإنّ جذور جميع العلوم والمعارف البشرية تكمن في الإجابة عن هذا السؤال.

وبالرغم من أنّ أغلب الفلاسفة (سواء الماديين منهم أو الإلهيين) يؤيدون إمكانية معرفة الواقعيات الخارجية، إلّا أنّ البعض منهم لا يعتقد بإمكانيتها، وقد ذكرت أربعة أدلة لإثبات مرادهم:

---

١. وعلىٰ هذا يكون تعريف المعرفة عبارة عن: تبديل الواقعيات الخارجية إلى حقائق ذهنية، وانعكاسها في مرآة الذهن كما هي.

١ ـ إنّ الحواس هي أهم وسائل المعرفة، والبصر يقع في الدرجة الأُولىٰ من حيث الأهميّة. لكننا نجد الكثير من الأخطاء تصدر عن هذه الحاسة!

فالشهاب المشتعل في المساء نراه كخط من النور الممتد، بينما هو عبارة عن نقطة ضوئية متحركة لا أكثر!

وإذا كنّا نمشي في شارع مُشجّر الطرفين، وابتعدنا عن الأشجار رأيناها تقترب من بعضها البعض، وتتصل وتشكل زاوية في نقطة بعيدة عنّا بينما الأشجار لم تلتقِ علىٰ طول الطريق ولم تُشكل أية زاوية، والفاصلة بينها متساوية في جميع نقاط الشارع.

وإذا كانت احدىٰ يديك باردة والأُخرى حارة ووضعتهما في ماء دافيء، فانّك تحس بالحرارة باليد الباردة، وبالبرودة باليد الحارة، فيرتسم في الذهن إحساسان متضادان اتجاه الماء في آن واحد.

ولدينا الكثير من الأمثلة عن عدم إمكان الاعتماد على حاسة البصر وبقيّة الحواس (اللامسة وغيرها).

ومع وجود هذا النقص فكيف نعتمد علىٰ حواسنا؟! بل إنَّ عالم الخارج يمكن أن يكون وهماً أو أضغاث أحلام ولا غير، وهل أنّ الذي نراه في الرؤيا ونعتبره حقيقة في ذلك الحين، يُمثل الحقيقة؟

٢ ـ لا نكاد نرىٰ اثنين من العلماء أو المفكرين في هذا العالم يتفقان في جميع المسائل، وما هذه الاختلافات بين العلماء إلّا دليلاً علىٰ فقداننا الطريق الذي يهدينا إلىٰ معرفة الحقائق.

فالذي رآه واقعاً عينياً قد يكون برأي الآخرين وهماً وخيالاً لا أكثر والعكس صحيح.

وحتىٰ الإنسان الواحد قد تتغير رؤيته وأفكاره تجاه قضية معينة تحت ظروف مختلفة، وهذا يزلزل أسس قضية المعرفة.

٣ ـ إنّ الموجودات في العالم كلّها في حركة مستمرة، وينتج عن هذه الحركة تحول أوضاع الموجودات وحتىٰ أفكارنا ومعارفنا وعلومنا خاضعة لهذه الحركة، فكيف يمكن

أن تحصل لنا معرفة حقيقية لهذه الموجودات والعلاقات بينها، مع أنّ المعرفة تستدعي الاستعاذة بأمرٍ ثابت.

٤ ـ نعلم أنّ العالم يُمثل نظاماً موحداً ومترابطاً، ومعرفة جزء منه تستدعى معرفة الكل، وعليه، فإنّ فقدان حلقة من السلسلة المترابطة للعالم يُخلّ بمعرفتنا ويحول دون معرفة أي جزء منه.

ومن جهة أُخرى فإنّ الواقعيات التي لايمكن للبشر إدراكها كثيرة ولا يحصىٰ عددها بالقياس إلىٰ حجم المعلومات البسيطة.

وعلىٰ هذا، فكيف يمكن لنا أن نعد معرفة العالم أمراً متيسراً؟ إذن يجب الاعتراف بأنّ ما في أذهاننا مجرّد تصورات لها قيمة علمية فقط، وليست لها أية قيمة واقعية.

***

الجواب:

يمكن الإجابة علىٰ هذه الاستدلالات بثلاث طرق:

١ ـ إنّ جميع الذين يقولون بعدم إمكان المعرفة الواقعية، يؤمنون بالكثير من المسائل الواقعية، فهم يمسكون بأقلامهم ليبرهنوا ويستدلوا في مؤلفاتهم علىٰ صحة ما ذهبوا إليه وخطأ مخالفيهم، ومن خلال انكارهم فانّهم عرفوا المئات من المسائل الواقعية، ومن خلال هذه المعرفة دقوا طبول الحرب ضد مخالفيهم واستفادوا في حربهم هذه من الكثير من الأُمور الواقعية مثل، القلم، والورق، الخطوط، الكلمات، الجمل والعبارات، الكتب، دور الطبع والنشر والمكتبات، المخالفين أنفسهم، المخاطبين، الأمواج الأثيرية، النور وغيرها، كل ذلك يمثل أُموراً واقعية استفادوا منها في معرفتهم ليشنوا بها حرباً على المعرفة، فلقد استعانوا بالمعرفة ضد المعرفة وهو خطأ فاضح يستدعي الدقة والتأمل.

٢ ـ إنّ خطأهم الكبير هو عدم تمييزهم بين مسألة كون معرفة الإنسان محدودة وبين أصل مسألة المعرفة، فأن استدلالاتهم لا تنفي إمكانية المعرفة مطلقاً، غاية الأمر أنّها تثبت

أنّ معرفة الإنسان محدودة أو مقرونة بالاخطاء أحياناً.

أَجَل، لا يمكنهم إنكار وجود «الشهاب» بل إنّ ما يقولونه في هذا المجال هو أنّ الخط النوراني الذي نراه ليس خطاً نورانياً بل نقطةٌ نورانيةٌ، والتصور الخاطىء هذا نشأ عن خطأٍ في حاسة البصر، إذ ليس الخطأ في وجود نفس الشهاب بل في تصور خطٍ ممتدٍ ملتهبٍ.

كما أنّ الخطأ ليس في نفس وجود الشارع والأشجار علىٰ طرفيه بل الخطأ في أنّ الأشجار كلما ابتعدنا عنها اقتربت من بعضها البعض في أبصارنا، وكذا الأمر بالنسبة للماء الدافيء، فليس الخطأ في نفس وجود الماء ودرجة حرارته المعينة، بل في تمييز درجة الحرارة.

ولكنّا ـ كما سبقت الإشارة ـ لا ندعي إدراكنا لجميع حقائق الوجود، كما لا ندعي أن معرفتنا منزهة عن أي خطأ، بل ما نريد إثباته هو إمكانية المعرفة علىٰ سبيل القضية الجزئية. وقد نشأ خطأ أصحاب الرأي القائل بعدم إمكان المعرفة من ادعائهم القاطع الجازم بعد وجود المعرفة.

والملفت للنظر هو أن ما ذكره مخالفو إمكانية المعرفة من أدلة يمكن أن يستخدم كدليل ضدهم، لأنّهم عندما يبحثون مسألة خطأ الحواس، فإنّ مفهوم ادعائهم أن هذه الحقيقة اكتشفناها بحواسنا الأُخرى أو بطرق عقلية، فندرك خطأ الحاسة المعيّنة في ذلك المورد، وهذا اعتراف صارخ بصحة بعض المعارف.

فعندما نقول مثلاً: إنّ الخط الملتهب الممتد الذي نراه عند ظهور الشهاب في السماء خطأً، فذلك بسبب إنا لاحظنا بحواسنا الأُخرى إنَّ الشهاب قطعة حجر تحترق عند وصولها إلىٰ الأرض وذلك لسرعتها واحتكاكها بطبقة الهواء، وعندما تبدو لنا كالنقطة النيرة، وبما أنّها تتحرك بسرعة هائلة فتخطأ العين في التمييز ونراه خطاً ممتداً وملتهباً، مستقيماً منحنياً.

كذلك الأمر بالنسبة للخطين المتوازيين عندما نراهما متقاطعين من بعيد، بينما رأيناهما من قريب متوازيين فعند مقارنة المعلومات التي حصلنا عليها من بعيد ومن قريب نعترف بخطأ أبصارنا من بعيد.

إذن يجب القول بأنّ أي حكم بخطأ بعض المعلومات، دليل علىٰ معرفة كثيرٍ من الحقائق (دقّق النظر في ذلك).

٣ ـ إنّهم في الحقيقة لم يميزوا جيداً بين «البديهيات» و«النظريات» ولا بين «المعرفة الإجمالية» و«المعرفة التفصيلية» ولا بين «الأُمور المطلقة» و«الأُمور النسبية»، ولأجل عدم معرفتهم الدقيقة وتمييزهم لهذه المواضيع الثلاثة وقعوا فيما وقعوا فيه من خطأ.

ଛଠ

إيضاح:

إنّ هناك حقائق لا يشك بها أحد إلّا السوفسطائيون وكما قلنا سابقاً أنّهم ينكرون الحقائق بالسنتهم ويعتقدون بها في قلوبهم وهي الحقائق التي لا حاجة إلىٰ التفكير في إثباتها، فالكل يعرف مثلاً أنّ اثنين زائداً اثنين يساوي أربعة، وأنّه لا يمكن أن يحصل الليل والنهار أو الصيف والشتاء في آن ومكان واحد، أو شخصاً واحداً يكون في مكة والمدينة في آن واحد وحتى أولئك الذين يعدّون اجتماع النقيضين أو الضدين ممكناً، فأنّهم يتلاعبون بالألفاظ فقط، ويذعنون لهذه الحقائق قلبياً، فمثلاً بالنسبة لـ«اجتماع الضدين» يقولون بإمكان أن يكون الجو ممطراً في ساعة ومشمساً في ساعة أُخرى، إذن اجتماع الضدين أمر ممكن، أمّا إذا سألناهم هل يمكن أن يكون الجو ممطراً ومشمساً في ساعة ومكان واحد؟ فسيجيبون: لا.

وفي مقابل هذه المعلومات البديهية هناك قسم آخر من المعلومات وهي «المعلومات النظرية» التي تحتمل الخطأ والترديد، وما ذكره المنكرون من عدم إمكانية المعرفة فانّه يتعلق بهذا النمط من المعلومات.

كما أنّ هناك مجموعة من الحقائق مطلقة ولا نسبية فيها كالأمثلة السابقة (العلاقات الرياضية بين الأعداد وامتناع اجتماع النقيضين والضدين).

ولكن لا يمكن إنكار أنّ هناك مجموعة من المفاهيم النسبية التي تتغير بتغير الظروف،

فمثلاً الحرارة والبرودة أمران نسبيان، فكل شيءٍ حرارته أكثر من حرارة جسم الإنسان فهو حار، وكل شيءٍ حرارته أقل من حرارة جسم الإنسان فهو بارد، فإذا ما تغيرت درجة حرارة أجسامنا تتغير مفاهيم الحرارة والبرودة عندنا، ولهذا قد يجلس شخصان في غرفة يشعر أحدهما بالبرودة فيطلب تشغيل المدفئة والآخر يشعر بالحرارة فيطلب فتح الأبواب.

بالطبع، في هذا المجال توجد حقيقتان وهما درجة حرارة الجسم ودرجة حرارة الغرفة وتصورنا عن الحرارة والبرودة ينشأ عن المقارنة بين هاتين الحقيقتين فيختلف الحكم تجاه المسألة.

كما أنّ في العالم هناك حقائق ثابتة وحقائق متغيرة، والأمثلة التي ذكرناها سابقاً وما شابهها تدخل تحت عنوان الحقائق الثابتة، وحتىٰ الماركسيون القائلون بتغير وتبدل الحقائق في العالم يستثنون حقيقة التحول والتغير كقانون ثابت، ويعتقدون أنّ كل ما في العالم في تحولٍ وتغيّر مستمر إلّا نفس قانون التحول والتغير فانّه ثابت دائماً (بالطبع هناك مجموعةٌ اُخرى من القوانين يفرضون ثباتها اضافةً إلىٰ هذا القانون).

وإذا تجاوزنا الأمر السابق فإنّ هناك «معرفةً إجماليةً» ومعرفةً تفصيليةً» هناك حقائق لا نعرف عنها إلّا شيئاً إجمالياً، فلا معرفة لنا بخصائصها وعلاقاتها بالأشياء الاُخرى في العالم تفصيلاً، لكن عدم معرفتنا التفصيلية عنها لا يعني نفي المعرفة الإجمالية عنها.

فمثلاً العين جزء من الجسم، وما لم نعرف الجسم بجميع أعضائه جيداً لا نتمكن من معرفة علاقة العين بأعضاء الجسم الاُخرى، لكن عدم معرفتنا للعين تفصيلاً لا يمنع من معرفتنا لها إجمالياً وأنّها تقع في الرأس وتحت الجبين، ولها سبع طبقات، وكل طبقة مهمّة خاصة بها، وفائدتها رؤية المناظر واللقطات المتنوعة.

وبالنظر لما تقدم يتضح أنّ أدلة المخالفين لنظرية المعرفة نشأت من عدم دقتهم في التقسيمات السابقة، فعندما يقولون: إنّ العالم كتلة واحدة، وعدم معرفتنا لمفردة من مفرداته يفقدنا المعرفة بأي جزء منه، فقولهم هذا خلطٌ في الحقيقة بين المعرفة التفصيلية والإجمالية، لأنّا إذا أردنا معرفة جزءٍ ما في العالم بجميع علاقاته بباقي أجزاء العالم يجب

علينا معرفة جميع أجزاء العالم بدقّة، فهذه معرفة تفصيلية، بينما المعرفة الإجمالية لا تستدعي ذلك كله، ومعرفتنا للأرض والسماء وأفراد البشر والكائنات التي من حولنا هي كلها من هذا القبيل من المعرفة [1].

وهناك ايضاحات أكثر في هذا المجال سنعرض لها في الفصل اللاحق إن شاء الله تعالىٰ.

٢ ـ العلم البشري المحدود

١ ـ ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾. (الاسراء / ٨٥)

٢ ـ ﴿... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ...﴾. (لقمان / ٣٤)

٣ ـ ﴿وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾. (الاسراء / ٤٤)

٤ ـ ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. (البقرة / ٢١٦)

٥ ـ ﴿لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. (غافر / ٥٧)

٦ ـ ﴿... لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْراً﴾. (الطلاق / ١)

٧ ـ ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ...﴾. (الاعراف / ١٨٨)

٨ ـ ﴿... آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً...﴾. (النساء / ١١)

٩ ـ ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (لقمان / ٢٧)

---

١. قد يقال إنّ منكري المعرفة لا ينكرونها كلياً، وعلىٰ هذا فالنزاع بينهم وبين المؤيدين لنظرية المعرفة يكون نزاعاً لفظياً.

شرح المفردات:

إنّ كلمة «روح» ـ وكما جاء في قواميس اللغة ـ في الأصل اشتقت من مادة «ريح» ويطلق على التنفس كذلك، وبما أنّ هناك علاقة وثيقة بين التنفس وبقاء الحياة ونفس الإنسان استعملت الروح بمعنىٰ النفس، ومن ثم بمعنىٰ تلك الحقيقة المجرّدة التي يتوقف بقاء الإنسان عليها.

إنّ «رَوح» علىٰ وزن (لَوح) تعني النسيم البارد، وكذلك اللطف والرحمة. ومنه اشتُقّت كلمة «الرائحة» و«المروحة».

وَإنّ كلمة «تفقهون» مشتقة من مادة «فقه» وقد جاءت ـ كما في لسان العرب ـ بمعنىٰ الاطلاع علىٰ شيء وفهمه، لكنها تطلق اطلاقاً خاصاً علىٰ علم الدين (أو علم الأحكام)، وذلك لرفعة وأهميّة هذا العلم، والراغب في مفرداته يقول: «الفقه يعني الاطلاع علىٰ شيء خفي بواسطة الاطلاع علىٰ أمرٍ ظاهر ومكشوف» وعلىٰ هذا مفهومه أخص من مفهوم العلم.

وَمعنىٰ كلمة «غَيب» ـ وكما جاء عن ابن منظور في لسان العرب ـ هو «الشك» ويطلق علىٰ كل شيءٍ خفي عمله عن الانسان، (ولعل ذلك بسبب أنّ الأشياء الخفية غالباً ما تقع مجالاً للشك).

يقول الراغب عند تفسيره لجملة «يؤمنون بالغيب»: إنّ الغيب شيء خارج عن دائرة الحس والعقل الابتدائي ويعرف بواسطة إخبار الأنبياء.

وكلمة «نفدت» أُخذت من مادة «نَفَدَ» علىٰ وزن (حَسَدَ)، «والنفاد» كما يستخلص من المفردات ولسان العرب ـ يعني الفناء والدمار، و«مُنَافِد» تُطلق علىٰ الشخص القوي للغاية في استدلالاته بحيث يدحض جميع حجج خصمه، و«نفاد» جاءت بمعنىٰ نضوب ماء البئر.

جمع الآيات وتفسيرها

كان عدد من المشركين أو أهل الكتاب يسألون النبي ﷺ عن «الروح»، فأمر الله سبحانه الرسول الأعظم ﷺ وكما جاء ذلك في الآية الأولىٰ ـ أن يجيبهم بأنّ «الروح» من أمر ربي

ويضيف لهم بأنهم ما أُوتوا من العلم إلّا قليلاً، ولهذا فلا قابلية لهم لإدراك حقيقة «الروح»[١].

وفي هذه الآية إشارة واضحة إلىٰ كون العلم البشري محدوداً (وذلك لأنّ الروح المقصودة فيها هي روح الإنسان) وهي أقرب شيء إلىٰ الإنسان وذلك لأنّ الإنسان ما استطاع الاحاطة علماً بجوهر روحه التي هي أقرب إليه من الحقائق والموجودات في الكون، وأنّ ما يعرفه عنها هو معرفة سطحية وإجمالية، فكيف يمكنه معرفة حقائق العالم الأُخرىٰ؟!

٨٠٠٨

أمّا الآية الثانية والتي هي آخر آية من سورة لقمان، تكشُف عن علوم خاصة بالله تعالى وأشارت إلىٰ خمسة منها: قيام الساعة، نزول المطر، الجنين الذي في رحم الأُم، الحوادث المستقبلية التي تتعلق بأعمال الإنسان والمكان الذي يموت فيه الإنسان، وقد أُشير إلىٰ هذه العلوم الخمسة في الروايات تحت عنوان *«مفاتيح الغيب الخمسة»* التي لا يعرف عنها أحد إلّا الله[٢].

وقد يعلم الإنسان علماً إجمالياً عن هذه الأمور الخمسة بالاستعانة بالقرائن، إلّا أنّ الجزئيات لا تتضح لأحد أبداً، فلا يعلم ـ مثلاً ـ ما هي قابليات الجنين الجسمية والروحية وهل هو جميل أم قبيح وأنّه سليم أم سقيم، وحتىٰ جنسه (المذكر والمؤنث) لا يمكنه معرفته إلىٰ مراحل متأخرة من حياته في الرحم.

إنّ القرآن يخاطب الإنسان في هذه الآية ويقول: يا أيّها الإنسان أنّك لا تعلم عن غدك شيئاً ولا تعلم في أي أرض تموت، وعليه فكيف تتوقع أن تعرف عن جميع ما في العالم وعلمك محدود؟!

---

١. إنّ جملة ﴿ ما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ فُسّرت من قبل أغلب المفسرين بكونكم أُوتيتم قليلاً من العلم، إلّا أنّ البعض فسّرها بأنّ قليلاً منكم أوتي علماً، إلّا أنّ هذا التفسير الأخير يتنافى مع ظاهر الآية التي تجعل المشركين وأهل الكتاب السائلين عن الروح مخاطباً لها فتأمل.

٢. تفسير مجمع البيان، ج ٨، ذيل الآية ٣٤ من سورة لقمان.

وقد تحدثت الآية الثالثة عن تسبيح وحمد جميع الكائنات لله، فجميعها ـ بلسان حالها وبالنظام الدقيق والعجيب الذي يهيمن عليها ـ تحمد وتثني علىٰ الله وتشهد بنزاهته عن أي نقص وعيب، وتملأ العالم بلسان حالها ـ أو بقولها إضافة إلىٰ لسان حالها ـ بهمهمة التسبيح والتحميد، وكل ذرة في هذا العالم بلا استثناء لها عقل وعرفان وشعور خاص بها، تحمد الله وتثني عليه بمعرفة، وقد شرحنا هذين الرأيين في التفسير الأمثل [1].

وعلىٰ أيّة حال، فنحن لا نستطيع فهم لسان حال الموجودات لأننا لا نعرف كل شيء عن أسرار هذا العالم ونظامه، كما لا نستطيع فهم ما تقول أيضاً.

و من هنا يتّضح أنّ العالم مليء بالهمهمة والألحان الإلهيّة ونحن غافلون عن ذلك لأننا لم نحط به خبراً، وهذا دليل واضح علىٰ كون علمنا البشري محدوداً.

ﮧﮨ

وتحدثت الآية الرابعة عن «الجهاد» وتقول للذين يكرهون الجهاد: أنتم تجهلون «الخير» و«الشر» ولا تميزون بينهما، فانكم أحياناً ما تكونون في حرب مع مصالحكم وقد تتقدمون نحو الشر حبّاً ورغبةً فيه، وهذا دليل واضح علىٰ علمكم المحدود حيث إنّكم لا تميزون أحياناً بين ما هو شرٌ لكم وما هو خيرٌ لكم، إلّا أنّ الله يعلم ذلك وقد اوضح بواسطة الوحي (الذي هو أحد مصادر المعرفة) وبيّنَ لكم ما فيه خير وما فيه شر.

إنّ الآية الخامسة مع إشارتها إلىٰ عظمة خلق السموات والأرض أشارت إلىٰ حقيقة أن خلقهما أعظم وأهم من خلق الإنسان، وأشارت أيضاً إلىٰ عدم معرفة أكثر الناس لهذه القضية، هذا في الوقت الذي كانت فيه معلومات الإنسان بصورة عامة وفي الحجاز بصورة خاصة محدودة تجاه خلق السموات والأرض، ولعلهم كانوا يتصورون النجوم آنذاك مسامير فضية في كبد السماء، واليوم حيث توسعت معلوماتنا تجاه خلق السموات والأرض، فانّها لا زالت محدودة.

---

١. التفسير الأمثل، ذيل الآية ٤٤ من سورة الاسراء.

والآية السادسة بعد أن أشارت إلىٰ قضية الطلاق والعدّة وضرورة بقاء المطلقة في بيت الزوج عند إعتدادها بالعدة الرجعية، تقول: قد يحدث الله أمراً جديداً في هذه الأثناء أي اثناء مجاورتها لزوجها السابق، الأمر الذي قد يؤدّي إلىٰ الصلح بينهما.

والملفت للنظر هنا هو أنّ مخاطب الآية نفس الرسول الأعظم ﷺ فإذاكان الرسول ﷺ مع علمه الواسع يُخَاطَب بخطاب كهذا فما حال باقي أفراد البشر؟!

وهذا دليل علىٰ قصور العلم البشري إلىٰ مستوىٰ بحيث لا يستطيعون أن يعلموا بمستجدات يومهم اللاحق.

***

وفي الآية السابعة يؤمر الرسول الأعظم ﷺ بأن يقول: إنّي لا أملكُ لنفسي نفعاً ولا ضرّاً، وأن يعترف:

إنّي لا أعلمُ الغيب (إلّا ما علمني الله) وانّي لو كنت أعلمُ الغيب لاستكثرت وازددتُ من الخير لنفسي وما مسني ضرٌّ وما حصلت لي مشكلةٌ.

إنّ هذا الحديث قاله الرسول ﷺ عندما كان أهل مكة يسألونه عمّا إذا كان يوحىٰ إليه فلِمَ لا يعلم ما سيؤول إليه امر ارتفاع وانخفاض اسعار السّلع أو الجفاف وهطول الغيث في المناطق المختلفة كي يستزيد من الخير وينتفع أكثر، فأجابهم: إنّ عالم الغيب هو الله وهو صاحب العلم غير المحدود.

عندما يعترف الرسول ﷺ مع علمه الواسع حيث يقول الله تعالىٰ فيه ﴿... وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ... ﴾. (النساء / ١١٣)

بأني لا أعلم من الغيب (وهو الأمر الخارج عن الحس) إلّا ما علمني الله فكيف حال بقيّة البشر؟

***

والآية الثامنة بعد أن بينت أحكام إرث الأولاد والأب والأم في حالات مختلفة ذكرت: حتىٰ أنفسكم لا تعلمون أيّاً من الأب والأم أو الأولاد أنفع لكم؟ وأيهم أحق بأموالكم كي يخصص له سهم أكثر.

نعم، لستم علىٰ بينة بمصالحكم الشخصية، لهذا السبب لا تستطيعون أن تسنّوا قوانين دقيقة تليق بمقام الارث وغيره، إنّ المُقنّن يجب أن يكون الهاً محيطاً بِكل أسرار الوجود، نعم، إنّ قصور علم البشر بدرجة لا يستطيع أن يسن قوانين تحافظ علىٰ مصالحه، ولهذا نرىٰ أنّ القوانين البشرية في حالة تغيير دائمي، فإذا كان الإنسان يجهل مصيره إلىٰ هـذا الحـد، فكيف به تجاه الموجودات الأُخرى الموجودة في الكون؟

وأخيراً، فإنّ الآية التاسعة والأخـيرة فـي البـحث هـذا تـحدثت عـن العـلم الإلهـي اللامتناهي، وصوّرت اللانهاية في الأذهان بحيث يستطيع حتىٰ الذي لم ينل من العـلم إلّا القليل بل وحتىٰ الأُمي أن يرسم في ذهنه صورة عنها، بالرغم من صعوبة تصور اللانـهاية حتىٰ للعلماء، حيث قالت: لو أنّ ما في الأرض من شجر يصير أقلاماً رغم أن الأشجار قد يصل عددها إلىٰ مليارات (بل قد يُصنع الملايين من الأقلام من شجرة واحدة: وبالرغم من أنّ حوضاً صغيراً قد يملأ الملايين من الدواة فكيف بالمحيطات والبحار، وإضافة إلىٰ هذا كله، لو اجتمعت الملائكة وكُتاب الانس والجن علىٰ أن يكتبوا بهذه الأقلام وهـذا الحـبر كلمات الله وعلمه ما استطاعوا وسوف تنصرم الأقلام وينتهي الحبر وما زالت كـلمات الله جلّ جلاله وعلومه في بداية الدفتر، هذا من جهة.

ومن جهة أُخرى فأنّنا نعلم أنّ المراد من كلمات الله هو الكائنات الموجودة في العالم، وعلىٰ هذا فالآية دليل واضح علىٰ سعة العالم وقصور علم البشر.

৪০৩

نتيجة البحث:

إنّ ما يستخلص من الآيات السابقة هو أنّ معرفة الإنسان وعلومه رغم سعتها بحدّ ذاتها

ورغم أنّ علوم ومعارف البشر في حالة ازدياد في كل يوم بل كل ساعة ولحظة، ورغم امتلاء الدنيا بالمدارس والجامعات والمكتبات ومراكز التحقيق، رغم هذا كله فإنّ هذه المعلومات بالقياس إلىٰ المجهولات كالقطرة بالنسبة للبحر.

إذا لم يكن الإنسان عارفاً بخيره وشرّه ونفعه وضره ولا بِكُنْهِ روحه التي هي أقرب إليه من أي شيءٍ آخر، ولا بالحوادث المقبلة عليه، ولا بساعة موته، فكيف يمكنه أن يعرف ما يدور في الكواكب البعيدة في العالم اللا متناهي.

ومما لا شك فيه أنّ جهل الإنسان بهذه الأُمور لا لعجزه بل لسعة الكون، وقد يكون انكار البعض لنظرية إمكان المعرفة نشأ من خلطهم بين هذه المسألة ومسألة قصور العلم البشري واقترانه بالاخطاء.

إنّ القرآن كما يدعو إلىٰ العلم والمعرفة ويؤكّد علىٰ أن باب العلم مفتوح للجميع، يصرح بقصور العلم البشري، هذا النقص والقصور اللذان يدعوانه إلىٰ الاعتراف بعظمة الكون وخالقه وبحاجته إلىٰ الرسل وأصحاب الوحي.

ونختم هذا الحديث بمقطع من دعاء الإمام الحسين عليه السلام المعروف بدعاء يوم عرفة، حيث يقول:

«إلهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيراً في فقري، الهي أنا الجاهل في علمي، فكيف لا أكون جهولاً في جهلي».

٣ ـ الفلاسفة والعلماء يشهدون بقصور العلم البشري

إنّ كون علم البشر محدوداً أمرٌ مسلم به وبديهي ولا يحتاج إلىٰ دليل أو برهان لإثباته، إلّا أنّه بالالتفات إلىٰ النقاط التالية يتّضح لنا الأمر أكثر:

١ ـ إنّ قدرة حواس الإنسان محدودة، فالعين رغم أنّها أهم وسيلة للمعرفة في الأُمور الحسية فهي لا تستطيع رؤية شيءٍ من بعيد، إضافة إلىٰ أنّ عدد الألوان التي يشاهدها

الإنسان محدودٌ جداً لأنّ الألوان ما فوق البنفسجية وما تحت الحمراء بالرغم من كثرتها فلا قدرة للعين علىٰ رؤيتها.

كذلك بالنسبة للاذن فانّها لا تسمع كل شيء بل تسمع أمواجاً صوتية محدودة، وبمجرّد ارتفاع أو هبوط درجة تردد الأمواج فسوف لا تسمع شيئاً. وكذا الحال في بقية الحواس.

إنّنا بالعين المجرّدة نستطيع رؤية عدّة آلاف من النجوم في السماء فقط، بينما هناك المليارات من النجوم موجودة في السماء.

صحيح أنّ الوسائل العلمية ضاعفَت من قدرة الحواس، إلّا أنّها هي بدورها محدودة القدرة أيضاً.

٢ ـ إنّ قدرة إدراكاتنا وأفكارنا محدودة وما وراءها فهو مجهول عندنا علىٰ الاطلاق، وهذا الأمر يصدق حتىٰ بالنسبة إلىٰ أكثر الناس علماً وذكاءً فإنّ قدرة فكره وإدراكه تكون محدودة أيضاً.

٣ ـ من جهة اُخرى فإنّ العالم واسع بدرجة لا يمكننا استيعابه، ونستطيع أن نقول: إنّ علمنا كلما إزداد، ازدادت عظمة العالم في أذهاننا.

ولإدراك عظمة هذا العالم (إلىٰ المستوىٰ الذي يصل إليه فكرنا) يكفي أن نعرف أنّ المنظومة الشمسية والنجوم التي نشاهدها حولنا جزء من المجرّة التي تسمىٰ بدرب التبّانة (المجرّات أو مدن النجوم مجموعة ضخمة من النجوم التي تشكل عالماً خاصاً بحد ذاتها).

وفي هذه المجرة ـ علىٰ ما يقول العلماء ـ يوجد أكثر من مائة مليارد نجمة! والشمس بالرغم من عظمتها ونورانيتها فانّها تعتبر من النجوم المتوسطة الحجم في هذه المجرة.

ونفس هؤلاء العلماء يقرّون ـ وبالاستعانة بالتلسكوب والحسابات الكمبيوترية ـ أنّ هناك مليارد مجرة في هذا العالم تقريباً![1]

---

١. جاء في كتاب (هل وكيف ولماذا) أنّ الفكليين يعتقدون بوجود عدد كبير وهائل من المجرات قرب مجرتنا وبعضها أكبر والبعض الآخر أصغر حجماً وقد كشفت التلسكوبات القوية والحاسوبات العادية للنجوم عن وجود مليارد مجرة تقريباً في هذا العالم.

إنّ ذكر هذه الأرقام سهل علىٰ اللسان لكن ما أصعب تصورها؟! وينبغي أن لا ننسىٰ أنّ معلوماتنا عن هذه المجرات والنجوم الهائلة تدور حول محور الأرض فكيف بنا إذا تجاوزنا هذا المحور؟!

٤ ـ ومن جهة ثانية فإنّ عالمنا هذا له بداية ونهاية فلا يعلم أحد عن المليارد سنة الماضية ولا عن المستقبل شيئاً، فهو كالسلسلة بدايتها الأزل وتمتد إلىٰ عمق الأبد، وما نعرفه هو حلقة واحدة من هذه السلسلة وهي الحلقة التي نعيش فيها، وما ماضيها أو مستقبلها إلّا كشبح مرسوم في أذهاننا.

صحيح أن الإنسان ـ وبدافع من فطرته ـ في سعي مستمر لتحصيل علم أكمل وأشمل عن نفسه وعن العالم، وأنه قد جمع خلال آلاف السنين الماضية معلومات كثيرة ادخرها في خزائن مكتبات العالم الكبيرة والصغيرة.

وصحيح أنّ بعض المكتبات كبيرة إلىٰ مستوىً بحيث يصل مجموع طول رفوف الكتب فيها إلىٰ مائة كيلومتر (كما هو الحال بالنسبة لمكتبة المتحف الانجليزي)! وقد يصل عدد الكتب في بعضها إلىٰ ستةُ ملايين كتاباً (كما هو الحال بالنسبة لمكتبة باريس)، بل قد يصل عدد الكتب في بعضها إلىٰ خمسة وعشرين مليوناً (كما هو الحال بالنسبة للمكتبة الأمريكية المعروفة)، وقد تصل فهارس الكتب فيها إلىٰ حجم مكتبة كبيرة، وقد يصل الأمر بالبعض أن يستعمل وسائل النقل للتنقل فيها من مكان إلىٰ آخر! لكن بالرغم من كل هذه المعلومات عن العالم وأسراره، فإنّ مجموعها لا يشكل إلّا كقطرةٍ من محيط كبير للغاية.

ജ൫

ولا بأس أن نشير هنا إلىٰ شهادات بعض العلماء في هذا المجال كي يعرف القارىء أنّ ما ذهبنا إليه معترف به عند الجميع.

١ ـ يقول «كريس موريس» الطبيب والعالم النفساني في كتابه «سر خلق الإنسان»:

«عندما نفكر بالفضاء اللامتناهي، أو الزمان السرمدي، أو الطاقة العجيبة المودعة في

الذرة، أو بالعوالم غير المحدودة والتي تسبح فيها كواكب كثيرة، أو بقدرة تشعشع بعض الكواكب، أو بقوة جاذبية الأرض، أو بالقوانين الأُخرى التي يرتبط قوام العالم بها، عندما نفكر بهذه ندرك مدىٰ ضعفنا ونقصان علمنا»[١].

٢ ـ ويذكر الدكتور «الكسيس كارل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول»:

«إنَّ المساعي التي بذلت في العلوم التي اطلع عليها الإنسان لم تصل إلىٰ نتيجة مطلوبة، ومعرفتنا لأنفسنا ما زالت ناقصة إلىٰ حدٍ كبيرٍ»[٢].

ولهذا السبب جعل «الإنسان ذلك المجهول» عنواناً لكتابه القيّم، فإذا كانت معرفة الإنسان عن نفسه محدودة إلىٰ هذه الدرجة، فواضح حال معرفته عن الأكوان والعوالم الأُخرى.

٣ ـ ويقول العالم المعروف «وليام جيمس»:

«علمنا قطرة، وجهلنا بحر عظيم».

٤ ـ ويقول الفكلي المعروف «فلا ماريون»:

«أستطيعُ أن أهيىء أسئلة ولمدة عشر سنوات عن مجهولات لا تستطيعون الإجابة عليها»[٣]!

٥ ـ ويضيف في كلام آخر له:

«نحن نفكر لكن ما هو فكرنا؟ ونمشي، لكن ما هو عملنا العضلي هذا؟ لا أحد يعلم بذلك.

أرىٰ أنّ إرادتي قدرة غير مادية، لكنني عندما أريد أن أرفع يدي أرىٰ أنّ الإرادة غير المادية تحرك يدي والتي هي عضو مادي، كيف يحصل هذا؟ وما هي الواسطة التي تحول

١. سرّ خلق الإنسان، ص ٨٧ (بالفارسية).

٢. الإنسان ذلك المجهول، ص ٥.

٣. علىٰ اطلال المذهب المادي، ص ١٣٨.

الطاقة غير المادية إلىٰ مادية؟ لا يوجد من يجيب علىٰ هذا السؤال»[١].

إذا كانت معلوماتنا تجاه أوضح وأبسط الأمور العادية هكذا، فما هو الحال بالنسبة للقضايا المعقدة أو البعيدة عن متناول أيدينا زماناً ومكاناً.

٦ ـ يقول (انشتاين) الرياضي المعروف والمكتشف للنظرية النسبية والبُعد الرابع، في أحد كتبه:

«لقد علّمنا كتاب الطبيعة الذي نقرأه الكثير من الأمور وقد عَرفْنَا أُسس لغة الطبيعة ... لكن رغم قراءتنا للمجلدات وفهمنا لها فإنّنا مازلنا بعيدين عن كشف أسرار الطبيعة»[٢].

وينبغي هنا اضافة هذه الجملة علىٰ الشهادات السابقة:

من العجيب حقّاً أن كل اكتشاف جديد يحصل في هذا العالم يزيد من مجهولات الإنسان، وبعبارة أُخرىٰ إنّ اكتشافات العلماء في مختلف المجالات كاكتشاف مكتبة جديدة، أو اكتشاف كنز قيم في نقاط مختلفة من الأرض.

وبديهي فإننا إذا اطلعنا علىٰ وجود مكتبة في احدىٰ المدن، أو كنز قيم في خربةٍ فقد أزلنا النقاب عن مجهول واحد، لكن الآلاف من المجاهيل تكشف عن نفسها من خلال هذا الاكتشاف، مثل عدد الكتب ومحتواها وكُتّابها وشخصياتهم وقضايا أُخرى من هذا القبيل، كذا الحال بالنسبة للكنز فإذا اطلعنا علىٰ وجوده تبلورت في أذهاننا مجاهل أُخرى عنه مثل نوعيته ومحتواه ....

ولا نذهب بعيداً، فإنّ عالم الكائنات المجهرية (المكروبات والبكتريا والفايروسات) كان في يوم ما مجهولاً كلياً، وعندما خطا (باستور) الخطوة الأُولىٰ عند كشفه لبعضٍ من هذه الكائنات تجلىٰ أمامه عالم كبير من المجهولات.

إنّ اكتشاف الكواكب «اورانوس» و«نبتون» و«بلوتون» في المنظومة الشمسية وكذا كشف المجرات الجديدة كلها من قبيل كشف (باستور) لعالم الكائنات المجهرية، ومن هنا

---

١. على اطلال المذهب المادي، ص ١٣٨.

٢. خلاصة الفلسفة النسبية.

يجب الاذعان والاعتراف بأنّ العلوم البشرية كنور شمعةٍ وان حقائق هذا العالم العظيم كنور الشمس بل أعظم من ذلك!

ومن هنا ينبغي القول: ﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾. (البقرة / ٣٢)

ونختم هذا الحديث بكلام عظيم لمتكلم عظيم ألا وهو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، حيث يقول في خطبة الأشباح:

«واعلم أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السُّدَدِ المضروبة دون الغيوب، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح الله ـ تعالىٰ ـ اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمّىٰ تركهم التعمّق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً، فاقتصر علىٰ ذلك ولا تُقدّر عظمة الله سبحانه علىٰ قدر عقلك فتكون من الهالكين»![1].



تذكير:

إنّ الالتفات إلىٰ كون علم البشر محدوداً له آثار ونتائج إيجابية بنّاءة، نذكرها هنا:

١ ـ **الحد من الغرور العلمي:** نعلم أنّ البشر قد واجه مصائب كثيرة من جراء الغرور العلمي، ومثاله ما ظهر في حدود القرن الثامن عشر الميلادي في اوربا فعندما حصلت قفزة في العلوم الطبيعية آنذاك، تصور بعض العلماء أنّ جميع ألغاز الكون قد حلت وأنّ أسراره قد كُشفت، ولهذا أنكروا كل شيء يكمن وراء معلوماتهم، بل سخروا من جميع الأُمور التي لا تدخل في اطار معلوماتهم، وقد وصل انكارهم إلىٰ حدٍ سخروا من وجود الروح حيث قال بعضهم: لا نؤمن بوجود الروح مالم نشاهدها تحت سكاكين الجراحة في غرفة العمليات، أو بما أنّ الله لا يدرك بالحس فلا وجود له!

إنّ هذا النوع من الغرور خلق مشاكل كثيرة، والأمر الوحيد الذي يمكنه أن يحطم هذا

---

١. نهج البلاغة، الخطبه ٩١.

الغرور العلمي هو الالتفات إلىٰ ضآلة العلوم البشرية بالقياس إلىٰ المجهولات، طبقاً للأدلة التي ذكرت سابقاً.

إنّ الالتفات إلىٰ هذه الحقيقة هو الذي جعل العلماء المتعمقين يعترفون بما قاله أحدهم: «إنّ علمي وصل إلىٰ مستوىً بأنّي أعلم أنّي لا أعلم» و«معلوماتي صفر والمجهولات بالقياس لها غير متناهية».

٢ ـ الحركة العلمية الأسرع: إنّ الالتفات إلىٰ هذه الحقيقة يسوق الإنسان نحو السعي الحثيث والجهاد المخلص والمتواصل لحل ألغاز عالم الوجود، خاصة وأنّه يرىٰ أنّ أبواب العلم مفتوحة أمامه، ولا ييأس من الحصول علىٰ علوم أكثر.

وَمن الواضح أنّ الإنسان لا يسعىٰ وراء الكمال مالم يشعر بالنقص، ولا يبحث عن الدواء ما لم يحس بألم المرض، ولهذا يقال: إنّ الاحساس بالألم احدىٰ نِعَم الله العظيمة، وان أسوء الأمراض هي تلك التي لا يصحبها الألم لأنّ المريض لا يطّلع على المرض إلّا بعد أن ينقض عليه ويهلكه.

إنّ الالتفات إلىٰ ظئالة العلم البشري يخلق عند الإنسان ردّ فعل إيجابيّ يدفعه نحو التحقيق والتفحص أكثر فأكثر، وقد يكون هذا الأمر هو أحد أهداف القرآن الكريم عند تأكيده علىٰ نقصان العلم البشري.

٣ ـ الالتفات إلىٰ مبدأ أسمىٰ: من الآثار الإيجابية التي يتركها الاحساس بالنقص العلمي عند كل فرد هو أن الإنسان شاء أم أبىٰ يجد نفسه بحاجة إلىٰ مبدأ أعظم تكون عنده جميع أسرار العالم مكشوفة، وألغازه محلولة، إنّ هذه القضية تهيىء الأرضية لقبول دعوة الأنبياء، وتفتح أمامه سبلاً للاهتمام بالمصادر والطرق العلمية التي تفوق علم البشر.

علىٰ أيّة حال، إنّ الالتفات إلىٰ كون علم البشر محدوداً مع غض النظر عن كونه حقيقة، له آثار تربوية وإيجابية جمة.




مصادر وسُبل المعرفة

(مصادر المعرفة الستة)



- الحس والتجربة
- العقل والتحليل المنطقي
- التاريخ و الآثار التاريخية
- الفطرة والوجدان
- الوحي السماوي
- الكشف والشهود





مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تمهيد:

بعد ما ثبت لنا إمكان المعرفة وإمكانية الوصول إليها إجمالاً، جاء الدور للبحث عن سبل المعرفة، وبتعبير آخر عن مصادرها ومنابعها التي تمكننا من معرفة الحقائق الموجودة في العالم، لأنّنا بالاستعانة بهذه السُبُل يمكننا تبديل «الواقعيات» إلىٰ «حقائق»، بواسطة هذه المعالم وذلك لأنّ كلاً من هذه السُبلُ معلم وهادٍ يرفع الحجاب عن أسرار العالم ومجهولاته.

وقبل كلّ شيء ينبغي معرفة رأي القرآن في هذه المسألة، لأنّ محور دراستنا هذه هو التفسير الموضوعي والتحقيق حول تعليمات القرآن الكريم.

وقد وصلنا بالتحقيق والتتبع الدقيق في الآيات المختلفة والمنتشرة في القرآن الكريم إلىٰ هذه النتيجة وهي أنّ طرق المعرفة ومصادرها في القرآن الكريم تتلخص في ستة أمور:

١ ـ الحس والتجربة (الطبيعة).

٢ ـ العقل والتحليل المنطقي.

٣ ـ التاريخ والآثار التاريخية.

٤ ـ الفطرة والوجدان.

٥ ـ الوحي السماوي.

٦ ـ الكشف والشهود.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

١ـ الحس والتجربة

لنمعن النظر خاشعين في البداية إلىٰ الآيات الكريمة التالية:

١ ـ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوقَهُم كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾. (ق/٦)

٢ ـ ﴿أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ...﴾. (الاعراف / ١٨٥)

٣ ـ ﴿أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعتْ * وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾. (الغاشية / ١٧ ـ ٢٠)

٤ ـ ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوتِها...﴾. (الروم / ٥٠)

٥ ـ ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دافِقٍ﴾. (الطارق / ٥ ـ ٦)

٦ ـ ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرضَ شَقّاً * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً﴾. (عبس / ٢٤ ـ ٢٨)

٧ ـ ﴿أَوَ لَمْ يَرَوا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾. (الشعراء / ٧)

٨ ـ ﴿أَوَ لَمْ يَرَوا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إِلَى الأَرْضِ الجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تأْكُلُ مِنْهُ أَنعَامُهُم وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾. (السجدة / ٢٧)

٩ ـ ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ...﴾. (فصلت/٥٣)

١٠ ـ ﴿أَوَ لَمْ يَرَوا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾. (الملك / ١٩)

١١ ـ ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾. (الذاريات / ٢٠ ـ ٢١)

١٢ ـ ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. (النحل / ٧٨)

إنّ الآيات الواردة في هذا المجال كثيرة جداً، وما ذكر هنا نماذج واضحة في مجالات مختلفة[١].

شرح المفردات:

إنّ كلمة «ملكوت» ـ على ما يقوله الراغب في مفرداته ـ مصدر «مَلَك» وقد أُضيفت لها التاء، وتستعمل في الإشارة إلىٰ (ملك الله) فقط دون غيره، بينما جاء في «مجمع البحرين» و«لسان العرب» أنّ الملكوت يعني «العزة والسلطنة»، ويقول البعض: إنّها اشتقت من «مُلك» علىٰ وزن «حُكْم» وتعني «الحكومة والملكية»، واضيفت لها التاء والواو للمبالغة.

وكلمة «قضب» علىٰ وزن (جَذْب) ـ وكما جاء في لسان العرب ـ في الأصل تعني «قطع» بحيث قال بعض المفسرين: إنّها تعني الخضروات التي تُحصد في فصول مختلفة[٢].

وكلمة «جُرُز» تعني الأرض الفاقدة للنباتات، أو الأرض التي لا ينبت فيها نبات، و«جَرَز» علىٰ وزن (مَرَض) وتعني القَطع ونقل صاحب «لسان العرب» عن بعض أئمّة اللغة أنّ الأرض الجرز تطلق علىٰ الأرض التي قلع نباتها أو انقطع عنها المطر.

---

١. يمكن الرجوع إلىٰ الآيات التالية: الاعراف، ١٨٥؛ ويوسف، ١٠٩؛ الروم، ٩؛ غافر، ٦؛ النحل، ٧٩؛ الشعراء، ٧؛ الاحقاف، ٣٢؛ الملك، ١٩؛ يس، ٧٧؛ الأنعام، ٦؛ النحل، ٧٨؛ المؤمنون، ٧٨؛ ق، ٣٧؛ الاحقاف، ٢٦؛ هود، ٢٤؛ غافر، ٢١؛ محمد، ١٠.

٢. تفسير الميزان، ج ٢، ص ٣١٦؛ تفسير مجمع البحرين، ج ١٠، ص ٤٤٠. نُقِلَ عن ابن عباس أنّ المراد من «القضب» في الآية هو «الرُّطَب» الذي يقتطف من النخيل لكن بالنظر إلىٰ الآية الأُخرى التي أشارت إلىٰ نفس الكلمة فإنّ هذا التفسير بعيد. وقال البعض: يحتمل أن يكون المراد منها هو فواكه الشجيرات مثل الخيار والرقي. أو جذور بعض المزروعات مثل الجزر والبطاطس.

وأمّا كلمة «أفئدة» جمع «فؤاد» وتعني القلب ـ كما يقول الراغب ـ إلّا أنّ الفؤاد يطلق علىٰ القلب الذي له حالة إنارة وإضاءة، وهذا أمرٌ ملفت للنظر حيث يعد الله القلب المنوَّر والمنير من مواهبه، وجدير بالذكر أنّ صاحب «لسان العرب» ذكر أنّ أصلها جاء من «فأد» علىٰ وزن (وَعْد) ويعني المشوي، وعلىٰ هذا تكون كلمة «فؤاد» إشارة إلىٰ العقول التي تتحلىٰ بالأفكار الناضجة!

ﮪﮫ

جمع الآيات وتفسيرها

في الآية الأُولىٰ يدعو الله الإنسان إلىٰ الالتفات إلىٰ السموات والأرض وجمالهما وكيفية بنيانهما والنظام الذي يتحكم بهما وإحكامهما واتقانهما وخلوهما من العيب.

وفي الآية الثانية يدعو الله الناس إلىٰ مشاهدة نظام السموات والأرض والكائنات، وذلك لإيقاظ القلوب للسير في طريق التوحيد ومعرفة الخالق.

والآية الثالثة تلقي نظرة من السماء إلىٰ الأرض حيث تلفت نظر الإنسان إلىٰ شيئين: أحدهما خلق الإبل وعجائب هذا الخلق (بالخصوص لأناس يعيشون في محل نزول القرآن).

والآخر تسطيح الأرض بحيث تصلح الحياة عليها، ويعتبر القرآن المشاهدة في جميع هذه المراحل منبعاً مهماً للمعرفة.

وفي الآية الرابعة والتي يخاطب الله فيها الرسول الأعظم ﷺ يلفت نظره إلىٰ مسألة نزول الغيث وإحياء الأرض بعد موتها ويقول له: **﴿فانظر إلىٰ آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾**.

وفي الآية الخامسة يشير الله إلىٰ مبدأ خلق الإنسان وأنّه يجب أن ينظر من أي شيءٍ خُلِقَ؟ قد خلق من ماء دافق، ويذكر المشاهدة هنا كوسيلة للمعرفة كذلك.

وفي الآية السادسة يأمر الله الإنسان بأن ينظر إلىٰ غذائه وطعامه كيف نبت وشق الأرض

وخرج النبت من التربة بواسطة نزول المطر فصارت الحبوب والفواكه والخضروات، فإذا نظرنا إليها ودققنا في كل ورقة من أوراقها لوجدناها كتاباً وسفراً يحكي لك عن معرفة الله.

✿✿✿

والآيات الست السابقة تدعو إلىٰ *«النظر»* بينما الآيات الخمس التي بعدها تدعو إلىٰ *«الرؤية»* بالرغم من أنّ كلاً من هذين الاصطلاحين في كثير من الأحيان يستعملان بمعنىً واحد، إلّا أنّه كما يستفاد من قواميس اللغة المعروفة ـ يطلق «النظر» علىٰ حركة العين والتفحص والدقة في مشاهدة شيء، بينما تطلق «الرؤية» علىٰ نفس المشاهدة[١]، بالطبع أنّ كلا المفردتين تستعملان بمعنىٰ المشاهدة الحسية تارة وبمعنىٰ المشاهدة الذهنية والفكرية تارة أُخرى، إلّا أنّه ينبغي الالتفات إلىٰ أنّ المعنىٰ الأولي لهما هو المشاهدة الحسية.

وعلىٰ أيّة حال، فإنّ الآية السابعة تدعو المشركين لمشاهدة مختلف النباتات التي تنبت أزواجاً أزواجاً في أرجاء المعمورة.

والآية الثامنة تدعو المشركين كذلك إلىٰ رؤية مياه البحار ومصدرها تلك القطرات العالقة في الغيوم وهطولها منها علىٰ الأرض اليابسة وخروج الزرع الذي يستفيدون منه هم وأنعامهم.

وقد أشارت الآية التاسعة إلىٰ جميع آيات «الآفاق» و«الأنفس»، وهي آيات الله في هذا العالم العظيم وفي العالم الصغير وهو وجود الإنسان، وقالت: نحن نريكم آيات الآفاق والأنفس كي يتبين لكم الحق ويتضح.

والآية العاشرة دعت إلىٰ مشاهدة الطيور وكيفية طيرانها في السماء، فتارة صافّات اجنحتها وتارة أُخرى قابضات، وهذا الأمر هو الذي يجعلها تطير في السماء خلافاً لجاذبية الأرض، كما أنّ طيرانها بسرعة تارة بصف الأجنحة وأُخرى بقبضها، وكأنّ هناك قدرة خفية تدفعها إلىٰ الأمام، ولكلٍ من الطيور شكلها الخاص بها والوسائل الضرورية لحياتها.

---

١. يراجع مفردات الراغب ولسان العرب مادة «نظر».

والآية الحادية عشرة لفتت الأنظار إلىٰ مسألة خلق الأرض ومن ثم خلق الإنسان الذي يعتبر خلقة عالماً عظيماً مليئاً بالضجيج رغم صغر حجمه، وأنبّت الذين لا يبصرون رغم أنّهم قادرون على الإبصار بخطاب «أفلا يبصرون».

(ينبغي الالتفات إلىٰ أنّ «البصيرة» جاءت من مادة «بصر» الذي يعني «العين» إنّ «بصر العين»، ورغم استعمالها بمعنى «النظر» و«الرؤية» إلّا أنّها تختلف عنهما بالتأكيد علىٰ عضو البصر وقوته، لكنها كالمفردتين السابقتين قد تستعمل بمعنىٰ المشاهدة الباطنية والفكر).

وأخيراً، فإنّ الآية الثانية عشرة تؤكد علىٰ الأعضاء الثلاثة أي الأذن والعين والقلب والتي تعتبر ثلاثة أعضاء أساسية للمعرفة وهذا دليل واضح علىٰ اعتبار المشاهدة والحس من المصادر الأساسية للمعرفة.

*

النتيجة:

إنّ الآيات السابقة والتي غالباً ما تحدثت عن قضية التوحيد ومعرفة الله، أمرت الناس بأن يفتحوا أعينهم أثناء سلوك طريق المعرفة والتوحيد من أجل الوصول إلىٰ الهدف، عندها سيرون اسم «الله» علىٰ جبين كل موجود في هذا العالم، ويشاهدون الأنظمة الدقيقة والغريبة التي تتحكم بالعالم، ومن ثم يصلون ـ بواسطة برهان النظم ـ لا إلىٰ معرفة ذات الله فحسب، بل صفاته وتوحيده وتدبيره وقدرته وعلمه اللامتناهي.

وبالنظر إلىٰ أنّ أهم مسألة في الإسلام هي مسألة التوحيد ومعرفة الله، وأنّ أهم دليل في القرآن على المعرفة هو برهان النظم، وأهم منبع لبرهان النظم هو الطبيعة والمخلوقات فمن هنا تتضح أهميّة الحس والمشاهدة والتجربة من وجهة نظر القرآن الكريم.

وقد استعان القرآن كثيراً بـ«المشاهدة الحسية» ليس في مسألة التوحيد فحسب بل في مسألة المعاد أي ثاني أهم مسألة في الإسلام أيضاً. وقد صوّر لنا لقطات من المعاد بالاستعانة بنفس الطبيعة المشهودة لنا. كما جاء ذلك في سورة (ق) حيث يقول تعالىٰ:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنْبَتنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * ... وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾: أي في يوم القيامة. (ق / ٩ و١١)

كما ـ وأنّه للكشف عن عاقبة الظلم والجور وأهلهما ـ دعا الله الناس لمشاهدة ما خلّف هؤلاء من آثار ومشاهدة مدنهم الخربة.

هذا كلّه تأكيد من القرآن علىٰ ضرورة الاستعانة بـ«الحس والمشاهدة» كمصدر للمعرفة.

٭٭٭

توضيح

الفلاسفة ومصدر الحس:

هناك اختلاف كبير في وجهات نظر الفلاسفة فيما يخص قضية اطّلاعنا علىٰ العالم الذي يحيط بنا وما هي المراحل التي نطويها للوصول إلىٰ هذه المعرفة؟ ومن أي مصدر تصل أذهاننا؟ إنّ أكثر الفلاسفة عدّوا الحس أحد مصادر المعرفة رغم ظهور قطبين علىٰ طرفي الإفراط والتفريط في هذا المجال.

١ ـ «*الحسيون*» حيث يعتبرون الحس الطريق الوحيد للمعرفة وينكرون المصادر الأُخرىٰ كالعقل.

«إنّ هؤلاء الذين ظهروا في القرن السابع عشر أنكروا قيمة البرهان القياسي العقلي، واعتبروا اسلوب التجربة الأُسلوب الوحيد والسليم والمعتمد عليه في هذا المجال، وتعتقد هذه المجموعة بعدم أصالة وتجذر الفلسفة النظرية العقلية المستقلة عن العلوم التجريبية، ويعدون العلم ثمرة الحواس فقط، والحواس لا تتعلق إلّا بظاهر وعوارض الطبيعة، إذن لا اعتبار للمسائل الفلسفية الأولية، وذلك لأنّها نظرية وعقلية بحتة وتتعلق بالأُمور غير المحسوسة، ولا يدرك الإنسان هذه المسائل نفياً أو إثباتاً»[١].

---

١. اصول الفلسفة والمنهج الواقعي للشيخ المطهّري، ج ١، ص ٦ (مع تلخيص قليل).

إنّ الماديين ومن ضمنهم أتباع المذهب «الديالكتيكي» من المتحمسين لهذه النظرية، فهم يقولون:

«إذا انقطعت جميع قنوات التأثير الخارجي عن حسّنا، فهذا يعني أنّا سوف لا نعرف شيئاً، وسيعجز الذهن عن جميع نشاطاته، وتبقىٰ معرفة الواقعيات أمراً محالاً، وعلىٰ هذا فالحس منشأ المعرفة ومبنىٰ أحكامنا اتجاه أي مسألة، فينبغي القول أنّ الحس منبع المعرفة بل منبعها الوحيد»[1].

٢ ـ المجموعة الأُخرى هي التي تقع في الطرف المقابل للمجموعة الأُولىٰ تماماً وهي التي لا تولي أي أهميّة للحس في مجال المعرفة.

يقول «ديكارت»: «لا نستطيع الوثوق بالمفاهيم التي وصلتنا من الخارج بواسطة الحواس الخمسة بأنّ لها مصداقاً خارجياً أم لا، وإذا كان لها مصداق فلا يقين لنا بتطابقه مع الواقع»[2].

مسار الحكمة في اوربا: «يعتقد (ديكارت) أنّ محسوسات الإنسان لا تتطابق مع الواقع، وأنّ الحس هو وسيلة ارتباط بين جسم الإنسان والخارج، ويرسم لنا صورة كاذبة عن العالم، فهو يعتقد أن المفاهيم النظرية هي أساس العلم الواقعي»[3].

والخلاصة: أنّ هذه المجموعة تعتقد أن المعقولات فقط لها قيمة علمية يقينية، أمّا المحسوسات فلها قيمة علمية غير يقينية[4].

إنّ المجموعةَ الأُولىٰ تستند إلىٰ أخطاء العقل النظري والاختلاف الفاحش بين العلماء في المسائل العقلية، بينما تستند المجموعة الثانية إلىٰ أخطاء الحواس، حيث يذكرون أعداداً لا تحصىٰ من أخطاء حاسة البصر التي تعتبر أهم وأوسع حس للإنسان.

---

١. المادية الديالكتيكية «نيك آئين»، ص ٣٠٢، (ملخص) ـ بالفارسية ـ.

٢. مسار الحكمة في اوربا، ج ١، ص ١٧٢ (مع تلخيص) ـ بالفارسية ـ.

٣. المصدر السابق.

٤. اصول الفلسفة، المقالة الرابعة (قيمة المعلومات).

لكن ممّا لا شك فيه أنّ كلتا المجموعتين خاطئتان، ونوضح ما ندعيه بصورة مركزة فنقول:

بالنسبة للحسيين يمكن حصر أهم إشكالاتهم في النقاط التالية.

١ ـ إنّ كلّ إنسان عند مشاهدته للموجودات الخارجية يواجه مجموعة من الحوادث والقضايا الجزئية لا يمكن الاستفادة منها للاستدلال، لأنّ كل استدلال يجب أن يستند إلىٰ قضية كلية.

ومن هنا تبدأ مسؤولية العقل، حيث يقوم بصياغة قضايا كلية من هذه الجزئيات، فمثلاً نلاحظ أن قطعة الحجر تكسر الزجاج العادي في ظروف مختلفة، فهذه الحوادث الجزئية الحاصلة بالحس تنتقل إلىٰ العقل، فيصوغ العقل قاعده كلية تجاه هذه المسألة. وكذلك الأمر بالنسبة للتجربة في الظروف والازمنة والأمكنة المختلفة التي تكشف عن أن الضوء ينتشر بصورة خط مستقيم، فالعقل يصوغ قاعدة كليّة من هذه الحوادث الجزئية لا وجود لها في الخارج والموجود في الخارج هو مصاديقها لا ذاتها.

وعليه فالإدراكات الحسية كالمواد الخام التي قد «تتحلل» وقد تتركب في مختبر العقل، ومن خلال هاتين العمليتين نحصل علىٰ المفاهيم الكلية التي يستفاد منها في المنطق والاستدلال.

٢ ـ ممّا لا شك فيه أنّه ينبغي الاستفادة من العقل لإصلاح الأخطاء الناشئة من خطأ الحواس، فعندما نقول:

فإذا اخطأ البصر في رؤية الأشجار المتوازية متقاطعة من بعيد فإنّ المعيار في تشخيص و إدراك الخطأ هذا هو العقل.

صحيح أن تمييزنا لهذا الخطأ يستند إلىٰ الحس أيضاً حيث إننا ندرك خطأ بصرنا من بعيد لأنا طوينا الشارع من اوله إلىٰ آخره عدة مرّات وشاهدنا الأشجار في طول الشارع متوازية ولم تلتقِ في مكانٍ، لكن هذا الاستدلال الذي يستند إلىٰ الحس يقوىٰ عندما يقول لنا العقل إنّ اجتماع النقيضين محال، ويقول بامتناع أن تكون الأشجار متوازية ثم تلتقي في

نقطة واحدة، فاستدلالنا بهذا الشكل يثبت لنا خطأ ما نشاهده من بعيد. في الحقيقة إن قضية امتناع اجتماع النقيضين التي تدرك بالعقل تشكل حجر الأساس لجميع الاستدلالات، وعليه فلا يؤخذ بالدليل الحسي دون الاستناد إليها.

٣ ـ فضلاً عما سبق، فإنّ ما ندركه بالحس هو ظاهر الأشياء، وما نرىٰ من الجسم بالحس مجرد مظهره لا شيء آخر، وعليه فبدون تدخل الإدراكات العقلية لا نستطيع معرفة حقيقة الجسم.

قد يقال: إنّ الحواس لا دور لها لوحدها بل يجب الاستعانة بالإدراكات العقلية حتىٰ في العلوم التجريبية، لكن ينبغي الاذعان إلىٰ هذه الحقيقة ـ وهي أنّ جميع الإدراكات العقلية حصلت بواسطة الحواس وكما يقول «جان لاك» الفيلسوف الانجليزي المعروف: «لا شيء في العقل لم يوجد قبله في الحس».

إنّ هذه الجملة التي أصبحت مثلاً وبقيت ذكرىٰ منه تدل علىٰ أنّ الذهن كان كاللوحة البيضاء في البداية وقد ينقش عليها بعد ذلك بواسطة الحواس، وأن لا وظيفة للعقل غير «التجريد» و«التعميم» أو «التحليل» و«التركيب» لمدركات الحواس.

لكن هذا خطأ فظيع، وذلك لأنّ علمنا بأنفسنا (الذي هو علم حضوري) لم يحصل بواسطة الحواس، كذلك علمنا بوجود الحواس، أو علمنا باستحالة اجتماع النقيضين لم يحصل عن طريق الحواس، فنحن ندرك محالة أن نكون موجودين ومعدومين في آن واحد وإن لم نملك حواساً، كذا الأمر بالنسبة لقضايا أُخرىٰ لا حاجة فيها إلىٰ الحواس.

وتوجد أبحاث كثيرة في هذا المجال لو أسهبنا فيها لابتعدنا عن هدف هذا الكتاب، وتَطَرُّقُنا لبعضها هنا كان بهدف توضيح نظريتي «الحسيين» و«العقليين» الذين حصروا سبل المعرفة في بُعد واحد، وأن نظريتيهما سقيمتان وأن كلاً من *«الحس»* و *«العقل»* يشكلان منبعاً ومصدراً للإدراك، كما انعكس ذلك في القرآن المجيد.

❀❀❀


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٢ـ العقل و التحليل المنطقي

تمهيد:

في القرآن الكريم تعابير كثيرة استعملت للإشارة إلىٰ هذا المصدر كما يشاهد الكثير من الآيات التي تدعو الناس إلىٰ المعرفة بالاستعانة بـ«التفكير».

ونذكر هنا بعض تلك التعابير التي استعملت للإشارة إلىٰ هذا المصدر المهم للمعرفة:

١ ـ *العقل.*

٢ ـ *اللب* (وجمعه ألباب).

٣ ـ *الفؤاد.*

٤ ـ *القلب.*

٥ ـ *النهىٰ.*

٦ ـ *الصدر.*

٧ ـ *الروح.*

٨ ـ *النفس.*

كما أنّ هناك تعابير استعملت في القرآن لبيان مهمة العقل مثل:

٩ ـ *الذكر.*

١٠ ـ *الفكر.*

١١ ـ *الفقه.*

١٢ ـ *الشعور.*

١٣ ـ *البصيرة*.

١٤ ـ *الدراية*.

والآن نبحث كلاً من العناوين السابقة في ضمن بحثنا عن الآيات التي وردت فيها تلك التعابير [١].

❧❦

لنمعن خاشعين أولاً في الآيات التالية:

١ ـ ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. (البقرة / ٢٤٢)

٢ ـ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ﴾. (آل عمران / ١٩٠)

٣ ـ ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. (النحل / ٧٨)

٤ ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾. (ق / ٣٦ ـ ٣٧)

٥ ـ ﴿كُلُوا وَارْعَوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾. (طه / ٥٤)

٦ ـ ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾. (العنكبوت / ٤٩)

٧ ـ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

(الحجر / ٢٩) و (ص / ٧٢)

---

١. إضافة إلىٰ العناوين والتعابير السابقة التي أُشير إليها، هناك تعابير استعملت في القرآن وأُريد بها مراحل الإدراك مثل: الظن والزعم والحسبان واليقين، وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، والتي تبدأ بمرحلة هشة ومتزلزلة من الإدراك وتنتهي باليقين الذي هو أعلىٰ مراحل الإدراك ولا يتصور درجة ومرحلة أعلىٰ منه.

٨ ـ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾. (الشمس / ٧ ـ ٨)

٩ ـ ﴿... وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون﴾. (البقرة / ٢٢١)

١٠ ـ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾. (الأنعام / ٥٠)

١١ ـ ﴿أُنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾. (الأنعام / ٦٥)

١٢ ـ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحياءٌ وَلَكِنْ لَّا تَشْعُرُونَ﴾.

(البقرة / ١٥٤)

١٣ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُّبْصِرُونَ﴾.

(الاعراف / ٢٠١)

١٤ ـ ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدَاً وَمَا تدرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرضٍ تَمُوتُ﴾.

(لقمان / ٣٤)



شرح المفردات:

«العقل» كما جاء في لسان العرب ومفردات الراغب ـ من العقال أي الحبل الذي يُشدُّ به ساق البعير لمنعه من الحركة وبما أنّ العقل يردعُ الإنسان عن القيام بالأعمال المشينة اطلقت هذه المفردات عليه.

وقد ذكر صاحب الصحاح أنّها تعني *«الحِجْر»* «المنع» بينما قال البعض كصاحب القاموس: إنّها تعني «العلم بصفات الأشياء كالحسن والقبح والكمال والنقص»، أمّا صاحب مجمع البحرين فقد فسر العاقل بانه: «الذي يستطيع أن يسيطر على نفسه ويتغلب على أهوائه وميوله».

ويظهر أنّ معناه الأولي هو الصد والمنع ولهذا يقال لمن امتنع لسانه عن النطق «اعتقل لسانه» كما يقال «للدية» «عقل» لأنّها تحول دون إهراق دماءٍ أكثر، ويقال للمرأة العفيفة والمحجبة والطاهرة «عقيلة».

يقول «الخليل بن أحمد» في كتابه «العين»: إنّ العقل يطلق علىٰ القلعة والحصن أيضاً.

كما نلاحظ هنا فإنّ مفهوم الحجر والمنع متضمّن لجميع هذه المعاني، وعليه فإن أصلهُ يعني المنع.

أمّا كلمة *«اللب»* وجمعها *«الألباب»* ـ كما يقول كثير من أهل اللغة ـ يعني الخالص والصفوة من كلّ شيء، ولهذا يطلق علىٰ المرحلة الرفيعة من العقل «اللب»، فإنّ كل لبٍ عقلٌ لكن ليس كل عقلٍ لُباً، لأنّ اللب هو العقل في مراحله الرفيعة والخالصة، ولهذا السبب نُسِبَتْ أُمورُ القرآن الكريم إلىٰ «أُولي الألباب» لا تدرك إلّا بالمراحل الرفيعة من العقل، كما يطلق اللب علىٰ باطن كثير من الفواكه لأنّه خالص من القشر [١].

وإنّ كلمة *«الفؤاد»* ـ كما أشرنا سابقاً ـ من مادة «فأد» علىٰ وزن (وَعْد) وفي الأصل معناه وضع الخبز علىٰ الرماد أو الحصىٰ الحارة، كي يُخبز جيداً، كما يطلق علىٰ طبخ وشوي اللحم [٢].

وعلىٰ هذا فالعقل عندما ينضج يطلق عليه «فؤاد» وجمعهُ «أفئدة».

ويضيف الراغب في مفرداته: إنّ «الفؤاد» يعني القلب مع زيادة وهي الإنارة واللمعان.

إنّ *«القلب»* ـ كما جاء في القاموس والمفردات والعين ولسان العرب ـ في الأصل يعني تغير الشيء وتحوله، وغالباً ما يستعمل بمعنيين، فتارة يطلق علىٰ العضو الذي يتكفل بضخ الدم إلىٰ جميع أعضاء البدن، وتارة أُخرى يستعمل فيرادُ به الروح والعقل والعلم والفهم والشعور، وجاء هذا الاطلاق من حيث إنّ القلب الجسماني والقلب الروحي في حركة وتغيّر مستمرين، وكما يقول بعض أهل اللغة:

ما سمي القلب إلّا من تقلبه ... والرأي يصرف بالإنسان أطوارا!!

كما أنّ كلمة «القلب» تطلق علىٰ مركز كل شيء مثل: قلب العسكر، لأنّ القلب مركز جسم وروح الإنسان، وقد جاء في القاموس أنّ خالص كلّ شيءٍ يقال له «قلب».

---

١. لسان العرب والمفردات ومجمع البحرين.

٢. لسان العرب وتاج العروس ومفردات الراغب.

وكلمة «*النهىٰ*» تَعني «العقل» ومن مادة «نهي» علىٰ وزن (سَعْي) ويعني المنع من شيء مأخوذ. وقد صرح كثير من أئمة اللغة (كصاحب المفردات ومجمع البحرين ولسان العرب وشرح القاموس) أنّ هذه التسمية جاءت من حيث إنّ العقل ينهىٰ عن الأعمال المشينة.

و«*الصدر*» في الأصل يعني القسم الأمامي الذي تحت الرأس (في الجسم) ومن ثم اطلق علىٰ القسم الأعلىٰ والمقدم لأي شيء، مثل صدر المجلس أي أعلاه، وصدر الكلام أي بدايته، وصدر النهار أي أوله (كما جاء ذلك في المفردات ولسان العرب).

إلّا أنّه قد يستفاد من بعض الكلمات معنىٰ المقدمية والبداية لكل شيء، وعلىٰ كل حال، بما أنّ العقل عضو مهم ويقع في الجزء الأعلىٰ من البدن أُطلق عليه صدر، خاصة وأنّ القلب الجسماني يقع في وسط الصدر (العضو المعروف من البدن)، وسنذكر فيما بعد أنّ هناك علاقة وثيقة بين انقلاب القلب العضوي والانقلابات العقلية.

أمّا كلمة «*الروح*» في الأصل تعني التنفس، وبما أنّ هناك علاقة وثيقة بين التنفس وبقاء الحياة، استعملت بمعنىٰ النفس ومركز العقل وفهم الإنسان.

وقد صرح البعض أن كلمتي «الروح» و«الريح» اشتقتا من أصل واحد، وإذا سميت الروح ـ التي هي وجود مجرّد ومستقل ـ روحاً فذلك من حيث إنّ الروح كالريح توجد الحيوية والحركة من دون أن تُرىٰ.

وَكلِمة «*النفس*» ـ وكما يقول الراغب وصاحب القاموس ولسان العرب وكتاب العين ـ تعني الروح التي هي مركز إدراكات الإنسان، إلّا أنّ القرآن الكريم ذكر مراحِلَ النفس: «*فالنفس الامارة*» هي النفس التي تأمر الإنسان بالمعاصي وترغبه بها، و«*النفس اللوامة*» وهي التي تندم علىٰ المعاصي التي ارتكبها الإنسان وتوبخه عليها، و«*النفس المطمئنة*» وهي التي تتحكم بجميع الشهوات والميول وقد وصلت إلىٰ مرحلة الاطمئنان.

من مجموع ما سبق، يتبين لنا أنّ القرآن المجيد استعمل مفردات كثيرة للإشارة إلىٰ العقل، وكلٌّ من هذه المفردات تشير إلىٰ جانب من جوانب هذا الوجود النفساني، وبتعبير آخر كلٌّ منها يتعلق ببعد من أبعاد العقل.

وبما أنّ هذه القدرة الغامضة تردع الإنسان عن الأعمال المشينة وتمنعه عنها قيل لها عقل ونُهىٰ.

وبما أنّه في حال انقلاب وتحول دائم قيل له «قلب»، وبما أنّه في القسم الأعلىٰ من بدن الإنسان قيل له «الصدر».

وبما أنّ هناك علاقة وثيقة بينه وبين الحياة قيل له «روح» و«نفس»، وعندما يصل إلىٰ مرحلة الإخلاص ويصفو من الشوائب يقال له «لُبّ»، وأخيراً عندما تنضج أفكاره يطلق عليه «فؤاد».

نستنتج من هذا البيان أنّ استعمال هذه المفردات المتنوعة في القرآن لم يكن اعتباطاً بل كان منسجماً ومتماشياً مع الموضوع الذي في الآية، وهذا من عجائب القرآن التي يدركها الإنسان عند تتبعه لآيات القرآن وتفسيره لها موضوعياً.



أفعال العقل:

إنّ *«الذكر»* يمثل الاصطلاح المقابل للنسيان، وكما يقول الراغب: إنّه حالة في الإنسان تمكنه من حفظ ما أدرك واستحضاره في الذهن عند الحاجة، وهذا المعنىٰ قد يتم بالقلب وقد يحصل باللسان.

وإنّ *«الفكر»* يعني فعالية العقل، وعلىٰ ما يقوله الراغب: إنّه قوة تسوق العلم إلىٰ المعلومات، ويعتقد بعض الفلاسفة: أنّ حقيقة الفكر تتركب من حركتين: حركة نحو المقدمات، ثم حركة من المقدمات إلىٰ النتيجة، ومجموع هاتين الحركتين اللتين تؤدّيان إلىٰ العلم والمعرفة يقال لهما «الفكر».

و*«الفقه»* يعني «الفهم» بصورة عامة ـ كما جاء ذلك في لسان العرب ـ إلّا أنّ الراغب في مفرداته يقول: إنّه بمعنىٰ الاطلاع علىٰ أمرٍ خفي بالاستعانة بأمرٍ ظاهر وجلي، وعليه فالفقه علم يحصل بالأدلة (بالطبع إنّ الفقه المصطلح فعلياً هو علم الأحكام الإسلامية).

أمّا «الشعور» فيعني العلم والمعرفة ـ كما يقوله بعض من أئمّة اللغة كصاحب القاموس ولسان العرب ومقاييس اللغة وغيرهم ـ إلّا أنّ الراغب قال في مفرداته: يعني «الاحساس»، وإذا كان المقصود هو الاحساس الباطني فلا اختلاف مهم بين ما قاله الراغب وما قاله الآخرون في شرح معنىٰ الشعور، وقد جاء الشعور في كثير من آيات القرآن وأُريد به (العلم)، إلّا أنّه استعمل في موضع آخر وقصد به الاحساس الخارجي.

إنَّ كلمة «البصيرة» اشتقت من البصر، وقد جاءت ـ كما يقول الراغب ـ بثلاثة معانٍ: بمعنىٰ العين، وبمعنىٰ قوة العين، وبمعنىٰ قوة الإدراك والعلم.

وقد قال البعض: إنّ معناها في الأصل هو العلم سواء حصل بالمشاهدة الحسية أو بالعقل [1].

وتستعمل مفردة «البصيرة» بالخصوص في «الإدراك القلبي والعلم»، ولهذا جاء في لسان العرب أنّها تعني الاعتقاد القلبي، وقد فسّرها البعض بالذكاء الذهني.

وقد استعملت بالمعنىٰ الأخير في القرآن الكريم حيث يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[2]. (يوسف / ١٠٨)

وكلمة «الدراية» تعني العلم والخبرة بصورة عامة، أو العلم والخبرة في الأُمور الخفية والمستترة، كما قد جاءت بمعنىٰ «الكياسة»، كما يستفاد من قواميس اللغة أنّها في الأصل تعني الالتفات إلىٰ شيءٍ ثمّ استعملت وأُريد منها الخبرة بشيءٍ، وقد استعملت في القرآن الكريم مراراً وقصد بها مفهوم «العلم»، ويستخلص من هذا القسم من بحثنا أنّ الألفاظ التي استعملت للتعبير عن العقل وأُريد منها مفهوم العلم والإدراك ألفاظ متنوعة، وكلٌّ منها تُعبّر عن بُعد وجانب من أبعاد وجوانب العقل، وقد استعملت كلٌّ في موردها!

فعند البحث عن الخبرة مع الدقة استعملت «الدراية»، وعند البحث عن التحليل والعقل

---

١. التحقيق في كلمات القرآن الكريم مادة (بصر).

٢. وقد جاءت في آيات أُخرىٰ واريد منها نفس المعنى كما في الآيات: القيامة ١٤؛ و الأنعام ١٠٤؛ الأعراف ٢٠٣؛ الاسراء ١٠٢.

استعمل «الفكر»، وعند البحث عن أمرٍ خفي ومعرفته بالاستعانة بأمرٍ محسوس استعمل «الفقه»، وعند البحث عن الخبرة المقترنة بالحفظ والحضور بالبال استعمل «الذكر»، وعلىٰ هذا السياق تستعمل كل مفردة في محلها وكل لفظ في مقامه.

وينبغي الالتفات هنا إلىٰ هذه النقطة وهي أنّ التعبيرات التي استعملت في القرآن لبيان مهام العقل لها مراحل ورتب، تبدأ بـ«*الشعور*» ويراد منه الإدراك البسيط، ثم مرحلة «الفقه» والذي يعني إدراك المسائل الخفية من المسائل الجليّة، وبعدها تأتي مرحلة «الفكر» ويُراد منه التحليل العقلي، ثم تأتي مرحلة «*الذكر*» أي الحفظ في الذهن والحضور في البال، ثم مرحلة «*النُّهىٰ*» التي تعني الإدراك العميق لحقائق الأُمور، وتنتهي هذه المراحل بمرحلة «*البصيرة*» التي تعني النظر الذهني العميق.

وهذا هو معنىٰ البلاغة والفصاحة!



جمع الآيات وتفسيرها

قيمة العقل في مقياس القرآن:

إنَّ أول آية تناولناها بالبحث هنا تؤكد بان الهدف من نزول الآيات هو العقل والتفكير لدىٰ الإنسان، وتكشف عن هذه الحقيقة بالتعبير بـ(لعلَّ) التي تفيد بيان الهدف في موارد كهذا المورد.

وقد أكدت بعض الآيات على هذا الموضوع وذهبت إلىٰ ابعد من ذلك حيث وبّخت الناس علىٰ عدم تفكرهم وتعقلهم وآخذتهم بعبارةٍ كهذه: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾[1].

وقد تكرر هذا المضمون بصيغة جملة شرطية، حيث يقول تعالىٰ: ﴿**قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾. (آل عمران / ١١٨)

---

١. آل عمران، ٦٥؛ الأنعام، ٣٢؛ الاعراف، ١٦٩؛ يونس، ٦١؛ هود، ٥١؛ يوسف، ١٠٩؛ الأنبياء، ١٠ و٦٧؛ المؤمنون، ٨٠؛ القصص، ٦٠؛ الصافات، ١٣٨.

إنّ هذه التعابير المختلفة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، أَفَلا تَعْقِلُونَ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تكشف بوضوح عن هذه الحقيقة وهي: إنّ الله وهب الإنسان العقل كي يستعين بقدرته علىٰ إدراك الحقائق وفهمها، ويستحق اللوم والتوبيخ إذا ترك الانتفاع بهذه القدرة.

والآية الثانية ومن خلال اشارتها إلىٰ آيات الله في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار صرحت: إنّ إدراك هذه الآيات أمر يسير لأُولي الألباب.

وكما أشرنا سابقاً، فإنّ (أُولي الألباب) هم العلماء الذين خلصت عقولهم من جميع ترسبات الأوهام، فهم يدركون وقائع نظام الخلق، ويرون جمال الخالق من خلالِ المخلوقات، وهذا يكشف عن أهميّة العقل كطريق لمعرفة الحق جل وعلا.

أمّا الآية الثالثة، فبعد أن أشارت إلىٰ خروج الإنسان من بطن أُمّه لا يعلم شيئاً شرحت وسائل المعرفة، فبدأت بحاسة «*السمع*» الذي تُعرف علومه بـ«العلوم النقلية»، من خلال الاصغاء إلىٰ أقوال الآخرين، ثم ذكرت «*البصر*» الذي تميز به الأشياء بعد مشاهدتها ثم ختمت بـ«الفؤاد» الذي تُدرك به الحقائق غير المحسوسة، وقد قلنا سابقاً: إنّ الفؤاد هو العقل عند نضوجه، فهو أعلىٰ درجة من العقل.

والآية الرابعة بعد إشارتها إلىٰ الأقوام السالفة المقتدرة والتي أُبيدت وأُهلكت بسبب، وقد أُهلكوا لطغيانهم وفسادهم، ولم يستطيعوا الفرار والنجاة، قالت: ﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ (في سيادتهم ثم إبادتهم) لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ (أي عقل) أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ (أي يصغي للنصائح)﴾!

والآية الخامسة بعد الإشارة إلىٰ إحياء الأرض الميتة وانبات الزرع فيها الذي يمثل غذاء الإنسان ودوابّه، صرحت: إنّ هذه الأُمور آيات يدركها أصحاب النهىٰ.

وكنّا قد أشرنا إلىٰ أنّ النهىٰ هو العقل بما هو ناهٍ عن فعل الأفعال القبيحة.

أمّا الآية السادسة فبعد أن أشارت إلىٰ الآيات العظيمة والبيّنة للقرآن، قالت: إنّ هذه الآيات في صدور (قلوب) الذين أُوتوا العلم، وكما بيّنا من قبل فانّ الصدر يعني الجزء المقدم والأعلىٰ من كل شيء، وهذا يبيّن أنّ العقل الذي يعتبر من المصادر المهمّة للمعرفة، يشكل أشرف جزء في الإنسان.

والآية السابعة بعد أن ذكرت قصة خلق آدم عليه السلام خاطبت الملائكة بالقول: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾. (٢٩ / حجر) و (ص / ٧٢)

وهذه (الروح الإلهيّة) هي (جوهر العقل)، وقد اضيفت إلىٰ الله لأهميتها (ويقال لهذه الإضافة اضافة تشريفية) لأنّ الله لا روح له ولا جسم، ولأجل هذه الروح الإلهيّة سجد جميع الملائكة المقربين لآدم عليه السلام، وإلّا فالطين والتراب لا قيمة لهما، وهذا تأكيد شديد علىٰ أهميّة وقيمة العقل.

ﮰ

والآية الثامنة تشير إلىٰ خلق (النفس) أي الروح والعقل، وتُقسم بخالق النفس، ثم تضيف: إنّ الله ألهم وكشف للنفس طريقي الفجور والتقوىٰ بعد أن أوضح لها هذين الطريقَيْن، وهذا تلميح جميل إلىٰ الإدراكات الفطرية التي جُبِلَ عليها الإنسان منذ أن بدأ حياته.

كان هذا مجموع العناوين والمفردات الثمانية التي استعملت في القرآن وأريد بها الإشارة في كل مفردة منها إلىٰ جانب وبُعد من جوانب وأبعاد جوهر العقل، وقد بينت هذه العناوين الأبعاد المختلفة لهذا المصدر المهم للمعرفة.

ﮰ

إنَّ ما ذكر سلفاً كان بحثاً في جوهر العقل، أمّا بالنسبة لنشاط ووظيفة العقل، فهنالك تعابير عديدة في القرآن كانت قد اختصت بهذا الموضوع وكلٌّ منها تبيّن جانباً من جوانب وأبعاد نشاط العقل، وهي كالتالي:

الآية التاسعة بحثت التذكر واعتبرته الهدف من بيان آيـات الله، والتـذكّر هـو الحـفظ والخطور في الذهن وهو أحد أهم وظائف العقل، وإذا لم يكن التذكر حاصلاً عند الإنسان ما استفاد الإنسان من علومه شيئاً.

وفي هذا المجال نرىٰ تعبيرات مختلفة في القرآن، فقد يذكر الموضوع الاستعانة بالأداة (لعل) التي تفيد بيان الهدف في موارد كهذا المورد، وتارةً أُخرى يعبر عن الموضوع باسلوب التوبيخ واللوم مثل ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

وقد يبين الموضوع باسلوب التوبيخ لأولئك الذين لا يـنتفعون بـالعقل والفكـر، فـلا يحفظون الحقائق ولا يتذكرونها، كما هو الأمر في: ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُون﴾.

(الاعراف / ٣) و (النمل / ٦٢).

ﷻ

وقد تحدثت الآية العاشرة عن (التفكر) بعد استفهام اسـتنكاري: ﴿قُـلْ هَـلْ يَسْـتَوِى الأَعْمَىٰ وَالْبَصِير﴾؟ وقد وجهت اللوم بقولها: ﴿أَفَلا تتفكرون﴾، وكما أشرنا سابقاً إلىٰ أنَّ التفكير يعني تحليل وتجزئة المسائل للوصول إلىٰ حقائقها، وهـو سـبيل للـفهم الأكـثر والأفضل.

وقد تنوّعت تعبيرات القرآن في هذا المجال، فتارةً يكـون الأُسـلوب هكـذا ﴿لَـعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُون﴾. (البقرة / ٢١٩)

وتارة يكون: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون﴾. (يونس / ٢٤)، و (الرعد / ٣)، و (النحل / ١١)

وتارة أُخرى يكون: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾. (الروم / ٨)

ﷻ

وتحدثت الآية الحادية عشرة عن «الفقه» الذي يعني الفهم العميق، حيث قالت: «انظر

---

١. كما في سور الأنعام، ٨٠؛ هود، ٢٤؛ النحل، ٩٠؛ المؤمنون، ٨٥؛ الصافات، ١٥٥.

كيف نصرّف الآيات» بأنواع من البينات ﴿لَعَلَّهُم يَفْقَهُونَ﴾ فقهاً عميقاً.

وقد جاءت العبارة هنا بصيغة: ﴿لَعَلَّهُم يَفْقَهُونَ﴾. (الانعام / ٦٥)

كما قد جاءت في مكان آخر بصيغة: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾. (الأنعام / ٩٨)

وفي آية أُخرى باسلوب: ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾. (التوبة / ٨١)

وفي أُخرى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ الَّا قَلِيلاً﴾. (الفتح /١٥)

وكلها تبين الأهميّة القصوىٰ للفهم والإدراك العقلي.

وكما قلنا سابقاً، فإنّ كلمة «الفقه» تعني إدراك الأُمور الخفية بالاستعانة بمشاهدة الأُمور الجلية، وهذا الإدراك هو أحد أبعاد الإدراك العقلي.

وتحدثت الآية الثانية عشرة عن «الشعور»، فبعد أن نهت المؤمنين عن نعت الشهداء بالأموات قالت: إنّهم أحياء ولكن لا تشعرون أي لا تدركون.

وقد يراد بالشعور هنا معنىٰ الاحساس الظاهري، أو الاحساس الباطني، وقد استعمل بكلا المعنيين في القرآن المجيد.

وقد ذمّ القرآن في موارد مختلفة، أولئك الذين لا يشعرون ولا يستخدمون شعورهم[١].

٨٠٠٣

وقد تحدثت الآية الثالثة عشرة عن «البصيرة» بعد ما أشارت إلىٰ المتقين، حيث قالت: إنّ المتقين إذا ما ابتلوا بوساوس الشيطان تذكروا الله وأبصروا وادركوا الحقيقة فنجوا من شباك الشياطين.

إنّ *«البصيرة» و«الأبصار»* هو الرؤية وقد تتم الرؤية بواسطة العين الظاهرة فيكون بصراً حسياً، وقد تتم بواسطة العين الباطنية أي العقل فذلك «الإدراك العقلي»، والمراد من البصيرة في هذه الآية هو المعنىٰ الثاني.

---

١. كما في الآيات الآتية، الشعراء، ١١٣؛ الحجرات، ٢؛ البقرة، ٩؛ آل عمران، ٦٩؛ الأنعام، ٣٦ و١٢٣؛ المؤمنون، ٥٦.

إنّ الإنسان علىٰ نفسه بصيراً: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾. (القيامه / ١٤)

والرسول وأتباعه على بصيرة فيما يدعون إليه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾. (يوسف / ١٠٨)

وقد استعملت البصيرة في جميع هذه الموارد بمعنىٰ المعرفة الحاصلة عن طريق العقل قطعاً.

٭٭٭

وقد تحدثت الآية الرابعة عشرة والأخيرة عن «الدراية» التي تعني الذكاء والخبرة والاحاطة بالمسائل الخفية أو غير المحسوسة، حيث قالت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾. (لقمان / ٣٤)

وقد استعملت الدراية في القرآن بصيغ السلب دائماً، ويفيدنا في هذا أنّ الدراية مرحلة عميقة من الفهم والإدراك لا تحصل لِكلِّ إنسان.

٭٭٭

نستنتج من الآيات السابقة النتائج الآتية:

١ ـ إنَّ القرآن يعتبر العقل من المصادر الأصلية للعلم والمعرفة، وقد أولاه أهميّة قصوىٰ.

٢ ـ القرآن يدعو الجميع للتعقل والتفكّر في جميع الأُمور.

٣ ـ التفت القرآن التفاتاً خاصاً إلىٰ ماهيّة الروح الإنسانية وأبعادها المختلفة، وأكّد علىٰ كلٍ من هذه الأبعاد.

٤ ـ عبر القرآن عن نشاطات الروح في مجال إدراك الواقعيات تعبيرات مختلفة، وقد استخدم واستفاد من كل تعبير في محله.

إلّا أنّ القرآن ذكر موانع عديدة تحول دون الإدراك الصحيح للعقل. سنبحثها في فصل (حجب المعرفة) إن شاء الله.

٭٭٭

توضيحات

١ ـ الإدراكات العقلية برؤية فلسفية

بالرغم من أنّ أغلب الفلاسفة يعتبرون الإدراك العقلي أحد المصادر المهمّة للعلم والمعرفة، إلّا أنّ الفلاسفة الحسيّين يخالفون هذا الأمر، ولا يعيرون للإدراكات العقلية أهميّة واعتباراً ـ كما أشرنا إلىٰ ذلك سابقاً ـ ويحصرون طرق المعرفة بالتجارب الحسية متذرّعين بالحجج الواهية الآتية:

١ ـ اختلاف الفلاسفة في المسائل العقلية، فإنّ كلَّ طائفة منهم قدّمت أدلة ظاهرها يوحي بأنّها منطقية لإثبات مدعاها.

٢ ـ وقوع كثير من العلماء بأخطاء معتقداتهم بحيث يضطر البعض في مواقع عديدة للاعتراف بخطئه ويسعىٰ لتصحيحه.

٣ ـ كما يجب إضافة أمر آخر إلىٰ الأمرين السابقين وهو: إنّ التقدم والتطور السريع للعلوم الطبيعية في القرون الأخيرة حلَّ الكثير من ألغاز العالم وأسراره عن طريق التجربة الحسية، وهذا الأمر قوّىٰ فكرة الاستناد إلىٰ التجربة الحسية (في مجال المعرفة) فقط، وألغىٰ بقيّة الطرق.

وتقرأ في «تاريخ الفلسفة»: إنّ موضوعاً كهذا الموضوع سبب انكار الحقائق (الحسية وغير الحسية) من قبل السوفسطائيين في اليونان القديمة، فمن جهة نظروا إلىٰ اختلاف الفلاسفة، ومن جهة أُخرى نظروا إلىٰ عوام الناس، فبعضهم يؤيدون ادّعاء وكيلي المتنازعين في المحكمة، ويعطون الحق لكلٍ من الطرفين وكأن كلا الطرفين علىٰ حق، ولهذا قويت عندهم فكرة أن لا حقيقة واقعاً.

وهنا ينبغي الالتفات إلىٰ عدة أُمور لرفع هذه الالتباسات:

الأمر الاول: هو وجوب فصل «الإدراكات البديهية» عن «النظرية» عند التحقيق في مسألة الإدراكات العقلية، وذلك لأنّ الاخطاء لا تحصل في البديهيات، فلا يشك أحد في أنّ الاثنين نصف الأربعة، أو أن شيئاً لا يمكن أن يكون موجوداً ومعدوماً في آن واحد ومكان

واحد، وإذا شاهدنا أشخاصاً يشككون في هذا الأمر أو يعتقدون، بخلاف ما هو بديهي فهم في الواقع يتلاعبون بالألفاظ لا أكثر، فيفسرون (النقيضين) أو «الضدين» بمعانٍ غير تلك المعاني المتعارف عليها، والّا فلا خلاف في اصل الموضوع.

الامر الثاني: لا يخطأ الاستدلال إذا استند إلىٰ مقياس دقيق، فالخطأ ينشأ عندما يستند الدليل إلىٰ مقاييس غير دقيقة، ولهذا لا نشاهد اختلافاً في مسائل الرياضيات وقوانينها، لأنّها تعتمد علىٰ أسسٍ دقيقة، ونمتلك معايير واضحة لمعرفة صحة أو خطأ النتيجة لأي مسألة، والنتائج تكون قطعية كذلك.

الأمر الثالث: إنّ قولنا بوجود أخطاءٍ في الإدراكات العقلية، دليل علىٰ قبولنا للإدراكات العقلية لا علىٰ نفيها، وذلك لأنّ مفهوم حديثنا عن الأخطاء في الإدراكات هو أننا نقلب بعض الحقائق ونخطّيء عقائد الآخرين علىٰ أساس تلك الحقائق المقبولة لدينا.

مثلاً عندما حكمنا بصحة أحد آراء الفلاسفة المختلفين، فانّنا نعلم أنّ صحة اعتقادين متضادين محال، وهذا إدراك عقلي بديهي، وقضية القائلين: «إنّ الحس لا اعتبار له لأنّه يُخطِيءُ» تماثل هذه القضية، وكما ذكرنا سابقاً، فان تخطئتنا للباصرة في إدراكها لخط دائري ممتد ناشئة عن معرفتنا بأن هذا الخط نقطة نورانية متحركة، وبما أنّ «النقطة» تضاد «الخط» حكمنا بخطأ الباصرة في إدراكها للخط الممتد، وهذا اعتراف ضمني بوجود حقائق وإمكانية إدراكها.

وآخر الحديث، نقول: في الحقيقة إنّ جميع المنكرين للإدراكات العقلية يريدون إثبات مدعاهم بنفس الإدراكات، أي أنّهم ينقضون مدعاهم عملياً، وقد هبوا لحرب الإدراكات العقلية بواسطة الإدراكات العقلية.

٢ ـ منزلة العقل في الروايات الإسلامية

أكّدت الروايات الإسلامية علىٰ أنّ للعقل أهميّة قصوىٰ أكثر مما هو متوقع، وأشادت به

بعناوين مختلفة مثل: أساس الدين، وأكبر غنىً، وأفضل رأس، واعلىٰ قضية، وأفضل صديق، وأخيراً المقياس والمعيار للتقرب إلىٰ الله ونيل الثواب الإلهي.

ونكتفي هنا بذكر اثنتي عشرة رواية فقط من بين عشرات بل مئات الروايات المأثورة والمنقولة عن الرسول الأعظم ﷺ، والأئمة عليهم السلام.

ففي هذا المجال:

١ ـ قال الرسول الأعظم ﷺ: ***«قِوامُ المرءِ عَقلُه، ولا دينَ لِمن لا عقلَ له»*** [1].

٢ ـ قال أمير المؤمنين عليه السلام: ***«لا غنىٰ كالعقل ولا فقر كالجهل»*** [2].

٣ ـ وقال في حديث آخر: ***«إنَّ الله تبارك وتعالىٰ يحاسب الناس علىٰ قدر عقولهم»*** [3].

٤ ـ وجاء في حديث للإمام الصادق عليه السلام: ***«إنَّ الثواب علىٰ قدر العقل»*** [4].

٥ ـ كما جاء في حديث للرسول ﷺ: ***«ما قسّم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل... وما أدّىٰ العبد فرائض الله حتىٰ عَقَلَ عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل»*** [5].

٦ ـ وجاء في حديث أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام خاطب هشام بن الحكم قائلاً: ***«يا هشام! ما بعث الله أنبياءه ورسله إلىٰ عباده إلّا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة»*** [6].

٧ ـ وقال الرسول ﷺ في حديث آخر: ***«لكل شيء آلة وعُدّة، وآلة المؤمن وعدّته العقل، ولكلِ شيء مطية ومطية المرء العقل، ولكلّ شيء غاية وغاية العبادة العقل»*** [7].

---

١. بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٤، ح ١٩.

٢. نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة ٥٤.

٣. بحار الأنوار، ج ١، ص ١٠٦، ح ٢.

٤. اصول الكافي، ج ١، ص ١٢، ح ٨ (كتاب العقل والجهل).

٥. المصدر السابق، ص ١٢، ح ١١.

٦. المصدر السابق، ص ١٦.

٧. بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٥، ح ٣٤.

٨ـ وجاء في حديث للإمام الصادق عليه السلام: *«إذا أراد الله أن يزيل من عبد نعمة كان أول ما يغير منه عقله»*[١].

٩ ـ ويقول الإمام علي عليه السلام في هذا المجال: *«العقل صاحب جيش الرحمن، والهوىٰ قائد جيش الشيطان، والنفس متجاذبة بينهما، فأيّهما غلب كان في حيّزه»*[٢].

١٠ ـ ويقول في حديث آخر: *«العقول أئمة الأفكار والأفكار أئمة القلوب، والقلوب أئمة الحواس، والحواس أئمة الأعضاء»*[٣]. (وبهذا فإنّ أعضاء الإنسان تستند إلىٰ حواسه وحواسه تستعين بعواطفه، وتعتمد عواطفه علىٰ أفكاره، وأفكاره علىٰ عقله).

١١ ـ وجاء في حديث للرسول صلى الله عليه وآله: *«إنّ الرجل ليكون من أهل الجهاد ومن أهل الصلاة والصيام، وممّن يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، ولا يُجزىٰ يوم القيامة إلّا علىٰ قدر عقله»*[٤].

١٢ ـ وقال الإمام الباقر عليه السلام: *«لا مصيبة كعدم العقل»*[٥].

٣ ـ المخالفون لتحكيم العقل

إنّ لهذا الجوهر الإنساني (العقل) شأناً رفيعاً وصفات إيجابية كثيرة جداً، والملفت للنظر حقاً أنّه بالرغم من اتصاف العقل بهذه الصفات وامتلاكه هذه المكانة المرموقة نجدُ مَنْ يذمّونه وَمَن يتأسفون لأنّهم عقلاء، والأغرب من ذلك أنّهم يمتلكون الحجج ـ حسب زعمهم ـ على ادّعاءاتهم الجوفاء!

---

١. بحار الانوار، ج ١، ص ٩٣٠، ح ٢٠.
٢. غرر الحكم.
٣. بحار الأنوار، ج ١، ص ٩٦، ح ٤٠.
٤. تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٢٤.
٥. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٦٥.

فتارة يقولون: إنَّ العقل يحد من تصرفات الإنسان ويسلبه حرّيته، حيث يجعل أمامه موانع تحول بينه وبين ما يريد أن يقوم به من عمل حراماً كان أو حلالاً حسناً أو قبيحاً خيراً أو شرّاً، فلو لم تكن لنا عقول لكنّا أحراراً.

وتارة يقولون: إنّه يسلب راحة الإنسان حيث نرىٰ العقلاء والأذكياء من الناس لا راحة لهم، إلّا أنّ البسطاء من الناس فرحون وسعداء دائماً لانعدام تأثير العقل عليهم.

وإذا قرأنا أشعاراً مفادها ذمُّ العقل أو الانتقاص منه أو الاستهانة به فمن الواضح كونها مزاحاً أو سفسطة أو كناية عن مفاهيم أُخرى ويستبعد أن يكون مرادهم ذم العقل، بل إنّهم يقصدون أنّ هناك أُموراً مؤلمة تحيطهم، والناس في غفلة عنها.

أو أنّ قصدهم من الجنون المذكور في بعض الأشعار كصفة للعقل، هو الجنون العرفاني والمراد منه العشق الإلهي، والتضحية بكل شيء في سبيله.

وعلىٰ أيّة حال، صحيح أنّ العقل يقيد حرية الإنسان وبعض تصرفاته،

إلّا أنّ هذا فخر له، لأنّه يرشدهُ نحو التكامل، إنَّ هذا الادّعاء يُشْبِهُ ادعاء من قال: «إنّ الاحاطة بعلم الطب يحد من انتخاب الإنسان لأنواع الأطعمة ومن أُمور أُخرى»، وهل هذا نقص؟! أم أنّه ينقذ الإنسان من الاصابة بالامراض وفي بعض الأحيان من التسمم القاتل.

أمّا القول بأن العقل يزيد من هموم الإنسان وأحزانه، فهذا يرفع من منزلة الإنسان،العاقل من يتحسّس آلام المضطهدين والمظلومين ويتألم من سلوك المعاندين وبالتالي فهو دليلٌ علىٰ الكمال، وكما جاء في المثل: (إمّا أن يكون ضعيفاً ونحيفاً كسقراط في زهده أو سميناً وبديناً كالخنزير).

نعم، إذا غفلنا عن مسألة التكامل الإنساني واعتبرنا الأصل في الحياة هو اللذّة المادية، فان ما يتفوه به بعض المؤيدين لأصالة اللذة المادية صحيح، لكن هذا الحديث مضحك ولا قيمة له من وجهة نظر الإنسان الموحّد الذي يؤمن بالرسالة والهدف وتكامل الإنسان.

إضافة إلىٰ هذا، فإنّ المؤيدين لأصالة اللذة مضطرون لأنّ يسلموا ويخضعوا لكثير من القوانين الاجتماعية الحادة من حرياتهم وتصرفاتهم، وأن يفرضوا علىٰ أنفسهم العناء من

هذه الناحية، ومن هنا ندرك كيف أنّ الإنسان يسقط في الهاوية عند ابتعاده عن تعاليم الوحي والأنبياء.

إلىٰ هنا ننهي البحث عن المصدر الثاني من مصادر المعرفة (العقل) وننتقل إلىٰ المصدر الثالث بالرغم من بقاء بحوث كثيرة لم تطرح في هذا الفصل.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٣- التاريخ والآثار التاريخية

تمهيد:

تعرّض القرآن للقضايا التاريخية بأُسلوبين:

١ ـ الأُسلوب المدوّن، أي أنّ القرآن المجيد يَسردُ للمسلمين بعض الحوادث التاريخية للأقوام السالفة بألفاظ وعبارات شيقة ودقيقة، ويبين الأُمور الغامضة والمشرقة من تاريخهم، ويشير إلىٰ عواقب أعمالهم، وذلك لتوعية المسلمين وتعريفهم بالقضايا المختلفة، ولكي يرىٰ الناس حقائق من حياتهم في مرآة تاريخ السالفين.

٢ ـ الأُسلوب الثاني، التكويني، أي كشف القرآن عن الآثار التاريخية التي خلفتها الأقوام الغابرة، الآثار الصامتة ظاهراً والتي تمثل عالماً صاخباً ومثيراً، الآثار التي يمكنها أن تصوّر لنا التاريخ الغابر، الآثار التي تعتبر مرآة أمام الإنسان يرىٰ فيها وجه حياته في الحاضر والمستقبل.

***

نبدأ أولاً بقراءة نماذج من كلا القسمين في الآيات التالية:

١ ـ ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. (يوسف / ١١١)

٢ ـ ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾. (الاعراف / ١٧٦)

٣ ـ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾. (هود / ١٠٠)

٤ ـ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ

لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾. (يوسف / ٣)

٥ ـ ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَىٰ * إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَىٰ﴾.

(النازعات / ٢٥ ـ ٢٦)

٦ ـ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا...﴾.

(الحج / ٤٦)

﴿أَفَلَم يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾. (محمد / ١٠)

٨ ـ ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

(آل عمران / ١٣٧)

٩ ـ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللّهُ يُنْشِيءُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾. (العنكبوت / ٢٠)

١٠ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾. (البقرة / ٢٥٨)

١١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾. (الفجر / ٦ ـ ٧)

١٢ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾. (الفيل / ١)

شرح المفردات:

١ ـ إنّ كلمة «*قصص*» تعني التتبع لآثار شيءٍ ما[1]. وقد سمّيت القصة قصة لأنّ فيها تتبعاً للأخبار والحوادث المختلفة. وعليه فالقصّة لا تعني الرواية فحسب، بل تعني ـ لغوياً ـ التتبع لآثار الأشياء.

كما تطلق «القصص» على كل شيء متتابع ومتسلسل.

---

١. ينبغي الالتفات إلى أنّ (قصص) كما هي مصدر لقصَّ يقصّ، هي جمع (قصة)، والمراد منها في سورة يوسف في الآيتين ٣ و ١١١ هو المعنى الثاني.

وبما أنّ (المِقَصّ) يقص الشعر علىٰ التوالي قيل له (مِقَصّ)، والقُصّة، على وزن «غُصّة» وتعني مجموعة الشعر الإمامي[١].

٢ـ أمّا كلمة «عِبْرة» فاشتقت من مادة (عبور) و(عَبْر) وتعني الانتقال من حالة إلىٰ حالة أُخرى، و«العبور» في الأصل ـ يعني عبور الماء سباحة أو بالزورق أو علىٰ الجسر وأمثال ذلك، وقد استعملت هذه المفردة بمعنىٰ أوسع وهو الانتقال من حالة إلىٰ حالة أُخرى، ويقال لقسم من الحديث (عبارة) لأنّها تمثل العبور من لسان المتكلم إلىٰ اذن السامع.

أمّا (العبرة) فهي الحالة التي يتوصل بها من معرفة المُشاهِدِ إلىٰ ما ليس بِمُشاهَدٍ[٢].

وقد ذكر البعض أن «العبرة» تعني الدلالة التي توصل الإنسان إلىٰ مراده[٣].

كما جاءت هذه المفردة بمعنىٰ التعجب[٤] (وقد يكون هذا الاطلاق الأخير لأنّ كثيراً من الأمور التي يكتشفها الإنسان عن طريق الحوادث المهمّة والجلية تثير العجب).

٣ـ كلمة «السير» تَعني الحركة علىٰ الأرض، وإذا قيل *(سيروا في الأرض)* فإنّ القيد الأخير تأكيد للسير، وقد قال الراغب في مفرداته: ذُكِرَ معنيان للسير في الأرض: أحدهما الحركة الجسمانية علىٰ الأرض (ومشاهدة الكائنات وآثارها المختلفة)، والثاني هو الحركة الفكرية ودراسة الكائنات، وقد صرح البعض: إنّ السير يعني العبور المستمر في جهة واحدة[٥].

أمّا كلمة «السيرة» فتعني الطريقة والأسلوب، واستعمالها إشارة إلىٰ تاريخ حياة الأشخاص، وقد أُخِذت من هذا المعنىٰ.

٤ـ أمّا «الرؤية» فقد جاءت بمعنيين، أحدهما المشاهدة بالعين، والآخر العلم والمعرفة

---

١. لسان العرب، ومفردات الراغب، ومجمع البحرين.
٢. مفردات الراغب.
٣. تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٧١.
٤. لسان العرب.
٥. تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٦٨.

أو المشاهدة الباطنية[١]، وقد استعملت في القرآن الكريم في موارد كثيرة بالمعنىٰ الثاني أي بمعنىٰ العلم والاطلاع، وأمّا «الرأي» فيعني الاعتقاد القلبي والنظرية سواء كان اعتقاداً يقينياً أو ظنياً، وأمّا «الرويّة» و«التروّي» فيعنيان التفكير أو السعي والبحث للحصول علىٰ النظرية.

٥ ـ كلمة «نظر» في الأصل تعني دوران العين أو حركة الفكر لإدراك أمرٍ ما، أو مشاهدته، وجاء أيضاً بمعنىٰ البحث والتفحص وتارة جاء بمعنىٰ المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وقد ذكر صاحب مجمع البحرين ثلاثة معانٍ للنظر: ١ ـ مشاهدة الشيء، ٢ ـ التدقيق في الشيء بواسطة العين؛ ٣ ـ التفكير للحصول علىٰ العلم أو الظن[٢].

أمّا صاحب لسان العرب فقد شرح النظر بأنّه المشاهدة بالعين والثاني المشاهدة بالقلب، والمفيد أنّه استشهد بعد ذلك بحديث للرسول ﷺ حيث قال فيه: «النظر إلىٰ وجه علي عبادة»، وفي تفسير هذا الحديث ينقل عن ابن الأثير أنّه قال: معنىٰ الحديث هو أن الناس حينما كانت أعينهم تقع علىٰ علي عليه السلام كانوا يقولون:

«لا إله إلّا الله ما أشرف هذا الفتىٰ لا إله إلّا الله ما أعلم هذا الفتىٰ...»[٣].

جمع الآيات وتفسيرها

بعد أن أشارت الآية الأُولىٰ إلىٰ المصير المؤلم لبعض الأمم السالفة قالت: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فالتفكير في مصير هؤلاء يُعد الاسلوب الأمثل لأُولي الألباب لمعرفة عوامل السعادة والشقاء، وتمييز طريق الهلاك عن طريق النجاة.

---

١. وفعلها يتعدىٰ لمفعول واحد علىٰ المعنىٰ الأول، ومفعولين علىٰ المعنىٰ الثاني (لسان العرب والمفردات).

٢. مفردات الراغب مادة (نظر).

٣. لسان العرب، مادة (نظر).

والآية الثانية خاطبت الرسول قائلة ذكرهم بتاريخ ومصير الأُمم السالفة من أجل أن تبعث فيهم روح التفكير والتأمل: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وهذا يدل علىٰ أنّ البيان الصحيح لتاريخ السالفين موجب لصحوة الأفكار ومصدراً للمعرفة.

٭٭٭

والآية الثالثة بعد أن بيّنت مصير بعض الأقوام السالفة مثل قوم نوح وشعيب وفرعون ولوط وعاد وثمود، قالت: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ (أي من القرىٰ من هو باق لحدّ الآن ومنها من زال وفنىٰ) ﴿مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾. (هود / ١٠١)

ثم أضافت في النهاية ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾. (هود / ١٠٣)

٭٭٭

و الآية الرابعة التي جاءت في بداية سورة يوسف، هَيَّأَتْ أذهانَ المخاطبين في البداية لتلقي وإدراك ما سَيُقال لهم فقالت: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

(يوسف / ٣)

فقد استندت الآيات الأربع إلىٰ موضوع «القصة» والقصص» كوسيلة للمعرفة.

٭٭٭

والآية الخامسة بعد اشارتها إلىٰ تعذيب فرعون قالت: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

إنَّ هذه الآية ذكرت *(العبرة)* التي تعني الانتقال والعبور من حالة قابلة للمشاهدة إلىٰ حقائق غير قابلة للمشاهدة واعتبرتها وسيلة للمعرفة.

٭٭٭

وقد أكدت الآية السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة علىٰ مسألة «السير في الأرض»، ودعت الناس إليه باساليب خطابية مختلفة، فمرة خاطبتهم بـ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ومرة ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ بعد ما ذمتهم لعدم سيرهم في الأرض.

وفي آيات أُخر خُوطِبَ جميع الناس أو المسلمين بالقول: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

وفي آية أُخرى هناك دعوةٌ للناسِ لأنّ يسيروا في الأرض للبحث عن بدء الخلق والاستفادة من ذلك للعلم بكيفية النشأة الآخرة.

﷼

وقد أكدت الآيات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة علىٰ مسألة المشاهدة و«الرؤية» ليس بالعين الباصرة، بل بالعقل والبصيرة.

إنّ الخطاب في الآيات الثلاث في الظاهر موجّهٌ إلىٰ رسول الله ﷺ إلّا أنّ المراد بها جميع المؤمنين، بل الناس كافة، والخطاب بصيغة استفهام تقريري، حيث خاطبه الله تارة بالنحو الآتي:

ألم ترَ إلىٰ الذي (أي نمرود ذلك السلطان الطاغي المغرور) حاجّ ابراهيم في ربّه، وإلىٰ أيّ نهاية أنتهىٰ به المطاف؟ وتارة يخاطبه بهذا الخطاب: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾.

وخاطبه تارة أُخرى بنحو آخر قائلاً له: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، مذكّراً بقصة أصحاب الفيل الذين قدموا من اليمن لهدم الكعبة فانزل الله عليهم طيوراً ـ بالرغم من ضعفها ـ ترميهم بحجارة من سجيل تحملها بمناقيرها فهلكوا بهذه الأحجار الصغيرة.

ومن المسلم به أنّه لا الرسول ولا غيرَه من المسلمين رأىٰ إبراهيم ونمرود وسمعَ

محاجتهما، وكذا الأمر بالنسبة لقوم عاد، فلم يروهم ولم يروا مدنهم العامرة يومذاك، وحتىٰ بالنسبة لأصحاب الفيل فإنّ الرسول ﷺ وُلِدَ في السنة التي هجم فيها (ابرهة) طبقاً للرواية المشهورة، فلم يرَ شيئاً من الحادث وكذا أكثر المسلمين، وعلىٰ هذا فالمراد من الرؤية هو التدقيق في تاريخهم.

إنّ ما يلفت النظر هنا هو أنّ الآيات الخمس الأُولىٰ ركّزت بحثها علىٰ التاريخ المدوّن أي ما جاء في صفحات الكتب التاريخية بينما ركزت الآيات الاربع الأخيرة بحثها علىٰ التاريخ التكويني الحي أي الآثار الباقية عن الأقوام الغابرة في بقاع مختلفة من العالم.

من الممكن أن تكون الآيات الثلاث الأخيرة فيها إشارة إلىٰ التاريخ المدون أو التاريخ الخارجي أو كليهما، ويتضح من مجموع هذه الآيات (وأمثالها في القرآن الكريم) الأهميّة القصوىٰ التي أولاها القرآن لقسمي التاريخ كمصدر للمعرفة والعلم.

إنّ الله عزّ وجلّ يدعو الناس تارةً لأنّ يشاهدوا بأم أعينهم قصور الفراعنة وآثار دمار مدن عاد وثمود وقصور نمرود وأعوانه والبلاد التي جُعِلَ عاليها سافلها التابعة لقوم لوط لكي يعرفوا أنّ مَصير المتجبّرين سيؤول إلىٰ هذه النهاية.

وتارة نجد القرآن نفسه يشرح بدقة هذه الحوادث ويسلط الأضواء عليها ويعدُّ العِبَر بعد العِبَر ذاكراً عاقبة (المكذبين) و(الظالمين) و(الكافرين) و(المفسدين) في ضمن بحوثه التاريخية هذه.

في الحقيقة إنّ القرآن تارة يأخذ بأيدي الناس إلىٰ «مصر» ويريهم الآثار التاريخية ويصور لهم الراقدين تحت التراب ويضع أمام أعينهم العروش التي عصفت بها الرياح، وتارة أُخرى يريهم الذين أُركسوا في العذاب وهُدّمت عروشهم، والخلاصة: فإنّ القرآن يريهم ما خفي عن العيان من قصص الأسلاف.

إنّه يمضي بهم إلىٰ المدن المُخربة كمدينة (سدوم) مركز قوم لوط ليشاهدوا عن كثب ما حلّ بها ومن هناك إلىٰ جنة شداد، وبلاد بابل، (مركز حكومة نمرود)، ومناطق أُخرى.

إنّه يجعل من ايوان كسرى في المدائن وزخارف كل قصر عبرة لمن اعتبر ونصيحة جديدة.

والخلاصة: إنّ القرآن يستند كثيراً في مجال التعليم والتربية والتوعية إلىٰ التاريخ المدون في الكتب، وما موجود علىٰ وجه الأرض، وهذه، مسألة جديرة بالاهتمام كثيراً.

توضيحات

١ ـ مرآة للتاريخ

إنّ أهم ما يحصل عليه الإنسان في حياته هو تجاربه الشخصية، التجارب التي تفتح له بها آفاق جديدة وواسعة من أجل حياة أفضل وجهاد اكثر ليسعىٰ جاهداً للوصول إلىٰ التكامل الأمثل.

لكن ما هو مقدار التجارب التي يستطيع الإنسان الحصول عليها خلال عمره القصير البالغ مثلاً عشرين سنةً أو خمسين أو ثمانين؟

هذا إذا قضىٰ عمره في ميادين التجربة ولم يقضِهِ على وتيرة واحدة.

إننا، لو استطعنا أن نجمع تجارب جميع من عاش في عصر واحد، أو تجارب جميع من عاش في القرون والعصور الماضية، لحصلنا علىٰ تجارب كثيرة، وستكون تلك التجارب مصدراً مهماً لمعرفتنا وخبرتنا.

إنّ التاريخ ـ إذا تمّ تدوينه بالطريقة الصحيحة والكاملة ـ فسوف يقدم للباحثين والدارسين تجارب البشر علىٰ مرّ القرون، وحتىٰ إذا كان ناقصاً فانّه يضم بعض تجارب العصور الغابرة.

ومن هنا تبدو أهميّة التاريخ حيث إنّ ما يحدث الآن قد تكرر نموذج أو نماذج منه في التاريخ سابقاً، وما يقال عن التاريخ من أنّه «يعيد نفسه» حقيقة لا تنكر وقد تستثنىٰ موارد منه إلّا أنّ اكثر الحوادث داخلة في اطار هذا القانون.

وقد أشار الإمام علي عليه السلام لهذا الموضوع بوضوح في خطبةٍ له، حيث قال فيها: *«عباد الله*

إنّ الدهر يجري بالباقين كجريه بالماضين»[١].

وقد جاء في حديث شريف أنّ ما يجري في الأُمة الإسلامية قد جرىٰ مثله في بني اسرائيل.

ومن هنا تتضح أهميّة ودور التاريخ في مجال المعرفة والفكر. ونستطيع القول بتحدي: إنّه بالتحليل والدراسة الدقيقة لتاريخ البشر نجد:

عوامل الفشل والسقوط.

وعوامل الانتصار والفوز.

وعوامل إزدهار الحضارات.

وعوامل سقوط وانقراض الحكومات (الدول).

وعاقبة الظلم والاستبداد.

وعاقبة العدل والانصاف.

ونتائج وحدة الكلمة والحركة والسعي.

ودور العلم والمعرفة.

وعواقب الجهل والبطر والكسل. كلها قد انعكست في مرآة التاريخ.

وإن أراد أحد أن يمنحه الله حياة ثانية فحريٌّ بنا أن نقول له: إنّك إذا درست التاريخ بدقة لوجدت إنّك لم تمنح حياة ثانية فحسب، بل وُهِبَت الآلاف المضاعفة.

وما أجمل ما خاطب به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ولدهُ الاكبر الإمام الحسن عليه السلام: *«أي بني إنّي وإن لم أكن عُمّرتُ عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكرت في أخبارهم، وسرتُ في آثارهم، حتىٰ عُدْت كأحدهم، بل كأني بما انتهىٰ اليّ من أُمورهم قد عمّرتُ مع أولهم إلىٰ آخرهم»*[٢].

ومع أنّنا لا ننكر النواقص والإشكالات علىٰ التاريخ المتداول بين أيدينا، ولكن رغم هذه النواقص ـ التي سنشير اليها فيما بعد ـ فهو غني بالعلم والمعرفة.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.

٢. نهج البلاغة، وصيته للإمام الحسن المجتبىٰ عليه السلام.

٢ ـ جاذبية التاريخ

لِمَ كان التاريخ معلماً؟ الإجابة عن هذا السؤال ليست صعبة، وذلك لإمكانية تشبيه التاريخ بالمختبر الكبير الذي تخضع فيه قضايا حياة الإنسان المختلفة للتحليل.

وعلىٰ هذا الأساس، فكما أنّ العلوم التحليلية حلت الكثير من مسائلها وقدّمت الكثير من البراهين الحية لإثبات الواقعيات بالاختبار، كذلك التاريخ ذلك المختبر العظيم حيث تختبر فيه الكثير من القضايا والمسائل، حيث يميز فيه الذهب الخالص من الذهب غير الواقعي، وبه تزول الأوهام عن الأذهان.

إذا حللت ظواهر الأجسام أو تركيباتها في مختبرات الكيمياء والفيزياء، فانّك في مختبر التاريخ تحلل أسرار انتصار وفشل الأقوام السالفة، وسبب سيادة وتطور أو انحطاط الحضارات، وردود الفعل وصفات ومعنويات الأقوام والأشخاص، وأُسلوب عملهم بجاذبية وجمال فائق.

وبذلك يكون التاريخ وسيلة مناسبة لدراسة عوامل السعادة وشقاء البشر.

وإذا شاهدنا في القرآن الكريم تأكيداً علىٰ تاريخ الأمم السالفة، وشاهدنا فيه من السور الدالّة علىٰ المباحث التاريخية حتىٰ أنّ بعض السور تدور معظم آياتها أو كلّها حول تاريخ الأقوام السالفة فذلك كله ناشيء من هذه الملاحظة التي أشرنا اليها.

وقد ينكر المعاندون بعض المسائل النظرية، إلّا أنّه لا يمكنهم انكار واقعيات التاريخ القطعية، وبالخصوص الحوادث التي أشار اليها القرآن حيث نراه يأخذ بأيدي الناس إلىٰ ما خلّفته الأقوام الغابرة، ويروي قصصهم علىٰ قبورهم وقمم مدنهم الخربة.

إنّ التاريخ ـ في الحقيقة ـ فرع من المسائل التجريبية، وبتعبير آخر يمكن ادغامه في مصدر «الحس والتجربة» إلّا أنّه يختلف عن الحس والتجربة اختلافاً طفيفاً فالحس والتجربة يتعلقان بالحاضر لكن التاريخ يتعلق بالماضي، وأنّ الحس والتجربة قد يتعلقان بذات الفرد فقط بينما التاريخ يتعلق بجميع ذوات البشر.

ولكن الأهميّة الفائقة لهذا الفرع من التجربة تفرض علينا دراسته كمصدر مستقل للمعرفة.

٣ ـ شوائب التاريخ

بالرغم من أنّ التاريخ مرآة كبيرة وجميلة تعكس الواقعيات إلّا أنّ المؤسف فيه هو وجود أيادٍ ملوّثة سعت وتسعىٰ دائماً لتغيير وتشويه الوجه الناصع لهذه المرآة، ولهذا السبب فإنّ هناك كثيراً من الشوائب في التاريخ تحول دون معرفتنا للحقيقة ودون تمييزنا الصادق من الكاذب منه.

إنّ سبب التشويه واضح، حيث لم يكن المؤرخون محايدين دائماً، بل كثيراً ما يؤرخون التاريخ بالشكل الذي يتناسب مع دوافعهم الشخصية والفئوية، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى فإنّ جبابرة كل عصر سعوا لإغراء المؤرخين وجذبهم ليكونوا تحت سيطرتهم ونفوذهم، ليملوا عليهم ما يحلو لهم فيكتبوا ما يريد هؤلاء الجبابرة.

وبالرغم من المساعي التي تُبذل بعدَ زوال كلٍّ من الجبابرة والظالمين وتوفر أجواء حرة أكثر في سبيل إصلاح الأخطاء، وتصحيح ما لحق بالتاريخ من فساد، إلّا أنّ المؤرخين قد لا يوفّقون في هذا المجال لإصلاح الخطأ، أو تكون إصلاحاتهم غير كافية.

والملفت للنظر أنّ قضايا التاريخ تتبدّل كلما تبدلت الحكومات المستبدة ذات الميول والإتّجاهات المتضاربة، فـ«بنو أُمية» مثلاً حرفوا التاريخ الإسلامي بشكل، و«العباسيّون» حرفوه بشكل آخر، كما أنّ الذين خلفوا العباسيين صاغوه بشكل آخر.

إنّ (استالين) كتب في زمن ما تاريخ الثورة الشيوعية في روسيا بشكل، وقد دُرِّس هذا التاريخ في جميع المدارس آنذاك، والذين خلفوه كانوا يعتبرونه جلاداً مصاصاً للدماء فجمعوا تلك الكتب ودوّنوا تاريخ الثورة بصيغة أُخرى، وهكذا فعل كل من خلف الحكومة في الاتحاد السوفيتي فكتب التاريخ بما يتناسب مع ميوله الشخصي والمذهبي.

ولهذا السبب، فإنّ البعض أساء الظن بالتاريخ وقال فيه ـ مبالغةً ـ هذه العبارة: «إنّ التاريخ مجموعة حوادث لم تحدث أبداً، وأقوام لم توجد أبداً»!!

إلّا أنّ الانصاف يفرض علينا أن نعدّ التاريخ أحد مصادر المعرفة بالرغم من الغبار الذي غطّاه، وذلك لأنّ التاريخ كأي خبر آخر منه «المتواتر» ومنه «الموثوق» ومنه «الضعيف» ومنه «المجهول».

ولا يمكن انكار ما تواتر في التاريخ عن جُند المغول وجيش هتلر والحوادث المفجعة في «الاندلس»، والمئات من هذه الحوادث، والذي يصلح للنفي والإثبات والإشكال هو جزئيات التاريخ، وهي بدورها إذا ثبتت باخبار الثقات أصبحت صالحة للاعتماد عليها. بالطبع فإنّ الأخبار الضعيفة في هذا المجال ليست قليلة.

و هذا حكم عادل بحق التاريخ، فينبغي عدم الأخذ بكل ما جاء في التاريخ، كما لا ينبغي نبذ كل ما ورد فيه.

وقد سَلِمَ قسمان من التواريخ من أي تحريف وتلويث وهما:

التواريخ التي ظلّت في صورة آثار تكوينية في الخارج، فلا يمكن تحريفها ببساطة، وقد أكد القرآن المجيد علىٰ هذا القسم كثيراً، وآيات «السير في الأرض» بهدف التعرف علىٰ تاريخ الأمم السالفة ناظرة إلىٰ هذا القسم منه.

والأكثر من ذلك التواريخ التي وصلتنا عن طريق «الوحي» مثل تواريخ القرآن التي تعتبر أصيلة وخالصة من جميع الرغبات والنزعات، فكما أن الله عزّ وجلّ أفضل مقنّن فهو أفضل مؤرخ كذلك، لأنّه خبير بجميع الجزئيات ومنزه عن الإتّجاهات الفردية والجماعية، ومع توفر هذين الشرطين فهو أفضل مؤرخ روىٰ لنا التاريخ.

وقد يتعجب البعض ويسأل: لماذا يعيد الله تعالىٰ قصة نوح أو موسىٰ أو فرعون أو مواجهة الأنبياء للمستكبرين والجبابرة عدّة مرّات؟

لقد غفلوا عن أن كل حكاية ناظرة إلىٰ الحادث من زاوية واحدة فقد يكون لكل حدث تاريخي زوايا وجوانب متعددة، فقد ينظر ـ مثلاً ـ إلىٰ تاريخ بني اسرائيل من حيث مواجهتهم لطاغوت زمانهم، وقد ينظر لتاريخهم من حيث عنادهم لأنبيائهم، وقد ينظر لتاريخهم من حيث عواقب الاختلاف والتشتت وعدم الاتحاد، أو من حيث آثار ونتائج نكران النِعَم، والخلاصة: إنّ كثيراً من الحوادث التاريخية كالمرآة ذات الأبعاد المختلفة، يسلط كلُّ بعد من ابعادها الأضواء علىٰ جانب من الجوانب (وسيأتي شرح هذا بالتفصيل في بحث تواريخ القرآن).

٭٭٭

٤ ـ فلسفة التاريخ

إنّ المهم في التاريخ هو العثور علىٰ «جذور» و«نتائج» الحوادث التاريخية.

فإذا حصلت ثورة في بقعة ما من العالم ـ مثلاً ـ ينبغي أولاً دراسة العوامل التي أدت هذه الثورة والتحقق منها بدقة.

ثانياً النظر في نتائج هذه الثورة، وهذان الأمران هما اللذان يخرجان التاريخ عن كونه مجرد حكايات مسلّية، ويبدلانه إلىٰ مصدرٍ مهم للمعرفة.

لكن يؤسفنا أن يكتفي المؤرخون بذكر الحوادث التاريخية، في مرحلة تبلورها فقط، وقلّما يتجهون نحو جذور وعلل الحوادث ونتائجها، ولم يتركوا في مجال تحليل القضايا التاريخية آثاراً تُذكر.

إلّا أنّ القرآن قرن تدوين الحوادث مع البحث عن أُصولها ونتائجها فتارة بعد ذكره لمقطعٍ تاريخي يقول:

﴿فَانْظُرُوا كَيفَ كانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾. (آل عمران / ١٣٧)

وتارة يقول: ﴿وَانْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾. (الاعراف / ٨٦)

وتارة يقول: ﴿فَانْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾. (النمل / ٦٩)

وتارة يقول: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. (الرعد / ١١)

والجدير بالذكر أن للتاريخ فروعاً عديدة أهمّها تاريخ الإنسان والمجتمعات البشرية، وتاريخ الحضارات، وتاريخ العلوم والفنون البشرية، وهي تواريخ محورها الأساس ومحرك عجلتها هو الإنسان.

يالهم من بسطاء أولئك الذين يظنون أن التاريخ ـ بالرغم من كل فروعه وتشعباته ـ نتاج قسري للقضايا الاقتصادية وخاصةً وسائل الانتاج، أي أنّ التاريخ خلقته وسائل الانتاج واجهزته التي صنعها الإنسان بنفسه!

وعلىٰ هذا الأساس يمكننا القول: إنّ هؤلاء بتصورّهم الخاطىء وتفكيرهم الشاذ لم يعرفوا الإنسان ولا التاريخ أبداً.

❊❊❊

٥ ـ التاريخ «النقلي» و«العلمي» و«فلسفة التاريخ»

قسم أحد العلماء المعاصرين التاريخ ـ من وجهة نظر وزاوية خاصة ـ إلىٰ ثلاثة أقسام:

١ ـ **التاريخ النقلي**: وهو عبارة عن مجموعة من الحوادث الجزئية المعينة التي حدثت في الماضي، وهو أشبه ما يكون بالفلم الذي يصور حادثة أو حوادث، لهذا فانه جزئي دائماً وليس كلياً، ويتحدث عمّا كان لا عمّا يكون، ويتعلق بالماضي لا بالحاضر، ونقلي لا عقلي.

وهذا الفرع من التاريخ يمكنه ـ عن طريق المحاكمات ـ أن يكون معلماً مفيداً، وعبرة من أناس ذلك الزمان، وهو أشبه بتأثّر الإنسان بجليسه، وأشبه بالاسوة التي يذكرها القرآن للناس ليعتبروا منها ويقتدوا بها.

٢ ـ **التاريخ العلمي**: وهو التاريخ الذي يتحدث عن قواعد وسنن الأُمم السالفة التي تُستنبط من دراسة وتحليل حوادث العصور السابقة، وفي الحقيقة فإنّ التاريخ النقلي كالمادة الخام لهذا التاريخ.

ومن ميزات هذه السنن هي إمكانية تعميمها، وكونها علمية، وإمكانية جعلها مصادر للمعرفة، وإحاطة الإنسان ـ عن طريقها ـ بالمستقبل.

وبالرغم من أنّ هذا النوع من التاريخ كلي وعقلي، فأنّه علم بما كان لا بما يكون.

٣ ـ **فلسفة التاريخ**: وهو علم يتحدث عن تحول المجتمعات من مرحلة إلىٰ أُخرىٰ، أو بتعبير آخر: هو علم بما يكون لا بما كان.

ويمكن توضيح هذا بالمثال الآتي:

إنّ «علم الأحياء» علم يبحث عن القواعد الكلية التي تحكم حياة الموجودات الحية، إلّا أنّ نظرية «تكامل الأنواع» إذا قلنا بها ـ تبحث عن كيفية تحول وتبدل نوع من الحيوانات إلىٰ نوع آخر، إذن، موضوع البحث في فلسفة التاريخ هو كيفية حركة وتكامل التاريخ، إنّ هذا الفرع من التاريخ يتسم بجانب كلي وعقلي، ورغم ذلك فانّه ناظر إلىٰ مجريات التاريخ من الماضي إلىٰ المستقبل وفائدة هذا النوع من التاريخ لا تخفىٰ علىٰ أحد[١].

---

١. ملخص من كتاب فلسفة التاريخ تأليف الشهيد المطهري.

وتجدر الإشارة هنا إلىٰ أنّ ما ذكرناه في شروحنا للاقسام الثلاثة كان صحيحاً وإن لم يتفق شيئاً ما مع الاستعمالات العصرية لمفردتي «العلم» و«الفلسفة» وأنّ المراد كان ايصال المفهوم إلىٰ أذهان القراء فقط.

فضلاً عما ذُكر سابقاً نضيف هنا القول بامكانية ادغام القسم الثاني والثالث في قسم واحد، ذلك لأنّ القوانين الكلية التي رسمت التاريخ وتُستخرج وتُستنبط من التاريخ النقلي، تارة تكون ناظرة إلىٰ الوضع الراهن للمجتمعات، وتارة اُخرى تكون ناظرة إلىٰ تحول وتكامل المجتمعات.

والمهم هنا هو أنّ القرآن المجيد لم يقتنع بالسرد المجرد لحوادث التاريخ بل أشار أيضاً إلىٰ السنن والقوانين الكلية التي حكمت المجتمعات، القوانين التي يمكنها أن تزيل القناع عمّا كان ويكون، أو عن أي تغير وتحول تاريخي كأيّ تقدمٍ أو سقوطٍ أو فشلٍ حصل للمجتمعات.

يشير القرآن ـ مثلاً ـ إلىٰ هذه السنة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الأنفال / ٥٣)

وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ القرآن ذكر هذه السنة بعد ما أشار إلىٰ قصة قوم فرعون وعذابهم بسبب ذنوبهم.

ويقول في آيات اخر (بعد اشارته إلىٰ تاريخ الأقوام القويّة التي اُهلكت بسبب تكذيبهم الرسل وشركهم وذنوبهم وظلمهم): ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾. (المؤمن / ٨٥)

نعم تنبغي الوقاية قبل العلاج، وهذا قانون كلي، لأنّ الإنسان لو ابتلي بجزاء أعماله فلا فرصة حينئذٍ لجبران الماضي.

الإجابة علىٰ إشكال:

قد يُقال إنّ قبول وجود قانون كلي في تاريخ الإنسان يجسد مفهوم الجبر في تاريخ

البشر ولا ينسجم وحرية الإرادة والاختيار.

لكن الالتفات إلىٰ نقطة في هذا المجال يرفع الإشكال بالكامل والنقطة هي:

إنَّ قولنا بوجود قوانين وسنن كلية معناه أن أعمال البشر الاختيارية (سواء الفردية منها أو الجماعية) لها مردودات وانعكاسات قهرية، فمصير الأمم الصامدة والعارفة والمثابرة ـ مثلاً ـ هو النصر، ومصير الأمم المشتتة والجاهلة هو السقوط والفشل.

هذه سنة تاريخية، فهل أنّ مفهوم هذا القانون الكلي هو أنّ الإنسان مجبور، أم إنّه تأكيد لتأثير ونفوذ إرادة الإنسان في تعيين مصيره؟

وهذا الأمر أشبه ما يكون بقولنا: إنّ الإنسان يموت إذا تناول سُمّاً، وهذا المردود قهري ولا يتنافىٰ واختيار الإنسان وأصل إرادته.

٨٠٠٣

٦ ـ التاريخ في نهج البلاغة والروايات الإسلامية

بما أنّ نهج البلاغة كتاب عظيم ذا محتوىً تربوي غني جداً، وبما أنّ التربية بلا معرفة، والمعرفة بلا تربية أمر محال، فقد أكد هذا الكتاب علىٰ القضايا التاريخية كثيراً.

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام عند حديثه عن الحوادث التاريخية يصورها وكأنّه يأخذ بأيدي الناس إلىٰ مكان الحدث ويريهم فرعون وجنوده ويقتفون آثار مستضعفي بني اسرائيل ومن ثم يشاهدون غرقهم في نهر النيل.

إنّه يصور قوم نوح وقوم عاد وثمود تحت تأثير الدمار الشامل الذي خَلَّفَهُ الطوفان والصواعق والزلازل والحجر الذي أُمطروا به، والناس يشاهدون أخذ هذه الأُمم الطاغية واللاهية مع قصورهم ومدنهم وبطغيانهم وهلاكهم في طرفة عين بحيث لم يبق إلّا آثار الخراب والصمت القاتل المهيمن عليها، وكل من سَاحَ في نهج البلاغة مرَّ بهم ورجع بكنزٍ هائل من العلم والمعرفة والخبرة، إنّ قدرة نهج البلاغة في تصوير الحوادث قدرة عجيبة حقاً، وكذا الأمر عند بيانه لفلسفة التاريخ.

وقد شرحنا سابقاً كلام الإمام علي عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام حول تأثير التاريخ على طول عمر الإنسان، طول يمتد بامتداد أعمار جميع البشر من حيث المعرفة والتجربة.

وهناك عبارات جميلة له عليه السلام حول جريان السنن التاريخية حيث يقول:

«عباد الله إنّ الدهر يجري بالباقين كجريه بالماضين، يعود ما قد ولّى منه، ولا يبقى سرمداً ما فيه، آخر فعاله كأوّله، متشابهة أموره، متظاهرة أعلامه»[1].

وفي تفسيره للإيمان باعتباره ذا أربعة أعمدة الصبر واليقين والعدل والجهاد)، يقول:

«اليقين منها على أربع شُعَب، على تبصرة الفطنة وتأوّل الحكمة، وموعظة العبرة وسنّة الأولين»[2].

ويقول عليه السلام في موضع آخر:

«واعلموا عباد الله أنّكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم، ممن كان أطول منكم أعماراً، وأعمر دياراً، وأبعد آثاراً، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، فاستبدلوا بالقصور المشيدة، والنمارق الممهدة، الصخور والأحجار المسندة، والقبور اللاطئة المُلحَدة التي بُني على الخرب فناؤها وشيّد بالتراب بناؤها»[3].

ويقول في خطبة أُخرى:

«فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم، من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته، واتّعظوا بمثاوي خدودهم ومصارع جنوبهم»[4].

كما يقول في نفس الخطبة:

«فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأولاد مجتمعة والأهواء مؤتلفة، والقلوب معتدلة.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.

٢. المصدر السابق، الكلمات القصار، الكلمة ٣١.

٣. المصدر السابق، الخطبة ٢٢٦.

٤. المصدر السابق، الخطبة ١٩٢، (الخطبة القاصعة).

والأيدي مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة والعزائم واحدة، ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين؟ وملوكاً على رقاب العالمين؟! فانظروا إلىٰ ما صاروا إليه في آخر أُمورهم، حين وقعت الفرقة، وتشتّت الألفة، واختلفت الكلمة، والافئدة، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين» [١].

ويقول في خطبة أُخرى:

«وإنّ لكم في القرون السالفة لعبرة! أين العمالقة وابناء العمالقة! اين الفراعنة وأبناء الفراعنة [٢]! اين أصحاب مدائن الرّس [٣] الذين قتلوا النبيين، واطفئوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين؟ اين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا الألوف، وعسكروا العساكر ومدّنوا المدائن؟» [٤].

كما أنّ الروايات الإسلامية أولت عناية كبيره لهذه المسألة، واعتبرتها أحد المصادر المهمّة للمعرفة وبالأخصّ للمسائل الأخلاقية، وتهذيب النفوس، والالتفات إلىٰ واقعيات الحياة.

وقد جاء في رواية أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما كان في طريقه مع عسكره إلىٰ صفين وصل إلىٰ مدينة (ساباط) ثم إلىٰ مدينة (بهرسير) [٥] (المناطق التي كانت مركزاً لحكومة الساسانيين) التفت أحد صحابته فجأة إلىٰ آثار كسرىٰ (والملك الساساني

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢، (الخطبة القاصعة).

٢. العمالقة: أقوام قوية ومتمكنة وجبارة وظالمة كانوا في شمال العراق، وقد فتحوا «مصر» وحكموها لفترة في عهد الفراعنة.

٣. يعتقد الكثير أنّ أصحاب الرس قوم سكنوا اليمامة جنوب الحجاز، وكان لهم نبي باسم حنظلة، وقال البعض أنّهم قوم شعيب، ويعتقد بعض آخر أنّ مدنهم كانت بين الشام والحجاز (يراجع التفسير الأمثل، ذيل الآيه ٣٨ من سورة الفرقان).

٤. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢.

٥. يقول البعض إنّها مشتقة من الأصل الفارسي أي (بوارد شير) أو (دهار دشير) وهي إحدىٰ المدائن السبعة التي كانت تقع غرب نهر دجلة (معجم البلدان، ج ١، ص ٥١٥).

المعروف) وانشد البيت:

جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد

فقال الإمام ﷺ: *«لِمَ لم تقرأ، هذه الآيات: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾*[1].

وقد جاء في حديث الإمام الصادق ﷺ: *«إنّ داود ﷺ خرج من المدينة وهو يقرأ (الزبور)، وما من جبل أو حجر أو طير أو حيوان وحشي إلّا ويقرأ معه، وهو مستمر في طريقه حتى وصل إلى جبل، يعيش على قمته نبي عابد اسمه (حزقيل)، أدرك مجيء داود عندما سمع ترتيل الجبال والطيور والوحوش، وعندما سأل داود النبيّ: هل تأذن لي بالصعود إليك؟ فأجابهُ النبي العابد: لا، فبكى داود، فأوحى الله إلى (حزقيل) بأن لا يوبّخ داود، وأن يطلب من الله تعالى حسن العاقبة، فقام حزقيل وأخذ بيد داود وجاء به إلى محله.*

فسأله داود: هل عزمت على الذنب يوماً؟

فاجاب: لا.

ثم سأل: هل حصل عندك الغرور والعجب لكثرة عبادتك؟

أجابه: لا، ثم سأله: هل رغبت في الدنيا وهل أحببت شهواتها ولذاتها؟

أجاب: نعم، نعم قد يخطر هذا في قلبي.

فسأله: ماذا تفعل آنذاك؟ أجاب: أدخل في هذا الوادي واعتبر بالذي فيه.

فدخل داود الوادي، فرأى أريكة من حديد وعليها جمجمة متآكلة وعظاماً رميمة ولوحة مكتوبة، فعرف داود: أن ذلك يتعلق بملك مقتدرٍ حكم سنينَ طويلة وبنى مدناً كثيرة. وقد بلغ به الأمر إلى ما تراه ...»[2].

٭٭٭

---

١. بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٢٧.

٢. المصدر السابق، ج ١٤، ص ٢٢ (ملخص الحديث).

آخر الحديث حول التاريخ المعلّم:

إنّ ما ذكرناه عن التاريخ كمصدر للمعرفة والعلم مشروط بالأُمور الآتية:

أولاً: أن لا يدرس الإنسان التاريخ للتسلية.

ثانياً: أن يدرس العلاقة الحقيقية بين القضايا التاريخية وأعمال الإنسان، ولا يحُلل القضايا التاريخية علىٰ أساس التبريرات الوهمية كالحظ والصدفة، أو المصير المحتوم أو القضاء والقدر (علىٰ التفسير الذي يعتقد به الجاهلون، والذي تُسلب علىٰ أساسه قدرة الإنسان في الاختيار).

ثالثاً: أن يستنبط القوانين التاريخية الكلية من الحوادث الجزئية، وأن يحقق في اصول ونتائج كل حادثة ثم يجعل نفسه مصداقاً لهذه القوانين ويخرج بالنتيجة.

رابعاً: أن لا يسعىٰ ليجرّبَ الحوادث (التي جربت قبله) بنفسه، وذلك لكي لا يكون مصداقاً لهذا الحديث «من جرّب المجرَّب حلّت به الندامة».

خامساً: أن يكون ناقداً للحوادث التاريخية ومميزاً للمسلَّمات من المشكوكات والأساطير من الواقعيات.

وخلاصة الحديث هو أن يتلقىٰ التاريخ كمصدرٍ مُلهِم للمعرفة والخبرة في حياته، وليس بشكله المحرَّف.

٭٭٭

٤ـ الفطرة والوجدان

تمهيد:

عندما يصل الإنسان إلىٰ سنّ الرشد، يتعرف علىٰ بعض الحقائق من دون الحـاجة إلى معلم كاستحالة اجتماع الضدين أو النقيضين حيث تكون واضحة عنده.

و يدرك حسن وقبح كثير من الأمور، مثل: قبح الظلم وحسن العدل والاحسان.

و عندما يقوم بعمل مشين، يناديه صوت الوجدان الرادع الباطني يـؤنبه عـلىٰ عـمله، وعندما يأتي بعمل حسن يشعر بالطمأنينة والرضا النفسي.

يستأنس بالجمال ويحب العلم والمعرفة.

يحس في باطنه ارتباطاً بمبدأ مقدس، وبتعبير آخر: إنّ في باطنه ما يجرّه ويجذبه إلىٰ الله عزّ وجلّ.

وهذا يكشف عن وجود مصدرٍ للمعرفة في باطن الإنسان غير المصادر التي قرأنا عنها سابقاً، يطلق عليه «الفطرة»، وتارة «الوجدان» وأُخرى «الشعور الباطني».

ولتعيين حدود العقل وحدود الفطرة نتأمل الايضاحات الآتية:

إنّ روح الإنسان تمثل ظاهرة عجيبة ذات جوانب وأبعاد متعددة، ندرك بعضها، ونجهل الآخر، كما أن لها نشاطات مختلفة بمحاذاة جوانبها المختلفة.

وإنّ العقل يشكل قسماً من الروح، ووظيفته التفكير، كما أنّ هـناك قسـماً آخـر وهـو الحافظة ووظـيفتها حـفظ المـعلومات وخـزنها وتـقسيمها وتـبويبها واسـتخراج المـراد والمطلوب منها ـ بشكل معجز ـ من بين الملايين من المفاهيم والحوادث والذكريات.

والقسم الآخر هو العواطف أو مركز الحب والعشق والعداء والخصومة والبغضاء.

والقسم الآخر هو الأعمال الباطنية كالاختيار والإرادة والعزم والتصميم.

والخلاصة ينبغي القول: إنّ الروح بحر عظيم ملؤهُ العجائب والغرائب، وإنّ القوانين التي تحكمها قوانين متنوعة ومعقدة للغاية.

إلّا أنّه يمكن تقسيم الروح إلىٰ قسمين كليين:

١ ـ القسم الذي يتعلق بالتفكير والإدراكات النظرية، أي ما يكتسبه الإنسان عن طريق الاستدلال.

٢ ـ القسم الذي يتعلق بالإدراكات البديهية الضرورية، أي ما هو حضوري ومعلوم عند الإنسان بلا دليل أو برهان.

وكلما تحدثنا عن الفطرة والوجدان، فإنّ مرادنا هو القسم الأخير من الإدراكات.

«الفطرة»: وتعني الخلقة الأُولىٰ، أي خلق الروح والنفس ممتزجة مع مجموعة من المعلومات الفطرية.

و*«الوجدان»*: ما يجده الإنسان في نفسه من دون حاجة لتعلمه.

و*«الشعور الباطني»*: الإدراك الباطني للإنسان الذي يستلهم منه الإنسان. وعلىٰ أيّة حال، فإنّ ممّا لا شك فيه أنّ هذا الشعور أحد مصادر العلم ومعرفة الحقائق، الذي قد يعبر عنه بـ«القلب» وهو يختلف بوضوح عن «العقل» الذي هو مركز الإدراكات النظرية بالرغم من أنّهما فروع لشجرة واحدة وثمرتان لروح الإنسان (فتأمل).

بالطبع، ليس كل ما قيل هنا متفق عليه من قبل الفلاسفة جميعهم، بل أردنا الإشارة إلىٰ هذا الموضوع، وسنعيد الإشارة إليه مرّةً أُخرى بشكلٍ استدلالي إن شاء الله.

وبعد الالتفات إلىٰ هذه الملاحظة، نتأمل في القرآن لنرىٰ كيف يكشف لنا عن هذا المصدر.

نقرأ أولاً الآيات الآتية:

١ ـ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾. (الشمس / ٧ ـ ٨)

٢ ـ ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾. (الأنبياء / ٦٤)

٣ ـ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾. (لقمان / ٢٥)

٤ ـ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾. (العنكبوت / ٦٥)

٥ ـ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾. (البقرة / ١٣٨)

٦ ـ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾. (الرحمن / ٣ ـ ٤)

٧ ـ ﴿عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾. (العلق / ٥)

٨ ـ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾. (الروم / ٣٠)

معاني المفردات:

إنَّ كلمة «ألهمها» مأخوذة من مادة «الإلهام» أي ـ كما يصرح به كبار اهل اللغة ـ الشيء الذي يقع في قلب الإنسان، ويقول الراغب في مفرداته: «الإلهام: إلقاء الشيء في الروع ويختص ذلك بما كان من جهة الله وجهة الملأ الأعلىٰ»، والروع يعني القلب، أمّا الرَّوْع فيعني الخوف والانبهار.

ثم استشهد بالآية ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ كدليل علىٰ ما قاله.

وقد جاء في لسان العرب: أنّها من مادة (لَهِمَ) وتعني البلع، والالهام يعني التلقين الإلهي، وهو نوع من أنواع الوحي (الوحي بمعناه العام).

ومع الالتفات إلىٰ أصل هذه الكلمة يمكن العثور علىٰ سبب الاطلاق، وكأن الروح تفتح فم الإنسان وتلقي فيه حقيقة بواسطة التعليم الإلهي فيمضغها فمه.

«الفطرة»: جاءت من مادة فَطْر، ويعتقد البعض أنّها في الأصل تعني «البَقْر» وهو الشقّ[1]، بينما يعتقد البعض الآخر أنّها تعني الشق طولاً، ثم استعملت بمعنىٰ الخلق، وكأنّ ستار العدم يُبْقر ويُمزّق فتخرج منه الموجودات الحية، كما يقال للعمل المنافي للصوم كتناول الطعام (إفطار)، فيقال: إنّ ذلك بسبب بِقْر شيء ممتد ومتصل.

ويقال للنبات الذي يفطر الأرض ويبقرها «فُطر» لأنّه يبقر الأرض ويخرج منها، وقد يطلق علىٰ حلب الثدي بالأصابع «فَطْر».

كما أنّ العجين إذا اختمر وصُيِّرَ خبزاً اطلق عليه «فَطْر»[2].

وعلىٰ كل حال، فإنّ المراد من هذه المفردة في الآيات هو الخلقة الإلهيّة الأُولىٰ، والهداية التكوينية نحو حقائق مودعة في روحِ الإنسان وهو مجبول عليها.

وأمّا كلمة *«النفس»* ـ وكما أشرنا سابقاً ـ فتعني «الروح» وقد يطلق علىٰ ذات الشيء «نفس الشي» كما جاء ذلك في القرآن الكريم *(ويحذّركم الله نفسه)* كما قد جاءت هذه المفردة بمعنىٰ «الدم» و«العين» و«الشخص»[3].

كما أنّها قد تطلق اطلاقاً خاصاً علىٰ «النفس الامارة» إلّا أنّها جاءت في الآيات هنا بمعنىٰ «الوجدان» الذي يشكل قسماً من روح الإنسان.

وكلمة *«صِبْغَة»* مشتقة من مادة «صَبَغَ» أي طلىٰ لوناً، ويطلق علىٰ نتيجة العمل «صبغة»، و«صِبْغ» يعني الطعام الذي يؤكل مع الخبز بحيث يكون الخبز كالصبغة لذلك الطعام، وادعىٰ البعض أنّه يعني زيت الزيتون الذي يغمس فيه الخبز ويؤكل.

ويقول الراغب: إنّ «الصبغة» المذكورة في الآية إشارة إلىٰ العقل الذي جُبِلَ عليه الإنسان وميّزه عن الدواب، وهو كالفطرة[4].

---

١. لسان العرب.

٢. كتاب العين، ولسان العرب، ومفردات الراغب.

٣. مجمع البحرين الطريحي، مادة (نفس)، ومفردات الراغب.

٤. مفردات الراغب، مادة (صبغ).

إنّ التعبير بالصبغة، كما يقول عدد من أئمة اللغة ـ قد يكون بسبب أنَّ «النصارىٰ» يغسلون الوليد بعد اليوم السابع بماء ممزوج بمادة صفراء اللون (غسل التعميد) معتقدين أنّ هذا الصبغ يطهره وينزهه، والقرآن يصرح لهم: إنّ صبغة الإسلام والتوحيد أحسن من هذه الصبغة وأشرف.

وعلىٰ هذا، فالتعبير بالصبغة يتناسب كثيراً مع الفطرة والخلقة الأُولىٰ، خاصة وأنّ بعض الروايات فسرت الصبغة بـ«الإسلام والولاية»[1].

๛

جمع الآيات وتفسيرها

في الآية الأُولىٰ بعد أن أقسم الله بالنفس وبالذي سوّاها وما فيها من قابليات، أشار إلىٰ المصدر المُلْهِم للمعرفة وهو «الوجدان الأخلاقي»، وقال: إنّ الله ألهم الإنسان المعرفة في مجال التقوىٰ والفجور.

وقد جاء في آية أُخرى ما يماثل مفاد هذه الآية، فبعد إشارته إلىٰ خلق الإنسان قال: وهديناه النجدين.

وينبغي الالتفات هنا إلىٰ أن «نجد» ـ في الأصل ـ المكان المرتفع ويقابله «تَهَامة» أي الأرض المنخفضة، إلّا أنّ النجد هنا ـ بقرينة ما قبل وما بعد الآية، وبقرينة بعض الروايات التي فسرت النجد ـ كناية عن الخير والشر وعوامل السعادة والشقاء[2].

كما أنّ الآية: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾. (الإنسان / ٣)

قد تشير إلىٰ نفس المعنى، أو علىٰ الأقل تندرج «الهداية الفطرية» في المفهوم العام للهداية التي جاءت في هذه الآية.

๛

---

١. تفسير البرهان، ج ١، ص ١٦٧ ـ ١٥٨.

٢. تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧١٥٥؛ تفسير مجمع البيان، ج ١٠، ص ٤٩٤.

والآية الثانية ناظرة إلىٰ تحطيم الاصنام من قبل بطل التوحيد ابراهيم الخليل عليه السلام: ومحاكمة عبدة الأصنام له في بابل، فعندما سُئِلَ: ﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾؟ (الانبياء / ٦٢)

اجابهم عليه السلام: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾. (الانبياء / ٦٣)

ثم قالت الآية: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي ظالمون لأنفسهم ولمجتمعهم وربّهم وخالقهم الذي يغدق عليهم النعم.

يعتقد بعض المفسرين: أنّ عبارة: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ تعني لوم احدهم الآخر، إلّا أنّ هذا خلاف ظاهر الآية، فالتفسير الأول أصح.

نعم، إنّه الضمير الذي يجعل عبدة الأصنام المغرورين يلومون أنفسهم ويوبّخونها.

إنّ التعبير بـ ﴿النَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ في الآية الشريفة: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾. (القيامة / ٢) خاصة وأنّ الله قرنها بيوم القيامة، إشارة واضحة إلىٰ هذه المحكمة الباطنية والوجدان الفطري.

والآية الثالثة تشير إلىٰ أمر المشركين، حيث يعرضون عن اتباع آيات الله عندما يُدعون إليها ويصرون علىٰ اتباع ما كان عليه آباؤهم، فيقول الله في هذا المجال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾، وبالرغم من ذلك لم يخضعوا لله تعالىٰ، بل لأصنامهم التي صنعوها بأيديهم لجهلهم: ﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. (لقمان /٢٥)

وجوابهم علىٰ هذا السؤال عن خلق السموات والأرض، يمكن أن يكون نابعاً عن «الفطرة»، ويوضّح حقيقة أنّ الأنوار الإلهيّة متأصّلة في الإنسان منذ تكوينه فطرياً ولكن الناس غافلون عن هذا الحكم الفطري، فيذهبون عنهُ شططاً.

٭٭٭

وتشير الآية الرابعة إلىٰ نفس المفاد الذي جاء في الآية الثالثة، فقد وضّحت التوحيد الفطري الذي يتجلىٰ في باطن الإنسان عندما يمرّ بالأزمات والشدائد، ومثال ذلك أنّ الناس

عند ركوبهم السفينة ومواجهتهم الأمواج المتلاطمة والزوابع والعواصف يذكرون الله، لأنّهم لا يجدون أحداً يستطيع انقاذهم آنذاك من الشدائد غير الله.

فعندما تُرفع ستائر التقاليد الخرافية والأوهام والتعاليم الخاطئة وتتجلىٰ فطرة البحث عن الله، يذكرونه ويدعونه بإخلاص كامل.

وما أن يهدأ البحر أو يصلوا إلىٰ الساحل، حتىٰ تساورهم الأفكار الملوثة بالشرك مرّة أُخرى وتستعيد الأصنام وجودها في قلوبهم وتسدل ستاراً علىٰ فطرتهم مرّة ثانية؟

ജ്ജ

والآية الخامسة، بعد ما عَدَّتْ التوحيد دين وملة إبراهيم وانبياء عظام آخرين كإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام قالت: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾.

إنَّ النصارىٰ الذين يعتقدون بالتثليث، ويغسلون أولادهم بغسل التعميد، ويضيفون ـ احياناً ـ مادة صفراء إلىٰ الماء الذي يُغسل به، ويقرنون عملهم هذا باسم «الأب» و«الابن» و«روح القدس» يعتبرون هذا العمل مطهراً لهم من الذنوب التي ورثوها من آدم عليه السلام[1].

إنَّ القرآن أبطل هذه الأفكار جميعها وصرح: إنّ صبغة الله أحسن من هذه الصِبَغ الخرافية، فسلموا لهذه الصبغة لتطهر أرواحكم من كل شرك وإثم وعبادة للأصنام.

وقد جاء في الروايات ـ كما قلنا سابقاً ـ أنّ المراد من الصبغة هو الإسلام والولاية[2]، وهذا تأكيد علىٰ وجود إلهامات فطرية في ذات الإنسان.

ജ്ജ

---

١. لقد جاء في قاموس الكتاب المقدس: أنّ غسل التعميد أحد القواعد المقدّسة التي كانت معروفة قبل ظهور المسيح عليه السلام، وهو من فرائض الكنيسة، ويستعملون فيه الماء ويثلثون عليه، ويعتبرونه مطهراً من النجاسات ويعتقد الكثير من المسيحيين أنّ الغسل هذا وجب علىٰ أولاد المؤمنين (القاموس، ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨).

٢. تفسير الميزان، ج ١، ص ٣١٦؛ تفسير الدر المنثور، ج ١، ص ١٤١.

والآية السادسة والسابعة تحدثنا بعد الإشارة إلىٰ خلق الإنسان عن تعليمه البيان وما لم يعلم.

﴿الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾. (العلق / ٤)

وعلىٰ هذا فهو معلم البيان كما هو معلم بالقلم، وهو معلم الإنسان ما لم يعلم، وهذه التعاليم قد تكون تلميحاً إلىٰ التعاليم الفطرية المودعة في باطن الإنسان بشكل معلومات ملخصة وأولية، وقد تكون تلميحاً للوسائل والأسباب والمقدمات التي جعلها الله في الإنسان، والتي تمكنه من اختراع اللغة والخط واكتشاف واقعيات الكون الأُخرى.

وعلىٰ المعنى الأول تكون الآيات شاهداً علىٰ بحثنا.

❊❊❊

أمّا الآية الثامنة في البحث فقد تحدثت عن دين الفطرة وأمرت الرسول بأن: ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾.

الجميل هنا أن القرآن لم يذكر كون معرفة الله فطرية فحسب، بل إنّ الدين بجميع أبعاده وجوانبه فطري.

والأمر كذلك بالضرورة، وذلك لتنسيق الموجود بين جهاز «التكوين» وجهاز «التشريع» أي أنّ ما جاء مفصلاً في عالم التشريع، جاء بصورة مجملة في عالم التكوين، وعندما يتفق نداء الفطرة مع نداء الأنبياء والشريعة، فإنّ هذا الاتفاق يجعل الإنسان في طريق الهدىٰ.

وسنخوض تفصيلاً في هذا الموضوع عند بحثنا في التوحيد الفطري في المجلد الثاني إن شاء الله.

❊❊❊

النتيجة:

طبقاً لما قرأناه، فإنّ القرآن المجيد يعتبر «الفطرة» أو «الوجدان» مصدراً غنياً للمعرفة. وقد دعا الجميع ـ بتعابير مختلفة ـ للالتفات إلىٰ هذا المصدر لأهميّته البالغة.

توضيحات

١ ـ فروع الفطرة والوجدان

إنّ المعلومات الفطرية والوجدانية لها فروع مختلفة وأهمّها الفروع الأربعة التالية، والملفت للنظر أنّ كل آية من الآيات التي جاءت في أوّل البحث أشارت إلىٰ فرعٍ من هذه الفروع، وهي:

١ ـ **إدراك الحسن والقبح** ـ أي الأخلاق التي يطلق عليها ـ احياناً ـ *«الوجدان الأخلاقي»*، وتعني أن الإنسان ومن دون الحاجة إلىٰ استاذ أو معلم يعتبر كثيراً من الصفات حسنةً مثل «الاحسان» و«العدل» و«الشجاعة» و«الايثار» و«العفو» و«الصدق» و«الأمانة» وغير ذلك من الصفات.

وفي مقابل هذه الصفات، صفات قبيحة مثل «الظلم والجور» و«البخل» و«الحسد» و«الضغينة» و«الكذب» و«الخيانة» وأمثالها.

والآية: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ تشير إلىٰ هذا النوع من التعاليم الفطرية.

٢ ـ **إدراك البديهيات العقلية**: التي تعتبر أسس الاستدلالات النظرية، ولا يمكن اقامة البرهان في أي موضوع من دون الاستناد اليها.

وتوضيح ذلك: أنّ في الرياضيات مجموعة من القضايا البديهية تنتهي إليها جميع الاستدلالات الرياضية وهي وجدانية، مثل (الكل أكبر من الجزء)، وإذا تساوىٰ أحد شيئين متساويين مع شيء آخر، تساوىٰ كلٌّ منهما مع ذلك الشيء، أو إذا أنقصنا مقدارين متساويين من شيئين متساويين أو اضفنا ذلك المقدار إلىٰ كلٍّ منهما فالنتيجة تساويهما كذلك.

وكذلك الأمر بالنسبة للاستدلالات العقلية الفلسفية، فلا يمكن الاستدلال من دون الاستناد إلىٰ قضية استحالة اجتماع الضدين أو النقيضين وغير ذلك.

ويستخدم القرآن ـ احياناً ـ هذه الاصول المسلّم بها لاثبات قضايا مهمة، كما في قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. (الزمر / ٩)

ويقول في آية أُخرى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾. (الرعد / ١٦)

٣ ـ الفطرة المذهبية ـ أنّ الإنسان يتعلم بعض القضايا والمسائل العقائدية من دون الاستعانة بمعلم أو استاذ كمسألة معرفة الله والمعاد وقضايا عقائدية اُخرى يأتي شرحها في المجلد الثاني إن شاء الله.

والآية: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ تشير إلىٰ هذا القسم من المعرفة الفطرية.

ولهذا السبب نرىٰ الايمان بمبدأ مقدس موجوداً علىٰ مرّ العصور، كما أنّ لدينا قرائن تثبت تجذّر هذا الايمان عند الإنسان البدائي كذلك ولا يمكن اتساع هذا المعتقد واستمراره عند البشر عبر مرّ العصور إلّا إذا كان متأصلاً في فطرة الإنسان.

٤ ـ محكمة الوجدان: توجد في باطن الإنسان محكمة عجيبة يمكن تسميتها «القيامة الصغرىٰ»، تحاكم الإنسان علىٰ أعماله، فتشجعه علىٰ الحسنات، وتوبخه على السيئات، ونجد هذه التشجيعات والعقوبات في باطننا جميعاً (بالطبع مع وجود اختلاف)، وهي نفسها التي نقول عنها تارة: (إنّ ضميرنا راضٍ)، وتارة: (إنّ ضميرنا يؤنبنا) إلىٰ حدٍ حيث يسلب منا النوم، بل قد يؤدّي ـ احياناً إلىٰ نتائج مأساوية مثل الانتحار والجنون والابتلاء بأمراض نفسية، والآية: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ تشير إلىٰ هذا القسم.

٢ ـ هل توجد معرفة فطرية؟

بالرغم من أنّ الجميع يشعرون بشكل عام بوجود هذا المصدر في ذواتهم، أي يشعرون بوجود مجموعة من الخطابات والالهامات، أو بتعبير آخر وجود إدراكات لا تحتاج معلماً أو استاذاً، إلّا أنّ بعضاً من الفلاسفة شكك في هذا المصدر، وعلىٰ العموم توجد ثلاث نظريات في هذا المجال:

أ) نظرية الذين يعتقدون أن كل ما لدىٰ الإنسان من معلومات موجود في باطنه، وما يتعلمه في الدنيا، يتذكره في الحقيقة، لا أنّه يتعلمه من جديد! هذا ما نقل عن افلاطون واتباعه[١].

---

١. يقول افلاطون: إنّ الروح قبل حلولها في البدن ودخولها في العالم المجازي كانت في عالم المعقولات ☜

ب) نظرية أولئك الذين يدّعون أنّ المعرفة بجميع أقسامها عند الإنسان فطرية، بالرغم من اذعانهم لِقابلية الإنسان علىٰ إدراك القضايا المختلفة، ويتصورون أنّ إدراكهُ الفطري انعكاس لتجاربه وحاجاته والضرورات الاجتماعية.

اعتبر «فرويد» عالم النفس المعروف «الوجدان الأخلاقي» مجموعة من النواهي الاجتماعية والميول المكبوتة في ضمير الإنسان، يقول: إنّ «الوجدان الأخلاقي» لا يمثل سلوكاً ذاتياً وعميقاً لروح الإنسان، بل إنّه رؤية باطنية بسيطة للنواهي الاجتماعية، ولا يوجد في تاريخ المجتمع ولا تاريخ الفرد تصورات بدائية عن حسن الأشياء وقبحها، وقد تولدت هذه التصورات من البيئة الاجتماعية وتشعبت عنها[1].

وقد فسر أتباع المذهب المادي (الديالكتيك) الإدراكات الفطرية علىٰ أساس مقولتهم المعروفة «كل شيء وليد الظروف والاوضاع الاقتصادية»، فانكروا وجودها.

ج) نظرية أولئك الذين يرون أن قسماً من معلوماتنا فطرية والقسم الآخر مُكتسب، والمعلومات المكتسبة تنتهي إلىٰ تلك المعلومات الفطرية وهي أساسها.

وقد أثبتت الأدلة المنطقية العقلية، والأدلة النقلية من الآيات والروايات هذه النظرية وذلك للاسباب الآتية:

أولاً: أننا نعتقد بوجود قضايا بديهية مُسَلّمٌ بها في الرياضيات وبدون تلك البديهيات لا يمكن اثبات أيّة قضية رياضية، كذلك الأمر بالنسبة للقضايا الاستدلالية الأُخرى، فلابد من اعتمادها علىٰ قضايا بديهية مسلّم بها تكون الأساس لكلِّ استدلال.

وبعبارة أُخرى: لو أنكرنا القضايا الفطرية بالكامل لأنكرنا جميع معارفنا، لأنّ جميع القضايا العقلية ستكون مرفوضة، وسنسقط في النهاية في وادي السفسطة.

والمجردات و«المُثل»، أي أنّها أدركت الحقائق ونسيتها بمجرّد دخولها في عالم الكون والفساد، إلّا أنّها لم تمح عنها بالكامل، فالإنسان كالظل والشبح فما هو في «المُثل» يتذكره بمجرّد الالتفات إليه، فكسب العلم والمعرفة تذكر في الحقيقة، وإذا كان الإنسان جاهلاً منذ البدء فلا يمكنه تحصيل العلم (مسير الحكمة في اروپا ج ١، ص ٢٣ ـ نظريات افلاطون).

١. أفكار فرويد، ص ١٠٥؛ ومجموعة ماذا أعلم ـ للأمراض اخر الروحية ـ ص ٦٤ (بالفارسية).

وإذا أثبتنا ـ مثلاً ـ بالحس والتجربة أو بدليل عقلي وجود أمر ما، فإذا كنّا غير واثقين بقضية «استحالة اجتماع النقيضين» التي تعتبر من القضايا البديهية جدّاً، فعندئذٍ يمكننا التشكيك بالأمر، والقول بإمكانية عدم وجود الأمر الذي أثبتنا وجوده!

وإذا أردنا إثبات هذه الاصول البديهية بالتجربة والاستدلال فسينتهي الأمر بنا إلىٰ الدور والتسلسل ولا تخفىٰ سلبيات هذا الأمر علىٰ أحد.

***

ثانياً: فضلاً عمّا سبق، فكما نعترض على السفسطائيين (الذين ينكرون كل شيء) وكذا المثاليين (الذين ينكرون الحقائق الخارجية، ويعتقدون بالأمور الذهنية فقط) وبالاستناد إلىٰ الوجدان نقول: إنّ الوجدان يشهد ببطلان مثل هذه العقائد، لأنّنا ندرك أنفسنا والعالم الخارجي الذي يحيط بنا بوضوح، فكذلك الأمر هنا، لأنّ هذه الضرورة الوجدانية دليل علىٰ وجود كثير من الإدراكات الباطنية.

وكما أنّنا نحس بحاجات جسمية وروحية كثيرة (الحاجات الجسمية مثل الأكل والشرب والنوم، والروحية مثل الميل إلىٰ العلم والاحسان والجمال والعبادة والقداسة) ويقول بعض علماء النفس: (إنّ هذه المقتضيات تشكل الأبعاد الأربعة لروح الإنسان).

فهذا الوجدان ذاته يصرح لنا بحسن الاحسان والعدالة وقبح الظلم والاعتداء، وفي هذه الإدراكات لا نحتاج إلىٰ مصدر اجتماعي أو اقتصادي أو غير ذلك بل يكفينا الوجدان.

إنّ حجة أمثال «فرويد» و«ماركس» واضحة، حيث أنّهم يعتقدون بأصل واحد وهو رجوع كل قضية اجتماعية وفكرية إلىٰ الجنس أو الاقتصاد، ويصرون علىٰ توجيه كل شيء علىٰ ضوء هذا الأصل.

ثالثاً: إنّ الموضوع واضح من جهة نظر توحيدية، لأنّنا إذا سلّمنا أنّ الإنسان خُلِقَ للتكامل علىٰ أساس سنة إلهية، فلا ينبغي الشك في أنّ وسائل ودوافع مثل هذا التكامل يجب أن تكون مهيئة في ذاته، وموجودة، وأنّ ما جاء به الأنبياء وما ورد في الكتب

السماوية متناسب وهيئة الإنسان التكوينية.

وعليه، فحاكم التكوين والخلقة متناسب وفي تناسق كامل مع عالَم التشريع.

أو بتعبير آخر، فإنّ خلاصة هذه التعليمات مودعة في ذات الإنسان وأنّ ما جاء في الشرائع السماوية هو شرح مفصل لهذه الخلاصة من التعليمات.

ولهذا، فلا يمكن التشكيك في التعاليم الفطرية التي يؤيدها العقل والرؤية الكونية التوحيدية.

٨٠٠٣

سؤال:

لقد صرّح القرآن بقوله عز من قائل: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾. (النحل / ٧٨)

ألا يستفاد من هذه الآية أن لا وجود للمعلومات الفطرية أبداً؟

الجواب:

أولاً: إنّ الإنسان في ساعات ولادته لا يعلم شيئاً قطعاً، وحتىٰ المعلومات الفطرية ليست فعالة، وعندما يعرف نفسه ويصبح مميزاً يتحسس المعلومات النظرية ويدركها بلا معلم أو استاذ أو حسٍ أو تجربة، وإلّا فكيف يمكن القول بأنّ الإنسان يعلم كل شيء حتىٰ بوجوده الذاتي ـ بالتجربة وأمثالها[1].

ثانياً: ألَمْ نقل بأنّ القرآن يفسر بعضه بعضاً؟

حيث إنّ آياتٍ مثل: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ و﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾

---

١. نقلت عبارة معروفة عن (ديكارت) قال فيها: «كنتُ شاكاً حتىٰ في نفسي، ثم رأيت أنـي أُفكـر، فأدركتُ أنـي موجود» إنّها عبارة مليئة بالأخطاء، لأنّ الذي يقول: أنا أُفكر فانّه يعترف بالـ(أنا) قبل اعترافه بالتفكير، لا أنّه يعترف بالتفكير قبل الأنا.

التي جاءت في أول البحث تفسر الآية: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾، فتكون المعلومات الفطرية مستثناة من هذه الآية.

ﮪﮫ

سؤال آخر:

وقد يطرح هنا سؤال آخر عكس السؤال الأول وهو: أنّ القرآن الكريم في الكثير من الآيات أطلق مفردة «التذكير» على علوم الإنسان، مثل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾. (النحل/١٣)

ويقول في آية أُخرى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. (آل عمران / ٧)

وفي أُخرى أيضاً: ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. (البقرة / ٢٢١)

ألَمْ يكن المراد من هذه الآيات وهو نفس ما ذهب إليه افلاطون، أي أنّ العلوم عبارة عن تذكير لما هو موجود في سريرة الإنسان، وحاصل عنده منذ القدم؟

ﮪﮫ

الجواب:

إنّ «التذكير» من مادة «ذكر» ومعناه الأولي ـ كما يقول أئمّة اللغة ـ هو الحفظ، وكما يقول الراغب في مفرداته: الذكر قد يطلق على حالة نفسية تُعين الإنسان على حفظ العلوم والمعارف، وقد يقال لحضور الشيء في القلب، أو البيان، وما جاء في لسان العرب قريب لما جاء في المفردات، حيث قال: الذكر، يعني الحفظ كما يعني الموضوع الذي جرى على الألسن.

وعلى هذا، فالذكر والتذكر لا يعني حضور الشيء في القلب بعد النسيان أو استعادة الذكرى فقط، بل يشمل جميع المعلومات.

ﮪﮫ

٣ ـ «الفطرة» و«الوجدان» في الروايات الإسلامية

لقد أُشير في الروايات الإسلامية إلىٰ هذا المصدر كثيراً ونذكر هنا نماذج من تلك الروايات:

١ ـ قال رسول الله ﷺ في حديث معروف له: ***«كل مولود يولد علىٰ الفطرة حتىٰ يكون أبواه يهودانه وينصّرانه»***[١].

يدل هذا الحديث بوضوح علىٰ أن التوحيد، بل حتىٰ الأُصول الأساسية للإسلام مودعة في فطرة الإنسان[٢].

٢ ـ وقد جاء في حديث أنّ شخصاً سأل الإمام الصادق ؑ عن الآية: ﴿**فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾، فأجاب الإمام ؑ: ***«التوحيد»***[٣].

٣ ـ وفي حديث آخر أجاب عن نفس السؤال بهذا الجواب: ***«هي الإسلام»***[٤].

٤ ـ وقد قال الإمام ؑ في حديث آخر في هذا المجال: ***«فَطَرَهُمْ علىٰ المعرفة»***[٥].

٥ ـ وقد جاءت روايات عديدة عن الإمام الصادق ؑ فسرت الآية: ﴿**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً**﴾ ***بالاسلام***[٦].

٦ ـ وقد جاء في حديث قدسي: ***«خلقتُ عبادي حُنَفاء»***، وقال صاحب مجمع البحرين بعد ذكره لهذا الحديث يعني مؤهلين لقبول الحمد، ثم اعتبر معنىٰ الحديث نفس معنىٰ الحديث المعروف ***«كل مولود يولد علىٰ الفطرة»***.

وهناك ملاحظة جديرة بالذكر وهي: إنّ الروايات الإسلامية عبرت عن الأعمال الحسنة

---

١. بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٨١.

٢. يأتي شرح هذا الحديث مفصلاً في، المجلد الثاني من هذا التفسير.

٣ اصول الكافي، ج ٢، ص١٢، باب فطرة الخلق علىٰ التوحيد، ح ١.

٤. المصدر السابق، ح ٢.

٥. المصدر السابق، ح ٤. والروايات التي جاءت في هذا المجال كثيرة ويمكن الرجوع إلىٰ المصادر التالية: بحار الأنوار، ج ٣ باب ١١ من أبواب التوحيد.

٦. بحار الأنوار، ج ٣، ص ٢٨٠.

بالمعروف وعن الأعمال السيئة والقبيحة بالمنكر وتطلق هذه المفردة على الأمر المجهول، فقد يُثْبِتُ هذا الاطلاق أنّ الأعمال الحسنة سلوكات تعرفها الروح وتستأنس بها وتسكن إليها أمّا الأعمال القبيحة والسيئة فهي ممارسات تنفر منها الروح، ومجهولة عندها.



٥ ـ الوحي السماوي

تمهيد:

توجد آيات كثيرة في القرآن الكريم حول الوحي، بل إنّ بحثه طرح في جميع الكتب السماوية. وفي الحقيقة فأن أتباع الأديان السماوية يعتبرون «الوحي» أهم مصدرٍ للمعرفة، لأنّه ينهل من العلم الإلهي الواسع، في حين أنّ المصادر الأُخرى تتعلق بالإنسان نفسه، وهي محدودة جداً بالنسبة لهذا المصدر.

إنّ الرؤية الكونية الإلهيّة تقول: إنّ الله عزّ وجلّ (ولأجل هداية البشر (أي بيان الطريق له) أوحىٰ إلىٰ رجال الوحي (أي الرسل العظام) بكل ما يحتاجه الناس في سبيل اجتياز الطريق إلىٰ التكامل والسعادة.

وفي الحقيقة، إنّ العقل إذا كان سراجاً منيراً قويا فإنّ الفطرة والوجدان والتجربة بمنزلة سراجٍ من نوع آخر، و«الوحي» بمنزلة الشمس الساطعة، الأكبر والأعظم من السراجين المذكورين.

وعلىٰ هذا فيُعدُّ الوحي ـ من وجهة نظر الإلهيين ـ أهم وأغنىٰ مصدر للمعرفة.

والآن نقرأ خاشعين الآيات الآتية.

١ ـ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِـنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُـرْسِلَ رَسُـولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾. (الشورىٰ / ٥١)

٢ ـ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾. (النجم / ٣ ـ ٤)

٣ ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾. (فصلت / ٦)

٤ـ ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ... ﴾. (الاسراء / ٣٩)

٥ ـ ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ... ﴾. (البقرة / ٩٧)

٦ـ ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾. (النحل / ٨٩)

٧ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾.

(الشورىٰ / ٥٢)

٨ ـ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ ﴾. (النحل / ٤٣)

٩ ـ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ... ﴾. (الحديد / ٢٥)

١٠ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾. (الحجر / ٩)

١١ ـ ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. (آل عمران / ١١٨)

١٢ ـ ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾. (النساء / ١٦٤)

شرح المفردات:

١ ـ «الوحي» أُستعمل هذا الاصطلاح في القرآن والروايات والأدب العربي بمعانٍ كثيرة، إلّا أنّ المعنىٰ الأولي للوحي ـ كما يقول الراغب في مفرداته ـ هو «الإشارة السريعة». ولذا يقال للأعمال السريعة «وحي»، كما يقال «وحي» للحديث الرمزي المتضمن كنايات، والذي يُتبادل بسرعة، والذي قد يحصل بالكتابة أو الإشارة، ثم اطلقت هذه المفردة علىٰ المعارف الإلهيّة التي تقذف في قلوب الأنبياء والأولياء.

وللوحي أشكال متعددة، فتارة يكون بمشاهدة ملك من الملائكة واستماع حديثه، كما هو الحال بالنسبة لجبرئيل عليه السلام حيث كان الله يُوحي إلىٰ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله بواسطته.

وتارة باستماع صوته فقط دون مشاهدته كما كان يوحىٰ إلىٰ موسىٰ عليه السلام.

وتارة يُوحىٰ بالألقاء بالقلب فقط.

وتارة يوحي الله بالالهام فقط كما هو الحال بالنسبة لأُم موسىٰ عليها السلام.

وتارة بالمنام (كالرؤيا الصادقة)[1].

ذكر الخليل بن أحمد في كتاب العين: إنّ أصل معنىٰ «الوحي» هو «الكتابة»، وقال ابن منظور في لسان العرب: إنّ الوحي يعني «الإشارة» و«الكتابة» و«والرسالة» و«الالهام» و«والحديث الخفي» و«كل خطاب يُلقىٰ علىٰ شخص آخر».

ومن مجموع ما تقدم نستشف أنّ «الوحي» في الأصل يعني الإشارة السريعة والحديث الرمزي والخطاب الخفي المتبادل بالرسائل أو الإشارات، وبما أنّ التعاليم الإلهيّة أوحيت إلىٰ الأنبياء بشكل غامض، أطلقت مفردة «الوحي» عليها، لأنّ الألفاظ التي نستعملها وضعت لمستلزمات حياتنا اليومية، فإذا أردنا أن نستعملها في الأُمور الخارجة عن مستلزمات حياتنا اليومية، فينبغي توسيع معانيها، أو تجريدها أو استعمالها في مناسبات خاصة.

يقول الشيخ المفيد رحمه الله في «شرح الاعتقادات»: إنّ أصل الوحي يعني الكلام الخفي، وقد أطلق علىٰ كل شيء القصد منه تفهيم المخاطب بشكل يخفىٰ عن الآخرين، وإذا نسب الوحي إلىٰ الله عزّ وجلّ فالمراد به التعاليم والأوامر الإلهيّة التي يُخاطب بها الأنبياء والرسل[2].

٢ ـ أمّا «الانزال» و«التنزيل» فاشتقتا من مادة «نزول» وتعني ـ في الأصل ـ الهبوط والمجيء من المكان العالي إلىٰ المكان الداني، وفرقهما عن النزول أنّهما مصدران لفعلين متعديين في حين أنّ النزول مصدر لفعل لازم.

وقد يكتسب الانزال معنىً حسياً مثل ما جاء في هذه الآية: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾. (الفرقان / ٤٨)

---

١. مفردات الراغب مادة (وحي).

٢. سفينة البحار، ج ٢، ص ٦٣٨.

وقد يكون بمعنىٰ موهبة تُوهب من صاحب مقامٍ عالٍ إلىٰ صاحب مقامٍ دانٍ: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾. (الزمر / ٦)

وقد يكون الانزال بمعنىٰ إلقاء المعارف الإلهيّة من قِبَلِ الله، وقد استعمل هذا المعنىٰ في القرآن كثيراً. وهناك بحث لأئمة اللغة في كون الانزال والتنزيل بمعنىٰ واحد، أو أنّ لكلٍ معنىٰ يختص به، فبعض يقول: إنّه لا اختلاف في المعنىٰ بينهما غير أنّ التنزيل يفيد الكثرة فقط[1]، بينما يعتقد بعض آخر: أنّ «التنزيل» يفيد التدريج، و«الانزال» يفيد التدريج والدفعي، واعتمد الراغب في تفريقه هذا علىٰ الآية:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾. (محمد / ٢٠)

فالآية تحدثت أولاً عن طلب المؤمنين لنزول آيات الجهاد تدريجياً، ثم أشارت إلىٰ نزول حكم الجهاد بصورة قاطعة وجامعة، وعندها ينظر المنافقون إلىٰ الرسول نظر المغشي عليه من الموت.

٣ ـ إنّ «تبيين» اشتقت من مادة «بين» أي المسافة الفاصلة بين الشيئين، ثم جاءت بمعنىٰ «الايضاح» و«الفراق»، وذلك لأنّ الفصل بين الشيئين يستدعي هذين الأمرين، ثم استعملت بعد ذلك لكلٍ من المعنيين بصورة مستقلة، فتارة تعني «الفراق» واُخرى «الايضاح».

وقد جاء في «صحاح اللغة» أن «بين» تأتي بمعنيين متضادين هما، الفراق والآخر الاتصال، ويظهر أنّ معناهما في الأصل ـ كما جاء في غير صحاح اللغة ـ هو الفراق، إلّا أنّ الفراق قد يؤدّي إلىٰ الاتصال بشيء آخر فاستعمالها في الاتصال لأنّه يلازم الفراق.

وعلىٰ أيّة حال فإنّ مفردة (تبيين) جاءت في كثير من آيات القرآن بمعنىٰ الظهور والانكشاف والوضوح، ولهذا يقال للدليل الواضح والمنكشف «بيّنة» سواء كان عقلياً أو محسوساً، فيطلق «البينه» علىٰ الشاهدين العادلين (اللذين يعتبران بينة محسوسة)، كما

---

١. وهذا رأي صاحب لسان العرب، حيث نقله عن ابي الحسن.

تطلق «البينة» علىٰ معاجز الأنبياء، و«البيان» يعني رفع ستار الأبهام عن شيء، سواء كان بالنطق أو بالكتابة أو بالإشارة.

٤ ـ «التكليم» و«تكلّم» من مادة «كلم»، وفي الأصل ـ كما يقول الراغب ـ يعني التأثير الذي يُرىٰ أو يُسمع، فالذي يُرىٰ كجُرح الآخرين، والذي يُسمع فهو الحديث الذي نسمعه من الآخرين.

يذكر الخليل بن أحمد في كتابه «العين»: أن أصل التكليم يعني «الجرح»، وعلىٰ هذا فاطلاقه علىٰ النطق كان بسبب التأثير العميق الذي يتركه الحديث في قلوب المستمعين له، بل قد يكون تأثير الكلام أشد من تأثير السيف والخنجر، وكما يقول الشاعر العربي المعروف:

جراحات السنان لها التئامٌ ولا يلتامُ ما جرح اللسانُ

ويستفاد من بعض العبارات أنّ «التكليم» و«التكلم» لهما معنىٰ واحد، وكلاهما بمعنىٰ النطق والحديث، ولهذا عدت «متكلّم» احدىٰ صفات الله، في حين إذا أردنا التقيد بالآية: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسىٰ تَكْلِيمًا﴾ ينبغي القول أن الله «مُكلِّم».

ولا يستبعد احتمال استعمال مفردة «التكلّم» في موارد حيث يحدّث شخصٌ شخصاً آخرَ، إلّا أن «التكليم» مثل «المكالمة» تطلق علىٰ الحديث المتبادل بين طرفين، وكلام الله مع موسىٰ عليه السلام في جبل طور من هذا القبيل.

ومن هنا يطلق «علم الكلام» علىٰ علم العقائد، لأنّه يذكر أنّ أول بحث بُحث فيه بعد الإسلام هو كلام الله (القرآن)، حيث كان البعض يعتقد أنّه أزلي، والبعض الآخر: أنّه حادث. وقد أدّىٰ الخلاف في هذه المسألة في القرون الأُولىٰ من عهد الإسلام إلىٰ شجار ونزاعات شديدة، حدثت بين المسلمين آنذاك [1].

ونعلم الآن أنّ ذلك النزاع لم يكن له أساس ولا نتيجة، لأنّه إذا اريد من القرآن محتواه،

---

١. ذكر هذا الاحتمال في دائرة معارف القرن العشرين كأول احتمال في مجال التسمية هذه، دائرة معارف القرن العشرين، فريد وجدي، ج ٨ مادة (كلم).

فالمسلم أنّه كان مع علم الله أزلياً، وإذا كان المراد منه ألفاظه وكتابته ونزوله بواسطة الوحي، فهذا حادث في زمن بعثة الرسول الأكرم ﷺ بلا شك، وعلىٰ أية حال، فالهدف من هذا الحديث كان بيان وجه تسمية «علم العقائد» بـ«علم الكلام».

شرح الآيات وتفسيرها

الوحي شمس مشرقة:

لقد انعكس صدىٰ الوحي في القرآن الكريم بشكل واسع.

حيث أشارت مئات الآيات إلىٰ الوحي كمصدرٍ عظيم للعلم والمعرفة، وأشارت بعضها إليه بهذا العنوان *«الوحي»* وبعضها بـ*«التنزيل»* و*«الانزال»* وبعضها بـ«تبيين الآيات الإلهيّة» وبعضها بـ«تكليم الله للرسل»، وبمصطلحات أُخرى.

وأفضل تعبير يُذكر في هذا المجال أن يقال: إذا كان العقل في المنظار القرآني بمثابة «مصباح» شديد الاضاءة لكونه مبيناً للحقائق، فإنّ الوحي «كالشمس» الساطعة التي تضيء أرجاء المعمورة».

أُشير في الآية الأُولىٰ إلىٰ ثلاثة طرق من طرق اتصال الأنبياء بالله عزّ وجلّ، حيث قالت: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ فالطريق الأول هو الايحاء، والثاني هو التكلم من وراء الحجاب كما تكلم الله مع موسىٰ في جبل طور سيناء، والطريق الثالث هو إرسال رسول لابلاغ الخطاب الإلهي إلىٰ النبي، كما كان يهبط جبرئيل ﷺ علىٰ النبي ﷺ لابلاغه الخطابات الإلهيّة.

وعلىٰ هذا، فالالهام القلبي وايجاد الأمواج الصوتية وهبوط ملك مكلف بنقل الوحي، ثلاثة طرق لاتصال الأنبياء بعالم ما وراء الطبيعة.

والآية الثانية بعد أن أقسمت بالنجم قالت: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

إنّ القسم (بالنجم إذا هوىٰ) يعني النجم في حالة الأفول قد يكون إشارة إلىٰ غروب وأُفول نور الإيمان والهداية عن الوجود في عصر الجاهلية، الغروب الذي كان مقدمة لطلوع آخر، أي طلوع شمس الوحي علىٰ لسان الرسول الأعظم ﷺ.

وعلىٰ هذا الأساس، فالآية أدرجت كلام الرسول ﷺ تحت أصلٍ كليٍّ ناتج عن الوحي والإرتباط الغيبي.

ﮋﮊ

والآية الثالثة أمرت الرسول بأن يتخذ موقفاً تجاه طلبات بعض المشركين العجيبة وغير المألوفة، ويقول لهم: إني لستُ ملكاً من ملائكة الله ولا موجوداً أعلىٰ من البشر ولا ابن الله، ولا شريكه، ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وهذا (الإيحاء) هو الذي يمثل الاختلاف بيني وبينكم.

وعلى هذا، فالرسول يمتاز عن بقية البشر بميزة خاصة وهي اختصاصه بمصدر المعرفة هذا وهو (الوحي).

ﮋﮊ

والآية الرابعة، بعد ما ذكرت ستة من أحكام الإسلام المهمّة (حرمة قتل الأولاد وحرمة الزنىٰ وقتل النفس والتصرف في مال اليتيم ووجوب الوفاء بالعهد وايفاء الكيل) خاطبت الرسول ﷺ قائلة: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾.

وطبقاً لهذه الآية، فإنّ الأحكام الجزئية شأنها شأن اصول الدين والعقيدة توحىٰ إلىٰ الرسول ﷺ.

ﮋﮊ

والآية الخامسة نزلت لتجيب علىٰ أولئك اليهود الذين قالوا: إنّ جبرئيل عدونا عندما سمعوا أنّه يأتي الرسول بتعاليم الإسلام، حيث أمرته بأن يقول لهم: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا

لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

والتعبير في هذه الآية يكشف عن أن جبرئيل عليه السلام كان يُنزل ـ أحياناً ـ آيات القرآن علىٰ قلب الرسول مباشرة في حين أنّ بعض الروايات تشير إلىٰ أنّ جبرئيل كان يأتي للرسول صلى الله عليه وآله علىٰ هيئة إنسان أحياناً ويقوم بابلاغه الخطاب الإلهي بهذا الطريق [1].

٭٭٭

والآية السادسة وضحت الحقيقة الآتية: إنّ القرآن الذي أنزلناه علىٰ الرسول فيه تبيانٌ لكلِّ شيء وحاملاً للهداية والرحمة والبشارة إلىٰ جميع المسلمين، وعليه فإنّ جميع هذه المعارف تصدر عن هذا المصدر العظيم أي الوحي.

بديهي أنّ المراد من «*كل شيء*» هو جميع القضايا التي تتعلق بسعادة الإنسان، فتعلم أنّ أُسس جميع هذه القضايا قد جاءت في القرآن (سواء المادية منها أو المعنوية) في صورة قوانين كلية.

٭٭٭

وقد صرحت الآية السابعة بأنّ القرآن روح نزلت علىٰ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من قِبَل الله عزّ وجلّ، ولم يكن يدري ما الكتاب ولم يكن يدري ما الإيمان، وقد قيل للقرآن «روح» لأنّه يبعث الحياة في قلوب المجتمع البشري، وهذا حديثٌ يذهب إليه كثير من المفسرين [2].

والمراد بـ: «*ما كنت تدري ما الكتاب*» هو أنّ الرسول لم يكن عارفاً بمحتوىٰ الآيات قبل البعثة، وهناك شواهد تاريخية وروائية تكشف عن سبق معرفته بالله قبل البعثة.

---

١. أصرَّ الفخر الرازي علىٰ تأويل الآية بما يتناسب مع ما ذهبت إليه الروايات من أن جبرئيل عليه السلام كان يتمثل امام الرسول صلى الله عليه وآله في صورة إنسان. وبما أن القلب هو مركز حفظ الآيات عبر الله بهذا التعبير ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ (تفسير الكبير، ج ٣، ص ١٩٦)، لكننا لا نرىٰ ضرورة لتأويل الآية بالشكل الذي قاله الفخر الرازي، بل يمكن القول بأن اتصال جبرئيل عليه السلام بالرسول كان يتم بطريقين: جسماني وروحي.

٢. يقول الراغب: «سمي روحاً لكون القرآن سبباً للحياة الأُخروية».

وعلىٰ أيّة حال إنّ هذا تأكيد آخر علىٰ قبول «الوحي» كأهم مصدرٍ للمعرفة، لأنّ القرآن عُدَّ هنا «روحاً» و«نوراً» و«هداية».

والآية الثامنة بعد ما تجاوزت نبوة الرسول ﷺ أشارت إلىٰ الأنبياء من قبله وقالت: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ فهم علىٰ ارتباط وعلم بمنبع المعرفة هذا.

ജ഍

وتحدثت الآية التاسعة عن «البينات» ونزول الكتب السماوية وقوانين الحق والعدالة علىٰ الرسل، وقالت: إنّا أنزلنا الرسل وزودناهم بمعاجز من جهة، وبكتب وقوانين حقة من جهة أُخرى لكي يقوم الناس بالقسط والعدول عن الظلم، وهذه كلها أُمور ملهمة من مصدر الوحي.

ജ഍

وقد تحدثت الآية العاشرة عن انزال «الذكر» أي الآيات التي تكون سبباً لتذكر الناس ووعيهم، في الوقت نفسه فإنّ الله يعد الناس في هذه الآية بحفظ هذا القرآن من أي نقص أوزيادة أو تلف أو تحريف، فالوحي ـ إذن ـ هو عامل يقظة الناس، وبما أنّ الله له حافظ، فسيحفظه كمصدر مهم للمعرفة.

ജ഍

وتقول الآية الحادية عشرة: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وهذا دليل واضح علىٰ أنّ الآيات الإلهيّة سبب ليقظة العقول ونشاطها.

ജ഍

وأخيراً، فقد تحدثت الآية الثانية عشرة عن تكليم الله لموسى عليه السلام، وقد كان الكلام هذا مصدراً لمعرفة موسى الإلهيّة، وهو نوع من الوحي.

هذه نماذج من آيات القرآن التي صرحت ـ رافعةً لأي ابهام وشبهة ـ بأنّ الوحي مصدر وأساس للمعرفة.

هذا في وقت ينكر فيه الفلاسفة الماديون هذا المصدر على الاطلاق، ويفسرونه بتفاسير نقرأُها في البحوث القادمة.

وبعدما اتّضح أصل هذا المصدر، نذهب إلى بحث قضايا مختلفة تحوم حوله.

توضيحات

١ ـ أقسام «الوحي» في القرآن المجيد

من خلال ملاحظتنا لآيات القرآن فقد استعملت مفردة «الوحي» في القرآن المجيد في عدة معانٍ، بعضها تكوينية وأُخرى تشريعية، وبصورة عامه فانّها مستعملة في سبعة معان:

١ ـ **«الوحي التشريعي»** وهو الذي يهبط على الرسل، وقد جاءت في أول البحث نماذج من الآيات التي استعملت فيها هذه المفردة بهذا المعنى.

٢ ـ **«الالهامات التي توحى لغير الأنبياء»** كما هو الأمر بالنسبة لأم موسى **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ... ﴾**. (القصص / ٧)

وهناك إلهام يماثل هذا إلّا أنّه يختلف عنه شكلياً، كالذي حدث لمريم، حيث تمثل لها الوحي وبشرها بولادة عيسى (مريم / ١٧ ـ ١٩).

٣ ـ **«وحي الملائكة»** أي الخطابات الإلهيّة التي توجه إليهم، كما جاء ذلك في قصة غزوة بدر الكبرى في سورة الأنفال الآية ١٢: **﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾**.

٤ ـ **«الخطاب مع الإشارة»** كما جاء ذلك في قصة حديث زكريا مع قومه: **﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ**

قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾. (مريم / ١١)

٥ ـ «الالقاءات الشيطانية الغامضة» كما جاء في الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾. (الأنعام / ١١٢)

٦ ـ «تقدير القوانين الإلهيّة في عالم التكوين» كما في الآيـة: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾. (فصلت / ١٢)

وما جاء في شهادة الأرض يوم القيامة: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾. (الزَّلْزَلَةِ / ٤ ـ ٥)

قد يكون تلميحاً لهذا المعنىٰ من الوحي.

وقد جاءت مفردة الوحي بمعنىٰ *«خلق الغرائز»* كما في الآية: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾. (النحل / ٦٨)

ومن جهة أُخرى فإنّ هبوط الوحي علىٰ الرسل جاء علىٰ أربع صورٍ علىٰ الأقل، كما جاء ذلك في القرآن المجيد، وهي:

١ ـ صورة ملك يشاهده الرسول.

٢ ـ وسماع صوت الوحي دون رؤيته.

٣ ـ وفي صورة إلهام قلبي.

٤ ـ وفي صورة رؤيا صادقة، كما جاء ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام عندما أمره الله أن يذبح ابنه إسماعيل (الصافات / ١٠٢)، أو ما حصل للرسول صلى الله عليه وآله عندما بشره الله ـ بالرؤيا ـ بدخول المسلمين الكعبة آمنين (الفتح / ٢٧).

وقد جاء في رواية أنّ أحد الصحابة سأل الرسول صلى الله عليه وآله: كيف ينزل عليك الوحي؟

فأجابه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: *«يأتيني أحياناً مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّهُ عليّ، فيفصم عني وقد وعيتُ ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»*[١].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: *«الأنبياء والمرسلون علىٰ أربع طبقات:*

١. بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٠.

فنبيّ منبأ في نفسه لا يعدو غيرها، ونبي يرى في النوم ويسمع الصوت ولا يعاينه في اليقظة، ولم تبعث إلى أحد وعليه إمام مثل ما كان إبراهيم على لوط ﷺ ونبيّ يرى في منامه ويسمع الصوت ويعاين الملك، وقد أرسل إلى طائفة قلّوا أو كثروا كيونس ﷺ ... والذي يرى في نومه ويسمع الصوت ويعاين في اليقظة وهو إمام مثل اولي العزم وقد كان إبراهيم ﷺ نبياً وليس بإمام حتى قال الله ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ فَقَالَ الله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ من عبد صنماً أو وثناً لا يكون إماماً»[1]. (البقرة / ١٢٤)

٭٭٭

٢ ـ ما هي حقيقة الوحي؟

لقد قرأنا وسمعنا الكثير عن حقيقة الوحي، لكن رغم ذلك كله، فإنّ معرفتنا لحقيقته غير ممكنة، لعدم ارتباطنا بهذا العالم الغامض، وحتى لو فسّره لنا الرسول بنفسه، فانّه لا ينطبع شيء في أذهاننا عنه سوى شبح.

ومثل ذلك كمثل شخص بصير يريد أن يصف أشعة الشمس الجميلة، وأمواج البحر الهائجة وأجنحة الطاووس الملوّنة والمنظر الخلّاب للورد وبراعم الحديقة الخضراء. لشخص ولد أعمى، وقد تحصل صور مبهمة ومشوشة لهذه المخلوقات عند الأعمى إلّا أنّ إدراك صورها الحقيقية فهو أمر مستحيل.

لكننا نستطيع توضيح الوحي عن طريق آثاره وأهدافه ونتائجه، ونقول: إنّ الوحي هو الالقاء الإلهي الذي يتمّ بهدف تحقيق النبوة والتبشير والانذار، أو نقول: إنّه نور يهدي به الله من يشاء، أو نقول: إنّه وسيلة الإرتباط بعالم الغيب وإدراك معارف ذلك العالم، ولهذا السبب نرى القرآن يتحدث عن آثار الوحي لاعن حقيقته.

و ينبغي أن لا نعجب من هذا الأمر، وأن لا نتخذ عدم إدراك حقيقة الوحي دليلاً على عدم الوجود، أو نفسره بتفاسير مادية جسمية، فإنّ في عالم الحيوانات التي نعدها في مستوى

---

١. اصول الكافي ج ١، باب طبقات الأنبياء.

أدنىٰ من مستوانا فضلاً عن عالم النبوّة، تُشاهد آثار أحاسيس وإدراكات يعجز البشر عن إدراكها، فبعض الحيوانات تضطرب قبل حدوث الزلزلة وتصرخ بصورة جماعية أحياناً، وتارة تحدث أصواتاً مروعة حاكية عن قرب وقوع حدث مفجع، هذا كله بسبب تحلّيها بحاسة تستطيع بواسطتها أن تكشف قرب وقوع الزلزلة، الأمر الذي تعجز عن كشفه أحدث تكنولوجيا في العصر الحاضر.

أو أنّ بعض الحيوانات تتنبأ بتغييرات الأحوال الجوية للأشهر القادمة، فتبني بيوتها وفقاً لتلك الأحوال في الأشهر المقبلة عليها، وتعد الطعام الذي يتناسب مع طول فصل المطر والشتاء، فإذا كان طويلاً ـ مثلاً ـ يختلف مقداره عمّا لو كان قصيراً!

كما أنّ بعض الطيور قادرة علىٰ الهجرة الجماعية من المناطق القطبية إلىٰ الاستوائية أو بالعكس، وقد يتمّ ذلك في الليل وفي سماءٍ ملبدة بالغيوم، مع أنّ الإنسان لا يمكنه السير في هذا الطريق وينجح باجتياز واحد بالمائة منه، إلّا بالاستعانة بالوسائل الدقيقة، وكذا الأمر بالنسبة لبعض الحيوانات حيث تطلب صيدها في ظلام الليل الدامس، وأحياناً تحت أمواج المياه وغير ذلك من الأمثلة التي يصعب علىٰ الإنسان تصديقها، إلّا أنّ العلم أثبت صحتها.

إنّ هذه الواقعيات التي تثبت بالعلم والتجربة تكشف عن وجود إدراك وشعور خاص لتلك الحيوانات لا يوجد مثله عند الإنسان، بالطبع إنّ الاطلاع الكامل علىٰ عالم حواس الحيوانات الغامض أمر محال، إلّا أنّه لا يمكن إنكار هذه الحقائق[1].

فبالرغم من أنّ حواس الحيوانات لها ابعاد مادية وطبيعية وهذا أمر طبيعي ولا يمثل جانباً غيبياً، إلّا أننا لا نعرف حقيقة هذه الحواس، فكيف يمكن لنا أن ننكر عالم الوحي الغامض أو نشكك فيه بسبب عدم إدراكنا له؟

لم نقصد من حديثنا هذا الاستدلال علىٰ ثبوت مسألة الوحي، بل أردنا أن نرد على الذين ينكرون وجوده بسبب عدم إمكان إدراك حقيقته.

ولنا طرق واضحة لإثبات قضية الوحي منها:

---

١. يراجع كتاب عالم حواس الحيوانات الغريب (بالفارسية).

١ ـ نشاهد من جهة رجالاً يدعون النبوة جاءوا بكتب وتعاليم تفوق قدرة البشر الفكرية، فالرسول الأُمي ـ مثلاً ـ كيف أمكنه الاتيان بكتاب ذي محتوىٰ مجيد بالرغم من كونه قد نشأ وترعرع في مجتمع الحجاز المتأخر للغاية في عصر الجاهلية؟!

٢ ـ ومن جهة أُخرى فإنّ دعوة الرسل مقترنة دائماً مع معاجز تفوق قدرة البشر، وهذا يكشف عن ارتباطهم بعالم ما وراء الطبيعة.

٣ ـ ومن جهة ثالثة، فإنّ الرواية الكونية التوحيدية تقول لنا: إنّ الله خلقنا للتكامل والسير نحو ذاته المقدّسة الأبدية، وبديهي أن سلوك هذا الطريق أمر غير ممكن لكثرة مصاعبه وانعطافاته وتعرجاته ومشاكله وأخطاره لأننا نشاهد عجز العقل وضعفه عن إدراك كثير من الحقائق، والدليل على ذلك، الاختلافات الكثيرة بين العلماء والمفكرين، وكذلك مصير الأمم التي وضعت قوانينها بالاعتماد علىٰ العقل والقوانين الوضعية وذلك لإدارة شؤون حياتهم الفردية والاجتماعية.

وعلىٰ هذا، فإنا نقطع بأن الله لم يترك الإنسان لوحده، فبالإضافة إلىٰ عقله أمده بقادة يرتبطون بعالم الغيب، ويستفيضون من بحر العلم الإلهي، وهذا هو الذي يعينه لاجتياز الطريق والوصول إلىٰ الأهداف المقصودة.

وبهذه القرائن الثلاث يمكننا إدراك العلاقة بين عالم الإنسانية وعالم ما وراء الطبيعة، وكذلك الإيمان بالوحي رغم أننا لم نتعرف علىٰ حقيقته وماهيته، وبتعبير آخر: إن علمنا بالوحي علم إجمالي وليس علماً تفصيلياً.

٣ ـ الوحي عند فلاسفة الشرق والغرب

سعىٰ كثير من فلاسفة الشرق والغرب في العهد القديم والجديد إلىٰ فتح الطريق أمامهم نحو أسرار عالم الوحي وسعوا إلىٰ تفسيره بما يتناسب مع مبانيهم الفلسفية، إلّا أنّ دراسة بحوثهم في هذا المجال تكشف عن ضياعهم في متاهات الطريق، إلّا البعض منهم، ولم

ينجلِ لذلك البعض إلّا شبح عن ذلك العالم.

يقول أحد العلماء:

كان الفلاسفة الغربيون ـ إلىٰ القرن السادس عشر كـجميع الأمـم الأخـرى ـ يـؤمنون بالوحي، وذلك لأنّ كتبهم كانت حافلة بالاخبار عن الأنـبياء، وعـندما ازدهـرت العـلوم الجديدة «الطبيعية والتجريبية» واخذت تفسر كل القضايا على أُسس مادية، تراجع فلاسفة الغرب عن آرائهم وأخذوا ينكرون الوحي، وتجاوزوا إلىٰ أبعد من ذلك بأن اعتبروا الوحي مجموعة من الأساطير والخرافات التي عفا عليها الدهر، وتبعاً لذلك فقد أنكروا وجود الله وعالم ماوراء الطبيعة والروح، وامتد بـهم الأمـر إلىٰ أن يـفسروا الوحـي بـمجموعة مـن التخيلات أو الأمراض العصبية.

واستمر هذا التوجه حتى أواسط القرن التاسع عشر إلىٰ أن تمّ اكتشاف عـالم الأرواح بالطرق العلمية والتجريبية، وأصبح عالم ماوراء الطبيعة في قائمة القضايا التجريبية، وقـد كتبت حول ذلك المئات بل الآلاف من المقالات.

ومن هنا أخذت مسألة الوحي طابعاً جديداً لدى هؤلاء وخطوا خطوات جديدة في هذا المضمار، على الرغم من أنّهم لم يفسروا هـذه الظـاهرة كـما فسـرتها الأديـان الأُخـرى وبالأخص المسلمون من السائرين على خطىٰ القرآن المجيد، وبشكـل عـام فـإنّ هـناك نظريتين مختلفتين لدىٰ مجموعة من الفلاسفة القدماء والمتأخرين لتفسير ظاهرة الوحي، ولكن الفريقين لم يصلا إلىٰ حقيقة الوحي حسب ما ورد في القرآن الكريم، والنظريتان هما:

١ ـ يعتقد عدد من الفلاسفة المتقدمين أن منشأ الوحي هو *«العقل الفعّال»*، والعقل الفعّال وجود روحي مستقل عن وجودنا، وهو قرينة، ومصدر لجميع علوم البشر ومـعارفه، كـما يعتقدون بأنّ الأنبياء كانت لهم علاقة وثيقة مع هذا العقل الفعّال، وكانوا يستلهمون منه، وما حقيقة الوحي إلّا هذه العلاقة.

وفي الحقيقة، لا دليل لهؤلاء لاثبات مدعاهم القائل بأنّ الوحي هو عبارة عن الإرتباط والعلاقة مع العقل الفعّال، إضافة إلىٰ هذا، فإنّه لا دليل علىٰ وجود ما يزعمون وجـوده أي

«العقل الفعّال» كمصدر مستقل للعلوم، كما ذكر ذلك في المباحث الفلسفية.

وعلىٰ هذا، فالنظرية المذكورة عبارة عن احتمال مبني علىٰ احتمال، وفرضية مستندة إلىٰ فرضية، ولم تثبت أي من الفرضيتين، كما أنّه لا حاجة لفرض «العقل الفعّال» بل يكفينا القول بأنّ الوحي عبارة عن اتصال بعالم ما وراء الطبيعة والذات المنورة، أمّا كيف وبأي شكل يتم ذلك؟ فهذا لم يتضح لنا.

نحن شاهدنا آثاره فآمنا بوجوده، دون أن نعرف حقيقته، وكثير من حقائق هذا العالم حالها كحال الوحي.

٢ ـ يعتقد عدد من الفلاسفة المعاصرين أنّ «الوحي» هو تجلٍّ *«علم اللاشعور»* أو العلاقة الغامضة مع حقائق هذا العالم التي قد تنشأ من «النبوغ الباطني» تارة، وتارة أُخرى من «الرياضة الروحية» وعن مساعٍ من هذا النوع، وقد عَدَّ علماء النفس شخصيتين للإنسان: «الشخصية الظاهرة والإرادية» وهي جهاز الإدراك والتفكير والمعلومات الحاصلة بالحواس العادية، والشخصية الأُخرى هي «الشخصية غير المرئية واللا إرادية» التي قد يعبر عنها بـ«الوجدان الخفي» أو «الضمير الباطني» أو «علم اللاشعور» ويعتبر علماء النفس أنّ حلَّ كثيرٍ من المشاكل الروحية كامن في هذه الشخصية.

إنّهم يعتقدون أن مجالات فاعلية ونشاط الشخصية الثانية اوسع بكثير من مجالات نَشاط وفاعلية الأُولىٰ.

وقد كتب أحد علماء النفس في هذا المجال:

يمكننا تشبيه الشخصية بقطعة ثلج عائمة في الماء، وعادة ما يكون تُسْعُها خارج الماء، وهذا المقدار الخارج هو الشخصية الظاهرة أو عالم الشعور، ويقابلها الشخصية اللاإرادية إلىٰ عالم اللاشعور، حيث إنّ القسم الأعظم من النشاط الذهني لم نُحط به علماً ويحصل بشكل غير إرادي، وهو بمثابة الأجزاء الثمانية من قطعة الثلج تحت الماء[1].

لا شأن لنا فيمن كشف الشخصية الثانية للإنسان، «فرويد» أم غيره، كما لا شأن لنا في أنّ

---

١. معرفة النفس ترجمة (الدكتور ساعدي)، ص ٦ و ٧ مع إيضاح بسيط (بالفارسية).

كلام المتقدمين فيه إشارة إلىٰ ما ذهب إليه المعاصرون أم لا. المهم بالنسبة لنا هو أنّ كثيراً من علماء النفس، بعد اكتشاف عالم اللاشعور وحل بعض المعضلات الروحية عن طريق هذا الاكتشاف، سعىٰ لتبرير ظاهرة الوحي بما يتناسب ويتفق مع هذا الاكتشاف، حيث ادعوا أنّ الوحي هو ترشحات عالم اللاشعور التي تظهر عند الأنبياء علىٰ شكل طفرات فكرية بالصدفة.

وقد ساعد الأنبياء في ذلك أحياناً ـ أمران: الأول النبوغ الفكري، والثاني هو الترويض والتفكير المستمر.

وطبقاً لهذه الفرضية، فإنّ علاقة «الوحي» بعالم ما وراء الطبيعة ليست علاقة من نوع خاص ومغايرة للعلاقات الفكرية والعقلية لبقية أفراد البشر، وأنّ هذا لا يتم عن طريق وجودٍ روحي مستقل باسم «الوحي»، بل هو انعكاس لضمير الأنبياء الخفي، وهذه الفرضية كالسابقة القائلة بأنّ الوحي هو الاتصال بالعقل الفعال، تفتقد الدليل، وقد يكون المراد بهذا من هذا الكلام ليس إثبات حقيقة الوحي، بل مرادهم إنّ ظاهرة الوحي لا تتنافىٰ مع العلوم الحديثة، ويمكن تجلّي عالم اللاشعور لدىٰ الأنبياء.

وبتعبير أوضح، فإنّ العلماء يصرون علىٰ تفسير جميع ظواهر العالم طبقاً للقوانين الطبيعية والأُصول العلمية التي اكتشفوها، ولهذا فإنّهم بمجرّد مشاهدتهم لظاهرة جديدة، يسعون إلىٰ تحليلها في إطار العلم الحديث . وإذا افتقدوا الدليل في هذا المجال اكتفوا بالفرضيات.

لكن تلقي ظواهر العالم بهذا الشكل ليس صحيحاً، وهذا هو خطأ العلماء الطبيعيين، مفهوم كلامهم هذا هو: إننا فهمنا الأُصول والقوانين الأساسية للعالم، ولا توجد ظاهرة خارجة عن أُطُر هذه القوانين والأُصول.

وهذا ادّعاء محض ولا دليل له، بل لنا دليل علىٰ العكس، حيث نشاهد بمرور الزمن اكتشاف اصول وقوانين جديدة لنظام هذا العالم، ولدينا قرائن تثبت أنّ نسبة ما نعلمه عن هذا العالم إلىٰ ما لا نعلمه كنسبة القطرة إلىٰ البحر.

لقد عجزنا عن المعرفة الدقيقة لحواس الحيوانات الغامضة، بل وحتىٰ عن معرفة أسرار وجودنا، لذا لا يمكننا سوىٰ ادعاء معرفة قسم من هذه الأسرار فقط.

فلماذا ـ إذن ـ هذا الاصرار كله علىٰ تبرير ظاهرة الوحي في أُطُر القوانين العلمية المكتشفة، بل ينبغي القول: إنّ الوحي حقيقةٌ شاهدنا آثارها ولم نطلع علىٰ ذاتها وحقيقتها.

٤ ـ فرضية كون الوحي غريزة

طرح بعض المفكرين الإسلاميين المتأثرين بأفكار العلماء الغربيين فرضية أُخرى في مجال الوحي تختلف في الظاهر عن الفرضيتين السابقتين إلّا أنّها تتفق معهما جوهرياً.

وقد بُنيت هذه الفرضية علىٰ الأُصول الآتية:

١ ـ إنّ «الوحي» لغة يعني النجوىٰ بهدوء، واستعملت في القرآن بمفاهيم عدة تشمل أنواع الهدايات الغامضة، بدءً بهداية الجمادات والنباتات وانتهاءً بهداية الإنسان عن طريق الوحي.

٢ ـ إنّ الوحي نوع من أنواع الغريزة، وهداية الوحي ليس إلّا هداية غريزية.

٣ ـ إنّ الوحي هداية الإنسان من وجهة نظر جماعية، أي أنّ المجتمع الإنساني بما هو كتلة واحدة، له مسير وقوانين وحركة، فيحتاج للهداية، ودور «النبي» في هذا المجال كدور الجهاز المتسلِم الذي يتسلم ما يحتاجه نوع البشر بشكل غريزي.

٤ ـ إنّ الأحياء تهتدي في مراحلها الأُولىٰ بواسطة الغريزة، وكلما تكاملت ونما حس التصور والفكر عندها، كلما نقصت قدرة الغريزة فيها، وفي الحقيقة فإنّ الحس والتفكير يستخلفان الغريزة، وعلىٰ هذا الأساس فالحشرات لها غرائز أكثر وأقوىٰ، والإنسان أقل غرائزاً بالقياس إلىٰ الحيوانات الأُخرى.

٥ ـ إنّ المجتمعات البشرية (من وجهة نظر اجتماعية) تسير دائماً في طريق التكامل وتتّجه نحوه، فكما أنّ الحيوانات في مراحل حياتها الابتدائية كانت تستند إلىٰ الهداية

الغريزية بالكامل، ثم اعتمدت تدريجياً على حواسها وتخيلها وأحياناً تفكيرها، وعندما نما عندها التفكير والحواس تدريجياً، استخلفت الغريزة، كذلك المجتمع البشري، فبنموه وتكامل عقله ضعفت غريزة الوحي عنده.

٦ ـ إنّ للعالم البشري عهدين، عهد هداية الوحي، وعهد هداية التعقل والتفكير في طبيعة التاريخ.

٧ ـ إنّ الرسول الأعظم ﷺ الذي ختمت به النبوة رسول للعهد القديم والحديث، فانّه من حيث مصدر الالهام الذي كان يستفيض منه (لا مصدر التجربة الطبيعية والتاريخ) فهو يتعلق بالعهد القديم، ومن حيث روح تعاليمه التي تدعو إلى التفكر والتعقل ودراسة الطبيعة والتاريخ (التي ينتهي عمل الوحي بمجيئها) فهو يتعلق بالعصر الحديث[١].

إنّ المستخلص من هذه الفرضية أنّ الوحي نوع معرفة لا إرادية تشبه الغرائز وهي دون المعرفة الإرادية التي تحصل عن طريق الحواس والتجربة والعقل، وتضعف هذه القدرة «الوحي» كلما تكامل جهاز العقل والفكر، فيستخلف العقل حينئذٍ الوحي، ومن هذا الباب ختمت النبوة.

بالرغم من أنّ هذه الفرضية ـ صدرت عن مفكر إسلامي ـ إلّا أنّها أضعف في بعض جوانبها من الفرضيات التي قدمها علماء وكتّاب غربيون في هذا المجال، على الرغم من التشابه من حيث فقدان الدليل، ويمكن القول: إنّ هذه النظرية أسوأ نظرية طُرحت في هذا المجال لحد الآن، وذلك للامور الآتية:

أولاً: إنّ العلماء الغربيين عدوا الوحي شيئاً فوق الإدراك الحسي والعقلي للإنسان، بينما عُدَّ في هذه النظرية شيئاً دون ذلك، وهذا تفكير عجاب!

ثانياً: لم يَعِدَّ المفكرون الغربيون الوحي نوعاً من أنواع الغرائز الحيوانية، في حين عُدَّ في هذه النظرية من هذا القبيل.

---

١. مقدمة في الرؤية العالمية الإسلامية، للشهيد المطهري رحمه الله (وقد ذكر الشهيد المرحوم النقاط السبع السابقة التي تعكس رأي اقبال اللاهوري في كتابه «احياء الفكر الديني في الإسلام» بشكل ملخص ونقدها).

ثالثاً: إنّ أمر الوحي واضح بالكامل للمسلم الملم بمفاهيم القرآن حيث يُعتبر نوعاً من الاتصال بالعالم الإلهي، وتلقي معارف عظيمة وجليلة للغاية من هذا العلم لم يستطع الإنسان أن يصل إليها بالعقل.

إنّ الوحي من وجهة نظر القرآن الكريم هداية إرادية بالكامل وهو أسمىٰ بكثير من «الهداية العقلية»، ـ وكما قلنا سابقاً ـ فإنا إذا شبهنا العقل بنور مصباح نيّر فإنّ الوحي بمثابة الشمس الساطعة.

يخاطب القرآن الناس ـ من جهة ـ قائلاً: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾. (الاسراء / ٨٥)

ومن جهة أخرى يصف الله علمه ويقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. (لقمان / ٢٧)

فوحي النبوة ارتباط بهذا العلم اللامتناهي، ولهذا يصرح القرآن الكريم أنّ الله هو معلم الرسول الأكرم ﷺ.

﴿وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾. (النساء / ١١٣)

إنّ العقل والعلم البشري مهما تقدما وتكاملاً أضعف من أن يقودا الإنسان إلىٰ طريق السعادة من دون توجيه وارشاد الوحي، والدليل الحي لهذا الكلام هو مذاهب الفلاسفة وانحرافاتهم العجيبة، والحقيقة أنّ الذين عُرفوا كمفكرين اسلاميين هم مفكرون غربيون في واقع أمرهم، وأفكارهم اتخذت صبغة الأفكار الغربية، ولهذا سعوا دائماً لذكر تبريرات طبيعية للأمور غير الطبيعية.

إنّ الغربيين إذا اصروا علىٰ ذكر تبريرات طبيعية للأمور الغيبية، فذلك لانكارهم عالم الغيب، فلا ينبغي لأي مسلم اقتفاء أثرهم في ذكر تبرير طبيعي لمسألة كهذه.

من المؤسف أنّ الآثار السيئة لهذا التقليد نجدها في كثير من كتب أولئك المفكرين الذين غالباً ما درسوا في الغرب، ومعلوماتهم عن الإسلام قليلة جداً.

٥ ـ كيف تيقن الرسول بأنّ الوحي من الله؟

إنّ هذا السؤال من جملة الأسئلة التي طرحت حول مسألة الوحي، كيف علم الرسول بأنّ الوحي من الله وليس إلقاءً شيطانياً؟ وبتعبير آخر: ما هو مصدر هذا العلم واليقين؟

إنّ الجواب عن هذا السؤال واضح، فاضافة إلىٰ أنّ الفرق بين الالقاءات الرحمانية والالقاءات الشيطانية كالفرق بين السماء والأرض، فإنّ محتوىٰ كلٍّ منهما يعرف نفسه، وينبغي القول: إنّ الرسول عندما يتصل بالوحي يذعن بحقيقته بالنظر الباطني، وأمره كالشمس الساطعة نهاراً، فلا نعتني بالذي يشكك بوجودها ويقول: يُحتمل أن تكون وهماً لا أكثر، وذلك لأنّ احساسنا بها قطعي ولا يقبل الشك.

يقول العلّامة الطباطبائي في تفسيره للآية: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ... ﴾. (طه / ١١ ـ ١٢)

وهذا حال النّبي والرسول في أوّل ما يوحىٰ إليه بالنبوّة والرسالة، لم يختلجه شك ولم يعتره ريب في أنّ الذي يوحي إليه هو الله سبحانه، من غير أن يحتاج إلىٰ إمعان نظر أو التماس دليل، أو إقامة حجة، ولو افتقر إلىٰ شيء من ذلك كان اكتساباً بالقوة النظرية، لا تلقياً من الغيب، من غير واسطة[١].

ومن هنا يتّضح عدم صحة ما جاء في بعض الروايات من أنّ الوحي عندما نزل لأول مرّة علىٰ الرسول في غار «حراء» ذهب إلىٰ بيت خديجة وقصّ عليها ما جرىٰ واضاف: إنـي أخاف على نفسي (أي أخاف أن تكون الايحاءات شيطانية لا إلهية) فطمأنته خديجة، ثم ذهبت به إلىٰ ورقة بن نوفل (ابن عم خديجة) الذي كان يدين بالمسيحية في عهد الجاهلية، وكان يجيد القراءة والكتابة العربية والعبرية، فطلب من النبي أن يشرح ما جرىٰ له .. وبعد ما قصّ الرسول ما جرىٰ له، قال ورقة: إنّه هو الوحي الذي كان يهبط علىٰ موسىٰ وأضاف: ليتني أكون حياً كي أرىٰ كيف يخرجك قومك من هذه المدينة[٢].

---

١. تفسير الميزان، ج ١٤، ص ١٣٨.

٢. نقل هذا المضمون كثير من المحدثين والمفسرين من أهل السنة منهم «البخاري في صحيحه» و«مسلم» و«سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن في بداية سورة العلق» كما ورد في «دائرة معارف القرن العشرين، مادة (وحي)».

وكون هذا الحديث مختلق أمر لا ريب ولا شك فيه، إذ كيف يحتاج الرسول الذي ارتبط بعالم الغيب وكل وجوده يشعر بهذه الرابطة، إلىٰ ورقة بن نوفل الكاهن النصراني؟ وكيف يمكن الاعتماد علىٰ مثل هذا الوحي؟

لماذا لم يشكّ به موسىٰ بن عمران عندما نزل عليه أوّل مرّة في طور سيناء؟ بالرغم من أنّ موسىٰ سمع صوته فقط ولم يشاهده، أليس هذا دليلاً على وجود أيادٍ خفية تهدف من وراء تلفيق هذه الخرافات إلىٰ النيل من الوحي والنبوة وتضعيف أسس الدين الإسلامي؟

٭٭٭

٦ ـ القرآن أغنىٰ مصدر للمعرفة في الأحاديث الإسلامية

نستمر في بحثنا هذا مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ القرآن الكريم يمثل المصداق البارز للوحي طبق ماورد عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام، كي يكون تأكيداً لأصل وموقعية القرآن كمصدرٍ عظيم للمعرفة، كما يكون جواباً لأولئك الذين يذهبون شططاً ويعدون الوحي من «الغرائز الحيوانية» وأدنىٰ من الإدراكات العقلية، ويعتقدون أنّ الإنسان استغنىٰ عن الوحي والمعارف التي تنشأ منه بعد تكامله العقلي!

ـ قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله مخاطباً المسلمين: ***«إذا التبست عليكم الأمور كقِطَع الليل المُظلم فعليكم بالقرآن ... مَن جعله أمامه قاده إلىٰ الجنّة، ومن جعله خَلفَهُ ساقه إلىٰ النار، وهو أوضح دليل إلىٰ خير سبيل، مَنْ قال به صدق، ومَن عمل به أُجِرَ، ومَن حَكَمَ به عَدَلَ»***[1].

٢ ـ ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في احدىٰ خُطب نهج البلاغة: ***«ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لاتطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يضل نهجُه، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وتبياناً لا تُهدم أركانه، وشفاءً لا تخشىٰ أسقامه، وعزاً لا تُهزم أنصاره، وحقاً لا تُخذل أعوانه»***.

---

١. نقل المرحوم العلّامة المجلسي هذه الخطبة في بحار الأنوار ج ٧٤، ص ١٧٧ عن أبي سعيد الخدري من جملة خُطَب الرسول التي نقلها.

«فهو معدنُ الإيمان وبحبوحته وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه»[١].

٣ ـ ويقول الإمام علي بن موسىٰ الرضاعليه‌السلام: سأل رجل الإمام الصادقعليه‌السلام: *«ما بالُ القرآن لا يزداد على النّشر والدرس إلّا غضاضة»؟ فقال الإمام: «لأن الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناسٍ دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كلّ قوم غضٌّ إلىٰ يوم القيامة»*[٢].

والأحاديث الواردة في هذا المجال كثيرة في مصادر السنة والشيعة ، وقد ذكرنا ثلاثة فقط، أحدها للرسول الأكرمصلى‌الله‌عليه‌وآله والآخر لأمير المؤمنينعليه‌السلام وحديثاً للإمام الصادقعليه‌السلام.

٧ ـ الوحي الخاص إلىٰ غير الأنبياء (وحي الالهام)

كما ذكرنا في بداية البحث أنّ للوحي معاني كثيرة، منها «وحي النبوة والرسالة»، وهناك قسم آخر من الوحي وهو«*الالهام*» الذي يُلقىٰ في قلوب غير الأنبياء، أو خطاب يُبلّغ به غير الأنبياء.

ومثاله ما جاء عن أُم موسىٰ حيث يقول القرآن في هذا المجال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي...﴾. (القصص / ٧)

وقريب من هذا ما جاء عن الحواريين، حيث يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾. (المائدة / ١١١)

كما قال الله في يوسف قبل أن يبعثه نبيّاً، عندما أراد اخوته أن يلقوه في اليم: ﴿...وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. (يوسف / ١٥)

وهذا الوحي ليس هو نفس وحي النبوة ، بل وحي إلهامي، بقرينة الآية ٢٢ من نفس

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٩٨.

٢. بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٥.

السورة ، حيث جاء فيها أنّ الله ألهم نبيّهُ (يوسف) كي يدرك بأنّه ليس وحيداً بل الله يحفظه ويرزقه نصيباً من القدرة ويصل الأمر إلىٰ أن يندم اخوته علىٰ فعلهم، وهذا الوحي هو الذي جعل الأمل ينبعث في قلب يوسف.

يذكر «الفخر الرازي» ستة احتمالات في ذيل الآية (٣٨) من سورة طه، وأغلبها خلاف الظاهر ، لأنّ ظاهر الآية هو الالقاء في القلب ، أو سماع صوت ملك الوحي الذي يتناسب والمعنىٰ اللغوي للوحي [1].

ومثال القسم الثاني هو الخطاب الذي أبلغه أحد الملائكة لمريم والذي كان يتعلق بولادة عيسىٰ عليه السلام ، وقد حكىٰ القرآن حوار مريم مع الملك الذي تمثل في صورة إنسان وسيم.

وأوضح مثال للوحي الالهامي هو الذي كان يُقذف في قلوب الأئمّة المعصومين عليهم السلام والذي أُشير إليه كثيراً في الروايات.

وعندما سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن مصدر علم الأئمّة قال: ***«مَبلَغُ علمنا ثلاثة وجوه: ماض ، وغابر ، وحادث، فأمّا الماضي فمُفسّر وأمّا الغابر فمزبور ، وأمّا الحادث فقذف في القلوب، ونقر في الأسماع وهو أفضل علمنا ولا نبيّ بعد نبيّنا»*** [2].

وقد جاء في حديث آخر للإمام الرضا عليه السلام يقول فيه: ***«وأمّا النكت في القلوب فهو الالهام وأمّا النقر في الأسماع فحديث الملائكة، نسمع كلامهم ولا نرىٰ أشخاصهم»*** [3].

وبصورة عامة ، فإنّ علوم الأئمّة عليهم السلام تحصل من عدة طرق : العلوم التي ورثوها عن الرسول والأئمّة الذين سبقوا ، علىٰ شكل وصايا وقواعد مدوّنة توضع في متناول أيديهم والتي قد يطلق عليها في بعض الأخبار «الجامعة»، وعندما يحصل لهم أمر مستحدث لا وجود له في المصادر التي في أيديهم ، يوحي الله اليهم إلهاماً قلبياً أو نقراً في أسماعهم يسمعون به صوت الملائكة «كما هو الحال بالنسبة لمريم عليها السلام».

---

١. راجع التفسير الكبير، ج ٢٢، ص ٥١.

٢. بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٥٠.

٣. إرشاد المفيد، ج ٢، ص ٨٠؛ بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ١٨.

لكن المسلَّم به أنّ هذا الوحي لا علاقة له بوحي النبوة، وهو من قبيل وحي الحواريين وأمثال ذلك، وفي الواقع، أنّ الاصطلاح العصري للوحي يطلق علىٰ وحي النبوة الذي يسمىٰ «إلهاماً» . وقد قال العلامة الطباطبائي في هذا المجال: حبذا لو أطلقنا عليه إلهاماً لأنّه يتفق والأدب الديني[1].

يراجع ـ للتفصيل ـ المجلد ٢٦ من بحار الأنوار ، باب علوم الأئمة ، كما يراجع المجلد الأول من أُصول الكافي باب أنّ الأئمة محدَّثون.

٨ ـ كيفية نزول الوحي علىٰ الرسول الأعظم

كما قلنا سابقاً، إنا لا ندرك حقيقة الوحي، وهي من المجهولات عندنا، لأنّ إدراكها شيءٌ خارج عن اطار الحس والعقل، بل ندرك آثار الوحي فقط، والأثر يدلّ علىٰ المؤثّر، وعلىٰ هذا فمن العبث الدخول في عالم الوحي الغامض إلّا أنّ الرسول الأكرم والأئمة عندما كانوا يُسألون عن كيفية الايحاء، يجيبون جواباً وافياً بحيث يرسم في الذهن عن الوحي تصوراً لا غير!

ذكر الشيخ الصدوق في كتابه «الاعتقادات» حول نزول الوحي حديثاً لابدّ أن استخلصه من الروايات حيث قال فيه:

«اعتقادنا في ذلك أنّ بين عيني اسرافيل لوحاً ، فإذا أراد الله عزوجل أن يتكلم بالوحي ضرب اللوح جبين اسرافيل، فنظر فيه فقرأ ما فيه، فيلقيه إلىٰ ميكائيل، ويلقيه ميكائيل إلىٰ جبرائيل ويلقيه جبرائيل إلىٰ الأنبياء ، وأمّا الغشية التي كانت تأخذ النبي حتىٰ يثقل ويعرق فإنّ ذلك كان يكون منه عند مخاطبة الله عزوجل إيّاه فأمّا جبرائيل فانّه كان لا يدخل علىٰ النبي حتىٰ يستأذنه إكراماً له، وكان يقعد بين يديه قعدة العبد»[2].

---

١. تفسير الميزان، ج ١٢، ص ٣١٢.

٢. اعتقادات الصدوق، ص ١٠٠.

وقد جاء في الروايات مضمون هذا الحديث إجمالاً[١].

ونقرأ في حديث آخر أنّ الرسول الأكرم ﷺ عندما كان يوحىٰ إليه يسمع صوتاً هادئاً قرب وجهه.

وقد جاء في حديث آخر: إنّ الوحي عندما كان ينزل علىٰ الرسول ﷺ يبدأ جبينه يتصبب عرقاً وإن كان الجو بارداً[٢].

وبصورة عامة فإنّ الوحي كان يهبط علىٰ رسول الله باشكال مختلفة ، ولكل شكل آثاره الخاصة به.

كما يستفاد من الروايات أن جبرئيل كان يهبط علىٰ الرسول أحياناً ـ بشكله الحقيقي الذي خلقه الله عليه، ويحتمل أنّه هبط بهذا الشكل مرتين فقط طوال عمر الرسول (كما أشير إلىٰ ذلك في بعض تفاسير سورة النجم)[٣]. كما أنّه قد يهبط متمثلاً في صورة «دحية الكلبي»[٤،٥].



٩ـ الالهامات الغريزية

قلنا سابقاً أنّ للوحي مفهوماً واسعاً سواء في آيات القرآن أو في كتب اللغة، كما قلنا إنّ أحد مصاديقه هو الإدراك الغريزي عند الحيوانات، ولا يمكن تحليله بأي تحليل مادي، بل وجوده في الحيوانات دليل علىٰ وجود ذلك المصدر الغني والعظيم للعلم والمعرفة فيما وراء الطبيعة.

---

١. بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٥٤، ح ٩.

٢. بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦١.

٣. في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٣٠٦.

٤. بحار الأنوار، ج ١٨، ص ٢٦٧، ح ٢٩.

٥. إنّ دحية بن خليفة الكلبي هو أخو الرسول الرضاعي، وكان من أجمل الناس آنذاك، فكان يتمثل في صورته جبرئيل عندما يريد الهبوط علىٰ الرسول الأكرم ﷺ (مجمع البحرين مادة وحي). وكان من مشاهير صحابة الرسول ﷺ ويُعرف بحسن الوجه، أرسله الرسول ﷺ بالرسالة إلىٰ قيصر الروم «هرقل» في السنة السادسة أو السابعة من الهجرة، وكان حياً حتىٰ خلافة عمر (قاموس دهخدا بالفارسية).

وقد أشار القرآن المجيد إلىٰ هذا الأمر العجيب بالنسبة للنحل في الآيات ٦٨ و ٦٩ من سورة النحل.

لقد اتّضح لنا ـ بعد التحقيقات التي أُجريت علىٰ هذه الحشرة في العصر الحاضر ـ أنّ النحل يعيش حياة اجتماعية وتمدناً عجيباً يفوق تمدن الإنسان في بعض نواحيه، فالعمران والبناء يتمّ عنده بدقّة كاملة وطبقاً للمواصفات الهندسية، وكيفية تجميع العسل وتهيئته وادخاره وحفظه من التلوث، وكيفية تربية الصغار، والتغذية الخاصة للملكة، والتحقق من عدم تلوث بعض النحل بالزهور الملوثة، وكيفية الدفاع ضد العدو، وكيفية إخبار أعضاء الخلية عن الزهور بواسطة النحل المكلّف بالبحث، وإعطاء المواصفات الدقيقة من حيث المسافة والانحراف وذلك للحركة الجماعية نحو ذلك المصدر، وغير ذلك من الأُمور العجيبة التي لا يمكن تفسيرها إلّا بالقول بأنّ لها إلهاماً غريزياً.

ويقال: إنّه تم التعرف علىٰ ٤٥٠٠ نوع من أنواع هذه الحشرة، والعجيب في الأمر أنّ جميعها تتبع طريقة واحدة في كيفية البناء والمصّ والتغذية من الزهور[١].

إنّ البحث يستدعي عدم الخروج عن صلب الموضوع كثيراً ، وإلّا فالحديث عن الحياة الغامضة للنحل طويل. ويكفينا منه الحديث عن بنائه لبيت سداسي الاضلاع مع زوايا هندسية دقيقة.

يقول العلماء في هذا المجال: إنّ البيوت المبنية من قبل النحل بنيت بدقّة وظرافة بحيث لا تحتاج إلىٰ مواد أوليه كثيرة للبناء، رغم سعة محتواها، لوجود ثلاثة أشكال فقط من بين الأشكال الهندسية المتعددة ـ يمكن بناء البيوت علىٰ أساسها من دون حصول فراغ بينها ـ والأشكال هي، المثلث متساوي الأضلاع والرباعي، والسداسي، وقد كشفت الدراسات الهندسية أن سداسي الأضلاع يتطلب مواد بناء أقلّ مع شدّة مقاومته، ولهذا السبب رجحه النحل علىٰ الشكلين الآخرين.

من أين حصلت له هذه الالهامات الغريزية؟ وفي أي مدرسة تعلم هذه التعاليم؟

---

١. اول جامعة،، ج ٥، ص ٥٥ «بالفارسية».

لا يقتصر هذا الالهام الغريزي على النحل فحسب، بل نجده في كثير من الحيوانات تفوق عجائب كلٍّ منها الأُخرى، نذكر لذلك الأمثلة الآتية:

يقول أحد العلماء في كتاب له باسم «البحر بيت العجائب»:

«إنّ الحركات التي تقوم بها بعض الأسماك تعتبر من غرائب الطبيعة ولا أحد يستطيع أن يكشف أسرار هذا السلوك. فهناك نوع من الأسماك يسمىٰ «النُقّط» يغادر البحر المالح الأنهر العذبة وهي الأماكن التي ولدت فيها نفسها ، وقد يقتضي ذلك أن تسير عكس اتّجاه حركة المياه ، أو تصعد الشلالات من أسفلها إلىٰ أعلاها. وقد يبلغ عددها حداً بحيث تملأ النهر ، وعندما تصل إلىٰ المحل المقصود تضع بيوضها ثم تموت!

يا تُرىٰ: كيف تستطيع هذه الأسماك أن تختار المياه المناسبة لها؟ إنّه أمر عجيب، والأعجب، لأنّها تفتقد الخارطة ، كما أنّ بصرها تحت الماء محدود، ولم يدلها أحد على الطريق، وبالرغم من ذلك فهي تصل إلىٰ المكان المقصود والمناسب».

ويضيف في نفس الكتاب: «إنّ الأعجب من ذلك هو سلوك الأسماك الانجليزية «سمك يشبه الحيّة» فحين تبلغ ثمان سنوات تغادر النهر أو المستنقع الذي كانت تعيش فيه، وتزحف ليلاً علىٰ الأعشاب المتشابكة حتىٰ تصل إلىٰ شاطىء البحر ، ثم تجتاز المحيط الأطلسي عرضاً حتىٰ تصل إلىٰ المياه القريبة من «برمودا»! وتغوص في المحيط آنذاك وتضع البيوض ثم تموت ... إنّ صغار هذه الأسماك تطفو علىٰ سطح البحر وتبدأ سفرها عائدة إلىٰ وطنها، وتستغرق هذه السفرة سنتين أو ثلاثاً حتىٰ تصل إلىٰ المحل الذي كان فيه أسلافها.

كيف وجدت هذه الأسماك طريقها رغم أنّها لم تسلكه سابقاً؟ إنّه سؤال لا يمكنك الإجابة عنه، كما لا يستطيع أعلم العلماء الإجابة عنه. إنّه سرّ، ولا أحد يعرفه»[١]!

- وكثير من الطيور المهاجرة تجتاز طرقاً ومسافات طويلة ، وبعضها يجتاز طريق «اوربا» إلىٰ «أفريقيا الجنوبية» دون خطأ في الاتّجاه ، ولم نكتشف كيفية اهتداء هذه الطيور إلىٰ

١. البحر بيت العجائب، ص ١١٦ و ١١٧ (بالفارسية).

الطريق حتىٰ فترة ليست ببعيدة.

وقد أثبت بعض العلماء ـ بعد التحقيق والتجارب على هذه الطيور ـ أنّها تهتدي الطريق بواسطة مواقع النجوم، وأثبتت التجارب أنّها تعرف مواقع النجوم غريزياً ، وتعلم تغير مواقعها حسب فصول السنة، وحتىٰ عندما تتلبد السماء بالغيوم ، فإنّ وميض بعضٍ من النجوم يكفيها للاهتداء إلىٰ الطريق، كما أثبتت تجارب أُخرى أنّها ورثت معرفتها عن الفلك ومواقع النجوم ، أي أنّها تعلم كل شيء عن السماء ومواقع النجوم وإن لم تشاهد السماء سابقاً ، بالطبع لم تُكتشف كيفية انتقال هذه المعلومات التفصيلية لهذه الطيور بالوراثة، خاصة وأنّ السماء تتغير أشكالها بمرور الزمان، ثم: من أين حصل الجيل القديم علىٰ هذه المعلومات؟![1].

و النموذج الآخر لهذه الغريزة هو سلوك طير باسم « آكسك لوب » عندما تضع البيوض، فيقول العالم الفرنسي «وارد» حول هذا الحيوان:

« إني درست حالات هذه الطيور ، فوجدت من خصائصها أنّها تموت بعد أن تبيض، ولا ترىٰ أفراخها أبداً، كما أنّ الأفراخ لا ترىٰ أُمهاتها، وعندما تفقس البيوض تخرج كالديدان بلا أجنحة ولا ريش، ولا قدرة لها علىٰ تحصيل الطعام ، ولا قدرة لها للدفاع عن نفسها من الحوادث والمخاطر التي تهدد حياتها ، ولهذا ينبغي أن تبقىٰ في مكان محفوظ فيه طعام يكفيها لمدّة سنة ، ومن بعدها تقوم الأم ـ عندما تشعر أنّها علىٰ وشك أن تبيض ـ بالبحث عن قطعة من خشب ثم تثقبها ثقباً عميقاً ، وتجمع فيها المؤونة الكافية، فتجمع أولاً أوراق الأشجار ما يكفي لفرخ واحد لمدّة سنة وتلقيها في نهاية الثقب العميق، ثم تضع عليها بيضة وتبني عليها سقفاً محكماً من عجينه خشبية، ثم تبدأ ثانياً في جمع مؤونة فرخ آخر لمدّة سنة وبعد جمعها المؤونة ووضعها علىٰ سطح الغرفة الأُولىٰ، تضع بيضة ثانية عليها وسقفاً

---

١. حواس الحيوانات الغامضة، تأليف (ويتوس دروشر)، ترجمة لاله زاري، ص ١٦٧ ـ ٧١ (ملخص) «بالفارسية».

آخر، وهكذا تبني الغرفة بعد الغرفة حتىٰ تموت[١].

من الذي علم هذا الطير هذا الحجم من المعلومات رغم أنّه لم ير أُمه ولا أفـراخـه؟ لا جواب لأحدٍ علىٰ هذا السؤال إلّا القول، بأنّها الهامات غريزية من قبل الخالق العظيم.

ﻻ



١ ـ المتلبسون بالفلسفة، ص ٢٢٩، «بالفارسية».

٦ ـ الكشف والشهود

تمهيد:

القسم السادس والأخير من مصادر المعرفة هو «الشهود القلبي والمكاشفة».

وقبل كل شيء ينبغي تعريف هذا المصدر المجهول لدىٰ أكثر الناس، كي يتضح فرقه عن «الوحي» و«الالهام» و«الفطرة» و«الإدراكات العقلية»، ولكي لا يحملهُ غير المطلعين علىٰ «اتباع الظن».

ومن جهة أُخرى، لكي تحول دون استغلال هذا العنوان من قبل البعض، والنظر إليه نظرة تشاؤمية من قبل البعض الآخر.

إنّ الكائنات في هذا الوجود تنقسم إلى قسمين:

١ ـ الكائنات التي يمكن إدراكها بالحواس وهي «العالم المحسوس».

٢ ـ الكائنات غير المحسوسة وهي «عالم الغيب».

لكن الإنسان ـ أحياناً ـ ينفتح أمامه طريق باتجاه عالم الغيب يمكّنه من معرفة بعض الحقائق الغيبية (حسب قابليته)، وبتعبير آخر، تتكشف له بعض حقائق عالم الغيب فيشاهد تلك الحقائق كما يشاهد حقائق العالم المحسوس، بل أوضح وأوثق.

ويقال لهذه الحالة «*المكاشفة*» أو «*الشهود الباطني*».

وقد أُشير إلىٰ هذا العلم في الآيتين: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾! (التكاثر / ٥ ـ ٦)

وقد ورد في المصادر الإسلامية المختلفة: إنّ «المجرمين» و«المؤمنين» تحصل لديهم

هذه الحالة عند الاحتضار، فيشاهد المؤمنون عندها ملائكة الله أو الأرواح القدّسية لأولياء الله بينما يعجز الجالسون حولهم عن مشاهدة ذلك.

كما حصل هذا الأمر لرسول الله ﷺ في غزوة الخندق عندما ضرب الرسول ﷺ الصخرة ثلاثاً وكان يظهر بريق في كل ضربة وعند سؤال المسلمين عن هذا البريق قال: أضاءت الحيرة وقصور كسرىٰ في الأُولى وفي الثانية أرض الشام والروم وفي الثالثة قصور صنعاء ... وسيأتي تفصيل الحديث[١].

كما أنّه قد حصل هذا لآمنة أُم النبي الأكرم ﷺ عندما كانت حاملة بالرسول ﷺ حيث قالت: رأيت نوراً خرج مني شاهدت به قصور بلاد «بصرىٰ» في «الشام»، وهناك كثير من النماذج جاءت في الآيات والروايات نشير إليها فيما بعد، إن شاء الله. فهذه كلها لا وحي ولا إلهام قلبي، بل نوع من المشاهدة والإدراك تختلف عن المشاهدة والإدراك الحسي.

وعلىٰ هذا، فالكشف والشهود ـ اختصاراً ـ عبارة عن: الدخول في عالم ما وراء الحس ومشاهدة حقائق ذلك العالم بالعين الباطنية، كالمشاهدة الحسية بل أقوىٰ، أو سماع تلك الحقائق بأُذن روحانية.

بالطبع لا يمكن تصديق كل من يدعي أنّه وصل إلىٰ هذه الملكة، إلّا أنّه ينبغي الاذعان بأصل وجود مصدر المعرفة ونتحدث أولاً عن هذا الأمر، ثم عن كيفية الوصول إليه، ثم طريق تمييز المدعين الصادقين من الكاذبين، وبعد هذا التمهيد، نمعن خاشعين في الآيات التالية:

١ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.

(الأنعام / ٧٥)

٢ـ ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. (التوبة / ١٠٥)

٣ـ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ *

---

١. الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٧٩.

عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾. (النجم / ١١ ـ ١٤)

٤ ـ ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾. (التكاثر / ٥ ـ ٦)

٥ ـ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾. (الفرقان / ٢٢)

٦ ـ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. (الأنفال / ٤٨)

٧ ـ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾. (يوسف / ٩٤)

٨ ـ ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾. (مريم / ١٧)

شرح المفردات:

إنّ *«ملكوت»* اشتقت في الأصل من مادة «المُلْك» والتي تعني الملكية والحكومة، واضيفت لها «الواو» و«التاء» للتأكيد والمبالغة، أمّا مَلْكُوَة فتعني الحكومة والعزة.

يقول الطريحي في «مجمع البحرين»، إنّ ملكوت جاءت بمعنىٰ العزة والسلطنة والمملكة، وادعىٰ بعض أئمّة اللغة أنّها تعني «الحكومة العظيمة» وهو يتفق مع ما قاله الراغب في مفرداته، ويقول صاحب الميزان: «كان النظر في ملكوت الأشياء يهدي الإنسان إلىٰ التوحيد هداية قطعية»[1].

إنّ *«فؤاد»* ـ كما بينا معناه بالتفصيل سابقاً ـ تعني القلب والروح عندما ينضجان ويتكاملان، وهو مشتق من مادة «فأد» التي تعني النضج.

وإنّ *«أجد»* من مادة «وجود» ويعني الحصول، فقد يكون الحصول عن طريق احدىٰ

١. تفسير الميزان، ج ٧، ص ١٧١.

الحواس الظاهرية ، مثل الرؤية بالعين ، والسماع بالاذن ، أو بواسطة الحاسة الشامة، وقد يحصل عن طريق الحواس الباطنية مثل الاحساس بالجوع أو الشبع والهم والغم ، وقد يحصل عن طريق العقل مثل وجدان الله بالاستدلال العقلي والبراهين المختلفة.

كلمة « *تمثّل* » من مادة « مُثُول » ويعني الوقوف أمام شخصٍ أو شيءٍ ، ويقال مُمَثَّل بشخصٍ أو شيءٍ أي ظهر في صورة شخص أو شيءٍ آخر ، وقد تكرر موضوع التمثل في الروايات الإسلامية والتواريخ، منها ظهور ابليس في «دار الندوة» أمام المشركين وهم يخططون لقتل الرسول متمثلاً في شكل رجلٍ صالح وخير.

ومنها تمثل الدنيا في صورة امرأة جميلة وفاتنة أمام الإمام علي عليه السلام وعدم استطاعتها من النفوذ في قلبه الطاهر وقصتها معروفة، ومنها تمثل أعمال الإنسان أمامه في القبر ويوم القيامة، كلٌّ بشكله المناسب له حيث عبرت الروايات الإسلامية عن هذا الأمر بالتمثل، ومفهوم التمثل في جميع هذه الموارد هو ظهور شخصٍ أو شيءٍ في صورة شخص أو شكل آخر من دون تغير في باطنه وماهيته[١].

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ الآية الأُولىٰ بعد إشارتها إلىٰ جهاد إبراهيم عليه السلام بطل التوحيد ضد الشرك وعبادة الأصنام، تحدثت عن المنزلة الرفيعة لإيمانه ويقينه، وكمكافئة لهذه المكانه فإنّ الله أراه ملكوت السموات والأرض، فأصبح من أهل اليقين أي وصل إلىٰ درجة عين اليقين وحق اليقين، جزاءً لما عاناه من جراء جهاده ضد الشرك وعبدة الأصنام، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «السموات» تفيد العموم هنا (لأنّها جاءت جمعاً لا مفرداً ومعرفة لا نكرة)، نستنتج أنّ الله أطلع إبراهيم على سلطانه في السموات المتمثل بالكواكب والنجوم والمجرات وغيرها، كذلك سلطانه علىٰ الأرض ما ظهر منها وما بطن، وقد عبّر القرآن عن هذا الأمر بهذا التعبير «*نُري ابراهيم* ...».

١. تفسير الميزان، ج ١٤، ص ٣٧.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار إلىٰ أنّ الإنسان لا يمكنه رؤية هذه الحقائق بعينه الظاهرية واستدلالاته العقلية، ندرك أنّ الله أراه هذه الحقائق عن طريق الشهود الباطني وإزالة الحجب التي تحول دون مشاهدة الإنسان الحقائق الغيبية.

وقد ذكر الفخر الرازي احتمالين في تفسيره لـ«الإرائة»، أحدهما: «أنّها حسية، والثاني: أنّها إرائة عن طريق الاستدلال العقلي، ثم اختار الاحتمال الثاني، وذكر تسعة أدلة عليه»[1].

لكن ـ كما قلنا سابقاً ـ فالإنسان عاجز عن الاحاطة الكاملة بأسرار سلطان الله علىٰ العالم سواء كان عن طريق الحس أو عن طريق العقل، وتحتاج الاحاطة هذه إلىٰ طريق إدراك آخر، وهو الشهود الباطني، ولهذا السبب يذكر صاحب تفسير «في ظلال القرآن»: «أنّ المراد من الآية إخبار ابراهيم عن أسرار الخلق الخفية ورفع الحجاب عن آيات كتاب الخلق التي نشرت كي يصل ابراهيم إلىٰ درجة اليقين الكامل»[2].

و بتعبير آخر: إنّ ابراهيم اجتاز مراحل التوحيد الفطري والاستدلالي ـ في البداية ـ من خلال مشاهدته لطلوع الشمسُ وغروبها وطلوع النجوم وافولها، وجاهد المشركين واجتاز درجات التوحيد في ظل هذا الجهاد العظيم، الواحدة تلو الأخرىٰ، إلىٰ أن بلغ مرحلة كشف الله له فيها الحقائق، وهي مرحلة الشهود الباطني.

وهناك حديث للإمام الصادقعليه السلام في هذا المجال يشير فيه إلىٰ هذا المعنىٰ حيث يقول: ***«كُشِط لابراهيم السموات السبع حتىٰ نظر ما فوق العرش، وكشط له الأرضون السبع، وفُعِل لمحمد صلى الله عليه وآله مثل ذلك ...» «والأئمة من بعده قد فُعِل بهم مثل ذلك»***[3].

وقد ذكر صاحب البرهان الكثير من الأحاديث في تفسيره، كلها تكشف أنّ الإدراك هذا ليس هو نفس الإدراك العقلي أو الحسي، بل ـ وكما صرح صاحب الميزان وأشرنا إليه سابقاً ـ إنّ الملكوت هي مجموعة الأُمور التي لها ارتباط بالذات المقدّسة الإلهيّة من حيث

---

١. التفسير الكبير، ج ١٣، ص ٤٣.

٢. في ظلال القرآن، ج ٣٩، ص ٢٩١.

٣. تفسير البرهان، ج ١، ص ٥٣١، ح ٢ (ومضمون الحديث الثالث والرابع قريب من مضمون هذا الحديث).

انتمائها إلىٰ تلك الذات، وهذا ما شاهده إبراهيم وعن هذا الطريق استطاع أن يصل إلى التوحيد الخالص [١].

وهناك روايتان ذكرت في تفسير « الدر المنثور » إحداهما عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله والأُخرى عن ابن عباس تبينان أنّ الله رفع الحجب عن إبراهيم وأراه ملكوت السموات والأرض أي أسرار قدرته، وحاكميته على الكون والوجود [٢].

✿✿✿

والآية الثانية بعد ذكرها لأحكام «الزكاة والصدقة والتوبة» خاطبت الرسول قائلة: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. (توبه / ١٠٥)

وممّا لا شك فيه أنّ المراد من رؤية الأعمال من قبل الله سبحانه وتعالى هو رؤية الله لجميع أعمال الناس سواء الصالحة منها أو غير الصالحة وما ظهر منها وما بطن «بقرينة وحدة السياق» وينبغي القول بأنّ مشاهدة الرسول مثل مشاهدة الله، لأنّ الآية مطلقة ولم يقيدها شيء، وأمّا المؤمنون، فالمراد منهم خلفاء الرسول صلى الله عليه وآله المعصومون بحسب القرائن المختلفة «لا جميع المؤمنين».

ومع الالتفات إلىٰ أنّه لا يمكن مشاهدة اعمال كافة الناس مشاهدة حسية أو استدلالية عقلية، ينبغي القول: إنّ الآية بينت حقيقة وهي أنّ الرسول صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام بإمكانهم المشاهدة بشكل يختلف عن المشاهدة الحسية المتعارفة، يشاهدون بها جميع أعمال المؤمنين.

وقد ذهب الفخر الرازي إلىٰ أنّ المراد من الآية جميع المؤمنين لا الأئمّة، وعندما وقع في إشكال أنّ المؤمنين لا يطلع أحدهم علىٰ أعمال الآخر، أجاب: إنّ المراد أنّهم يُخبرون بها.

---

١. تفسير الميزان، ج ٧، ص ١٧٨.

٢. در المنثور، ج ٣، ص ٢٤.

وهذا تكلّف بلا نتيجة، وتبرير خلاف الظاهر.

كما أنّه نقلت روايات عديدة في ذيل هذه الآية بينت أنّ أعمال العباد تُعرض كل صباح (بعض الروايات ليس فيها قيد الصباح) علىٰ رسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام فيرونها ويفرحون بها إن كانت طاعاتٍ، ويتألمون إن كانت معاصياً [١].

و يمثل هذا الحجم الكبير من الروايات في تفسير هذه الآية درس كبير لجميع سالكي طريق الحق والهداية، حيث إنّ هناك مراقبين أجلّاء يراقبون أعمالهم، والإيمان بهذه الحقيقة لها مردودات تربوية جمة، وقد نقل هذا المضمون في ضمن روايات كثيرة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول في أحدها: ***«إذا صار الأمر إليه جعل الله له عموداً من نورٍ يُبصِرُ به ما يعمل به أهل كل بلدة»*** [٢].

ജ ❖ ಣ

والآية الثالثة إشارة إلىٰ ما يعتقده البعض من مشاهدة رسول الله ﷺ لجبرئيل عليه السلام في شكله الحقيقي، وقد شاهده بهذا النحو مرتين، المرة الأُولىٰ في بداية بعثته حيث ظهر (عليه السلام) في الأُفق وغطىٰ الشرق والغرب، وكان بدرجة من الجلالة والعظمة حيث اضطرب الرسول حينها اضطراباً شديداً، والمرة الثانية هي عند معراجه ﷺ، وقد اشير في سورة النجم لكلا اللقائين.

وهناك تفسير آخر وهو أنّ المراد من الرؤية في الآية هو حصول الشهود الباطني له، الشهود للذات الإلهيّة المقدّسة، وهو شهود بالعين الباطنية لا الظاهرية، وهو مصداق واضح لـ «لقاء الله» في هذا العالم، وقد جاء شرح ذلك مفصلاً في تفسير الأمثل في ذيل الآيه ١٨ سورة النجم.

---

١. جاء في تفسير البرهان في ذيل الآية المذكورة، وفي بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٣٢٦ فما بعد، عشرات الروايات المنقولة في هذا المجال، ويمكن القول: إنّها وصلت إلىٰ مستوى التواتر، و من اصول الكافي ج ١ باب «عرض الأعمال» جاء ذلك مفصلاً.

٢. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ج ٥، ص ٢٠٠ (لقد جمع في هذا الكتاب روايات عديدة بهذا المضمون) وقد ذكر بعضاً منها البحراني في تفسيره «البرهان».

وعلىٰ أيّة حال فإنّ الآية تصرح: إنّ ما رآه الرسول ﷺ بقلبه قد حدث بالفعل، وقلبه صادق بما شاهده وغير كاذب.

والتعبير هذا شاهد علىٰ مسألة الكشف والشهود الباطني الذي يعتبر أحد مصادر المعرفة للإنسان، إنسان مثل الرسول الأعظم ﷺ، وقد جاء في تفسير الميزان:

ولا بدع في نسبة الرؤية وهي مشاهدة العيان إلىٰ الفؤاد فإنّ للإنسان نوعاً من الإدراك الشهودي وراء الإدراك بإحدىٰ الحواس الظاهرة والتخيل والتفكر بالقوىٰ الباطنة كما أننا نشاهد من أنفسنا أننا نرىٰ وليست هذه المشاهدة العيانية ابصاراً بالبصر ولا معلوماً بفكر، وكذا نرىٰ من أنفسنا أننا نسمع ونشم ونذوق ونلمس ونشاهد أننا نتخيل ونتفكر وليست هذه الرؤية ببصر أو بشيء من الحواس الظاهرة أو الباطنة فإنا كما نشاهد مدركات كل واحدة من هذه القوىٰ بنفس تلك القوة كذلك نشاهد إدراك كل منها لمدركها وليس هذه المشاهدة بنفس تلك القوة بل بأنفسنا المعبر عنها بالفؤاد[1].

وقد صرّح المفسرون: إنّ المراد من الرؤية في الآية هو المشاهدة بالقلب.

وقد جاء في حديث أن سأل أحد صحابة الإمام أبي الحسن علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام: هل رأىٰ رسول الله ﷺ ربّه عزّ وجلّ؟ فاجابه عليه السلام: ***«نعم بقلبه، أما سمعت الله عزّ وجلّ يقول: ما كذب الفؤاد ما رأىٰ، لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد»***[2].

بديهي، أنّ المراد من «الرؤية القلبية» ليس هو الفكر والاستدلال العقلي، لأنّ هذا أمر لا يختص بالرسول ﷺ بل يحصل لجميع المؤمنين والموحدين.

٭٭٭

وقد خاطبت الآية الرابعة المؤمنين كافة قائلةً: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ثم تضيف: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾.

---

١. تفسير الميزان، ج ١٩، ص ٢٩.

٢. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ١٥٣، ح ٣٤.

وهناك بحث بين المفسرين في أنّ الرؤية هذه تقع في الدنيا أم في الآخرة؟ أو أنّ الأُولىٰ في الدنيا والثانية في الآخرة؟ لكن ظاهر الآية يدل علىٰ أنّ الثانية تقع في الآخرة، بقرينة ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ وذلك لأنّه لا سؤال في الدنيا، وعلىٰ هذا فالرؤية الأُولىٰ «رؤية الجحيم» تقع في الدنيا.

وقد جاء في تفسير الميزان: إنّ ظاهر الآية يدل علىٰ وقوع رؤية الجحيم قبل يوم القيامة، بالطبع رؤية قلبية والتي تعد من ثمار الإيمان واليقين، كما هو الأمر في قصة إبراهيم ورؤيته لملكوت السموات والأرض.

وقد تقدّم أنّ البعض يرىٰ أنّ الرؤية في كلا الموردين تتعلق بيوم القيامة، ولهذا تكلفوا كثيراً عند بيانهم للفرق بين الرؤيتين، كما يُشاهد ذلك في كلام المفسر الفخر الرازي[1].

وعلىٰ أيّة حال، فإنّ الآية تأكيد في ظاهرها علىٰ أنّ الإنسان ـ في بعض الحالات ـ تُرفع عن قلبه الحجب فيتمكن من رؤية بعض حقائق عالم الغيب.

والآية الخامسة أشارت إلىٰ طلب الكافرين المُلِح، حيث كانوا يسألون: لِمَ لَمْ يُنزِّل علينا ملائكة؟ أو لِمَ لَمْ نَرَ الله جهرةً؟[2].

ويجيبهم القرآن: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً﴾. (٢٢ / فرقان)

وهناك خلاف بين المفسرين في المراد من «يوم» في الآية، فأي يوم هو؟ يعتقد البعض أنّ المراد منه هو يوم القيامة لكن البعض يعتقد ـ مع الالتفات إلىٰ الآيات التي تحدثت عن (ملائكة الموت» ومن ضمنها الآية التالية: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ...﴾. (٩٣ / الأنعام)

---

١. تفسير الكبير، ج ٣٢، ص ٨٠.

٢. الفرقان، ٢١.

إنّ المراد منه هو لحظات الموت، أو بعد الموت وقبل يوم القيامة.

وقد نقل هذا الرأي عن ابن عباس [١]. في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: *«فإذا بلغت الحلقوم ضربت الملائكة وجهه ودبره (قيل اخرجوا أنفسكم اليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) وذلك قوله* ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [٢].

وطبقاً لهذا التفسير، فإنّ الإنسان عندما يكون على وشك الموت تُرفع عن قلبه الحُجُب، فتحصل له حالة الكشف والشهود، فيرى الملائكة.

✽✽✽

والآية السادسة تحدثت عن معركة بدر وأنّ الشيطان زيّن للمشركين أعمالهم وصوّرها لهم وكأنّهم يحسنون صنعاً، وذلك كي يكونوا أكثر تفاؤلا وأملاً بما يقومون به.

ومن جهة أُخرى فإنّ عدد وعدة جيش المشركين الذي يقدر بعدة أضعاف المسلمين آنذاك اصطفوا أمام المسلمين، والشيطان يوسوس لهم وبشكل مستمر بانهم بهذا الجيش المجهز سوف ينتصرون ولا تستطيع أية قوّة أنْ تغلبهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾.

وعندما اشتعلت الحرب ونزلت الملائكة لنصرة المسلمين بأمر الله، تراجع الشيطان، وقال لهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لأنّه رأى الامدادات الغيبية وآثار رحمة الله!

وحول هذه الآية انقسم المفسرون إلى قسمين:

القسم الأول يرى أنّ الشيطان متجسم وظهر أمام هؤلاء بصورة إنسان وأخذ يوسوس لهم.

---

١. تفسير الكبير، ج ٢٤، ص ٧٠.

٢. تفسير البرهان، ج ٣، ص ١٥٨، ح ١.

وأمّا القسم الثاني فانّهم يرون أنّ الشيطان نفذ في باطن المشركين كما هو المتعارف واحدث أثراً في قلوبهم.

و قد اختار كثير من المفسرين الرأي الأول، وهناك روايات معروفة تؤيد هذا الرأي، حيث قالت : إنّ الشيطان تمثّل لهم في صورة « سراقة بن مالك » الذي يعتبر من أشراف «بنى كنانة» وقد حصل هذا الأمر «التمثل» عندما هاجر الرسول الأعظمﷺ، حيث اشترك الشيطان آنذاك في شورىٰ المشركين في «دار الندوة» متمثلاً في صورة رجل كبير السن من أهالي «نجد» وليس محالاً أن يتمثل في صورة إنسان، لأنّ هذا ممكن بالنسبة للملائكة (كما هو منقول في قصة ابراهيم ومريم).

والبحث الآخر هو : هل أنّ الشيطان رأىٰ الملائكة حقاً يساندون جند الإسلام؟ أم عندما رأىٰ آثار الانتصار غير المرتقب تيقن بنزول الملائكة والامدادات الغيبية؟ هناك نظريتان في هذا المجال:

يعتقد كثير من المفسرين أنّ المراد رؤيتهم حقيقةً، ويؤيد ذلك ظاهر الآيات اللاحقة التي تحدثت عن دخول الملائكة ساحة بدر.

وعلىٰ هذا، فما كان المؤمنون ولا المشركون يرون تواجد الملائكة في بدر، بينما كانت الحجب مرفوعة عن الشيطان، فكان يرىٰ الملائكة.

وهذا نوع من الكشف والشهود منحه الله للشيطان لأهداف معينة.

80C3

والآية السابعة أشارت إلىٰ قصة يوسفؑ، فعندما خرج أولاد يعقوبؑ مع القافلة فرحين من مصر، وكانوا قد شاهدوا يوسف علىٰ عرش السلطة رجعوا حاملين قميص يوسف لتقرّ عين أبيهم وليرجع نظره إليه ثانية، وعندما تحركت القافلة من مصر، قال يعقوب لمن حوله في بلاد كنعان: إنّي أشم رائحة يوسف إذا لم ترموني بالكذب والجهل، إنّ ما قاله يعقوب كان صدقاً لأنّه لم يشم الرائحة بالشامة الطبيعية التي يمتلكها جميع الناس ولهذا لم

يصدقه أحد ممن كان حوله فنسبوا الضلالة إلىٰ الشيخ الكنعاني ذلك النبي العظيم حيث قالوا له: ﴿تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾. (يوسف / ٩٥)

وقد تبين صدق شيخ كنعان عند رجوع الاخوة إلىٰ كنعان.

وقد عُدَّت المسافة بين مصر وكنعان بعشرة أيّام في بعض الروايات، وبثمانية أيّام في بعضها الآخر وفي روايات أُخرى بثمانين فرسخاً[١].

ولا دليل علىٰ حمل الآية علىٰ المعنىٰ المجازي والقول بأن شم رائحة القميص كناية عن قرب لقائه بيوسف حيث ألهم الأب بذلك اللقاء (مثل قولنا نشم رائحة انتصار المسلمين علىٰ الأعداء)، وذلك لأنّه مع امكان حمل الألفاظ علىٰ الحقيقة لا يمكن الحمل علىٰ المجاز.

وفي النهاية نستنتج أنّ مكاشفة حصلت ليعقوب ورفعت عنه الحجب، وباحساس يفوق الاحساس الظاهري استطاع أن يشم رائحة قميص ابنه من بعيد.

وقد تحدثت الآية الثامنة والأخيرة عن قصة تمثّل الملك الإلهي لمريم حيث يقول القرآن في هذا المجال بصراحة:

لقد انفصلت مريم عن أهلها في الضفة الشرقية من « بيت المقدس »، واتخذت حجاباً بينها وبين الناس (وهذا الحجاب إمّا أن يكون لأجل التفرغ للعبادة والنجوىٰ أكثر، أو أن يكون لأجل التطهر والغسل)، وأيّما كان فإنّ الله أرسل إليها روحه، فتمثل لها بشراً وإنساناً سويّاً أي كاملاً من دون عيب وذا قامة ووجه جميل، ففزعت مريم في الوهلة الأُولىٰ، لكنها اطمأنت عندما قال لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً﴾ أي عيسىٰ عليه السلام. (مريم / ١٩)

---

١. تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ٢٦٢؛ تفسير الكبير، ج ١٨، ص ٢٠٧.

واستمر الحديث بينهما طويلاً، وقد ذكر في سورة مريم[١].

و قد ادعىٰ البعض أنّ الملك تمثل لمريم في حس الباصرة فقط، (وليس في الخارج)، لكن هذا خلاف الظاهر ولا دليل عليه، والقرائن علىٰ أنّ هذا الشهود قد حصل لمريم فقط، ويحتمل أنّه إذا كان أحد معها ما كان قادراً علىٰ الرؤية، وعليه فالآية قرينة أُخرى علىٰ مسألة إمكانية الشهود حتىٰ لغير الأنبياء.

النتيجة:

نستنتج ممّا تقدم أنّ هناك مصدراً للمعرفة غير المصادر التي قرأنا عنها إلىٰ الآن، وهو مصدر مبهم وغامض بالنسبة لنا، لن يستفاد وجوده من آيات القرآن بوضوح، وهو لا يختص بالأنبياء والأئمّة، بل قد يحصل لغيرهم أيضاً، وإذا شككنا في بعض الآيات في مجال استفادة هذا المصدر منها، فإنّ هذا المصدر يُستكشف من مجموع الآيات.

بالطبع، إنّ هذا الحديث لا يعني فسح المجال أمام كل من يدعي الكشف والشهود، بل إنّ لهما علائم سنشير إليها فيما بعد إن شاء الله.

توضيحات

١ ـ نماذج جميلة من الكشف والشهود في الأحاديث الإسلامية

إنّ الروايات التي كشفت عن مصدر المعرفة ليست بالقليلة وقد وصلت إلىٰ حد «الاستفاضة» حسب تعبير علماء الحديث، وقد أوردنا هنا نماذجاً من هذه الروايات:

١ ـ ذكر في تاريخ معركة الأحزاب أنّ المسلمين عند حفرهم للخندق حول المدينة (كوسيلة دفاعية أمام العدو) خرجت عليهم صخرة كسرت المعول، فأعلموا النبي ﷺ،

---

١. راجع تفسير الأمثل، ذيل الآيه ١٩ من سورة مريم.

فهبط إليها ومعه سلمان فأخذ المعول وضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتي المدينة، فكبر رسول الله ﷺ والمسلمون، ثم الثانية كذلك، ثم الثالثة، ثم خرج وقد صدعها، فسأله سلمان عمّا رأىٰ من البرق، فقال رسول الله ﷺ: ***«أضاءت الحيرة وقصور كسرىٰ في البرقة الأولىٰ، وأخبرني جبرئيل أنّ أمتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثانية القصور الحمر من أرض الشام والروم، وأخبرني أن أمتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء، وأخبرني أن امتي ظاهرة عليها، فأبشروا، فاستبشر المسلمون»***[1].

لم يصدق المنافقون هذه البشارة التي ساقها الرسول الأكرم ﷺ وأخذوا يستهزئون بقولهم: يا للعجب كيف رأى قصور الحيرة وقصور ملوك ايران والروم واليمن من المدينة وكيف بشر بالانتصار على هؤلاء ونحن الآن محاصرين من قبل مجموعة من جيش اعراب مكة؟ إنّ هذا الكلام لا أساس له ولا حقيقة.

إلّا أنّ الحوادث المستقبلية أثبتت صحة ما قاله الرسول ﷺ.

وقد يحمل البعض الشهود هنا علىٰ معنىً مجازي، لكن لا مبرر لهذا الحمل مع إمكان الحمل علىٰ المعنىٰ الحقيقي.

٢ ـ لقد ورد في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام حول معركة مؤتة (التي وقعت بين المسلمين والروم الشرقية في شمال الجزيرة): ***«أنّ المسلمين عندما ذهبوا للقتال بقيادة جعفر بن أبي طالب، فإنّ الرسول ﷺ كان يوماً في المسجد وقد تسطحت له الجبال والارتفاعات فشاهد جعفراً يقاتل الكافرين ثم قال: قتل جعفر»***[2].

وقد جاءت تفاصيل أُخرىٰ عن هذا الموضوع في روايات أُخرىٰ، حدث أنّ الرسول الأكرم ﷺ ارتقى يوماً المنبر بعد صلاة الصبح، فصوَّر للمسلمين ساحة المعركة في مؤتة بدقة، وتحدّث بالتفصيل عن شهادة «جعفر» و«زيد بن حارثة» و«عبدالله بن رواحة» وكأنّه يرىٰ المعركة بأم عينيه، والجدير بالذكر أنّ التواريخ المعروفة ـ عند ايرادها لهذه القصة ـ

---

١. الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٧٩.

٢. بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٥٨، ح ٩.

نقلت هذا الحديث عن الرسول الأكرمﷺ أنّه قال: *«إنّ الشهداء الثلاثة حُملوا إلىٰ السماء علىٰ سريرٍ من ذهب ورأيت نقصاً في سرير «عبدالله بن رواحة» قياساً لسريري الشهيدين الآخرين، فسُئل عن سبب هذا؟ قال: مضيا، وتردد بعض التردد ثم مضىٰ»*. فالتعبير بالرؤية في الرواية له معنىً عميق وهو نموذج من نماذج الشهود.

٣ ـ وهناك حديث في تفسير الآية: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾. (آل عمران / ١٩٩)

يقول: إنّ سبب نزول الآية هو النجاشي ملك الحبشة، فانه عندما توفي أخبر جبرئيل الرسول بالأمر، فدعا الرسول المؤمنين لأنّ يصلّوا علىٰ أحد اخوتهم، فسألوا: من هو؟ أجاب: النجاشي.

ثم جاء الرسول إلىٰ مقبرة البقيع، فتجلت له بلاد الحبشة وتابوت النجاشي من المدينة، فصلّىٰ عليه[1].

٤ ـ وقد جاء في تاريخ أُم الرسول آمنة عليها السلام، أنّها نزل عليها ملك عندما كان الرسول في رحمها وقال لها: إنّ في رحمك سيد هذه الأُمّة فقولي عند ولادته: إني أعوذ بالله الأحد من شرّ الحاسدين، وسمّيه «محمداً»، وقد شاهدت عند حملها أنّه خرج منها نور أضاء لها قصور بُصْرىٰ من أرض الشام![2].

وهذا الحديث يكشف عن إمكان حصول حالة الشهود لغير الأنبياء والأئمّة.

٥ ـ وفي الحديث المعروف: أنّ أمير المؤمنينؑ كان في بعض حيطان فدك وفي يده مسحاة فهجمت عليه امرأة من أجمل النساء فقالت: يا ابن أبي طالب إن تزوجتني أغنك عن هذه المسحاة وأدلك علىٰ خزائن الأرض ويكون لك الملك ما بقيت، قال لها: *«فمن أنتِ حتىٰ أخطبك من أهلكِ؟»*.

قالت: أنا الدنيا: فقالؑ: *«ارجعي فاطلبي زوجاً غيري فلست من شأني فأقبل علىٰ مسحاته وأنشأ»*.

---

١. بحار الأنوار، ج ٨، ص ٤١١.

٢. سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٦٦.

لقد خاب من غرّته دنيا دنيّةٌ وما هي إن غرت قروناً بطائلِ
اتتنا على زي العروس بثينةٌ وزينتها في مثل تلك الشمائلِ

... الخ[١].

وقد حمل البعض الرواية على «التشبيه» و«التمثيل» و«المجاز» لكنا إذا أردنا حفظ الظاهر، فمفهومها هو أنّ الدنيا تمثلت للإمام علي عليه السلام في عالم المكاشفة في صورة امرأه جميلة وأجابها عليه السلام بالسلب.

وقد نقل تمثل الدنيا للمسيح عليه السلام كذلك في صورة امرأة مخادعة مع اختلاف بسيط عمّا نقل عن الإمام علي عليه السلام[٢].

٦ ـ وقد جاء في أحوال الإمام السجاد عليه السلام (وعندما كانت فتنة عبدالله بن الزبير في الحجاز مستعرة والكل كان يترقب نهاية الأمر) أنّ الإمام عليه السلام قال: *«خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط فاتكأت عليه فإذا رجل عليه ثوبان أبيضان ينظر في تجاه وجهي ثم قال: يا علي بن الحسين ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ أعلى الدنيا؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر، قلت: ما على هذا أحزن وأنّه لكما تقول، قال: فعلى الآخرة؟ فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر ـ أو قال قادر ـ قلت: ما على هذا أحزن وأنّه لكما تقول: فقال: مم حزنك؟ قلت: ممّا نتخوف عليه من فتنة ابن الزبير وما فيه الناس قال: فضحك ثم قال: يا علي بن الحسين هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبه؟ قلت: لا، قال: فهل رأيت أحداً توكل على الله فلم يكفه؟ قلت: لا، قال: فهل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه؟ قلت: لا، ثم غاب عني»*[٣].

٧ ـ وفي حديث آخر للإمام نفسه عليه السلام يقول فيه: *«كأنّي بالقصور وقد شيدت حول قبر الحسين عليه السلام وكأنّي بالأسواق قد حفت حول قبره فلا تذهب الأيام والليالي حتى سار إليه*

١. بحار الأنوار، ج ٤٠، ص ٣٢٨، ح ١٠.
٢. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٢٦ باب حب الدنيا و ذمها، ح ١٢٠.
٣. أصول كافي، ج ٢ باب التفويض إلى الله، ح ٢.

من الآفاق وذلك عند انقطاع ملك بني مروان»[1].

٨ ـ جاء في أمالي الصدوق عن أحوال الحر بن يزيد الرياحي:

لما خرجت من الكوفة نوديت أبشر يا حُر بالجنة.

فقلت: ويلٌ للحر يبشر بالجنة وهو يسير إلىٰ حرب ابن بنت رسول الله ﷺ؟![2]

٩ ـ وقد جاء في حديث معروف دار بين أم سلمة زوجة الرسول ﷺ والإمام الحسين عليه السلام أنّ الإمام عليه السلام أراها كربلاء ومحل شهادته[3].

١٠ ـ وقد نقلت حكايات متعددة عن العلماء العظام والمتقين والمؤمنين الصادقين في مجال المكاشفات وذكرها هنا يطيل بحثنا ـ إلّا أنّه ينبغي القول بانها خرجت عن فحوىٰ الخبر الواحد ووصلت إلىٰ درجة الاستفاضة ويمكنها أن تكون مؤيداً جيداً لموضوعنا.

٢ ـ كيف تُرفع الحجب؟

إضافة إلىٰ الأحاديث السابقة التي تمثل نماذج عملية لمسألة الكشف والشهود، هناك تعابير في الروايات تدل علىٰ أنّ الإنسان كلما ازداد إيمانه ويقينه زالت عنه الحُجُب والصفات الذميمة (التي اصطنعها الإنسان نفسه بذنوبه) عن قلبه وتكشفت له حقائق أكثر عن الكون إلىٰ درجة تمكنه من النظر إلىٰ ملكوت السموات والأرض كما نظر إبراهيم الخليل.

إنّ قلب الإنسان وروحه كالمرآة التي حال غبار المعصية والصدأ الذي تراكم عليها من انعكاس الحقائق، لكنها عندما تُجلىٰ بماء التوبة، ويزول غبار المعاصي عنها، ويطهُرُ القلب جيداً، فإنّ الحقائق ستسطع فيها ويكون صاحبها أمين أسرار الله، فيسمع نداءاته التي لا يسمعها إلّا من اؤتمن.

---

١. بحار الأنوار، ج ٩٨، ص ١١٤، كتاب المزار، ح ٣٦.

٢. أمالي الصدوق، ص ٩٣، مجلس ٣٠.

٣. مدينة المعاجز، ص ٢٢٤.

ويمكن أن نجعل الأحاديث التالية شواهداً علىٰ ما قلناه!

١ ـ يقول الرسول ﷺ في ضمن حديث له: *«لولا أنّ الشياطين يحومون إلىٰ قلوب بني آدم لنظروا إلىٰ الملكوت»* [١].

٢ ـ وقد جاء في خبر آخر عن الرسول الأكرم ﷺ أيضاً: *«ليس العلم بكثرة التعلّم، وإنّما العلم نور يقذفه الله في قلب من يحب، فينفتح له، ويشاهد الغيب، وينشرح صدره فيتحمّل البلاء، قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة؟ قال: التجافي عن دار الغرور والإنابة إلىٰ دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»* [٢].

٣ ـ وقد وصف نهج البلاغة حُجَجَ الله علىٰ الناس في الأرض هكذا: *«هجم بهم العلم علىٰ حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين، واستلانوا ما استعوره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها مُعلّقة بالمحلّ الأعلىٰ، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلىٰ دينه»* [٣].

٤ ـ وقد جاء في حديث «ذعلب اليماني» الخطيب النبه الذي كان من صحابة الإمام علي عليه السلام: سأل الإمام يوماً هذا السؤال: «هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين»؟

أجاب الإمام: *«أفأعبد ما لا أرىٰ»؟!*

فقال: «وكيف تراه»؟

فقال الإمام: *«لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»* ثم أضاف: *«قريبٌ من الأشياء غير ملابس، بعيد منها غير مباين»* [٤].

ليس مراد الإمام من إدراك الله إدراك بالاستدلال العقلي، وهذا واضح، لأنّ هذا الأمر حاصل لجميع الموحدين وحتىٰ لتلك العجوز صاحبة الغزل المعروفة، فانّها تستدل علىٰ

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٥٩، ح ٣٩، باب القلب وصلاحه.

٢. تفسير الصراط المستقيم، ج ١، ص ٢٦٧.

٣. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٤٧.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٩.

وجود الله بحركة آلة الغزل التي تحتاج إلىٰ محرك، فكيف بالفلك العظيم والسموات والأرضين.

فالمراد ـ إذن ـ إدراك لله يفوق الإدراك الطبيعي، أي الشهود الباطني، فانّه يرىٰ الله به واضحاً بدرجة وكأنه يراه بعينيه. (فدقق).

٥ ـ وقد جاء في حديث معروف للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: *«لو كشف لي الغطاء ما ازددتُ يقيناً»*[1].

أي أنّي أرىٰ جميع الحقائق من وراء ستار الغيب، أراها بالشهود الباطني، وبصيرتي تشق حاجز الغيب وتنفذ فيه.

٦ ـ قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام: *«ألا إنّ للعبد أربع أعيُن: عينان يُبصر بهما دينه ودنياه، وعينان يُبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه، فأبصر بهما الغيب وأمر آخرته»*[2].

وقد جاءت روايات عن الشيعة الصادقين يشبه مضمونها مضمون هذا الحديث[3].

٧ ـ ونقرأ في حديث الإمام الصادق عليه السلام: *«إنّ الرسول صلى الله عليه وآله رأىٰ يوماً الصحابي «حارثة» فسأله عن حاله»*.

فاجابه حارثة: «يا رسول الله مؤمن حقاً»!

فقال رسول صلى الله عليه وآله: *«لكلّ شيءٍ حقيقةٌ فما حقيقة قولك؟»*.

فأجابه حارثة: «يا رسول الله عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت هواجري وكأنّي انظر إلىٰ عرش ربي وقد وضع للحساب وكأني انظر إلىٰ أهل الجنه يتزاورون في الجنة وكأنّي اسمع عواء اهل النار في النار».

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: *«عبدٌ نوّر الله قلبه أبصَرتَ فاثبت»*.

---

١. غرر الحكم.

٢. خصال الصدوق، ص ٢٦٥، ح ٩٠.

٣. بحار الأنوار، ج ٦٧، ص ٥٨، ح ٣٥.

فقال حارثة: «يا رسول الله ادعُ الله لي أن يرزُقني الشهادة معك».

فقال رسول الله ﷺ: *«اللهمّ ارزق حارثة الشهادة»*.

ولم تمضِ أيّام كثيرة حتىٰ أرسل الرسول فريقاً لاحدىٰ المعارك وكان معهم حارثة فقاتل وقَتل ثمانية أو تسعة من الأعداء ثم قُتِلَ شهيداً[1].

٨ ـ وقد جاء في حديث للرسول ﷺ نقل في كتب أهل السنة: *«لولا تكثير في كلامكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرىٰ ولسمعتم ما أسمع»*[2].

إنّ هذه الأحاديث وأحاديث أُخرى من هذا النوع، وضحت العلاقة بين الكشف الروحاني والإيمان واليقين، وبينت امكانية حصول الإنسان ـ بالتكامل المعنوي ـ علىٰ هذا الإدراك الذي لا نعلم عنه غير أنّه موجود فحسب.

๑๙

٣ ـ سبعة منامات صادقة في القرآن المجيد

تعتبر «الرؤيا الصادقة» احدىٰ فروع الشهود والكشف، والمنامات الصادقة هي التي تتحقق وتطابق الواقع، فتُعد منامات كهذه نوعاً من الكشف.

إنّ الفلاسفة الروحيين ـ خلافاً للفلاسفة الماديين الذين يعتقدون بأنّ الرؤيا هي وليدة النشاطات اليومية أو الآمال غير المتحققة أو الخوف من الأُمور المختلفة ـ وهولاء يعتقدون أنّ الرؤيا تنقسم إلىٰ الأقسام التالية:

١ ـ الرؤيا التي تتعلق بالذكريات والميول والآمال.

٢ ـ الرؤيا غير المفهومة والمضطربة ويعبر عنها بـ«أضغاث أحلام» وهي نتيجة قوة الوهم والخيال.

٣ ـ الرؤيا التي تتعلق بالمستقبل وترفع الستار عن بعض أسرار الإنسان، وبتعبير آخر أنّها شهود يحصل للإنسان وهو نائم.

---

١. اصول الكافي، ج ٢، ص ٥٤ باب حقيقة الإيمان واليقين، ح ٣.

٢. تفسير الميزان، ج ٢، ص ٢٩٢.

لا دليل للفلاسفة الماديين علىٰ نفي القسم الثالث، بل لدينا قرائن كثيرة تثبت واقعية هذا القسم من الرؤيا، وقد ذكرنا عدّة نماذج حية لا تقبل الخطأ والمناقشة في التفسير الأمثل[1].

والجدير ذكره أنّ القرآن ذكر سبعة موارد علىٰ الأقل من موارد الرؤيا الصادقة، وذكرها هنا يناسب تفسيرنا الموضوعي:

١ ـ تحدث القرآن في سورة الفتح عن الرؤيا الصادقة للرسول، حيث رأىٰ نفسه مع أصحابه يدخلون مكة لأداء مناسك العمرة وزيارة بيت الله الحرام، فأفصح الرسول عن منامه هذا للمسلمين ففرحوا، إلّا أنهم تصوروا أن الرؤيا هذه تحققت في السنة السادسة عندما حصل صلح الحديبية، ولم يحصل الفتح يومذاك، إلّا أنّ الرسول طمأنهم بأنّ الرؤيا صادقة وستتحقق يوماً ما.

وقد أجاب القرآن أولئك الذين شككوا في صدق الرؤيا بقوله:

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾.

(الفتح / ٢٧)

تحقق المنام بجزئياته في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة، وقد عرفت العمرة في تلك السنة بـ«عمرة القضاء» لأنّ المسلمين كانوا قاصدين أداءها في السنة السادسة، لكن قريش منعتهم منها.

رغم أنّ المسلمين دخلوا مكة (التي تعتبر مركزاً لقدرة المشركين وسلطانهم) من دون سلاح، إلّا أنّ ابهتهم كانت مشهودة للأعداء، وقد صدق عليهم تعبير *«آمنين»* و*«لا تخافون»* بالكامل فأدوا مراسم زيارة بيت الله وبه تحقق منام الرسول ﷺ بجميع خصوصياته رغم أن تخمين وقوع أمرٍ كهذا كان شبه مستحيل، وهذا من عجائب تاريخ الإسلام.

٢ ـ وقد أشير في سورة الاسراء إلىٰ رؤيا أُخرى للرسول ﷺ إشارة عابرة وقصيرة حيث قال تعالى:

---

١. التفسير الأمثل، ذيل الآيه ٦٠ من سورة الإسراء.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾. (الاسراء / ٦٠)

وقد نقل مفسرو الشيعة والسنة حديثاً معروفاً جاء فيه: أنّ الرسول الأعظم ﷺ رأىٰ في المنام قروداً ترتقي منبره وتنزل منه، فحزن الرسول من جراء هذا الأمر، لأنّه يحكي عن الحوادث المفاجئة في قيادة المسلمين بعد الرسول ﷺ (إنّ الكثير فسّرَ المنام بحكومة بني امية، حيث خلفوا الرسول ـ ظلماً ـ واحداً بعد الآخر وأفسدوا في الخلافة، وكانوا فاقدي الشخصية واتبعوا ما كان عليه آباؤهم في الجاهلية)[1].

وادعىٰ البعض أنّ هذه الرؤيا هي نفس رؤيا دخول مكة، بينما سورة الاسراء نزلت بمكة، والرؤيا كانت في المدينة وقبل واقعة صلح الحديبية في السنة السادسة الهجرية.

وقد رجح البعض مثل الفخر الرازي أن تكون الرؤيا بمعنىٰ المشاهدة في حالة اليقظة، والآية تشير إلىٰ مسألة المعراج[2].

لكن هذا التفسير ضعيف لأنّ المعنىٰ الأصلي واللغوي للرؤيا هو المشاهدة عند النوم لا في اليقظة، وعليه فالصحيح هو التفسير الأول.

أمّا المراد من *«الشجرة الملعونة»*، فقد ادعىٰ البعض: إنّها هي *«شجرة الزقوم»* التي تنبت في قعر جهنم طبقاً للآيه ٦٤ من سورة الصافات، وهي طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون طبقاً للآيات ٤٦ و ٤٧ من سورة الدخان.

وادعىٰ بعض آخر: إنّها كناية عن اليهود العصاة، فانّهم كالشجرة مع ما فيها من غصون وأوراق إلّا أنّهم ملعونون عند الله.

إلّا أنّها فُسِّرت في كثير من كتب الشيعة والسنة ببني اُمية، وقد نقل الفخر الرازي هذا

١. تفسير الكبير، ج ٢٠، ص ٢٣٦.

٢. جاءت هذه الرواية في تفسير القرطبي ومجمع البيان والصافي والكبير، وقد قال الفيض الكاشاني: إنّها من الروايات المشهورة عند العامة والخاصة.

التفسير عن ابن عباس المفسّر الإسلامي الكبير[١]، وهذا التفسير يتفق مع رؤيا الرسول ﷺ بالكامل.

قد يقال: لِمَ لم يُشِر القرآن إلىٰ الشجرة الملعونة في القرآن المجيد؟ إلّا أنّ هذا الإشكال يُحلُ بالالتفات إلىٰ لعن المنافقين بشدّة في سورة محمد ﷺ الآية ٢٣، وبني امية من طلائع النفاق في الإسلام.

إضافة إلىٰ هذا، فإنّ تعبير القرآن ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيرًا﴾ يصدق عليهم بالكامل.

وقد جاء في رواية أن عدداً من صحابة الإمام الصادق عليه السلام سألوه نفسه أو أباه عليه السلام عن المراد من الشجرة الملعونة في الآية، فأجابهم: *«بني أمية»*[٢].

وقد نقل نفس المضمون عن أمير المؤمنين عليه السلام وكذلك عن الإمام الباقر عليه السلام. وقد ذكر علي بن ابراهيم الروايات الثلاث في تفسيره[٣].

وقد نقل السيوطي في تفسيره «الدر المنثور» روايات كثيرة عن الشجرة الملعونة، ورؤيا الرسول ﷺ، حيث فُسّرت الشجرة الملعونة في بعضها ببني امية وفي بعضها ببني الحكم وبني العاص، وكلهم من شجرة خبيثة واحدة[٤].

وعلىٰ أيّة حال، فإنّ رؤيا الرسول ﷺ تحققت بعد رحيله، وخلفته الشجرة الملعونة نسلاً بعد نسل، وكانوا بلاءً عظيماً علىٰ المسلمين، وامتحاناً كبيراً لهم.

٣ ـ والرؤيا الصادقة الأُخرى هي رؤيا إبراهيم الخليل عليه السلام فيما يخص ذبح اسماعيل عليه السلام، فانّه كان محلاً لامتحان عظيم للوصول إلىٰ مقام الإمامة وقيادة الأمة الرفيع، فقد أُمر بذبح ابنه العزيز «اسماعيل»، رغم أنّ الأمر أوحي إليه وهو نائم، أي أنّ الايعاز كان

---

١. نقلها القرطبي عن ابن عباس في تفسيره، ج ٦، ص ٣٩٠٢؛ ونقلها الفخر الرازي عنه أيضاً في التفسير الكبير، ج ٢٠، ص ٢٣٧.

٢. تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٨٠، ح ٢٧٨.

٣. تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٨٠ و ١٨١، ح ٢٨٢ و ٢٨٣ و ٢٨٦.

٤. تفسير الميزان، ج ١٣، ص ١٧٥.

مناماً لا شيئاً آخر، ولنقرأ ما يقوله القرآن في هذا المجال:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. (الصافات / ١٠٢)

إنّ التعبير بـ«أرىٰ» الذي هو فعل مضارع يفيد الاستمرار يدل علىٰ أنّ ابراهيم عليه السلام كان يرىٰ الرؤيا كراراً، بحيث حصل له اطمئنان بأنّ الأمر من الله، ولهذا أجابه اسماعيل بهذا الجواب: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

ولهذا السبب نفسه جاء في الآيتين: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾.

(الصافات / ١٠٤ ـ ١٠٥)

والحادث هذا، دليل واضح لأولئك الذين يقولون بامكانية عد الرؤيا الصادقة نوعاً من أنواع الوحي للانبياء والرسل، كما أنّه قد جاء في بعض الروايات: «*إنّ الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزءً من النبوة*»[١].

وقد شكك بعض الأُصوليين في مسألة نسخ الحكم قبل العمل به إلّا أنّ كلامهم ـ وكما ذُكِرَ في محله ـ يختص بالأوامر غير الامتحانية، أمّا في الامتحانية فهو غير صادق، والتعبير بـ«*قد صدّقت الرؤيا*» دليل علىٰ أنّ إبراهيم عليه السلام قد أدىٰ ما عليه بما جاء به من تهيئة المقدمات لهذا الإيثار الكبير.

٤ ـ ومن الرؤىٰ الصادقة في القرآن، هي رؤيا يوسف في بيت أبيه، حيث أشارت إليها الآيات الأُولىٰ من سورة يوسف:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. (يوسف / ٤)

تنبأ يعقوب مستقبل يوسف والحوادث المقبلة عليه فبشره: ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ... وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾. (يوسف / ٦)

يعتقد بعض المفسرين أنّ يوسف رأىٰ هذا في المنام وهو في الثانية عشرة من عمره، وقد

---

١. بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ١٦٧ و ١٧٧ و ١٧٨.

تحقق منامه بعد أربعين سنة حيث جلس علىٰ عرش الحكومة في مصر، وجاءه اخوته مع أبويه خاضعين له، أو ساجدين لله شكراً، كما أُشير إلىٰ ذلك في نهاية السورة:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾. (يوسف / ١٠٠)

إنّ هذا الحديث يحكي بوضوح عن إمكانية تحقق أحلامٍ صادقة انعكست من قلب طاهر قبل أربعين سنة رغم أنّه لم يُذكر العدد ٤٠ سنة في آيات القرآن، إلّا أنّ المستفاد من قرائن الآيات أنّ الفاصل بين المنام وتحققه كان طويلاً جداً.

وجدير بالذكر هنا أنّ من ضمن البشائر التي بشر يعقوب بها يوسف هذه البشرىٰ:

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾. (يوسف / ٦)

وهذه الجملة (سواء عنت علم تعبير المنام كما يعتقده كثير من المفسرين أو عنت مفهوماً أوسع من ذلك ليشمل الخبرة والإحاطة باصول وأسباب الحوادث ونتائجها)[١]، فانّها علىٰ كل حالٍ دليل واضح علىٰ امكانية صدق بعض الرؤىٰ وتحققها عيناً وواقعاً في الخارج.

٥ و ٦ ـ المنامان اللذان رآهما صاحبا يوسف في السجن عندما كان مسجوناً بذنب طهارته، فيحكي الله قصتهما في نفس السورة ويقول:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

(يوسف / ٣٦)

فدعاهما يوسف للتوحيد وعبادة الله قبل أن يُأوّل ما رأيا ، ثم قال للذي رأىٰ أنّه يعصر خمراً أي عنباً: إنّك تخرج من السجن، وقال للذي رأىٰ فوق رأسه خبزاً يأكل منه الطير: إنّك ستحكم بالإعدام وقد تحقق المنامان (من المتعارف في بيئة فاسدة وحكومة جبارة مثل بيئة وحكومة مصر آنذاك حيث يحكم علىٰ يوسف بالسجن بذنب العفة والطهارة ، أن يطلق سراح الذي يسالم الحكومة ويحضر الخمر لطغاتها، أمّا الذين يتحلون بروح الدفاع

---

١. تفسير الميزان، ج ١١، ص ٨٦.

عن المستضعفين ويعطون خبزاً للطيور فيحكم عليهم بالاعدام).

وعلىٰ أيّة حال، فإنّ هاتين الرؤيتين اللتين حكاهما القرآن بصراحة يكشفان عن امكان اعتبار الرؤيا كمصدر للمعرفة، بالطبع لا كل رؤيا ولا كل معبّر ومفسر لها.

٧ـ رؤيا سلطان مصر التي جاءت في نفس السورة، وهي نموذج واضح آخر للرؤيا الصادقة، يحكي القرآن هذه الرؤيا قائلاً:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾. (يوسف / ٤٣)

وبما أنّ حاشية الملك لم يكونوا خبراء بتعبير الرؤيا، قالوا له: «*أضغاث أحلامٍ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين*».

يحتمل أنّهم أرادوا طمأنة سلطان مصر بحديثهم هذا (ينبغي الالتفات إلىٰ أنّ ملك مصر وفرعونها هو الحاكم العام لمصر، بينما عزيز مصر هو ـ كما يقول بعض المفسرين ـ وزير الخزينة، واسم فرعون المعاصر ليوسف هو «ريان بن وليد» واسم عزيز مصر «قطفير عطفير»[١].

فتذكّر عندها ساقي الملك الذي أُطلق سراحه من السجن بعد أن رأىٰ الرؤيا وأولها يوسف، فحكىٰ القصة للملك فبعث الملك شخصاً إلىٰ يوسف كي يأوّل المنام، فأوله هكذا:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

(يوسف / ٤٧ـ٤٨)

وقد تحقق المنام بعد ذلك، وعندما شاهدوا الصدق والمعرفة في يوسف عليه السلام، أطلقوا سراحه، وقد أدىٰ به الأمر أن أصبح عزيز مصر ووزير الخزينة، ثم من بعده أصبح ملك مصر كلها مع سعتها وعمرانها.

---

١. نقل هذا المضمون في التفسير الكبير للفخر الرازي، ج ١٨، ص ١٠٨ (وللتفصيل يراجع «اعلام القرآن»، ص٦٧٣، كما قد صرّح «ابو الفتوح الرازي» أن نهاية يوسف وصوله إلىٰ سلطة مصر» تفسير روح الجنان، ج ٦، ص٤٠١.

النتيجة:

يستفاد من الآيات السابقة إمكانية كون بعض الرؤىٰ مصدراً لإدراك بعض الحقائق، وبتعبير آخر، فإنّ مسألة الكشف والشهود يمكنها أن تحصل في المنام كما تحصل في اليقظة، وهذه الرؤىٰ على ثلاثة أقسام (طبقاً للآيات السابقة):

١ ـ بعض الرؤىٰ تتحقق في الخارج عيناً من دون أي تغيير، مثل رؤيا الرسول، زيارته مع الصحابة لبيت الله الحرام التي جاءت في سورة الفتح.

٢ ـ منامات تتحقق وهي بحاجة إلىٰ تفسير وتعبير، وتتحقق بتفسيرها لا بعينها، ولا يفسرها إلّا الخبير بها، مثل المنامات الأربعة التي حصلت ليوسف ولصاحبيه في السجن ولملك مصر، وقد ذكرت كلها في سورة يوسف.

٣ ـ الرؤيا التي فيها جانب حكم وإيعاز، وتُعدُّ نوعاً من الوحي يحصل عند النوم مثل رؤيا إبراهيم عليه السلام.

بالطبع ليس مفهوم الكلام هذا أنّ كل منام يُعدُّ كشفاً أو شهوداً، بل إنّ كثيراً من المنامات تُعدُّ أضغاث أحلام، وتفتقد لأي معنىً، وهي رؤىٰ ناتجة عن نشاط قوّة الوهم، أو عن الحرمان والكبت والمآسي وعدم الراحة والأذىٰ.

سؤال:

قد يسأل البعض عن المنامات التي تتعلق بحوادث المستقبل، فهل هي نوع من العلم؟ أم هي (كما يعتقد فرويد العالم النفساني المعروف) لا شيء سوى إرضاء للشهوات والميول المكبوتة والحرمان الحاصل للإنسان، فتتجلىٰ له في المنام مع تغيّر وتبدّل لخداع «الأنا» ولإرضاء الشهوة المكبوتة فإنّ الحلم إشباع خيالي لها، وقد ينعكس هذا الميل بنفسه عيناً في الحلم (مثل رؤية عاشق لمعشوقته الفقيدة عيناً) وقد ينعكس في منامه مع تغيير وتبديل، فيحتاج حينها إلىٰ تعبير وتفسير.

الجواب:

إنّ ما يقوله فرويد هو فرضية لا أكثر . وفي الحقيقة لا دليل علىٰ ما يدعيه أبداً . فقد تكون بعض المنامات مصداقاً لما يدعيه . أمّا كون الأحلام كلها من هذا القبيل فهذا ما لا دليل له عليه[١].

نحن نعتقد أن للمنامات أقساماً، وقسم منها هو الرؤيا الصادقة، ونعدها وسيلة للكشف أي كشف بعض الحقائق . وهذه حقيقة استفدناها من القرآن (الذي هو وحي الهي) بالدرجة الأولىٰ، وبالدرجة الثانية من التجارب التي حصلت في هذ المجال، ليس المراد تلك الحكايات التي لا سند لها، بل المراد الحوادث التي وقعت لشخصيات كبيرة ومعروفة في عصرنا أو في العصور الماضية، وقد نقلوا هذه المنامات في كتبهم (وقد أشرنا إلىٰ بعض من نماذجها الواضحة في الجزء التاسع من التفسير الأمثل).

ومن هنا يعرف أنّه لا يمكن عدّ الرؤيا لوحدها مصدراً للمعرفة، ولهذا يقال بعدم حجية الرؤيا، بل ينبغي ضم قرائن من الخارج موضحة ولا تقبل النفي، لتصبح الرؤيا مصدراً مقبولاً للمعرفة.

٤ ـ المكاشفات الرحمانية والمكاشفات الشيطانية

قد نستغني عن التذكير بأنّه كما يوجد كشف وشهود واقعي يحصل تارة بالايمان واليقين الكامل ، وتارة أُخرى بالرياضات النفسية، فانّه يوجد كشف وشهود وهمي كثير . فقد يحصل هذا الكشف بسبب التلقينات المكررة وانحراف الذهن والفكر عن جادة الصواب، وتارة بسبب الالقاءات الشيطانية . فتتمثل في ذهن الإنسان صور وحوادث لا واقع لها . إنّها

١. لم يكتشف العلماء منشأ النوم (لا المنام) بعد، فلا يعلمون هل أنّ منشأه نشاط فيزيائي أم كيميائي أم كلاهما، أم ناشيء عن نشاط الجهاز العصبي، فإذا كان النوم نفسه لغزاً لم يُحل بعدُ، فكيف يمكن القول بحل مسألة المنام التي هي أعقد من مسألة النوم أضعافاً مضاعفة!

مجموعة أوهام لا أكثر ، ومن هذا القبيل الكشف والشهود الذي يدعيه كثير من « الصوفية »، فإنّ المريد البسيط يعتقد في بداية عمله (من جراء الإعلام والدعاية التي يتلقاها من البعض) أنّه ينبغي له أن يرىٰ مرشده الحقيقي في المنام ، وتقوىٰ هذه الفكرة عنده كل يوم، فيتوقع في كل يوم رؤية جمال مرشده ومراده في عالم الرؤيا يزوره ويرشده (غالباً ما يضع أشخاصاً معينين نصب عينيه لهذا المنصب ، وإذا لم يعينهم بالدقة فانّه يعين صفات ومميزات خاصة لهم).

قد يفقد هذا الصوفي توازن فكره الطبيعي من جراء الرياضات الروحية الشاقة وانحراف المزاج ، فتزداد قدرة الوهم عنده ، فيرىٰ في المنام يوماً أشخاصاً قريبين ـ من حيث الصفات والميزات ـ من الأشخاص الذين رسمهم في ذهنه، وقد يتطابقون في الصفات بالكامل، وقد يحصل هذا في عالم اليقظة، لأنّ عيني هذا السالك البسيط انّشدت إلىٰ الطريق، وأُذنيه صاغيتان إليه دائماً فهو ينتظر دائماً أن ينفتح له باب من ذلك العالم: فتنمو هذه الفكرة عنده ليلاً ونهاراً ، وقد تصنع قوة الوهم عنده ـ لا إرادياً ـ صوتاً ينقر أُذنه، أو تتمثل أمامه صورة، فيتخذها أساس اعتقاده.

كما أنّ الاستماع إلىٰ المواضيع المؤنسة والمنشطة (التي قد تبين في اطار إشارات جميلة وتتزامن مع ألحان مخدّرة، يزيد من تأثير التلقينات عليه أضعافاً مضاعفة.

إنّ تلك الفرقة من الصوفيين الذين يؤيدون « الوجد والسماع »[١]، يذوبون فيهما بشكل حيث يفقدون توازنهم ، ويُعطّل العقل عندهم ، فيتركون الساحة فارغة لقوة الوهم ، وأولئك الغارقون في وهم الكشف والشهود ومشاهدة عالم الغيب يسيرون في عوالم خيالية تتوقف سعتها علىٰ شدّة الوهم والخيال عندهم ، فتتمثل أمامهم صور مثل بحار النور ، وجبل الطور، والسموات السبع والأرضين السبع، وكلما مالت قوة الوهم عندهم إلىٰ شكل أو صورة، تمثل ذلك الشكل أو تلك الصورة أمام أعينهم.

---

١. المراد من السماع، الألحان الموسيقية أو نغمات المطربين الدارجة في بعض مجالس الصوفيين، والمراد من الوجد، الذوق والشوق واللهفة التي تحصل للصوفيين الذين يحسنون السماع ويقترن مع حركات تشبه الرقص.

إنّهم يفرحون لهذه اللحظات كثيراً ، وكأنّهم التقوا بالمراد وعانقوه ، فيصرحون وتعلو أصواتهم، مما يزيد ويفاقم هذه الحالة عندهم، ثم يرمون بحالة شبيهة بالاغماء ، وبعدما يصحون ويهدءون من هذه الحالة ، يحكون للناس ما رأوا ظنّاً منهم أنّه كشف.

إنّهم في الحقيقة يسعون نحو السراب ظنّاً منهم أنّه ماء ، ورغم عدم وصولهم إلىٰ شيء، يبتلون بأمور بعيدة عن الحق والحقيقة.

وبعبارة مختصرة: لا يمكننا تصديق كل من ادعىٰ الكشف والشهود، وكذا لا يمكننا اعتبار كل تمثل وكل نداء إلهياً واقعياً، وذلك لأنّ هناك كشفاً شيطانياً.

وقد جاء في حديث للإمام علي عليه السلام مع الحسن البصري: أنّ الإمام عليه السلام مر بالحسن البصري وهو يتوضأ فقال: يا حسن اسبغ الوضوء، فقال: يا أمير المؤمنين لقد قتلت بالأمس أناساً يشهدون أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله، يصلون الخمس، ويسبغون الوضوء، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: قد كان ما رأيت فما منعك أن تعين علينا عدونا. فقال: والله لأصدقنّك يا أمير المؤمنين لقد خرجت في أول يوم فاغتسلت وتحنطت وصببت عليّ سلاحي وأنا لا أشك في أنّ التخلف عن أم المؤمنين عائشه هو الكفر، فلما انتهيت إلىٰ موضع من الخريبة ناداني منادٍ «يا حسن إلىٰ اين ارجع فإنّ القاتل والمقتول في النار» فرجعت ذعراً وجلست في بيتي، فلما كان في اليوم الثاني لم أشك أنّ التخلف عن أم المؤمنين عائشه هو الكفر، فتحنطت، وصببت عليّ سلاحي وخرجت أُريد القتال، حتىٰ انتهيت إلىٰ موضع من الخريبة فناداني مناد من خلفي: «يا حسن إلىٰ اين مرةً بعد أُخرى القاتل والمقتول في النار» قال علي عليه السلام: صدقك افتدري من ذلك المنادي؟ قال: لا، قال عليه السلام: ذاك أخوك ابليس، وصدقك أنّ القاتل والمقتول منهم في النار، فقال الحسن البصري: الآن عرفت يا أمير المؤمنين أنّ القوم هلكىٰ[1].

إنّ نداءات كهذه أشير إليها في القرآن بصفة وحي الشياطين ، حيث يقول تعالىٰ في الآية:

﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ

١. احتجاج الطبرسي، ج ١، ص ٢٥٠.

الْقَوْلِ غُرُوراً﴾. (الانعام / ١١٢)

إنّها نوع من الامتحان للتمييز بين صفوف المؤمنين وغيرهم، فقد جاء في الآية: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِم﴾. (الانعام / ١٢١)

وبناءً على ما تقدم، نرىٰ كتب الصوفية مليئة بهذا النوع من المكاشفات، مكاشفات غريبة وموحشة، ومردوداتها السلبية كثيرة، نشير إلىٰ بعضٍ منها هنا بشكل مختصر:

١- ورد في كتاب «صفوة الصفاء» في شرح أحوال الشيخ صفي الدين الأردبيلي، بقلم أحد مريديه ما مضمونه: أنّ رجلاً من ذوى المكاشفات أخبر الشيخ بأنّه رأىٰ في عالم الرؤيا أنّ أكمام الشيخ امتدت من العرش إلىٰ الثرىٰ فقال له الشيخ: إنّ رؤياك هذه تتناسب مع طول أناتك وصبرك!

٢ ـ كتب محي الدين بن عربي في كتابه «مسامرة الأبرار» إنّ الرجبيين لأشخاص مرتاضون برياضات خاصة، ومن صفاتهم أنّهم يرون الرافضين (الشيعة) في حالة الكشف في صورة خنازير.

٣ ـ وكتب الشيخ عطار في كتابه «تذكرة الأولياء» عن «با يزيد البسطامي»: طِفْتُ البيت فترة، وعندما وصلت إلىٰ الحق، رأيت أنّ الكعبة تطوف حولي!... إنّ الله بلغ بي إلىٰ درجة حيث أستطيع أن أرىٰ الخلق جملة بين اصبعي!![1].

٤ ـ وقد جاء في نفس الكتاب، أنّ با يزيد قال: عرض عليّ الحقّ الفي مقام عنده وفي كل مقام سلطان، وما قبلتُ[2].

إنّ هذه ادّعاءات لم تُسمع من نبيٍ مرسل ولا من إمام معصوم، بل إنّ أدعيتهم ومناجاتهم في جنب بيت الله التي تكون في غاية التذلل والتواضع تكشف عن أن كشفاً كهذا إن لم يكن فهو ـ قطعاً ـ أوهام وتخيلات شيطانية ترتسم في أذهان البعض، لأسباب وعوامل مختلفة،

---

١. تذكرة الأولياء، ص ١٠٢.

٢. المصدر السابق، ص ١٠١.

أشرنا إلىٰ بعضها سابقاً ، وإنّ سعة هذه الأوهام تتوقف علىٰ مدىٰ وطول آمال الشخص وتخيلاته.

***

سؤال:

ثمة سؤال يطرح نفسه هنا، وهو: هل من طريق لتمييز المكاشفات «الرحمانية» من «الشيطانية» و«الحقيقية» من «الوهمية» أم لا؟

***

الجواب:

نعم توجد ثلاث علامات يمكن من خلالها التمييز – الإجمالي – للمكاشفات الشيطانية من الرحمانية، وهي: إنّ الرحمانية اضافة إلىٰ كونها يقينية وقطعية تقترن بمستوىٰ عالٍ من الإيمان واليقين والمعرفة والاخلاص والتوحيد والعمل الصالح، بينما تفتقد المكاشفات الشيطانية هذه المواصفات، وعلىٰ هذا الأساس فلا اعتبار لقول من يدعي المكاشفات الرحمانية وهو يفتقد هذه المواصفات.

ولقد قرأنا في رواية مضت أنّ الرسول ﷺ قال: ***«العلم نورٌ يقذفه الله في قلب من يحب، فينفتح له، ويشاهد الغيب، وينشرح صدره فيتحمل البلاء، قيل: يا رسول الله وهل لذلك من علامة؟ قال: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلىٰ دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله»***[١].

ثم إنّ المكاشفات الحقيقية تتفق دائماً مع الكتاب والسنة، وفي نفس الاتّجاه الذي يتجه إليه كلام الله والمعصومين ﷺ، ولا تميل قيد أنمله عن جادة الاطاعة الربانية، وغير ملوّثة بأدنىٰ إثم أو ذنب.

---

١. تفسير الصراط المستقيم، ج ١، ص ٢٦٧.

وثالثاً، إنّ محتوىٰ المكاشفات الحقيقية يتفق دائماً مع العقل اتفاقاً كاملاً، وتكون بعيدة عن الأمنيات والأوهام غير المعقولة ، فالذي يقول: «إنـي رأيت الرافضية ـ مكاشفة ـ كالخنازير»، في الحقيقة رأىٰ نفسه في مرآة ذاته، والذي يقول: «عندما وصلت إلىٰ الحق، فرأيت بيت الله يطوف حولي» فانّه مُصاب بوكع في رأسه، وشخصاً كهذا يرىٰ نفسه مستغنياً عن الطواف، ويرىٰ الطواف أدنىٰ من شأنه، بينما الرسول ﷺ بعظمته لم ير نفسه مستغنياً عن ذلك، وقد حج حتىٰ في آخر سنة من عمره الشريف وأدىٰ المناسك.

وآخر الحديث في الكشف والشهود هو هذا:

لا يمكن عدّ الكشف والشهود كمصدرٍ عامٍ للمعرفة مثل «العقل» و«الحس» و«التاريخ» بل إنّه مصدر خاص، وله شروط ومواصفات صعبة.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی




حُجُب المعرفة

وآفاتها








حُجُب المعرفة وآفاتها

تمهيد:

في بحثنا حول طرق العلم والمعرفة تمكّنا من اجتياز قسم من محطات هذه الطرق وقد سلمنا بوجود واقعيات خارج إطار الذهن، وقلنابان امكانية إدراك تلك الواقعيات لدى الإنسان هو شيء معقول إلىٰ حدٍ ما، وقد عرفنا بدقة مصادر المعرفة الستة.

كما علمنا أن خمسةً من مصادر المعرفة أي «الحس» و«العقل» و«الفطرة» و«التاريخ» و« الوحي » عامة ويستطيع الجميع الاستعانة بها للوصول إلىٰ المعرفة المرادة، إلّا أنّ المصدر السادس وهو الشهود الباطني مصدر خاص بفريق من المؤمنين وأولياء الله، ولا يتمتع بها الجميع.

بقي محطتان ينبغي العبور منهما للوصول إلىٰ المراد ، الأولىٰ «موانع طرق المعرفة »، والأخرى «ممهدات المعرفة»، والبحث هنا ينصب علىٰ الموانع.

فمما لا شك فيه : أنّ العين لوحدها لا تكفي لرؤية الموجودات والأشخاص، بل ينبغي أن لا يكون هناك حجاب أو مانع يحول دون الرؤية ، فلو كان هناك دخان أسود أو غبار أو ضباب غليظ يحول بيننا وبين الشيء المراد رؤيته فانّا لا نرىٰ الشيء الذي أمامنا وحوالينا مهما كان قربه منّا ، فضلاً عن البعيد ، فالشمس التي تنير كل ارجاء العالم بنورها الساطع تُحجب رؤيتها عنا إذا حالت الغيوم بينها وبيننا.

فإذا استفاد شخص من نظارة سوداء قاتمة السواد، فطبيعي أنّه لا يرىٰ شيئاً ، وإذا استفاد من نظارة ملونة فانّه سيرىٰ الأشياء ملونة (حسب لون نظارته)، وإذا كانت عدستا نظارته

غير مصقولتين جيداً فانّه سيرىٰ الأشياء معوجة ، وإذاكان مبتلياً بمرض اليرقان فانّه سيرىٰ الأشياء صفراء، وإذا كان أحولاً فانه سيرىٰ صوراً لا تتطابق مع الواقع.

وأمثال هذه الموانع بالضبط قد تحصل للعقل والفطرة ، وقد تحصل موانع في فهم التاريخ وحتىٰ الوحي وكلمات المعصومين عليهم السلام، فقد يُساء فهمه لنفس الموانع والحجب التي تحصل للإنسان في مصادر المعرفة الأخرى، ومن هنا نفهم أهميّة بحث موانع المعرفة وندرك أهميّة العلم بها للوصول إلىٰ المعرفة.

وبما أنّ القرآن منطلق بحثنا في التفسير الموضوعي، فنسعىٰ لمعرفة الموانع والحجب التي ذكرت فيه بالدرجة الأُولىٰ.

لقد ورد البحث في القرآن حول موانع المعرفة بنحوين: الأول بحوث كلية و«منذرة» والثاني: بحوث جزئية و«تعليمية»، ولنتناول الآن البحوث الكلية.



حُجُب المعرفة:

نُمعن خاشعين أولاً إلىٰ الآيات التالية:

١ - ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾. (فاطر / ٨)

٢ - ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. (الأنعام / ٤٣)

٣ - ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾. (آل عمران / ٧)

٤ - ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. (المطففين / ١٤)

٥ - ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾. (الحج / ٥٣)

٦ - ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾. (الاسراء / ٤٦)

٧ - ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾. (البقرة / ٨٨)

٨ - ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾. (الأعراف / ١٠٠)

٩ - ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾. (التوبة / ٨٧)

١٠ ـ ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾. (البقرة / ٧)

١١ ـ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾. (الجاثية / ٢٣)

١٢ ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. (محمد / ٢٤)

١٣ ـ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. (الحج / ٤٦)

١٤ ـ ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾. (الأعراف / ١٧٩)

***

شرح المفردات:

قبل كل شيء ينبغي الخوض في البحث عن المفردات المختلفة والظريفة التي استعملت في الآيات السابقة التي أشارت إلىٰ حجب المعرفة وحرمان الإنسان منها،كلٌّ منها تشير إلىٰ مرحلة من مراحل انحراف ذهن الإنسان وحرمانه من المعرفة، فتبدأ بالمراحل الأضـعف، وتنتهي بمراحل أشد وأقوىٰ من الحرمان بحيث تسلب الإنسان قدرته علىٰ التـميز، بـل تصوّر له الحقائق بالعكس فيرىٰ الشيطان ـ من جرائها ـ مَلَكاً بريئاً، والقُبح حُسناً، والباطل حقاً!

***

إنّ «زيغ» تـعني ـ كما يقول كثير من أئـمة اللغة ـ الانـحراف، أو الانـحراف عن الحق والصواب، ولهذا جاء في القرآن: ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾. (آل عمران / ٨)

و«رَانَ» من مادة «رَيْن» (على وزن عَين) وهو الصدأ الذي يـصيب بعض الفلزات. هذا ما قاله الراغب في مفرداته، وقد قال بعض أهل اللغة: «إنّه قشر أحمر يترسب مـن الهـواء ويظهر علىٰ سطح بعض الفلزات مثل الجديد»، وهذا الصدأ علامة للإستهلاك والتلف وزوال

شفافية ولمعان الفلز.

وقد فسّر البعض هذه المفردة بـ«غلبة أمر علىٰ أمرٍ آخر» أو «الوقوع فيما لا مخرج منه».

وقد قيل للشراب *المسكر «رَيْنه»* لأنّه يتغلب علىٰ العقل [١].

«الوَقْر»: على وزن (عَقل) هو الثقل في السمع بدرجة يصعب السمع بها.

أمّا *«الوِقْر»* على وزن (فِكر) فهو الثقل الذي يوضع علىٰ ظهر الإنسان أو رأسه، كما يقال *«وِقْر»* للحمل الثقيل، ولهذا قيل لصاحب العقل «ذي وقار».

«الغشاوة»: تطلق علىٰ كل شيءٍ غطّىٰ شيئاً آخر، ومن هذا الباب قيل للستارة غشاوة، وقد أُطلق، لفظ «غاشية» علىٰ يوم القيامة من حيث إنّ الخوف الناشيء منها يغطي جميع الناس ويخيّم عليهم، وقد اطلقت هذه المفردة علىٰ الليل الأظلم كذلك لأنّه كالستار يغطي الأرض، كما اطلقت علىٰ « الخيمة » كذلك.

«أكِنة»: جمع كِنان، وفي الأصل تعني غطاء يُستر به شيء، و *« الكِنّ »* على وزن (جِن) يعني الوعاء الذي تحفظ به الأشياء، وقد أُطلقت هذه المفردة علىٰ البيت أو علىٰ أي شيءٍ يحفظ الإنسان من الحرارة والبرودة، وجعل الأكِنة علىٰ القلوب يعني: سلب قدرتها في التمييز.

«الغُلْف»: على وزن (قفل) جمع *«أغْلَف»* ومن مادة «غِلاف» وتعني غلاف السيف أو غلاف أي شيء آخر، و«قلوب غلف» تعني قلوباً لا تفهم ولا تعي الحقيقة، وكأنها مُغلَّفة.

«قَسَتْ» من مادة « قَسْوَة» على وزن (مرْوة)، وَالقساوة تعنىٰ الصلابة والغلظة وفقدان المرونة، ويقال للفضة غير الخالصة « قسّي »، والقلوب القاسية هي غير اللينة والغليظة تجاه الحق والعدالة.

و*«نَطْبع»*: من مادة *«طَبْع»* ويعني الختم أو النقش، ومن هذا الباب تستعمل المفردة هذه في مجال المسكوكات الذهبية والفضية، ويقال للخاتم الذي تُختم به الكتب والرسائل

---

١. تفسير الفخر الكبير ذيل الآية ١٤ من سورة المطففين والمنجد مادة (رين).

طابع، وعندما تستعمل هذه المفردة في مجال العقل فتعني أنّه مُغطًّىٰ ومختوم عليه فلا يفهم ولا يعي شيئاً، وكأنّ أبوابه مغلقة ومختوم عليها، أمّا مفردة «طَبَع» فتعني الصدأ الذي يعلو السيف كما تطلق علىٰ المعاصي والذنوب التي تعلو القلب وتغطيه.

و«الخَتم»: يعني الانتهاء والفراغ من الشيء، وبما أنّ الرسائل تختم عند الفراغ منها، قيل لوسيلة الختم خاتم، وفي الماضي كان كثير من الناس ينقشون أسماءَهم علىٰ فصوص ما يتختمون به، فيختمون بها الرسائل، ولهذا أُطلق علىٰ خاتم اليد خاتماً.

وكان وما زال العرف (إذا أرادوا أن يغلقوا بيتاً أو صندوقاً بحيث لا يفتحه أحد) يغلقون الباب أولاً بحبل أو قفل، ثم يصبون مادة لصقة أو طين لزج علىٰ القفل أو الحبل ثم يختمون علىٰ تلك المادة، بحيث إذا أراد شخصٌ فتح الباب أو الصندوق اضطرَّ لأنّ يكسر الختم.

إنّ استعمال القرآن لهذه المفردة في مجال العقول، إشارة إلىٰ أنّها عقول مقفلة ومختوم عليها ولا تعي شيئاً بدرجة لا يمكن أن تحصل على بصيص للوصول إلىٰ طريق العلم والمعرفة.

جمع الآيات وتفسيرها

النفوذ التدريجي لآفات المعرفة:

(الانحرافات والرين والأمراض والأكنة والأقفال):

كما قلنا سابقاً: إنّ أهميّة بحث «موانع المعرفة» تستدعي عرض الموضوع في مرحلتين:

المرحلة الأُولىٰ: ونبحث فيها ـ إجمالاً ـ عن وجود الموانع والحجب وكيفية تأثيرها علىٰ العقل، وكيفية تلوث مصادر المعرفة بها تدريجياً، إلىٰ درجة تنتهي إلىٰ تعطيلها.

المرحلة الثانية: ونبحث فيها عن جزئيات وخصائص كلٍ من هذه الموانع والآفات، وللقرآن بحث واسع تربوي وجذّاب في هذا المجال.

ولنبدأ أولاً من المرحلة الأُولىٰ، فممّا تجدر الإشارة إليه، هو أنّ القرآن تحدث عن موانع

المعرفة والآفات ونفوذها التدريجي والغامض، بشكلٍ عرّف سالكي طريق العلم، والمعرفة بها تعريفاً كاملاً، وأنذرهم كراراً بأن لا يفنوا عمرهم في السعي نحو السراب ظناً منهم أنّه ماء، وبعد سنوات من السعي الحثيث من أجل الوصول إلىٰ الحقيقة ينتهون إلىٰ الباطل.

✽✽✽

والآن نبحث معاً الآيات المذكورة:

الحديث في الآية الأُولىٰ والثانية يدور حول تزيين الأعمال، فتارة يزينها الشيطان للإنسان (كما جاء ذلك في الآية الثانية) وتارة تكون ذهنيات الإنسان ونفسه أو عوامل أُخرىٰ هي التي تزين للإنسان سوء أعماله (كما جاء ذلك في الآية الاولى، حيث إنّ الفعل فيها مبني للمجهول) فقالت: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فإنّ الأول يتجه نحو الهاوية والثاني نحو الصراط المستقيم، وإذا ما صدر منه عملٌ سيءٌ أسرع إلىٰ التوبة وجبران ما عمل.

وتضيف الآية الثانية: إنّ قلب الإنسان يقسو في المرحلة الأُولىٰ، ثم يتأهل لتقبل وسوسة الشيطان فتتمثل الأعمال السيئة حسنةً أمامه، ومن هنا نرىٰ بعض الناس غير نادمين علىٰ أعمالهم السيئة، بل قد يفرحون ويتباهون بها، ويصرون علىٰ منطقيتها وصحتها.

وقد حصل هذا الأمر لأخوة يوسف، فعندما ألقوه في البئر وجاءوا أباهم بقميصه ملطخاً بدم كاذب ادعوا أكل الذئب له، وأنّهم صادقون في كلامهم.

فأجابهم أبوهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾. (يوسف / ١٨)

أي ظننتم أنّكم أحسنتم عملاً بهذه الجريمة ، وانكم ستحلون محل يوسف في قلبي، وأنّ يوسف انتهىٰ أمره إلىٰ الأبد، غافلين عن أنكم توطئون بعملكم هذا مقدمات عزه وسلطانه، وأنّ مكانه سيبقىٰ فارغاً في قلبي حتىٰ أرىٰ الفقيد مرة أُخرىٰ.

وممّا يستحق الإشارة إليه هو أنّ القرآن ينسب تزيين الأعمال تارة للشيطان وتارة

لنفس الإنسان، وتارة يأتي التزيين في صيغة فعل مبني للمجهول وتارة ينسبه إلىٰ الله تعالىٰ كما جاء ذلك في الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾. (النمل / ٤)

هذه ترجع إلىٰ أنّ مقدمات هذا الأمر تبدأ من نفس الإنسان، فيتمسك بها الشيطان ويفعل فعلته، وبما أنّ الله مسبب الأسباب وخالق العلل والمعلولات فتنسب إليه نتيجة الأعمال، وتقتضي حكمته بأن يبتلي البعض بمصير كهذا وما أسوء حال الذي تتمثل السيئات أمامه حسنات!

ꕥ

وقد تحدثت الآية الثالثة عن المراحل الأُولىٰ لانحراف القلب، وبعد تقسيمها للآيات إلىٰ محكمات (وهي ذات المفاهيم الواضحة) ومتشابهات (وهي ذات المعاني المعقدة) قالت: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾. فالراسخون في العلم يفسرون المتشابهات بالمحكمات، وأما الذين في قلوبهم زيغ فيأخذون بالمتشابهات ويفسرونها برأيهم ابتغاء الفتنة.

إنّهم يتمسكون بما تشابه من القرآن لتبرير نواياهم غير الخالصة، ولهذا نرىٰ كثيراً من المنافقين وأصحاب البدع وأتباع المذاهب المنحرفة يستغلون صفاء قلوب المخلصين والمؤمنين بآيات الله بالكامل، ويبررون بدعهم بالاستعانة بـ« التفسير بالرأي » والاستعانة بالآيات المتشابهة، وبتعبير آخر: بما أنّ قلوبهم وأفكارهم منحرفة فيرون آيات الله منحرفة أيضاً، كالمرآة المعوجة تنعكس فيها الصور معوجة.

ꕥ

والآية الرابعة تشير إلىٰ الصدأ والرين الذي يعلوا القلوب، إنّه الغبار الذي يعلو القلوب بسبب الذنوب والمعاصي، فيتراكم الغبار عليها حتىٰ تتحجر، ويغطي الصدأ القلب كله،

حيث قالت الآية: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فلا عجب في عدم تمكّنهم من رؤية الحقيقة.

ﮊﮋ

وتحدثت الآية الخامسة عن تفاقم الحالة السابقة بحيث تتبدل إلىٰ مرض روحي، فبعد إشارتها إلىٰ الالقاءات والوساوس الشيطانية حتىٰ للأنبياء والمرسلين قالت: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

نعم، إنّ هذه القلوب التي لا تستلذ بطعم الحقيقة، بسبب مرضها، وحلاوة الحقيقة عندها كالمرارة، على استعداد لقبول وسوسة الشياطين.

وممّا يلفت النظر هنا أن جملة ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، تكررت اثنا عشر مرّة في القرآن، ممّا يكشف الأهميّة التي أولاها الله لهذه المسألة، مع الالتفات إلىٰ أنّ أغلب هذه الآيات عنت المنافقين وصُرّح بذلك في عدد منها[١].

إلّا أنّ المرض جاء في بعض من هذه الآيات بمعنىٰ «الشهوات والميول والهوىٰ»، كما هو الحال في الآية: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾. (الاحزاب ٣٢)

وعلىٰ أيّة حال، فإنّ المستفاد من الآيات هو أنّ الإنسان كما يصاب جسمه بامراض، كذلك روحه فانّها قد تصاب بامراض سببها «النفاق» تارة و«الأهواء والميول» تارة أُخرى، وتغيّر عند عروضها ـ ذائقة روح الإنسان بالكامل، كما نرىٰ ذلك في أمراض الجسم فقد تُغير مزاجه بشكل تجعله يستلذ بالأغذية الشاذة والكريهة ولا يستلذ بالأكلات اللذيذة والمفيدة، فإنّ إنساناً كهذا غير قادر علىٰ إدراك الحقائق ووعي الأُمور وفهمها.

ومن المؤسف أنّهم كلما استمروا في طريقهم كلما تفاقم عندهم المرض، فإذا كانوا في مرحلة الشك، فسيتفاقم عندهم ويشتد ويصل تدريجياً إلىٰ مرحلة الانكار ومن الانكار

١. الأنفال، ٤٩، والأحزاب، ١٢ و ٣٢.

إلىٰ مرحلة أخطر وهي الاستهزاء ومخالفة الحق، يقول القرآن في هذا المجال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾. (البقرة / ١٠)

تحدثت الآية السادسة عن جعل الأكنة والحجب علىٰ القلوب، وليس حجاباً واحداً بل حُجب وأكنة وذلك للحيلولة دون فهمهم القرآن، حيث جاء فيها: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِم وَقْراً﴾.

ذكر بعض المفسرين أنّ التعبير بالأكنة يدلّ علىٰ تعدد الكِنان[١]، وممّا لا شك فيه أنّه لم يجعل وقر في آذانهم الظاهرية بل الروحية كي لا يسمعون من الحق شيئاً، كما لم تجعل الأكنة علىٰ القلوب التي هي وسيلة لضخّ الدم في الأوعية، بل جعلت الأكنة علىٰ أرواحهم وعقولهم.

وقد وقع كثير من المفسرين ـ عند الإجابة عن هذه المسألة ـ في إشكال، فتارة قالوا: إنّها معجزة حيث كان الرسول ﷺ يختفي عن أنظار أعدائه المعاندين، فلا يكادون يسمعون شيئاً من كلامه، وذلك كي لا يؤذوه ﷺ، وتارة قالوا: إنّ الله يمنع لطفه عن أشخاصٍ كهؤلاء فيتركهم لحالهم، وهذا هو معنىٰ جعل الأكنة علىٰ القلوب والوقر في الآذان.

إلّا أنّ ظاهر هذه الآية (التي تماثل آيات أُخرى من القرآن) شيء آخر، وفي الحقيقة أنّ هذه استعمالات مجازية في حق المعاندين والمتعصبين والمغرورين والغارقين في الإثم، وبتعبير آخر: أنّ حرمانهم من إدراك الحقيقة بسبب صفاتهم الرذيلة وأفعالهم القبيحة، فقد جعل الله هذه الميزة في هذه الأعمال، فهي كخاصية القتل بالنسبة للسم، فلا يُلام صانع السم وشاعل النار إذا تناول شخص ما سماً أو ألقىٰ نفسه في النار فمات، فانّه في مورد كهذا ينبغي لوم الذي ألقىٰ نفسه في النار والذي تجرع السم فقط.

وقد نقلت الآية السابعة ما كان يقوله اليهود للرسول ﷺ أو الأنبياء الآخرين، حيث كانوا

١. تفسير روح المعاني، ج ١٥، ص ٨٢.

يقولون: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾. نعم لعنهم الله بكفرهم، وأبعدهم عن رحمته، وأنّ أشخاصاً كاليهود كيف يمكنهم أن يذوقوا حلاوة الحقيقة.

قد يكون التعبير بـ«الغلاف» يختلف عن التعبير بـ«الأكنة»، وذلك لأنّ الغلاف يستر المغلَّف ويغطيه من جميع الجهات، بينما يغطي الستار جهة واحدة من المستور، وبتعبير آخر: تارة تصيب الموانع مصدراً واحداً من مصادر المعرفة كالفطرة لوحدها أو العقل لوحده، وتارة اُخرى تعطل جميع المصادر وتجعلها في غلاف يحول دون المعرفة.

نعم، كلما تلوّث الإنسان بالذنوب والفساد أكثر ابتعد قلبه وروحه من المعرفة وحُرِم منها اكثر.

ᘓ☙ᘐ

وتحدثت الآية الثامنة والتاسعة عن الطبع على القلوب الذي يحول دون المعرفة، وقد اعتبرت الآية الثامنة الطبع سبباً لعدم السمع ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، واعتبرت الآية التاسعة الطبع سبباً لعدم الفقه والفهم ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، والمراد في الموردين واحد. فكما قلنا: إنّ المراد من عدم السمع هو عدم الإدراك والوعي والفهم.

وهذه المرحلة أشدّ من المراحل السابقة، فالمرحلة الأولى هي جعل الأكنة على القلوب، ثم الغلاف عليها، وفي النهاية يطبع عليها للحيلولة دون نفوذ أي شيء فيها، كما ذكرنا ذلك في بحث شرح المفردات.

طبعاً: إنّ ابتلاءهم بهذا المصير ليس اعتباطياً، بل لأسباب أشارت إليها الآية السابقة حيث قالت: ﴿وَ إِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ الْقَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾. (التوبه / ٨٦ ـ ٨٧)

إذن إعراضهم عن الجهاد وتخلفهم عنه هو السبب في الطبع على القلوب.

وآية أُخرى أشارت إلىٰ سبب آخر من أسباب الطبع، حيث قالت: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾. (الاعراف/ ١٠٠)

أي أنّهم يذنبون رغم رؤيتهم وعلمهم بأحوال السابقين وابتلائهم بالعذاب الإلهي من جراء ذنوبهم، فطبع علىٰ قلوبهم.

وممّا يذكر هنا أنّ الطبع جاء في الآية الثامنة بصيغة المضارع «*نطبع*» وفي التاسعة بصيغة الماضي «*طبع*» وهذا تلميح إلىٰ أنَّ الطبع نتيجة سوء أعمالهم وتصرفاتهم.

يقول بعض المفسرين : إنّ المراد من « *الطبع* » في مثل هذه الآيات هو نفس السبك والنقش الذي يستخدم للدراهم والمسكوكات، وهو نقش ثابت وباقٍ، لا يتغير بسهولة [١]، فانَّ نَقْشَ الكفر والنفاق والإثم نُقِشَ علىٰ قلوبهم فلا يمحىٰ بسهولة.

ﮪﮫ

وتحدثت الآية العاشرة والحادية عشرة عن «*الختم*» وكما قلنا سابقاً في شرح المفردات: إنّ الختم يعني الانتهاء والفراغ من شيء، وبما أنّ الرسائل تختم عند الفراغ منها استعملت هذه المفردة هناك أيضاً، وختم الشيء قفله وشده بحيث لا يمكن لأحد فتحه، والمراد من الختم علىٰ القلوب والأسماع والابصار في الآيات، هو سلب قدرتها عن التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر وذلك بسبب أعمال أصحابها وتصرفاتهم، ولهذا يذكر القرآن في الآية السابقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. (البقرة / ٦)

المسلم به هو أنّ هذا الخطاب لا يعم الكافرين كلهم بل يخص المتعصبين والمعاندين منهم، أي أولئك الذين غرقوا بذنوبهم إلىٰ درجة حيث أُصبحت قلوبهم ظلماء، وإلّا فالنبي أُرسل مبشراً ومنذراً للكافرين والمنحرفين.

والجدير ذكره هنا هو أنّ الآيات تحدثت عن الختم علىٰ الأبصار والسمع كما تحدثت

---

١. تفسير المنار، ج ٩، ص ٣٣.

عن الختم علىٰ القلوب، وهذا تلميح منها إلىٰ أن السمع والبصر قد يتعطلان، أي قد يتعطل الإدراك الحسي كما يتعطل العقلي، وكما تعلم أنّ أغلب العلوم البشرية تحصل بواسطة هذين الإدراكين، وحتىٰ حقانية الوحي ودعوة الأنبياء تكتشف بهما، ومع تعطلهما فإنّ طرق الهداية والنجاة ستغلق أمامهم، وهذا من سوء أعمالهم وهذا ما أرادوه لأنفسهم، ولا يستلزم جبراً كما يدعيه بعض الظانين.

وقد جاء هذا التعبير في مجال الطبع كذلك، حيث يقول تعالىٰ في الآية: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾. (النحل / ١٠٨)

والآية التي سبقت الأخيرة أشارت إلىٰ أن هذا الأمر ليس عاماً وشاملاً لجميع الكفار، بل يختص بمن شرح صدره للكفر، حيث يقول تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾. (النحل / ١٠٦)

ﮧﮨ

وقد تحدثت الآية الثانية عشرة عن أقفال القلوب التي قد تكون أشد من الختم[١]، حيث قالت: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي أن آيات القرآن تنفذ في القلوب ولو من نوافذ صغيرة، وذلك لأنّ منطق القرآن هو البيان البديع، والبلاغة في التعبير، والعمق والدقة في التحليل، وهو نور وضياء خاص ينفذ في قلب كل مؤهل ولو بأقلّ تأهيل، ويستحوذ علىٰ القلوب ويهز الضمائر، رغم هذا فانه لا ينفذ في قلوب هؤلاء ولا يهز ضمائرهم أبداً، وذلك لانغلاق قلوبهم.

إنّ «أقفال» جمع «قفل» ومن مادة «قُفول» ويعني الرجوع، وبما أن كلَّ من أتىٰ باباً مقفولة رجع، استعملت هذه المفردة في هذا المجال.

إنّ التعبير بـ«الأقفال» قد يكون إشارة إلىٰ تعدد أقفال القلب بحيث إذا ما فتح قفل بقيت اقفال اُخرى، وهذه في الحقيقة أسوأ مرحلة وأشدها من مراحل حرمان إدراك الحقائق.

---

١. وقد أشار الفخر الرازي في تفسيره الكبير إلىٰ هذا الأمر.

ويلاحظ هنا عدم اضافة «قلوب» إلىٰ الأقفال بل جاءت بصيغة النكرة، وكأن هذا إشارة إلىٰ أن هذه القلوب ليست لهم، والأعجب من هذا هو إضافة «الأقفال» إلىٰ «القلوب» وكأنّ قلوبهم أهل للأقفال فقط لا لشيء آخر.

❧

وفي الآية الثالثة عشرة تعبير يهز الضمائر حيث يقول تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. (الحج / ٤٦)

أي أنّ الحاسة الباصرة إذا فقدت فهذا ليس بعمىٰ، لإمكان أن يسد العقل اليقظ فراغها، وإنّما الشقاء والبؤس والتعاسة في القلوب إذا عميت، فعمىٰ القلوب أكبر حاجب عن إدراك الحقيقة، والإنسان بنفسه يُعمي قلبه، ولقد أثبتت التجربة أنّ الإنسان إذا ما جعل عصابة علىٰ عينيه أو مكث في ظلام لمدّة طويلة، فإنّه سيفقد باصرته تدريجياً، كذلك الأمر بالنسبة للذين يغمضون عيون قلوبهم عن الحقائق، أو يمكثون مدّة طويلة في ظلمات الجهل والغرور والإثم فإنّ قلوبهم ستعمى، وتكون غير قادرة علىٰ إدراك أي حقيقة.

يُشكِلُ البعض أنّه لا يمكن أن يراد من القلب (الذي في الصدر ويضخ الدم إلىٰ جميع أعضاء البدن) بل المراد العقل والروح.

إلّا أنّه بملاحظة استعمال « الصدر » بمعنىٰ الذات والفطرة يتضح لنا أنّ المراد من ﴿الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ هو الإدراك العقلي المودع في طبيعة الإنسان.

إضافة إلىٰ هذا، فإنّ القلب أول عضو في بدن الإنسان يتأثر بعواطف وأحاسيس وإدراكات الإنسان، نلاحظ أنّ اتخاذ قرار مهم ، أو حصول حالة غضب شديدة ، أو الاحساس بالحب القوي تجاه شخص ما يُزيد من دقات القلب ، فإذا استعمل القلب الظاهري كناية عن العقل ، فلأجل العلاقة الوثيقة التي بينه وبين الروح [1].

❧

وقد تحدثت الآية الرابعة عشرة والأخيرة عن آخر مرحلة لحرمان الإنسان من المعرفة،

---

١. للمزيد من العلم راجع التفسير الأمثل ذيل الآية ٧ من سورة البقرة.

والتي يتعطّل فيها العقل والفطرة والعين والاذن عن العمل بـالكامل، فـيهوي الإنسـان إلىٰ مستوىٰ الأنعام بل أضلّ.

والآية تلميح إلىٰ فريق من أهل النار وكأنهم خلقوا لأجلها لا لشيء آخر: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

وعليه، فانهم فقدوا «*هويتهم الإنسانية*»، وأغلقوا أبواب الرجوع علىٰ أنفسهم، فهووا من قمم السعادة السماوية المعدة لهم إلىٰ شقاء جهنم التي أُعدت لأولئك الذين غـلقوا جـميع أبواب المعرفة علىٰ أنفسهم، وهو مصير صنعتهُ نفوسهم وذنوبهم وعصيانهم.

***

النتيجة الأخيرة:

إنّ في القرآن الكريم نماذجاً كثيرة تشبه الآيات الأربع عشرة التي ذكرناها في أول هذا الفصل، وانتخبنا هذه الأربع عشرة للمواصفات التي تتحلىٰ بـها، وقـد انـتهينا إلىٰ حـقيقة واضحة وهي أنّه قد تعرض آفات لمصادر المعرفة بـالخصوص العـقل والفـطرة والحس، وبعض تلك الآفات خفيفة طفيفة، وبعضها شديدة، وبعضها بدرجة من الشدة حيث تـترك الإنسان في ظلمات مطلقة تمنعه من استيعاب أوضح الحقائق الحسية.

وقد سعينا لمتابعة هذا الانحراف التدريجي لجميع مراحله مع الاستشهاد بآيات القرآن، ولا ندعي أنّ الترتيب الطبيعي لهذا الانحراف هو نفس الترتيب الذي جاء في الآيات عيناً، بل نقول: إنّ الآيات المذكورة قد بيّنت نفوذ الآفات في جميع المراحل.

وما أجمل تعبير القرآن في هـذا المجال ، ومـا أدقه ؟ فـتارة يـتحدث عـن العـوامـل الخارجية مثل « *تزيين الشيطان* » و تـارة يتحدث عن انحراف القلب والفكر، وأُخرىٰ عن صدأ القلوب، وحيناً عن تحول هذا الانحراف إلىٰ مرضٍ مزمن.

وحيناً عن الأكنة المجعولة علىٰ القلوب.

وتارة عن تغلُّف القلوب بالكامل.

وتارة عن الطبع علىٰ القلوب والنقش عليها.

و أُخرىٰ عن وضع القلوب في أوعية وختم تلك الأوعية.

و احياناً عن تجاوز الأكنة القلوب لتشمل السمع والبصر.

و احياناً أُخرىٰ عن تقفل القلوب.

وتارة عن العمىٰ الكامل.

وأخيراً عن سلب الإنسان هويته الإنسانية وإسقاطه نفسه إلىٰ درجة الأنعام بل إلى درجة أدنىٰ من ذلك.

أما دواعي هذه المآسي والمصائب؟ فهو ما نتناوله في بحثنا اللاحق، لأنّ الهدف من بحثنا الماضي كان التعريف بالآفات والحجب وتوضيح أمرها بصورة إجمالية.

ثم نصل إلىٰ مرحلة علاج هذه الأمراض وكيفية رفع الأكنة ومسح الصدأ والرين والوقاية من الوصول إلىٰ مرحلة لا مخرج ولا نجاة منها.

وننهي بحثنا هذا بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: *«إنّ لك قلباً ومسامع وإنّ الله إذا أراد ان يهدي عبداً فتح مسامع قلبه، وإذ أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح أبداً وهو قول الله عزّوجلّ ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾»*[١].

۞

١. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٤١.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی




حُجُب المعرفة وآفاتها

«بالتفصيل»



١ـ الصفات التي تحول دون المعرفة
٢ـ الأعمال التي تحجب عن المعرفة
٣ـ الحُجُب الخارجية





مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

حُجُب المعرفة وآفاتها (بالتفصيل)

تمهيد:

كان الحديث في البحث السابق عن انسداد أبواب المعرفة وطرقها بالاجمال.

وحديثنا الآن عن «العلل والعوامل» المسببة لهذه الظاهرة المؤلمة التي يمكنها أن تؤدّي بالإنسان إلىٰ السقوط إلىٰ درجة الأنعام والبهائم.

حديثنا عن الأُمور التي تسبب ظهور الصدأ علىٰ قلب الإنسان، وجعل الوقر في الاذان، والعمى في القلب، واختلال توازن العقل، واخيراً تسبب عدم رؤية الحق أو رؤيته معكوساً!

تابع القرآن هذه المسألة المهمّة في آيات عديدة وبيّن العلل الأساسية لهذه الظاهرة، ويمكن تلخيص العلل في ثلاثة أقسام:

١ ـ الصفات التي تحول دون المعرفة أي الصفات والأخلاقيات التي يمكنها أن تكون حاجباً عن الرؤية الروحية.

٢ ـ الاعمال التي تحجب عن المعرفة أي السلوك والأعمال التي تسوّد مرآة العقل.

٣ ـ الحجب الخارجية أي العوامل الخارجية التي تؤثر علىٰ فكر الإنسان وعقله وعواطفه وفطرته.

وسنبحث هذه العناوين الثلاثة كلاً علىٰ حده (وأؤكد هنا علىٰ أننا نطرح العلل التي وردت في القرآن الكريم بوضوح فقط).

ജ്യ


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

١ـ الصفات التي تحول دون المعرفة

إنّ هذه الصفات التي ذكرت في القرآن بصراحة تارة وبالكناية تارة أُخرى عبارة عن:

١ ـ حجاب عبادة هوىٰ النفس

قبل كل شيء نُمعن خاشعين للآيات التالية:

١ ـ ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. (الجاثيه / ٢٣)

٢ ـ ﴿... كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِم ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. (المائدة / ٧٠ ـ ٧١)

٣ ـ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾. (محمد / ١٦)

❧

شرح المفردات:

«*الهوىٰ*» بمعنىٰ رغبة النفس وميلها إلىٰ الشهوات ويقال إنّها مشتقة من «الهوي» الذي يعني السقوط من الارتفاع، وذلك لأنّ الهوىٰ يسبب سقوط الإنسان في المصائب في الدنيا، وابتلاءه بالعذاب في الآخرة، ومن هنا قيل لجهنم «هاوية» لأنّ قعرها منخفض للغاية.

وقد ذكر البعض معنيين لهذه المفردة : (الصعود والارتفاع) و(السقوط)، وذكر بعض آخر معنىً واحداً لها وهو (الارتفاع والسقوط إلىٰ الأسفل) وهذا في الحقيقة تركيب من المعنيين السابقين.

وقال البعض: إنّ الهُوىٰ يعني «السقوط» والهَويّ يعني «الصعود»[١].

جمع الآيات وتفسيرها

إتباع الهوىٰ يُعمي القلب:

تحدثت الآية الأُولىٰ عن اتخاذ الهوىٰ إلهاً واتباعه، والتضحية لأجله بكل ما يملك، وكل من كان كذلك فسوف يختم علىٰ قلبه وعلىٰ سمعه ويجعل علىٰ بصره غشاوة، فلا يهتدي بعد ذلك، فلنقرأ الآية: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ...﴾.

والآية الثانية تحدثت عن فريق من اليهود المعاندين حيث كلما جاءتهم رُسُل الله وأتوا بما يخالف أهواءهم، قاموا بتكذيب بعضهم وقتل البعض الآخر، إنّ عنادهم هذا جعل حجاباً بينهم وبين الحقائق، فيرون أنفسهم آمنين من عذاب الله، حيث تاب الله عليهم، وشملتهم رحمته الواسعة في المرة الأُولىٰ، لكن في المرة الثانية شملتهم نقمته، وذلك لنقضهم عهدهم وطغيانهم، فعموا وصمّوا.

وهذه من المردودات السلبية لاتباع الهوىٰ، حيث يهرقون دماء الأنبياء ولا يدركون قبح عملهم.

إنّ التعبير بـ«يقتلون» بصيغة المضارع يدل علىٰ أن ديدن هذا الفريق من اليهود هو قتل الأنبياء لما يأتون به من الشرائع المخالفة لأهوائهم.

---

١. راجع مفردات الراغب، ومجمع البحرين، وكتاب العين، واقرب الموارد، والمنجد.

والآية الثالثة تشير إلىٰ فريق من المنافقين الذين يستمعون للنبي ﷺ، وبمجرّد ابتعادهم عنه استهزئوا به أمام المؤمنين.

يقول القرآن عن هذا الفريق من المنافقين: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾.

إنّ هذه الآيات الثلاث تبيّن بوضوح العلاقة بين اتباع الهوىٰ وفقدان قدرة التمييز.

لِمَ لا يكون اتباع الهوىٰ مانعاً عن إدراك الحقيقة وقد استحوذ حبه علىٰ جميع جوانب الإنسان، فلا يرىٰ شيئاً غيره ولا يفكر إلّا به؟ وقد سمعنا قول الرسول كثيراً حيث يقول فيه: *«حُبُّكَ لِلشَّيءِ يُعْمِي وَيُصِمُّ»*[١].

كما سمعت في هذا المجال حديثاً آخر نقل عن الرسول الأكرم ﷺ وعن أمير المؤمنين: *«أمّا اتباع الهوىٰ فيصدُّ عن الحق»*[٢].

إنّ هذه المسألة واضحة إلىٰ درجة أنّها أصبحت مثلاً في كلام العرب: «صاحب الحاجة أعمىٰ لا يرىٰ إلّا حاجته»[٣].

إنّ الإنسان الذي خسر قلبه وروحه في حب الجاه والمال والشهوة، وعبّأ كل رأس مال وجوده في هذا المجال، لا يرىٰ شيئاً في الدنيا غير هذا الحب، وقد جعل هذا الحب ستاراً سميكاً حجب عقله وفكره.

وما أجمل ما قاله علي عليه السلام في إحدىٰ خطبه: *«مَنْ عشق شيئاً أعشىٰ بصره»*[٤].

وقد نقلت الرواية التالية في شأن نزول الآية ٢٣ من سورة الجاثية التي أشرنا إليها سابقاً:

إنّ أبا جهل طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة (فقد كانت الكعبة محترمة في

---

١. روضة المتقين، ج ١٣، ص ٢١.

٢. بحار الأنوار، ج ٧، ص ٧٥؛ ونهج البلاغة الخطبة ٤٢.

٣. تفسير المراغي، ج ٥، ص ١٥٧.

٤. نهج البلاغة، الخطبة ١٠٩.

الجاهلية أيضاً ومحلّاً للطواف) فتحدثا في شأن النبي ﷺ، فقال أبوجهل: والله إنّي لأعلم أنّه صادق. فقال له: مَهْ، ومالك علىٰ ذلك؟ قال: يا أبا عبد شمس كنّا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تمّ عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن؟ والله إنّي لأعلم أنّه صادق. قال: فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عني بنات قريش أنّي اتبعت يتيم أبي طالب من أجل كسرة، واللات والعزّىٰ إن اتبعته أبداً. فنزلت ***«وختم علىٰ سمعه وقلبه»***[1].

وما أجمل ما قاله علي عليه السلام عن الهوىٰ: ***«آفة العقل الهوىٰ»***، كما قال في محلٍ آخر: ***«الهوىٰ آفة الألباب»***[2].

٢ ـ حبّ الدنيا أحد الحجُب

يقول القرآن في هذا المجال:

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

(النحل / ١٠٧ ـ ١٠٨)

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ الآية تشير إلىٰ قوم أسلموا رغبة في الإسلام، ثم ارتدوا عنه، فلمحت الآية إلىٰ أن ارتدادهم لم يكن لرؤيتهم ما يخالف الحق في الإسلام، بل لأنّهم فضلوا الحياة الدنيا علىٰ الآخرة، ورجحوها عليها، فانسلخوا عن الإسلام واتجهوا نحو وادي الكفر تارة أُخرى، فلم يهدهم الله بعد كفرهم لانهم لم يكونوا أهلاً لذلك، وذلك لحبهم الحياة الدنيا، فطبع الله علىٰ

---

١. تفسير المراغي، ج ٢٥، ص ١٥٧.

٢. غرر الحكم.

قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأغلق عليهم أبواب المعرفة فأصبحوا من الغافلين.

إنّ حبّ الدنيا سواء كان في مجال حب المال والثروة أو في حقل حب الجاه والمقام، أو في مجال حبّ الشهوات المختلفة، فإنّ هذا الحبّ كالريح العاصف يهب في باطن الإنسان فيفقده توازن عقله بالكامل.

تعلم أنّ الميزان الدقيق يُجعل في محفظة تحول دون تأثير النسيم عليه، وحتىٰ الوزّان ينبغي له حبس أنفاسه حتىٰ الانتهاء من الوزن، وذلك للحيلولة دون تأثير امواج الهواء الخارجة من رئتيه علىٰ تعادل الميزان، فما فائدة ميزان كهذا عند هبوب ريح عاصف؟

إنّ حبّ الدنيا سواء كان بشكلها القاروني أو الفرعوني أو السامري أو غير ذلك، لا يعطي الإنسان الحرية في أن يحكم علىٰ الأمور بشكل صحيح أو يفكر تفكيراً سليماً، وإذا صرح الله تعالىٰ في الآية السابقة بأنّه طبع علىٰ قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فالطبع هذا يمثل حب الدنيا، وبما أنّهم يتجهون نحو السبب فيبتلون بالمسبَّب.

ويشاهد في الأحاديث الإسلامية تعابير جميلة في هذا المجال، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «***مثلُ الحريص علىٰ الدنيا كمثل دودة القز كلما ازدادت من القز علىٰ نفسها كان أبعد لها من الخروج حتىٰ تموت غماً***»[1].

كما نُقل حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه: «***الدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ***»[2].

ويقول الإمام نفسه في رسالة كتبها لأحد أصحابه ينصحه فيها ويقول: «***فارفض الدنيا فإنّ حب الدنيا يُعمي، ويُصم ويبكم ويُذلُّ الرّقاب فتدارك ما بقي من عمرك ولا تقل غداً أو بعد غدٍ فإنّما هلك من كان قبلك باقامتهم علىٰ الأماني والتسويف***»[3].

ﮋﮊ

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٢، ح ١٣.

٢. نهج البلاغة.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٧٥؛ اصول الكافي، ج ٢، باب ذم الدنيا والزهد فيها، ح ٢٣.

٣ ـ حجاب الكبر والغرور وحبّ السلطة!

١ ـ ﴿الَّذِيْنَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِيْنَ آمَنُوا كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾. (غافر / ٣٥)

٢ ـ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيْدٍ﴾. (فصلت / ٤٤)

ﷺ

جمع الآيات وتفسيرها

الجبارون والمغرورون لا يدركون الحق!

تحدثت الآية الأُولىٰ عن كلام «مؤمن آل فرعون» صاحب الضمير الحي الذي كان في بلاط فرعون يؤيد موسىٰ بن عمران ويؤمن به سراً، فقالت: ﴿الَّذِيْنَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِيْنَ آمَنُوا كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

نعم، إنّ عناد الحق والاصرار في ذلك العناد يجعل حجاباً قاتماً علىٰ فكر الإنسان ويسلبه قابلية التمييز وحسن المعرفة، فيبلغ به الأمر إلىٰ أن يصبح قلبه كالوعاء المغلق لا يخرج محتواه الفاسد ولا ينفذ فيه المحتوىٰ السليم والمفيد.

يقول البعض في الفرق بين *«الجبّار»* و*«المتكبر»* أنّ «التكبر» يقابل «الخضوع للحق» و«الجبروت» يقابل «الشفقه والمحبة للخلق»، فالظَّلَمَة المغرورون لا يخضعون للحق ولا يرحمون ولا يشفقون على الخلق.

ﷺ

والآية الثانية نقلت أقوال فريق من المتكبرين المعاندين حول القرآن حيث كانوا

يقولون: لِمَ لَمْ ينزّل القرآن أعجمياً كي نهتم به أكثر وكي يفهمه غير العرب؟ (قد يكون مرادهم هو الحؤول دون فهم الناس له).

فأجابهم القرآن: لو نزّل القرآن أعجمياً لأشكلتم إشكالا آخر وهو ***«لولا فصلت آياته»*** أي أنّ محتواه معقد ومبهم ولا نعي شيئاً منه، ثم قلتم، عجيب أن يكون القرآن أعجمياً ونازلاً علىٰ عربي؟!

ثم أمر الله رسوله بأن يقول لأولئك المغرورين:

﴿هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

وواضح أنّ الذي ينادي من مكان بعيد لا يسمع ولا يرىٰ.

إذا أنكرت أعينهم نور شمس القرآن الساطعة فذلك لرمدها، وإذا أنكرت آذانهم نداء الحق المدوّي فذلك للوقر الذي فيها.

حجاب الغرور في الأحاديث الإسلامية:

١ ـ جاء في حديث للإمام الباقر عليه السلام: ***«ما دخل قلب امرىءٍ شيء من الكبر إلّا نقص من عقله ما دخله من ذلك قلّ ذلك أو كثر»***[1].

٢ ـ وقد خاطب أمير المؤمنين عليه السلام فريقاً من المنحرفين في كلماته القصار قائلاً: ***«بينكم وبين الموعظة حجاب من العزّة»***[2].

عندما يتمحور حبّ الذات في نفس الإنسان، يسعىٰ الإنسان لأنّ يجمع كل شيءٍ في نفسه، وعندما يصل إلىٰ مستوىٰ «العجب» يرىٰ نفسه أعلىٰ وأرفع من أي إنسان آخر، وعندما يصل إلىٰ مستوىٰ «الأنانية» يرىٰ نفسه المقياس الوحيد للقيم والجمال.

وهذه الحالات تجعل ستاراً عجيباً علىٰ عقله تحجب الحقيقة عنه، فيرىٰ جميع القيم

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٨٦ باب وصايا الإمام الباقر عليه السلام، ح ٢٦.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ٢٨٢.

منحسرة في نفسه، وينسىٰ غيره.

ولهذا، فإنّ أول خطوة في مجال تهذيب النفس هو الترفع عن «الكبر والغرور»، ولا يتأهل الإنسان للقرب من الله من دون ذلك.

٣ ـ وقد جاء في كلام لأمير المؤمنين عليه السلام: *«شرّ آفات العقل الكبر»*[١]، كما جاء في كلام آخر له: *«العجب آفة»*[٢].

٤ ـ حجاب الجهل والغفلة

١ ـ ﴿كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِيْنَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. (الروم / ٥٩)

٢ ـ ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَّا أُنْذِرَ آبَاءُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. (يس / ٦ و ٩ و ١٠)

جمع الآيات وتفسيرها

أكدت الآية الأولىٰ علىٰ أنّ الله ضرب للناس في هذا القرآن من كلّ مثل، فتارة بآيات الآفاق والأنفس وتارة بالوعد والوعيد، وتارة بالأمر والنهي، وتارة بالبشرىٰ والانذار، وتارة بالسبل العاطفية والفطرية، وتارة بالاستدلال، ورغم هذا البيان فإنّ فريقاً من الجاهلين والغافلين يجحدون بآيات الله ويقولون: أنتم مبطلون أي علىٰ باطل، ويضيف الله في الآية: هذا كله لأجل أنّ الله طبع علىٰ قلوبهم وذلك بجهلهم.

إنّ الآية ـ في الحقيقة ـ تشير إلىٰ أسوأ أنواع الجهل وهو «الجهل المركب» الجهل الذي

---

١. غرر الحكم.

٢. المصدر السابق.

يحسبه صاحبه علماً، ولا يصغي لمن أراد ايقاظه من غفلة الجهل هذه، ولهذا فإنّ شخصاً كهذا يظلُّ جاهلاً جهلاً مركباً إلىٰ أبد الدهر.

إذاكان الخطاب موجهاً لجاهلٍ «جهلاً بسيطاً» أي لا يعلم ويعلم أنّه لا يعلم، ومستعد في نفس الوقت لقبول نداء الحق والهداية، فإنّ الأمر اتجاهه بسيط، والحجاب المانع يطبع علىٰ القلب عندما يكون الجهل مركباً وممتزجاً بروح العناد وعدم التسليم لنداء الحق.

وقد نقل في بعض التفاسير شعر جميل لشاعر عربي يقول فيه:

قال حمار الحكيم يوماً لو تنصفوني لكنتُ أركب

لأنّني جاهل بسيط وصاحبي جاهل مركب[1]

٨٠٠٣

وتشير الآية الثانية إلىٰ فريق من الغافلين الذين صدر حكم العذاب بحقهم وذلك لجهلهم وعنادهم وأنّهم ليسوا أهلاً للهداية.

ثم صوّر القرآن الحُجُب التي قد تحيط العقل تصويراً عجيباً حيث قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾. (يس / ٨ ـ ٩)

إنّ عبارة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً﴾ إشارة إلىٰ الحجب التي تحول دون رؤية آيات الآفاق والكون.

إنّ الأغلال التي جاءت في الآية قد تكون إشارة إلىٰ الحجب التي تحول دون رؤية آيات الأنفس، والأسوأ من هذا كله هو جعل الغشاوة علىٰ الأبصار بحيث لا إمكان للرؤية، وهي ستار الغفلة والجهل والغرور.

وبديهي أنّ أشخاصاً كهؤلاء مع كل هذه الحجب، سواء أنذرهم الرسول أم لم ينذرهم وسواء سمعوا آيات القرآن من شفاه محمد ﷺ الطاهرة أم لم يسمعوا، فهُم لا يؤمنون ولا

---

١. تفسير روح المعاني، ج ٢١، ص ٥٥ ذيل الآية ٥٩ من سورة الروم.

يهتدون، إنّهم رهائن لا لغلٍ واحدٍ، بل لأغلالٍ عديدة (فالأغلال جاءت بصيغة الجمع لا المفرد)، وقد فسر البعض السد (الذي يجعل امام الشخص) بالحجب التي تحرم الإنسان من الهداية النظرية والاستدلال، والسد (الذي يجعل من الخلف) بالحجب التي تمنع من الهداية الفطرية والرجوع إليها[1].

٭٭٭

حجاب الجهل في الأحاديث الإسلامية:

١ـ قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن الجهل: «***الجاهل ميت بين الأحياء***»[2].

٢ـ كما قال في محل آخر: «***الحمق من ثمار الجهل***»[3].

واضح، كما أنّ الميت فاقد الإدراك والاحساس كذا الجاهل العنود، لا نتوقع منه الفهم الحقيقي للأمور.

٣ـ من خصائص الجاهلين بالجهل المركب أنّهم يعدون العلماء الحقيقيين ضالين، ولهذا جاء في حديث الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام: «***تعجب الجاهل من العاقل أكثر من تعجب العاقل من الجاهل***»[4].

٤ـ تنهي البحث بحديث للإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول فيه: «***إنّ قلوب الجُهّال تستفزها الأطماع وترتهنها المُنىٰ وتستعلقها الخدايع***»[5].

و لا عجب أن تحجب الحقائق عن قلب كهذا.

٭٭٭

١. تفسير الكبير، ج ٢٦، ص ٤٥ ذيل الآيات المذكورة في بحثنا.

٢. غرر الحكم، ص ٩٩.

٣. المصدر السابق، ص ٤١.

٤. سفينة البحار، ج ١، ص ١٩٩.

٥. أصول الكافي، ج ١، ص ٢٣، كتاب العقل والجهل، ح ١٨.

٥ ـ حجاب النفاق

١ ـ ﴿ يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾.

(البقرة / ٩ ـ ١٠)

٢ ـ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾.

(البقرة / ١٧ ـ ١٨)

٣ ـ ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

(الأنفال / ٤٩)

٤ ـ ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً ﴾.

(الأحزاب / ١٢)

جمع الآيات وتفسيرها

المنافقون عمي القلوب:

إنّ في أوائل سورة البقرة ثلاث عشرة آية تحدثت عن النفاق والمنافقين، وقد صورتهما بدقة متناهية وبتعابير وافية، والآية الأُولىٰ هي من ضمن الآيات التي جاءت هناك.

يقول القرآن في هذه الآية: إنّ أحد أخطاء المنافقين أنّهم يخادعون الله وكذا المؤمنين، وفي الحقيقة لا يخادعون إلّا أنفسهم وهم لا يشعرون ولا يعلمون، وذلك لأنّ النفاق قد غطّىٰ قلوبهم بستاره السميك، ثم يضيف القرآن: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً ﴾.

من الواضح، أنّ المراد من المرض في الآية هو «*مرض النفاق*» الذي يتغلب علىٰ قلوبهم، فالإنسان المريض لا يستطيع أن يفكر تفكيراً سليماً (لأنّ العقل السليم في الجسم السليم)، وكذلك حواسه الظاهرية، ولهذا نرىٰ بعض المرضىٰ تبدو ألذ الأغذية عندهم كريهة الطعم، وبعض الأغذية كريهة الطعم لذيذة.

وقد شبهت الآية الثانية المنافقين بالذي ضلَّ متورطاً في ظلمات الليل، ثم استوقد ناراً ليرىٰ مما حوله، فجاء ريح عاصف وأطفأ ما استوقده فبقي في الظلمات تارة أُخرى، فلا يبصر ولا يسمع ولا ينطق شيئاً، ولا طريق له للرجوع.

قد يكون المراد من النور الذي جاء في الآية هو نور الإيمان الظاهري الذي يراه المنافق ويستضيء به ما حوله ويحفظ نفسه وماله تحت ضيائه.

أو أنّ المراد منه هو نور الفطرة الذي جُبل عليه الإنسان، والمنافقون يستثمرون هذا النور في البداية، ولا يمضي زمن طويل حتىٰ تأتي زوبعة النفاق فتطفئه.

✻✻✻

و تحدثت الآية الثالثة والرابعة عن المنافقين مرضىٰ القلوب، وبقرينة الآيات السابقة ندرك أنّ المراد من «*الذين في قلوبهم مرض*» هو نفس المنافقين وأنّ العطف عطف تفسيري[1]، إلّا أنّ الآية الثالثة تحدثت عن موقفهم في معركة بدر، والرابعة عن موقفهم في معركة الأحزاب، والفرق هو أنّهم كانوا في «بدر» في صفوف المشركين لأنّ المشركين يوم ذاك كانوا القوة الراجحة، وفي معركة الأحزاب كانوا مع المسلمين.

كانوا يقولون: «اغترَّ هؤلاء المسلمون بدينهم، وقد خطوا هذه الخطوة الخطيرة (الجهاد) رغم قلة العدّة والعدد ظناً منهم بالنصر، أو بالشهادة التي مصيرها الموت»!

بالطبع، إنّهم غير قادرين ـ بسبب المرض الذي في قلوبهم ـ علىٰ الإدراك الصحيح لعوامل النصر الحقيقية أي الإيمان والثبات والفتوة التي هي وليدة الإيمان فما كانوا يدركون أن من يتوكّل علىٰ الله القادر فهو حسبه وهو ناصره، والشاهد علىٰ هذا الحديث هو ما حصل

١. لقد جاء في تفسير الميزان، ص ١٦٤ و ٣٠٢؛ وكذلك تفسير الكبير، ج ١٥، ص ١٧٦، أنّ المراد من الذين في قلوبهم مرض هم ضعيفو الإيمان وهم غير المنافقين. لكن لا يتناسب ضعف الإيمان مع المرض في القلب، إضافة إلىٰ أن الآيات الثلاثة عشرة التي جاءت في أوائل سورة البقرة استعملت هذا التعبير في حقهم. كما يبدو بُعد الرأي الذي يفسر المرض بالترديد والشك، لأنّ المرض نوع من الانحراف، بينما الشك نوع من الفقدان.

في صدر الإسلام، حيث إنّ بعض المسلمين رفض الهجرة إلىٰ المدينة، والعجيب في الأمر أنّ قريشاً عندما تحركوا نحو بدر لقتال المسلمين، اصطف هؤلاء المسلمون (المنافقون) في صفوفهم، وكانوا يحدثون أنفسهم أنّهم سيلتحقون بجيش محمد إذا كان جيشه ذا عدد كبير، وسيبقون مع جيش قريش إذا ما كان عدد المسلمين قليلاً[١].

وهل للنفاق مفهوم غير هذا الذي تجسد في هذه المجموعة؟ وإذا لم يكونوا منافقين، فمن هم المنافقون؟

وقد حصل هذا الأمر بالذات في معركة الأحزاب فإنّ شخصيات كثيرة من المنافقين كانت قد حشرت نفسها مع المسلمين، وعندما شاهدوا كثرة الأحزاب قالوا بصراحة: ما وعدنا الرسول إلّا كذباً وباطلاً.

وهذا هو حجاب النفاق الذي لا يسمح لهم من إدراك الحقائق، رغم أنهم شاهدوا بأم أعينهم أن النصر ليس بكثرة العدد، بل بالإيمان والثبات الناشيء عنه.

سؤال:

يطرح سؤال هنا وهو: كيف يكون النفاق حجاباً يحجب عن الحقائق؟

80C3

الجواب:

يمكننا الإجابة عن هذا السؤال بالالتفات إلىٰ ملاحظة في هذا المجال وهي: إنّ روح النفاق تستلزم أن يتحرك الإنسان مع كل التيارات وأن يكون مع جميع الفرق، وأن يتخذ صبغة المحيط الذي يعيش فيه، فيفقد في النهاية أصالته واستقلاله الفكري، إنّ طريقة تفكير إنسان كهذا تكون متطابقة دائماً مع طريقة تفكير الفريق الذي يكون معهم، فلا عجب أن يكون حكمه غير صحيح.

---

١. تفسير الكبير، ج ١٥، ص ١٧٦ ذيل الآية ٤٩ من سورة الأنفال.

وقد جاء في بعض التفاسير: إنّ التعبير بـ«في قلوبهم مرض» يصدق في موارد كهذه الموارد، من حيث إنّ غاية القلب (العقل) الخالص هو معرفة الله وعبوديته، وكل صفة منعت وحجبت عن غاية القلب هذه، قيل لها مرض (لأنّها تحجب الهدف وتمنعه من الظهور)[1].

ولهذا جاء في الآية ٧ سورة المنافقين: ﴿وَلٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

كما قد جاء في حديث الإمام الباقر عليه السلام: *«إنّ القلوب أربعة: قلب فيه نفاق وإيمان وقلب منكوس وقلب مطبوع وقلب أزهر أجرد» فقلت ما الأزهر؟ قال: «فيه كهيئة السراج، فأمّا المطبوع فقلب المنافق، وأمّا الأزهر فقلب المؤمن إن أعطاه شكر وإن ابتلاه صبر، وأمّا المنكوس فقلب المشرك»*[2].

وننهي حديثنا هذا بكلام للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: *«النفاق على أربع دعائم على الهوى والهوينا والحفيظة والطمع»*[3].

ونعلم أنّ كلاً من هذه الأمور الأربعة تشكل حجاباً سميكاً أمام نظر العقل.

٦ ـ حجاب التعصب والعناد

١ ـ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. (الأنعام / ٢٥)

٢ ـ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾. (الاسراء / ٤٥ـ ٤٦)

٣ ـ ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا

---

١. تفسير الكبير، ج ٢، ص ٦٤ ذيل الآية ١٠ من سورة البقرة.

٢. اصول الكافي، ج ٢، ص ٤٤٢ باب في ظلمة قلب المنافق، ح ١.

٣. اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٩٣ باب صفة المنافق والنفاق، .

أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

(الروم / ٥٢ ـ ٥٣)

٤ ـ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

(الروم / ٥٨ ـ ٥٩)

٥ ـ ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾. (فصلت / ٥)

جمع الآيات وتفسيرها

الموتىٰ المتحركون:

حضر عند رسول الله ﷺ ابو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وأبو جهل وأفراد آخرون واستمعوا إلىٰ حديث الرسول الأكرم ﷺ فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟ (وكان النضر تاجراً يسافر إلىٰ ايران وله اطلاع واسع بالأساطير والقصص التاريخية الايرانية) فقال: لا أدري ما يقول لكنّي أراه يحرك شفتيه ويتكلّم بأساطير الأولين كالذي كنت أُحدثكم به عن أخبار القرون الأولىٰ وقال أبوسفيان: إنّي لا ارىٰ بعض ما يقول حقاً.

فقال أبوجهل: كلا. فانزل الله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[1].

وقال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية أنّهم لما أصروا علىٰ الكفر وعاندوا وصمموا عليه فصار عدو لهم عن الايمان والحالة هذه كالكنان المانع عن الايمان[2].

ولهذا نزلت هذه الآية وقالت بصراحة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ...﴾.

١. تفسير الكبير، ج ١٢، ص ١٨٦.

٢. المصدر السابق، ص ١٨٧.

وقد قال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية:

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: إنّ عناد هؤلاء الكفرة واصرارهم في معاداة الحق، يجعل ستاراً علىٰ قلوبهم يحول دون إيمانها[1].

❋❋❋

وقد تحدثت الآية الثانية عن الحجاب الذي كان يُجعل بين الرسول ﷺ وبين فريق من المنافقين عندما كان يتلو القرآن الكريم.

وقد فسر البعض هذا الحجاب بستار حقيقي كان يجعله الله بين الرسول الأكرم ﷺ وبينهم بحيث لا يرونه، إلّا أنّه مع الالتفات إلىٰ الآيات التي لحقت هذه الآية من نفس السورة، يتضح لنا أنّ الحجاب لم يكن سوىٰ «حجاب التعصب والعناد والغرور والجهل» الذي كتم حقائق القرآن عن عقولهم وإدراكهم.

والشاهد علىٰ ذلك هو قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ فالمستفاد من هذا التعبير هو أنّهم كانوا يصغون في البداية إلىٰ حديث الرسول ﷺ ثم يولون مدبرين لعدم سماح العناد لهم لإدراك القرآن، وإدراك حديث التوحيد.

ونشاهد في نفس السورة تعابير اُخرى تحكي روح العناد المتجسمة فيهم، ومع هذا، فهل يمكنهم إدراك حقيقة ما؟

❋❋❋

وخاطبت الآية الثالثة الرسول الأعظم ﷺ قائلة له: إنّك لا تُسمع الموتىٰ ولا الصم عندما يولون مدبرين، كما أنّك لا تستطيع هداية العمى وانقاذهم من الهلاك، فما يسمع كلامك إلّا الذين آمنوا بآيات الله وسلموا للحق (أي الذين تتلهف قلوبهم للحق، فإنّ قلوباً

---

١. تفسير الكبير، ج ١٢، ص ١٨٧.

كهذه كالأرض المعدّة للزرع، تسطع عليها الشمس، وتقطر السماء عليها قطرات الحياة، فتنمو فيها البذور بسرعة، وأمّا القلوب التي عطّلتها حُجب التعصب والجهل فانّها محرومة من هذه الحقائق)[١].

***

والآية الرابعة تحدثت عن أولئك الكفار الذين وقفوا أمام الرسول الأكرم ﷺ عناداً، وخالفوا كل ما جاء به، فكانوا يرمون الرسول والقرآن بالباطل تارة، وتارة أُخرى يقولون: إنّ ما جاء به الرسول سحر وأساطير الأولين ولا مجال للحق فيه: فتحدث في هذه عن هؤلاء وقال: ﴿كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلىٰ قُلُوبِ الَّذِيْنَ لا يَعْلَمُونَ﴾. لأنّهم لا يعلمون شيئاً عن هذا الكتاب السماوي الذي هو مصدر للحقائق.

كما أنّ الآية توضح العلاقة بين «الجهل» و«العناد».

***

وعكست الآية الخامسة النموذج الكامل من العناد، فما قيل إلىٰ الآن كان خطاباً بين الله ورسوله، أمّا هنا فهم يعترفون بأنفسهم بأنّ علىٰ قلوبهم أكنة، وفي آذانهم وقراً، وبينهم وبين رسول الله ﷺ حجاب لا يسمح لهم إدراك ما يقول والتسليم له، فاعمل علىٰ شاكلتك ونحن عاملون علىٰ شاكلتنا.

إنّ هذه التعابير تبين بوضوح ما هو العامل الأساسي لهذه الحجب وما هو السبب الرئيسي للوقر الذي يجعل في الاذن؟ إنّها عبارات يقطر منها التعصب والعناد وتبين سبب شقائهم وتعاستهم.

كما أنّ *«التعصب»* مشتق من مادة *«عصب»* وهو في البدن خلايا تسبب اتصال العضلات إحداها بالأُخرىٰ أو بالعظام، والعصب بمثابة الوسيلة لنقل الايعاز إلىٰ المخ، وبما

---

١. وقد جاء في سورة النمل الآية ١١ مضمون يشبه مضمون هذه الآية.

أنّ له بنياناً قوياً ومحكماً استعملت هذه المفردة بمعنىٰ الشدة والاستحكام، ويوم عصيب يعني يوم شديد وصعب، ولهذا يطلق «التعصب» علىٰ حالة الإرتباط الشديد بشيء، كما أن «العُصْبة» على وزن أُسوة تعني جماعة من الرجال (المقتدرين) الذين لا يقلون عن عشرة، وأمّا «عَصَبة» فتعني أقارب الرجل من جهة الأب[١].

إنّ *«اللجاجة»* وهي من مادة «لجّ» هي التمادي في العناد، وملازمة أمر ما وعدم الانصراف عنه، و«اللجّة» تعني حركة أمواج البحر، أو التباس ظلمات الليل، و«البحر اللّجي» هو البحر الواسع والمتلاطم، والتلجلج في الكلام هو التردد فيه، أو اختلاط الأصوات[٢].

٭٭٭

النتيجة:

إنّ التعصب واللجاجة والعناد يتلازم أحدها الآخر، لأنّ الارتباط الشديد بشيء يدعو الإنسان إلىٰ الالحاح والعناد والدفاع عنه بدون قيد أو شرط.

بالطبع قد يستعمل التعصب بمعنىٰ الانحياز والإرتباط بالحق، إلّا أنّ الاستعمال الغالب له هو الإرتباط بالباطل.

إنّ منشأ التعصب واللجاجة والعناد ـ بجميع أشكالها ـ هو الجهل والقصور الفكري، لأنّ صاحب التعصب واللجاجة يظن أنّه إذا تخلىٰ عن عقيدته ورأيه فهذا يعني تخليه عن كلّ شيء، أو أنّ هذا إهانة لشخصيته.

وقد يكون منشأه هو التكبر والغرور اللذين يمنعانه من الخضوع أمام الحق والتسليم له، وقد يكون منشأه عوامل أخرىٰ.

إنّ التعصب واللجاجة يجعلان ستاراً قاتماً علىٰ العقل لا يسمح للإنسان أن يرىٰ

١. كتاب العين، والمفردات، ومجمع البيان، ولسان العرب.

٢. المصدر السابق.

الحقائق، حيث نرىٰ البعض غير مستعدين للتخلي عن عقائدهم بأي شكل كان رغم وجود الأدلة القطعية علىٰ بطلانها، وإنّ أشخاصاً كهؤلاء لو أقمنا لهم ألف دليل ودليل علىٰ أنّ للدجاج رجلين، قالوا: كلا، بل رجل واحدة! ولو أخذناهم بأيدينا تحت نور الشمس الساطعة وقلنا لهم: إنّه نهار، قالوا: لا بل ليل!

لقد عكست الآيات التي ذكرناها في بداية البحث هذه الحقيقة بوضوح، واعتبرت هؤلاء صُمّاً وعمياً وأمواتاً، وطبع علىٰ قلوبهم، أو أنّ قلوبهم مغلقة فلا يفقهون شيئاً.

وقد جاء في الروايات الإسلامية مضامين تستند إلىٰ نفس المضمون الذي جاء في الآيات المذكورة، وفيها توبيخ لأهل اللجاجة والعناد.

منها قول أمير المؤمنين عليه السلام: «*اللجوج لا رأيَ له*»[١].

ومنها قوله عليه السلام كذلك: «*اللّجاجُ يُفسد الرأي*»[٢].

وكذا قوله عليه السلام: «*ليس للجوج تدبير*»[٣].

وقال الإمام عليه السلام نفسه في الخطبة القاصعة: «***فالله الله في كِبر الحمية وفخر الجاهلية فإنّه ملاقح الشنآن، ومنافخ الشيطان، التي خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية حتى أعنقوا في حنادس جهالته ومهاوي ضلالته***»[٤].

ننهي حديثنا بكلام آخر لنفس الإمام العظيم، في جواب له علىٰ رسائل أهالي مدن مختلفة حول حوادث صغيرة: «***مَنْ لَجّ وتمادىٰ فهو الراكس الذي رانَ الله علىٰ قلبه وصارت دائرة السوء علىٰ رأسه***»[٥].

بالطبع ـ وكما قلنا سابقاً ـ إنّ الاصرار والالحاح في الحق ليس تعصباً، وإذا أطلقنا عليه تعصباً فهو «تعصب ممدوح»، ولهذا جاء في حديث للإمام علي بن الحسين عليه السلام عندما سُئِل

---

١. غرر الحكم.

٢. المصدر السابق.

٣. المصدر السابق.

٤. نهج البلاغة الخطبة ١٩٢.

٥. المصدر السابق الرسالة ٨٥.

عن مفهوم التعصب: *«العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجلُ شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يُحب الرجلُ قومه ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم»*[1].

ﮪﮫ

٧ ـ حجاب التقليد الأعمىٰ

نُمعن خاشعين أولاً في الآيات التالية:

١ ـ ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾. (الشعراء / ١٣٦ ـ ١٣٨)

٢ ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾.

(المائدة / ١٠٤)

٣ ـ ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾. (الأعراف / ٢٨)

٤ ـ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾. (لقمان / ٢١)

٥ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾. (الزخرف / ٢٣)

ﮪﮫ

شرح المفردات:

رغم أنّه لم ترد مفردة «التقليد» عيناً في الآيات السابقة بل جاءت مفردة الاقتداء أو

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٨٨.

الاهتداء أو اتباع ما كان عليه الآباء والاسلاف وامثال هذه المفردات، إلّا أنّه من المستحسن ايضاح مفهوم هذه المفردة جيداً.

إنّ هذه المفردة مشتقة من مادة «قَلْد»، وتعني في الأصل ـ كما ورد عن الراغب في المفردات ـ فتل الحبل، وقيل للقلادة «قلادة» من حيث إنّ حبالاً كانت تُفتل وتعلق في العنق، «والقلائد» جمع قلادة، استعملها القرآن وأراد بها الأنعام التي تُعدّ للأضحية في مناسك الحج، فانّها تُقلَّد لتتميز عن غيرها من الأنعام (الآية الثانية من سورة المائدة)، كما أنّ اطلاق التقليد علىٰ اتباع الآخرين، من حيث إنّ المقلِّد يجعل كلام المقلَّد كالقلادة في عنقه، أو من حيث إنّه يلقي المسؤولية علىٰ عاتق المقلَّد.

أمّا «مقاليد» ـ وكما يقول كثير من اللغويين ـ فجمع «مقليد» أو «مِقْلد»، إلّا أنّ الزمخشري ادّعىٰ في كشافه: عدم وجود مفرد لهذه الكلمة.

وأمّا «مقليد» و «اقليد»، فبمعنىٰ المفتاح، وقد نقل ابن منظور في لسان العرب: إنّ أصل هذه المفردة هو كلمة «كليد» الفارسية والتي تعني مفتاح كذلك، واستعملت في العربية بنفس المعنىٰ، وتستعمل «مقاليد» بمعنىٰ الخزائن أيضاً، وذلك من حيث إنّها تقفل ولا طريق لها إلّا بالمفتاح.

إذن، لا علاقة بين مفردة «مقاليد» مع مادة «التقليد» و«القلادة»[1].

إلّا أنّه يحتمل رجوع كلا المفردتين إلىٰ مادة واحدة من حيث إنّ كثيراً من الناس يجعلون المفاتيح في فتائل ويقلدون بها أعناقهم[2].

ꕥ

جمع الآيات وتفسيرها

قومٌ أهلكهم تقليدهم:

إنّ الآية الأُولىٰ أشارت إلىٰ حديث قوم « عاد » مع رسولهم ذي القلب العطوف

---

١. مفردات الراغب؛ مجمع البحرين؛ لسان العرب؛ البرهان القاطع وكتب أُخرى.

٢. وقد اعتبر البعض «اقليد» مفردة يمنية أو رومية (مجمع البحرين ولسان العرب ـ مادة قلد ـ).

الرحوم «هود»، فعندما دعاهم إلىٰ التوحيد وترك الظلم والاجحاف والترف أجابوه: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ وبهـذا كشفـوا عن تحجـرهم وصلابتهم تـجاه كـلام النبي المنطقـي، وذلك لعدم سماح حجـاب التقـليد لهم بقبول الحقيقة.

ꕥ

وقد كشفت الآية الثانية عن مواقف مشركي العرب عندما كانوا يُـدعون إلىٰ ما أنزل الله، وإلىٰ ترك عبادة الأصنام، وترك البِدَع في تحريم كثير من الأُمور الحلال، وكان جـوابـهم آنذاك: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فيظنون أنّ هذا يغنيهم عن القرآن هادياً!!

إلّا أنّ القرآن أراد ايقاظهم من غفلتهم هذه وأراد تمزيق حجاب التقليد عندهم فأجابهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وهل يجوز تقليد الجاهل الضالّ: ؟!

ꕥ

والآية الثالثة أشارت إلىٰ مشركي العرب أيضاً (أو فريق من ذوي الصفات الشيطانية) فانـهم إذا ما سُئِلوا عن سبب إتيـانهم الفاحشة والعمـل القبيـح؟ أجابـوا: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ ولا يكتفـون بهـذا بـل قد يضيفـون: ﴿وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

فينفي القرآن هذه التهمة الكبيرة ويقول: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

يعتقد كثير من المفسرين أنّ المراد مـن «الفحشاء» في الآية الكريمة هـو طوافهم رجالاً ونساءً عراة في عصر الجاهلية، حـيث كانوا يعتقدون: أنّ الملابس التـي ارتكب بـها ذنب ليست أهلاً لأنّ يُطاف بها حول بيت الله الحرام.

وعلىٰ هذا المنوال، كان ينتقل عملهم القبيح هذا من نسل إلىٰ نسل بالتقليد الأعمىٰ، وما كان التقليد يسمح لهم لأنّ يدركوا قبح هذا الفعل.

ꕥ

إنّ رابع وخامس آية أشارتا إلىٰ موقف وكلام فريق من المشركين في عهد الرسول ﷺ أو العهود التي سبقت عهده تجاه دعوة النبي الأكرم ﷺ أو الأنبياء السالفين، حيث كانوا يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

وهكذا توارثت الأجيال بعد الأجيال الكفر وعبادة الأصنام والآثام والعادات والسنن القبيحة، وقد نسجت روح التقليد حجاباً سميكاً علىٰ عقولهم لا يسمح لهم لقبول أي حقيقة، فيقول القرآن عن هؤلاء تارة: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾. (المائدة / ١٠٤)

ويقول تارة أخرى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾. (لقمان / ٢١)

وأخرى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾. (الزخرف / ٢٤).



توضيحات

١ ـ أنواع التقليد المختلفة

إنّ تقليد الآخرين، سواء كان تقليداً لحيٍ أو ميت، أو تقليداً لشخص أو فريق لا يخرج عن صورٍ أربع:

١ ـ *تقليد الجاهل للعالم:* أي تقليد الجاهل بشيء لمن له تخصص أو خبرة بفنٍ أو علم، مثل مراجعة المريض للطبيب الخبير بعلم الطب.

٢ ـ *تقليد العالم للعالم:* أي مراجعة أهل العلم أحدهم للآخر واتباع كلٌ منهم للآخر.

٣ ـ *تقليد العالم للجاهل:* أي يترك الإنسان علمه وخبرته، ويتبع الجاهل ويقلده عشوائياً.

٤ ـ *تقليد الجاهل للجاهل:* بأن يتخذ قوم جهّال عادات وتقاليد ومعتقدات ليست

قائمة على دليل أو مستندة إلىٰ شيء، ويقوم قوم آخرون باتباع أولئك القوم وتقليدهم فيها، وهذا هو أكبر عامل لانتقال المعتقدات الفاسدة والتقاليد الخاطئة من قوم إلىٰ آخر، وهذا النوع من التقليد استهدفته أكثر الآيات التي ذمّت التقليد.

واضح أن القسم الأول من التقليد هو القسم المنطقي الوحيد، وقد اعتمدت حياة الناس علىٰ ذوي الاختصاصات وعلىٰ هذا النوع من التقليد المنطقي، لأنّ الإنسان حتىٰ لو كان نابغة زمانه لا يمكنه التخصص في جميع الاختصاصات والفروع العلمية، خصوصاً، وأنّ العلم ـ في هذا العصر ـ أصبحت له فروع وتشعبات لا تُعد ولا تُحصى، ومن المحال أن يتخصص إنسان في فروع علمٍ أو فنٍ واحدٍ، فضلاً عن جميع العلوم والفنون.

وعلى هذا، فكل إنسان يمكنه أن يكون مجتهداً في فرع من فروع العلوم، أمّا في الفروع الأُخرى التي لم يجتهد فيها، فلا طريق له إلّا الرجوع إلىٰ المتخصصين فيها.

إنّ المعمار يراجع الطبيب إذا مرض، والطبيب يراجع المعمار إذا أراد بناء عمارة، أي أنّ كلاً منهما «مجتهد» في تخصصه و«مقلِّد» في التخصص الآخر، وهذا (رجوع الجاهل إلىٰ العالم وغير المجتهد إلىٰ المجتهد وغير المتخصص إلىٰ المتخصص) أصل عقلاني كان ولا يزال متعارفاً ودارجاً بين الناس، بل إنّ عجلة الحياة تسير علىٰ هذا النوع من التقليد، بالطبع أنّ هناك شروطاً ينبغي توفرها في المجتهد الذي يُرجع إليه، سنتعرض لها بعد ذلك.

وهذا التقليد هو الذي أشار إليه البارى تعالى في القرآن الكريم وعنونه بـ ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. (الأحزاب / ٢١)

كما جاء في الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾. (الانعام / ٩٠)

ورغم أنّ الخطاب موجه للرسول الأعظم ﷺ، لكن لا يبعد أن يكون المخاطب به الأُمة بأجمعها.

أمّا الأقسام الثلاثة الباقية من التقليد فكلّها باطلة ولا أساس منطقي لها، فتقليد (العالم للجاهل) و(الجاهل للجاهل) حالهما واضح، وأمّا تقليد (العالم للعالم) فان كان من باب مراجعة أحدهما الآخر للتشاور وتكميل المعلومات، فلا يُعدُّ هذا تقليداً بل هو نوع من «التحقيق».

إنّ التقليد هو غض الطرف عن التخصص الذي يمتلكه الإنسان واتباع شخص آخر اتباعاً بدون قيد أو شرط. فالمسلّم أنّ التقليد من قبل شخصٍ قادرٍ علىٰ التحقيق والاجتهاد أمر مذموم وغير صحيح، ولهذا لم يُجِزْ الفقه الإسلامي للمجتهدأن يكون مُقلِّداً.

ويتضح مما قلنا فلسفة تقليد المجتهدين في المسائل الفقهية من قبل غير المجتهدين، ومثل هذا دارج في جميع الفروع العلمية. وبما أنّ الفقه الإسلامي واسع إلىٰ درجة حيث لا يمكن للناس جميعاً أن يجتهدوا، فجميع أبوابه والتحقيق فيها تعيّن علىٰ فريق منهم الاجتهاد بالفقه، وعلىٰ الناس اتباعهم، إلّا أنّ الأمر يختلف عنه في اصول الدين، فيتعين التحقيق والاجتهاد فيها علىٰ كل مسلم، وذلك لإمكانية ذلك، فلا يجوز التقليد فيها.

٢ ـ شروط التقليد الممدوح

عادة ما يقال في تعريف «التقليد» أنّه عبارة عن قبول كلام الآخرين بلا دليل، وتارة يوسعون المفهوم ويعتبرون الاتباع العملي تقليداً من دون الالتزام بحديث أو كلام للآخرين، وتارة يعدون التأثيرات اللا إرادية (التي تتركها أعمال وسلوك وصفات الآخرين عند الإنسان) قسماً من التقليد.

بالطبع أنّ القسم الأخير من التقليد (الذي يتحقق بشكل غير ارادي) خارج عن موضع بحثنا. أمّا القسم الثاني والثالث، فيمكن أن يكونا ممدوحين إذا ما توفر شرطان في «المقلَّد» ـ أو مرجع التقليد ـ وهما: الخبرة والصدق، أي كونه من أهل العلم أولاً، وينقل ما يوحي إليه علمه بصدقٍ ثانياً. وإذا ما انتفىٰ هذان الشرطان دخل التقليد القسم المذموم.

ومن جهة أُخرى، ينبغي أن يكون موضوع التقليد من مواضيع الاختصاصات كي يباح التقليد فيه. أمّا إذا كان من المسائل العامة التي يمكن للناس كافة الخوض والتحقيق فيها (مثل اصول الاعتقادات وبعض المسائل الأخلاقية والاجتماعية غير ذات الجانب

الاختصاصي) فانه يتعين علىٰ كل إنسان التحقيق فيها والوصول إليها بنفسه.

ومن جهة ثالثة، فإنّ المقلِّد ينبغي أن لا يكون قادراً علىٰ الاستنباط، فإذا ما قدر علىٰ ذلك في مسألةٍ ما، مُنع من التقليد فيها.

ومن هنا تتّضح حدود التقليد الممدوح والتقليد المذموم من الجهات الثلاث (أي شروط المرجع وشروط المقلِّد) وشروط الموضوع المقلَّد فيه).

ننهي كلامنا هذا بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

قال رجل للصادق عليه السلام: إذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب إلّا بما يسمعونه من علمائهم فكيف ذمّهم بتقليدهم والقبول من علمائهم؟ وهل عوام اليهود إلّا كعوامنا يقلّدون علماءهم، فقال عليه السلام: ***«بين عوامنا وعوام اليهود فرق من جهة وتسوية من جهة أمّا من حيث الاستواء فإنّ الله ذم عوامنا بتقليدهم علماءهم كما ذمّ عوامهم، وأمّا من حيث افترقوا فإنّ عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح وأكل الحرام والرشا وتغيير الأحكام واضطرّوا بقلوبهم إلىٰ أن من فعل ذلك فهو فاسق لا يجوز أن يصدّق علىٰ الله ولا علىٰ الوسائط بين الخلق وبين الله فلذلك ذمهم، وكذلك عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر والعصبية الشديدة والتكالب علىٰ الدنيا وحرامها فمن قلّد مثل هؤلاء فهو مثل اليهود الذي ذمّهم الله بالتقليد لفسقة علمائهم فأمّا من كان من الفقهاء صائنا لنفسه حافظا لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلّدوه»***[1].

٨٠٠٣

٣ ـ عوامل التقليد الأعمىٰ

التقليد الأعمىٰ أو بتعبير آخر: (تقليد الجاهل للجاهل) والأسوء منه (تقليد العالم للجاهل)، دليل علىٰ الإرتباط الفكري، وله عوامل عديدة، نتعرض لبعضها بالإجمال هنا:

---

١. الوسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٩٤.

١ ـ *عدم النضج الفكري*: إنّ أشخاصاً قد ينضجون ويبلغون جسمياً، إلّا أنّ فكرهم لا يستقل ولا يبلغ إلىٰ آخر العمر، ولهذا يظلون من أتباع هذا وذاك، ولا يفكرون يوماً في مسألة ما ولا يحللونها باستقلال.

إنّ أنظار هؤلاء تترصد الآخرين دائماً، فيرددون ما يتفوه به الآخرون، وكأنهم خُلِقوا بلا إرادة، ولهذا قد يغيرون اتّجاههم بالكامل إذا ما تغيرت بيئتهم أو تغير محيطهم.

إنّ طريق مكافحة هذا النوع من التقليد الأعمىٰ هو رفع المستوىٰ الثقافي للمجتمع والسعي لازدهار الأفكار والقابليات.

٢ ـ *التأثر بشخصية*: وهي أنْ يتأثّر الإنسان بشخصية ما ويجعلها أسوة له بحيث لا يرىٰ نفسه أهلاً لإبداء الرأي أمام صاحبها، فيتبعه بكل معنىٰ الكلمة ويسير خلفه وإن لم تكن تلك الشخصية أهلاً للاتباع والتقليد.

٣ ـ *التعلق الشديد بالأسلاف*: والتعلق هذا قد يصنع منهم أناساً مقدسين وإن لم يكونوا أهلاً لذلك، فتتبعهم الأجيال اللاحقة عشوائياً، ومع أنّ الأجيال اللاحقة التي ترث علوم السالفين وتضيف اليها علوماً أُخرى تكون أكثر وعياً بطبيعة الحال، لكنها مع ذلك تبتلىٰ بالتقليد العشوائي.

٤ ـ *التحزب أو التعصب الطائفي*: إنّ تعصباً كهذا يدفع بفريق من الناس لاتباع حزب أو طائفة والسير خلفهما والتمسّك بترديد ما يتبناه ذلك الحزب أو تلك الطائفة، بحيث لا يسمح الإنسان لنفسه بالتفكير باستقلال والعمل خارج اطار الحزب أو الطائفة.

إنّ هذه العوامل الأربعة وعوامل أُخرى سببٌ لانتقال كثير من الخرافات والأوهام والعقائد الباطلة والتقليد والعادات الخاطئة والسنن الجاهلية والأعمال القبيحة من قوم إلىٰ قوم آخرين ومن نسل إلىٰ نسل آخر.

وبتعبير آخر، فإنّ الميول الخاطئة تجعل حجاباً علىٰ فكر الإنسان تحول دون معرفته للحق.

❊❊❊

٨ ـ حجاب حب الرفاه

في البدء نتأمل خاشعين في الآيات التالية:

١ ـ ﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ القَاعِدِينَ * رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾. (التوبة/٨٦ ـ ٨٧)

٢ ـ ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. (التوبة / ٩٣)

༺༻

جمع الآيات وتفسيرها

لعفنا من الجهاد:

أشارت الآية الأُولىٰ إلىٰ أولئك الذين لم يستعدوا لتنفيذ الأوامر الإلهيّة في مجال الجهاد، فبالرغم من اقتدارهم الجسمي والمالي للحضور في سوح القتال لكنهم انضموا إلىٰ صفوف القاعدين وغير القادرين علىٰ الجهاد، وقد ألحوا علىٰ الرسول ﷺ بأن يذرهم ويجعلهم مع القاعدين والخوالف.

و«القاعدين» جمع «قاعد» وهم المعذورون عن الجهاد.

و«*الخوالف*» جمع «*خالفة*» ومن مادة (خَلْف) ومعناها يقابل الأمام، ولهذا يقال «خالفة» للنساء اللاتي يبقين ماكثاتٍ في بيوتهنّ عند خروج رجالهن، ولا يبعد أن يكون مفهوم هذه المفردة أعم من النساء، بحيث يشمل جميع العاجزين عن الجهاد والمعذورين عن الالتحاق بساحات القتال من النساء والأطفال والشيوخ والمرضىٰ.

يقول الراغب في مفرداته: إنّ «خالفة» عمود يجعل في نهاية الخيمة وتطلق ـ كناية ـ علىٰ النساء الماكثات في البيوت، ويقول البعض: إنّ «خالف» من تخلّف كثيراً[1].

---

١. تفسير المنار، ج ١٠، ص ٥٧٢.

وتستعمل هذه المفردة ـ أحياناً ـ بمعنىٰ «كريه الرائحة» من باب أنّ الرائحة الكريهة تستخلف الرائحة الجيدة إذا ما ذهبت.

وقال البعض: إنّها بمعنىٰ الانحطاط والميل إلىٰ الأُمور الدنيئة لانّ هذا الميّل يدلّ علىٰ التخلف[1]. إلّا أنّ المعنىٰ الأول أنسب من بقيّة المعاني.

وعلىٰ أيّة حال، فإنّ محبي الرفاه وطلاب العافية غير مستعدين للايثار والتضحية عند الأزمات والكوارث الاجتماعية، وهم مستعدون لأنّ يُجعلوا في صفوف الأطفال والمرضىٰ دون أن يلتحقوا بصفوف المجاهدين، ويقول القرآن فيهم، في نهاية الآية نفسها: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾.

نعم، إنّ حبّ الراحة والرفاه كالحجاب الذي يمنع من الرؤية الفكرية الصحيحة، فهؤلاء لا يدركون أنّ السعادة ليست بالأكل والشرب، بل قد تكون في الحضور في ميادين الجهاد، وفي التخضب بالدماء، وبلقاء الله، إلّا أنّ الذي لا يفهم هذه الأُمور يستهزئ بها.

ꕥ

وتشير الآية الثانية إلىٰ المعذورين عن الجهاد مثل الضعفاء والمرضىٰ والذين لا يملكون الوسيلة للقيام بهذا الأمر، بينما تشتاق إليه قلوبهم، وتصب دموعهم لعدم اقتدارهم علىٰ الانفاق، يقول الله فيهم: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾.

ثم يضيف: ﴿وَطَبَعَ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وذلك لأنّ الميل إلىٰ الراحة جَعَلَ حجاباً سميكاً علىٰ قلوبهم فلا يكادون يفقهون شيئاً. إنّ كلتا الآيتين توضح حقيقة واحدة وهي العلاقة بين «التخلف عن الجهاد لأجل الراحة والصحة» و«عدم إدراك الحقائق».

ꕥ

---

١. تفسير الكبير، ج ١٦، ص ١٦٣.

٩ ـ حجاب الأمانيّ

١ ـ ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

(الحديد / ١٤)

ﻉﻉ

جمع الآيات وتفسيرها

الآمال البعيدة:

إنّ « الأماني » جمع « أمنية » وتطلق علىٰ الحالة النفسية التي تعرض للإنسان من جراء تمنيه لشيءٍ ما[١]. والجدير بالذكر أنّ الأماني المعقولة والمنطقية ليست نقصاً، بل هي عامل لتقدم البشر وبناء مستقبل أفضل لهُ من الحاضر، إنّما النقص في الآمال البعيدة وغير المنطقية، ولهذا يفسرون الأماني في موارد كهذه بالمعنىٰ الثاني، حيث تجعلُ الإنسان في غفلة وتسدل حجاباً من الظلمة علىٰ قلبه.

ويقول ابن الأثير: إنّ التمني يعني تشهّي حصول الأمر وكذلك يطلق علىٰ ما يخطر علىٰ النفس بالنسبة للمستقبل، كما أنّ «مُنية» و«الأُمنيّة» وردتا بمعنىٰ واحد[٢]. إلّا أنّ بعضاً فسّر «الأمنية» بالكذب، ذلك لأنّ الكاذب يُقدّر أمراً في قلبه ثم يحدّث به[٣].

يقول الراغب: لما كان الكذب تصوّر ما لا حقيقة له صار التمني كالمبدأ للكذب فصحّ أن يُعبّر عن الكذب بالتمنّي.

وادّعىٰ البعض: أنّ معنىٰ هذه المفردة في الأصل هو التقدير والفرض والتصوير[٤]،

---

١. مفردات الراغب، وينبغي الالتفات إلىٰ أن الأماني جمع أمنية، أمّا مُنىٰ فجمع منية.

٢. لسان العرب.

٣. المنجد مادة (مني).

٤. مجمع البحرين للطريحي.

وقد قيل للأماني أماني لأنّ الإنسان يقدرها ويصورها في ذهنه.

وعلىٰ أيّة حال، فإنّ المؤمنين عندما يجتازون المحشر نحو الجنّة بسرعة في ظل الإيمان يصرخ المنافقون والمنافقات: ﴿أُنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُم﴾، فيجيبهم المؤمنون: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ الدنيا ﴿فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾. (الحديد / ١٣)

وعندها يصرخ المنافقون: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ في الدنيا في مجتمع واحد وقد كنا في بعض الطريق معكم؟ فما الذي حصل حيث انفصلتم عنا واتجهتم نحو رحمة الله وتركتمونا في العذاب؟

فيجيبهم المؤمنون «بلىٰ» كنا معكم في مجتمع واحد، في الزقاق وفي السوق، وفي السفر والحضر، وكنا جاراً لكم، بل عشنا في بيت واحد، ولكنكم أخطأتم خمسة أخطاء فاحشة، الأوّل: أنكم سلكتم طريق الكفر والنفاق ففتنتم أنفسكم: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

وثانياً: أنكم ﴿تَرَبَّصْتُمْ﴾ وترصدتم فشل المسلمين، وموت الرسول ﷺ، وتحججتم في كل عمل خير.

وثالثاً: ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ وترددتم خاصة في مسألة المعاد، وحقانية الإسلام.

ورابعاً: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ التي نسجت حجاباً ضخماً علىٰ عقولكم وأفكاركم ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللهِ﴾.

وخامساً: ﴿وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ أي غركم الشيطان بعفو الله ووعدكم بألّا ينالكم عذابه.

نعم، إنّ هذه العوامل معاً أوجدت المنظر الذي صوره القرآن لنا، وهي التي سببت خلق سورٍ عازل بين المؤمنين والمنافقين.

إنّ شاهد حديثنا هو الجملة الرابعة، حيث جاء فيها ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾، الأماني قد تصل إلىٰ درجة بحيث تشغل فكر الإنسان بالكامل، فيغفل عن كلّ شيء، ويظل في

عالـم الوهـم والظن، فتعمـىٰ عيناه، ويثقـل سمعـه، ويـفقـد وعـيـه (إذا كـان واعـيـاً)، ويظـلّ فـي الظلمات التـي وضعها بنفسـه تائهاً.

إنّ سعة الأماني قد تصل إلىٰ درجة يرسم صاحبها خططاً لنفسه لا يمكن تطبيقها حتى لو كان كنوح عليه السلام في العمر، وقد يقوم بمقدّمات امنية، الكلُّ يعلم بعدم امكانها حتىٰ لو كان قد بدأ بها منذُ قرون، وهذا هو حجاب الأماني الذي يحول دون المعرفة.

وقد نقل بعض المفسرين خمسة أقوال في تفسير الأماني إضافة إلىٰ الآمـال البـعيدة، والأقوال هي:

(تمني فشل المؤمنين وضعتهم، وإغواء الشيطان، والدنـيا، وتـوقع اسـتغفار الرسـول للمنافقين، وتذكّر الحسنات ونسيـان السيئات)[1]، وقـد فسرها البعض بـ«الأباطيل».

٭٭٭

توضيح:

حجاب الأماني في الروايات الإسلامية:

إنّ مسألة (الآمال الطويلة والأوهام البعيدة عن الواقع، وأنّها تجعل حجـاباً علىٰ عـقل الإنسان وشعوره) لم يشر اليها في القرآن الكريـم فحسب، بل لها شواهد كثيرة في الروايات الإسلامية والتواريخ أيـضاً، ففـي حديث مشهور للإمام علي عليه السلام يقول فيـه: *«إنّ أخوف ما أخـاف عليـكم اثنان، إتّباع الهوىٰ وطول الأمل، فأمّا اتباع الهوىٰ فيصدُّ عن الحق وأمـا طول الأمل فينسي الآخرة»*[2].

ويقول في كلماته القصار: *«الأماني تُعمي أعين البصائر»*[3].

ونقـرأ في حديث آخر لنفس الإمام عليه السلام: *«جماع الشرّ في الاغترار بـالمَهل والاتكـال علىٰ الأمل»*[4].

---

١. تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٦٤١٧.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٤٢.

٣. نهج البلاغه الكلمات القصار، الكلمة ٢٧٥.

٤. غرر الحكم (حرف ج رقم ٥٥).

كما نقل عن نفس الإمام في هذا المجال أنّه قال: «*غرورُ الأملِ يفسدُ العلم*»[١].

والخلاصة أنّ من يـريد الاطلاع علىٰ جمال الحقيقة كما هي ويصـل إلىٰ ينبوع المعرفة الصافي، ينبغي له أن لا يغطي عقله بحجاب الأماني السميك، وأن لا يـضل فـي مـتاهات طريقها.

ونختم هذا البحث بحديث آخر للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول فيه: «*واعـلموا أنّ الأمل يُسهي العقل ويُنسي الذكر فاكذبوا الأمل فإنّه غرورٌ وصاحبه مغرور*»[٢].



---

١. غرر الحكم (حرف ج، رقم ٥٥).

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٨٦.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٢ـ الأعمال التي تحجب عن المعرفة

١ ـ حجب الذنوب

تتأمل خاشعين معاً في الآيات التالية:

١ ـ ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾. (المطففين / ١١ ـ ١٤)

٢ ـ ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾. (محمد / ٢٢ ـ ٢٣)

٣ ـ ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾. (الأعراف / ١٠٠)

٤ ـ ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾. (الروم / ١٠)

❊❊❊

جمع الآيات وتفسيرها

الذنب يُعمي الإنسان ويصمه:

أشارت الآية الأولى إلى أولئك الذين أنكروا القيامة بالكامل، وأضافت: أنّ القيامة لا ينكرها إلّا المعتدون والآثمون، فانّهم لا يخضعون أمام الحق ولا يسلمون إليه أنفسهم أبداً، ولهذا إذا تُليت عليهم آيات الله قالوا: أساطير الأولين.

وَيصرح القرآن: أنّ الأمر ليس كما يتوهم هؤلاء، وقولهم هذا سببه الصدأ الذي أحاط قلوبهم وحال دون أن يعقلوا شيئاً.

لقد استخدمت مفردة «رَيْن» في هذه الآية الكريمة، وقد قلنا سابقاً: أنّ لها معاني ثلاثة (علىٰ ما يدعيه أئمّة اللغة) الأول: الصدأ الذي يعلو الأشياء القيّمة، الثاني: الصدأ الذي يعلو الفلزات وهو علامة تآكل وفساد ذلك الفلز، الثالث: كل شيءٍ غلب علىٰ شيءٍ آخر، ولهذا تستعمل هذه المفردة في مجال غلبة الشراب المسكر علىٰ العقل وغلبة الموت علىٰ الأحياء، وغلبة النوم علىٰ العيون[1].

وبالطبع يمكن جمع هذه المعاني الثلاثة في مفهوم واحد وهو الصدأ الذي يستحوذ علىٰ الأشياء ويعلوها، ثم اطلقت هذه المفردة علىٰ غلبة كل شيءٍ علىٰ شيءٍ آخر.

ونستشف من هذه الآية أنّ الإثم يعكر صفاء القلب بحيث يمنع انعكاس الحقائق في هذه المرآة الإلهيّة، وإلّا فإنّ آيات الله خصوصاً في مسألة المبدأ والمعاد واضحة ولا تقبل الانكار.

ولهذا فقد قال بعض المفسرين: يظهر من هذه الآية أولاً: أنّ الأعمال القبيحة تُوجِد نقوشاً وصوراً في نفس الإنسان، وثانياً: أنّ هذه الصور والنقوش تحول دون إدراك الحق. وثالثاً: إنّ روح الإنسان ـ وحسب طبيعتها الأولية ـ صافية وشفافة، وتدرك الحقائق كما هي، وتميز بين الحق والباطل وبين التقوىٰ والفجور، كما جاء ذلك في الآيات ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[2]. (الشمس / ٧ ـ ٨)

وقد حلل مفسرون آخرون المسألة بشكل ملخص آخر.

عندما يكرر الإنسان عملاً ما فإنّ ملكة نفسانية لذلك العمل ستحصل عنده تدريجياً، كالقراءة والكتابة، ففي البداية يشق عليه الأمر، وبعد الممارسة يتمكن منهما بدرجة لا يحتاج فيهما إلىٰ فكر ودراسة.

---

١. تفسير الكبير، ج ٣١، ص ٩٤؛ تفسير روح المعاني، ج ٣، ص ٧٢.

٢. تفسير الميزان، ج ٢٠، ص ٣٤٩.

وكذلك الأمر بالنسبة للذنوب، فبالاصرار عليها وارتكابها مرات عديدة تحصل هذه الملكةُ عند الإنسان، وتعلم أنّه لا حقيقة للذنب غير إشغال القلب بغير الله، والتوجه لغير الله ظلمة، وعندما تتراكم الظلمات علىٰ القلب تسلبه صفاءه وشفافيته، وإنّ لهذه الظلمات درجات ومراحل، المرحلة الأولىٰ هي مرحلة «الرَّيْن» أو الصدأ، والمرحلة الثانية هي مرحلة «الطبع» والمرحلة الثالثة هي مرحلة «الأقفال» وهي أشد المراحل.

ﮪﮫ

والآية الثانية ناظرة إلىٰ المنافقين الذين يَدّعون الإيمان، فإذا ما نزلت آية في الجهاد تمارضوا وتذرّعوا بذريعة من هو علىٰ وشك الموت، فيخاطبهم القرآن قائلاً، إنّ استمراركم في مخالفتكم هذه وإعراضكم عن العمل بكتاب الله، سيؤدي بكم إلىٰ أن تفسدوا في الأرض، وأن تقطعوا أرحامكم، ولا يأمن شركم حتىٰ أرحامكم، ثم يضيف: ﴿أولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ (بذنوبهم) فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ فما كادوا يسمعون الحق ولا يرونه.

وقد كشفت هذه الآيات عن أنّ النفاق حجاب للقلب والروح من جهة، ومن جهة أُخرى عن التأثير السلبي للذنوب خصوصاً (الفساد في الأرض) و(قطع صلة الرحم) و(الظلم والجور) علىٰ إدراك الإنسان وتمييزه بين الحق والباطل.

ولقد فسّر البعض عبارة *«إن تولّيتم»* بالاعراض، وفسرها بعض آخر بالولاية والحكومة، أي أنَّ مقاليد الأُمور إذا أصبحت بأيديكم فستفسدون وتريقون الدماء وتقطعون الأرحام[1]، ولهذا جاء عن أميرالمؤمنين عليه السلام: أنّ الآية نزلت في بني أُمية[2]، وهذا تلميح إلىٰ أنّهم عند استلام زمام الأُمور والحكومة الإسلامية سوف لا يرحمون صغيراً ولا كبيراً، ولم يسلم من ظلمهم أحد حتىٰ أقاربهم وذووهم.

---

١. ورد كلا التفسيرين في تفاسير روح المعاني ومجمع البيان والميزان في ذيل الآيات المذكورة في البحث.

٢. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٤٠، ح ٥٩.

وسواء كان معنىٰ «التولي» هنا هو الإعراض عن الجهاد أو استلام مقاليد الأمور في الحكومة والفساد في الأرض، فإنّ ذلك لا يضر ببحثنا، لأنّ الآية علىٰ أيّة حال تبين أنّ الذنوب حجاب للقلوب.

ꕥ

وقد أشارت الآية الثالثة إلىٰ أولئك الذين ورثوا الاسلاف من دون أن يعتبروا بمصيرهم الذي ابتلوا به. فخاطبتهم: ﴿لو نَشَآءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ونَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

عطف العقاب علىٰ الذنوب مع الطبع علىٰ القلوب والآذان، تلميح إلىٰ العلاقة بين هذين الاثنين.

ويقول البعض: إنّ الله إذا شاء عذّبهم بأحد العذابين: إمّا بإهلاكهم بسبب ذنوبهم، وإمّا بإبقاءهم أحياء مع سلب قدرة تمييز الحق عن الباطل منهم، وهذا عذاب أتعس من عذاب الهلاك الإلهي.

إلّا أنّه بالالتفات إلىٰ مجيء «أصبناهم» بصيغة الماضي و«نطبع علىٰ قلوبهم» بصيغة المضارع، نفهم أنّ الجملة الثانية مستقلة وليست عطفاً علىٰ ما قبلها، فيكون معنىٰ الآية هكذا: (سواء عجلنا بعذابهم أم لم نعجل فنحن نطبع علىٰ قلوب هؤلاء ونلقي حُجباً عليها)[1].

ꕥ

أشارت رابع وآخر آية إلىٰ عاقبة الذين يرتكبون الأعمال السيئة فقالت: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوٓأَىٰٓ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ لِمَ لا يكون مصيرهم هذا والذنب كالمرض الذي ينقض علىٰ روح الإنسان فيتآكل الإيمان من جرائه؟ ولِمَ لا يكون هكذا

---

١. جاء هذا كاحتمال في تفسير الكبير، في ذيل نفس الآية، إلّا أنّ صاحب تفسير الميزان عدّ الجملة الثانية معطوفة علىٰ «أصبناهم» التي تفيد الاستقبال، لكن الظاهر أنّ التفسير الأول أنسب.

وهو كالحجاب الذي يغطي القلب ويعميه؟ والأسوأ أنّه لا يكفر فحسب، بل يفتخر بكفره، وقد شهد التاريخ الكثير من هؤلاء.

وخلاصة الحديث، إنّ القرآن يعدُّ الذنوب والمعاصي من موانع المعرفة، وهذه حقيقة ملموسة ومجربة عند كثير من الناس، فبمجرّد صدور ذنب أو معصية منهم يشعرون بظلمات خاصة في قلوبهم، وإذا ما مالوا إلىٰ الطهارة والتقوىٰ يشعرون بأنوار ترتاح لها قلوبهم.

توضيح:

إنّ الذنب حجاب في الروايات الإسلامية

لقد انعكست هذه الحقيقة في الروايات الإسلامية بشكل واسع نذكر هنا نماذج منها:

١ ـ جاء في حديث للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله يقول فيه:

«إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر الله وتاب صُقِل قلبه فإن عاد زيد فيها حتىٰ تعلو علىٰ قلبه، وهو الرّان (الرين) الذي ذكر الله في كتابه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[1].

٢ ـ ونقرأ في حديث الإمام الصادق عليه السلام: أنّه قال فيه:

«كان أبي يقول: ما من شيء أفسدُ للقلب من خطيئة، إنّ القلب ليُواقع الخطيئة فما تزال به حتىٰ تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله»[2].

بديهي أنّ المراد من *(أعلاه أسفله)* تغير قدرة الإنسان علىٰ التمييز ـ بسبب الانس بالذنوب ـ حيث يرىٰ الحسن قبحاً والقبح حسناً، وهي أخطر مرحلة.

٣ ـ وقد جاء في حديث آخر للإمام الصادق عليه السلام أيضاً يقول فيه:

---

١. تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٧٠٥٠، روح المعاني، تفسير ج ٣، ص ٧٣، وتفسير الكبير، ج ٣١، ص ٩٤.

٢. اصول الكافي، ج ٢ باب الذنوب، ح ١.

«إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء فان تاب انمحت، وإن زاد زادت حتىٰ تغلب علىٰ قلبه فلا يُفلِحُ بعدها أبداً» [1].

واضح، أنّ الشرط الأول للفلاح هو إدراك الحقائق، فالذي تعطّل قلبه (عقله) عن العمل كيف يمكنه الوصول إلىٰ السعادة والفلاح؟!

وقد جاء نفس المضمون في رواية أُخرى عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير الآية ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾، وتم التعبير فيه بالنكتة السوداء والنكتة البيضاء حيث تتغلب السوداء ـ نتيجة تراكم الذنوب ـ علىٰ البيضاء النورانية وتغطيها [2].

٤ ـ وفي حديث آخر للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يقول فيه:

«كَثْرَةُ الذُّنُوبِ مُفْسِدَةٌ لِلْقَلْبِ» [3].

٥ ـ وقد نقل في كتاب الخصال حديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله جاء فيه:

«أربع خصال يُميتن القلب: الذنب علىٰ الذنب ...» [4].

ولهذا، فإنّا أُمرنا ـ لمحو آثار الذنوب ـ بقراءة ودراسة أحاديث الأئمّة إضافة إلىٰ التوبة، كما نقل ذلك في نور الثقلين عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله:

«تذاكروا وتلاقوا وتحدثوا فإنّ الحديث جلاء للقلوب وإنّ القلوب لترين كما يرين السيف، وجلاءه الحديث» [5].

٦ ـ وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام لهذه الحقيقة في خطبة له مخاطباً بها بعض عمي القلوب:

« قد خرقتِ الشهوات عقله وأماتت الدنيا قلبه وولهت عليها نفسه فهو عبد لها» [6].

---

١. اصول الكافي، ج ٢ باب الذنوب، ح ١٣.

٢. المصدر السابق، ح ٢٠، وقد نقل نفس المضمون في مجمع البحرين في مادة (ارين) أيضاً.

٣. تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٣٢٦.

٤. الخصال، ج ١، ص ٢٥٢، ح ٦٥، وقد جاء مضمون يشبه هذا في تفسير در المنثور، ج ٦، ص ٣٢٦.

٥. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٥٣١، ح ٢٣.

٦. نهج البلاغة، الخطبة ١٠٣.

٧ ـ وقد نقل الإمام الصادق عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«إذا ظهر العلم واحترز العمل وائتلفت الألسن واختلفت القلوب وتقاطعت الأرحام هنالك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم»[1].

٨ ـ وقد صُرّح بهذا الأمر بالنسبة لبعض الذنوب كما جاء ذلك في حديث لأمير المؤمنين عليه السلام مخاطباً به أولئك الذين تركوا الجهاد:

«ألبسه الله ثوب الذل ... وضُرب على قلبه بالأسهاب وأُديل الحق منه بتضييع الجهاد»[2].

٢ ـ حجاب الكفر والأعراض

في البداية نمعن خاشعين في الآيات الكريمة التالية:

١ ـ ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾.

(الأعراف / ١٠١)

٢ ـ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

(النساء / ١٥٥)

٣ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾.

(الكهف / ٥٧)

٤ ـ ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾.

(فصلت / ٤٤)

١. تفسير نور الثقلين، ج ٥، ص ٤١، ح ٦٣.

٢. نهج البلاغة، الخطبة ٢٧.

جمع الآيات وتفسيرها

لِمَ يحجب الذنبُ القلوبَ عن الفقه؟

إنَّ الآية الأُولىٰ بعد إشارتها إلىٰ تاريخ وقصص خمسة أقوام من الأقوام السالفة وهم (قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب) حيث نزل عليهم العذاب الإلهي لتكذيبهم آيات الله، قالت: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ ... ﴾.

إنّ جملة ﴿كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ لا تشير إلىٰ أي كافر كان، وذلك كثيراً من المؤمنين كانوا في صفوف الكفار والتحقوا بصفوف المؤمنين بعد سماعهم لدعوة الأنبياء، فالمراد ـ إذن ـ ذلك الفريق من الكافرين الذين ألحوا وأصروا علىٰ كفرهم، فان كفرهم هذا يحول دون معرفتهم ورؤيتهم للحق.

والشاهد علىٰ هذا الكلام هو قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي أنّ تعصبهم بلغ درجةً لا تسمح لهم بتغيير طريقتهم والرجوع عن الباطل إلىٰ الحق، وقد ذكرت خمسة وجوه في تفسير هذه الجملة في تفسير الميزان والفخر الرازي[1]، إلّا أنّ أظهرها هو ما تقدم اعلاه.

والآية الثانية بعد ما أشارت إلىٰ سلوك فريق من اليهود وعدائهم للأنبياء قالت: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ... ﴾.

يقول القرآن: إنّهم لا يفقهون شيئاً وذلك لكفرهم فطبع الله علىٰ قلوبهم من جراء ذلك.

بديهي أنّ المراد من الكفر هنا هو الكفر المتزامن مع العناد، والكفر المتزامن مع العداء للأنبياء، والكفر المتزامن مع نقض المواثيق باستمرار والاستهزاء بآيات الله، ومسلم أن كفراً كهذا يجعل حجاباً علىٰ عقل الإنسان لا يسمح لصاحبه أن يدرك الحقائق، وهذا شيء صنعته أيديهم ولا جبر في البين.

ويظهر أنّ مرادهم من «*قلوبنا غلف*» هو الاستهزاء بآيات الله وبشخصية موسىٰ بن عمران، لا أنّهم يعتقدون أنّ قلوبهم خُلِقت مغلَّفةً لا تفهم الحقائق (كما جاء ذلك في بعض

---

١. تفسير الميزان، ج ٨، ص ٢١٥؛ تفسير الكبير، ج ١٤، ص ١٨٦.

التفاسير)[١]. إلّا أنّ الله أخذ كلامهم بالجد وأجابهم: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ... ﴾.

وهناك احتمال آخر وهو أنّ مرادهم من الجملة هو أن قلوب كلٍّ منهم كالوعاء المليء بالعلم والغمد الذي فيه السيف فلا تحتاج لعلوم الآخرين[٢]. إلّا أنّ هذا الاحتمال بعيد جداً.

وعلىٰ هذا، فهناك ثلاثة احتمالات في تفسير الآية والأول أنسب من الآخرين، وقد نقل في بعض التفاسير حديث ذا مغزىً عميق عن الرسول ﷺ يقول فيه: «*الطابَعُ مُعَلّق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمة وعُمِل بالمعاصي واجتُرِيء علىٰ الله تعالىٰ بَعَثَ الله تعالىٰ الطابع فطبع علىٰ قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئاً*»[٣].

والجدير بالذكر هو أنّ «طابع» اسم فاعل للطبع و«طابَع» اسم آلة الطبع، ويظهر في الحديث أنّ الكلمة الأُولىٰ بالفتح والثانية بالكسر.

وهذا الحديث يؤكد بوضوح الحقيقة التالية: أنْ لا جبر هنا، وأنّ حجب القلوب نتيجة لأعمال الإنسان نفسه.

وَطرحت الآية الثالثة سؤالاً تقريرياً حيث قالت: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ ... ﴾.

إنّ دليل اعتبار القرآن هؤلاء أظلم الناس واضح لأنّهم ظلموا أنفسهم كما ظلموا الآخرين كذلك فإنّ ظلمهم هذا وقع في محضر الساحة القدسية الإلهيّة مع وجود تعاليمه الحقة، وعليه فالآية لا تدل علىٰ عدم الجبر فحسب، بل تدل علىٰ اصالة الاختيار.

وما يلفت النظر هنا هو أنّ الفخر الرازي بالرغم من كونه من القائلين بالجبر، لكنهُ

---

١. تفسير الميزان، ج ٥، ص ٣٨؛ تفسير القرطبي، ج ٣، ص ٢٠٠٤.

٢. لقد جاء هذا الاحتمال في التفاسير التالية: في تفاسير الكبير، ج ١١، ص ٨٧؛ والقرطبي، ج ٣، ص ٢٠٠٤؛ و روح المعاني، ج ٦، ص ٨.

٣. تفسير روح المعاني، ج ٦، ص ٨.

عندما يصل إلىٰ هذه الآية يقول: إنّ آخر الآية دليل لمؤيدي الجبر، بينما صدرها دليل لمؤيدي الاختيار! ثم يضيف: قلّما نجد آية في القرآن تؤيد أحد الفريقين، وإذا ما وجدنا آية مؤيدة لفريق وجدنا قبالها آية تؤيد الفريق المقابل، والتجربة شاهد علىٰ ما نقول، وهذا امتحان صعب من الله للعباد، وذلك لكي يتميز الراسخون في العلم عن المقلّدين [١]! ياله من اعتراف عجيب؟!

ونضيف إلىٰ ما قاله الفخر الرازي: أنّ كلاً من آيات القرآن لا يمكن دراستها وملاحظتها لوحدها من دون ملاحظة ودراسة الآيات الأُخرى فضلاً عن صدر وذيل الآية الواحدة، كما نقول: إنّ الآية بصدرها وذيلها دليل علىٰ مسألة الاختيار لا شيء آخر، وذلك لأنّ صدرها يقول: إنّ الإعراض عن آيات الله واقتراف الذنوب من أفعال الإنسان وهو فاعلها باختياره، بينما ذيل الآية يقول: إنّ الله يعاقب المُصرّين علىٰ السير في هذا الطريق، وعقابهم هو جعل الأكنة علىٰ قلوبهم.

وبتعبير آخر: إنّ الله جعل لهذه الذنوب آثاراً ومردودات، وهذه الآثار تعكّر صفاء القلب، وتسلب قدرة التمييز عند الإنسان، فأيّ جبر في هذا الحديث؟!

مثله كمثل الخبّير الذي يعلم بأن السم قاتل، وبالرغم من ذلك يتناوله، فهل هذا التأثير القهري للسم جبر؟!

ﮍﮎ

وقد أشارت الآية الأخيرة إلىٰ المعاندين الذين يختلقون الحُجج ويسألون ـ أحياناً ـ هذا السؤال: لِمَ لَمْ ينزل القرآن أعجمياً كي نعيره أهميّة أكبر ولكي لا ينحصر في العرب؟

(قد يكون غرضهم الأساسي من هذا هو عدم فهم عامة الناس له والاقبال عليه إذا ما كان أعجمياً).

---

١. تفسير الكبير، ج ٢١، ص ١٤٢، والعجيب أنّ الآلوسي في روح المعاني عندما نقل عبارة الفخر الرازي ادعىٰ أنّ الفخر الرازي قال: إنّ هذه الآية من أدلة القائلين بالجبر والآية التي قبلها من أدلة القائلين بالاختيار. وقد نقل صاحب الميزان العبارة من روح المعاني، بينما مراد الفخر الرازي صدر وذيل الآية نفسها (تأمل جيداً).

فأجابهم القرآن في صدر الآية: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْ لَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾. (فُصّلت / ٤٤)

أي لأشكلتم اشكالاً آخر وهو: أنّ القرآن مبهم وغامض، ثم يضيف القرآن: ﴿ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أي هل يصحّ لنبي عربي أن يأتي بقرآن أعجمي؟

ثم أمر الله الرسول ﷺ بأن يجيبهم هكذا: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

وقد بيّنت الآية بوضوح أنّ اختلاق الحجج والعناد والإصرار علىٰ الكفر يجعل حجاباً علىٰ القلوب يمنعها عن الإدراك والفهم [1].

***

٣ـ حجاب الاعتداء والعدوان

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾. (يونس / ٧٤)

***

جمع الآيات وتفسيرها

بيّنت الآيات السابقة لهذه الآية من سورة يونس قصة نوح، حيث كان يدعو قومه لله ويسعىٰ لهدايتهم وانذارهم من عذاب الله، إلّا أنّهم كذبوه، فاغرقهم الله بطوفانه وأهلكهم، وأنقذ المؤمنين منهم بالسفينة فورثوا الأرض.

ثم يضيف الله في الآية: إنا أرسلنا ـ بعد نوح ـ رسلاً كلاً إلىٰ قومه مع معاجز وأدلة واضحة ومنطقية ورسائل يشهد محتواها علىٰ أحقيتهم، إلّا أنّهم لم يخضعوا للحق واستمروا في تكذيبهم.

---

١. فسّر البعض عبارة: ﴿وهو عليهم عمىً﴾ بأنّ القرآن سبب لعمى هذا الفريق، بينما قال ابن منظور في لسان العرب والراغب في المفردات: إنّ جملة (عمىٰ عليه) تعني اشتبه عليه حتىٰ صار كالأعمىٰ (تأمل جيداً).

ويقول الله في ذيل الآية: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾، وهـذه إشـارة إلىٰ أنّ الاعتداء والعدوان يترك حجاباً في القلب يحول دون معرفة القلب لآيات الله وتمييزه بين الحق والباطل.

إنّ الطبع الإلهي علىٰ القلوب بالاضافة إلىٰ كونه عقاباً إلهيّاً للمعتدين، كذلك يكون أثراً من آثار الاستمرار في الاعتداء، والمراد من الاعتداء هنا هو الاعتداء في الساحة الإلهـيّة واستمرار المعصية واقتراف الذنوب ومعاداة الرسل.

إنّ جملة: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ إشارة إلىٰ أن بعض الرسل جـاءوا أقوامهم فكذبوهم، ثم أرسل الله إليهم رسلاً آخرين مع أدلة واضحة فما آمنوا بـهم أيـضاً، وذلك لأنّ عنادهم نسج حاجباً سميكاً علىٰ عقولهم فأصبحوا لا يفقهون شيئاً ولا يعقلون.

ويقول البعض: إنّ المراد من المكذبين في الآية قوم نوح الذين أُغرقوا بالطوفان، والمراد من القوم الذين لم يؤمنوا الأقوام التي جاءت بعد قوم نوح وقد سلكوا مسلك قوم نوح في الاعتداء علىٰ الرسل وتكذيبهم [1].

ويبدو هذا التفسير بعيداً عن الواقع لأنّه لازمه اختلاف مرجع الضميرين فـي *(كـذّبوا)* و*(ليؤمنوا)*، ولهذا فالافضل هو التفسير الأول.

ويحتمل أن يكون المراد هو: الأقوام التي جاءت بعـد نوح والتي قـد نُقِلت لها حقائق عن دعوة الأنبياء السالفين فكذبوا تلك الحقائق، ثم جاءتهم رسل فكـذبوهم كذلك، وعلىٰ هذا فالتكذيب الأول يتعلق بما نُقِلَ وحُكِيَ لهم، والتكذيب الثـاني يـتعلق بـالأمور الـتي شاهدوها من الأنبياء بأُمِ أعينهم [2] ويبدو أنّ هذا التفسـير مـناسب، ولا يـبعد الجـمع بـين التفسيرين.

❀❀

١. تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ١٢٥.

٢. تفسير روح المعاني، ج ١١، ص ١٤٣.

٤ ـ حجاب الرؤية السطحية وترك التدبر

١ ـ ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾. (الإسراء/١١)

٢ ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾. (محمد / ٢٤)

جمع الآيات وتفسيرها

أقفال القلوب الثقيلة:

في الآية الأُولىٰ يذكر الله سبحانه وتعالى أحد أسباب الكفر وعدم الإيمان بالله وهو عدم دراسة الأُمور بدقّة وتبحر، ويقول: إنّهم وبسبب إضطرابهم وتسرعهم يتجهون أحياناً نحو الشر بشكل وكأنهم يتجهون نحو الخير والسعادة، ويتجهون نحو الهاوية بشكل وكأنـهم يتجهون نحو مكان آمن ويتجهون نحو الذل والعار كما لو كانوا يتجهون نحو طريق الفخر والعز.

أي أنّ تفكيرهم السطحي وتركهم التدبر يجعل حجاباً علىٰ عقولهم يحول دون إدراكهم الصحيح، فيرون ـ لأجل ذلك ـ الشرّ خيراً والشقاء سعادة، والضلال صراطاً مستقيماً.

وقد جاء في تفسير الميزان: أنّ المراد بكون الإنسان عجولاً هو: أنّه لا يأخذ بالاناة إذا أراد شيئاً حتىٰ يتروى ويتفكر في جهات صلاحه وفساده حتىٰ يتبين له وجه الخير فيما يريده من الأمر فيطلبه ويسعىٰ إليه، بل يستعمل هواه في طلبه بمجرد تعلقه به فربّما كان شراً فتضرر به، لكن جنس الإنسان عجول لا يفرق بين الخير والشر بسبب عجلته، بل يطلب كل ما لاح له ويسأل كل ما بدا له فتعلق به هواه من غير تمييز بين الخير والشر[1].

أمّا المراد من «يَدْعُ» هنا؟ فيقول البعض: أنّه الطلب سواء كان في صورة دعاء أو طلب

١. تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٤٩ (ملخص).

من الله أو كان بصورة طلب عملي أي، السعي لتحصيل الشيء وبذل الجهود لنَيْلِهِ[١].

إلّا أنّ المستفاد من بعض التفاسير أنّ المراد هو الدعاء اللفظي والطلب من الله، ولهذا قيل في شأن نزول الآية: إنّها نزلت في حق النضر بن الحارث وهو من مشركي العرب المعروفين حين قال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾، فاستجاب الله هذا الدعاء وأهلكه[٢].

وقد ذكر المرحوم الطبرسي كلا التفسيرين في مجمع البيان ويظهر أنّ معنى الآية يسع كلا التفسيرين.

وقد جاء في حديث للإمام الصادق عليه السلام في تفسيره لهذه الآية قال فيه: «*واعرف طريق نجاتك وهلاكك، كيلا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تظن أنّ فيه نجاتك، قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً﴾*»[٣].

وقد جاء في حديث آخر أنّ آدم نصح أولاده وقال لهم: «*كلّ عمل تريدون أن تعملوا فقفوا له ساعة فإنّي لو وقفت ساعة لم يكن أصابني ما أصابني*»[٤].

ومن هذا الباب اطلق العرب عبارة «*أمّ الندامات*» اسماً للعجلة، كما قيل: أنّ العجلة من الشيطان إلّا في ستة موارد: أداء الصلاة في وقتها، دفن الميت، تزويج البنت الباكر عند بلوغها، أداء الدين عند حلول وقته، إطعام الضيف عندما يحلّ، والتوبة عند اقتراف الذنب.

أمّا ما المراد من الآية «*وكان الإنسان عجولاً*» وأمثالها الذي ورد في القرآن الكريم والتي تعبر عن نقاط الضعف المهمّة في طبيعة الإنسان؟ وكما ذكرنا في التفسير الأمثل أنّ المراد بالآية الإنسان الذي لم يتخلق باخلاق الله ولم يتربَّ على أساس التربية الرسالية والدينية، لا الإنسان المهذب.

❧

١. تفسير الميزان، ج ١٣، ص ٥٠. وبما أنّ الباء في «بالخير وبالشر» باء صلة فيكون معنى الجملة هكذا: «يدعو الشر كدعائه الخير».

٢. تفسير القرطبي، ج ٦، ص ٣٨٤١؛ و تفسير الكبير، ج ٢٠، ص ١٦٢.

٣. تفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ١٤١.

٤. تفسير روح البيان، ج ٥، ص ١٣٧.

وتحدثت الآية الثانية عن فريق من المنافقين المعاندين حيث أُشير إليهم في الآيات السابقة بصفة عمي القلوب، وإذا تسلموا زمام الحكم ما رحموا صغيراً ولا كبيراً، واعتبرهم الله الملعونين والمطرودين من رحمته، وقال فيهم هنا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ لا قفلَ واحد بل أقفال، فكيف يمكنهم إدراك الحقائق؟ (محمّد / ٢٤)

هناك بحث بين المفسرين في أنّ «أم» متصلة أو منفصلة[١]. فاذا كانت متصلة يكون المعنىٰ هكذا: أفلا يتدبرون القرآن أو أن هناك اقفالاً علىٰ قلوبهم؟ وأما إذا كانت منفصلة فالمعنىٰ هكذا: أفلا يتدبرون القرآن؟ كلا، بل إنّ اقفالاً علىٰ قلوبهم.

وعلىٰ كلا المعنيين فالآية دليل علىٰ وجود تضاد بين « التدبر » و«الحجاب علىٰ القلوب»، ويمكن القول: إنّ الآية تشير إلىٰ حجاب ترك التدبر.

وقد جاء في تفسير (في ظلال القرآن): «تدبر القرآن طبقاً لهذه الآية يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب نور المعرفة علىٰ القلوب، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير ويجدد الروح ويجعلها اكثر صفاءً واشراقاً»[٢].

وقد جاء بعض المفسرين بدليلين لذكر القلوب نكرة في الآية، الأول: أنّها ذكرت نكرة لبيان حال قلوبهم المروّع، وأنّها قلوب مجهولة مليئة بالقساوة والظلمات.

الثاني: إنّ المراد هو بعض القلوب لا كلها، لأنّ بعضهم لم يصلوا إلىٰ تلك الدرجة من الظلمات بحيث تقفل قلوبهم وتتوقف عن إدراك الحقائق.

وذكر الأقفال بصيغة الجمع إشارة إلىٰ الحجب المختلفة التي تجعل علىٰ قلوبهم مثل حجاب النفاق والعناد والغرور وحب النفس وغيرها.

كما ينبغي الإشارة إلىٰ هذه النقطة وهي: إنّ بين «ترك التدبر» و«حجاب القلب» تأثيراً متبادلاً، فكلٌ منهما يمكنه أن يكون علة للآخر في مرحلة ومعلولاً له في مرحلة أُخرى،

---

١. ينقل الآلوسي في روح المعاني عن سيبويه أنّها متصلة، بينما ينقل عن ابي حيان وفريق آخر أنّها منفصلة (ج٢٦، ص ٦٧).

٢. تفسير في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٤٦٢.

فتارة ترك التدبر ينشأ عن ظلمات القلب، وتارة أُخرى ظلمات القلب تنشأ عن ترك التدبر.

وننهي حديثنا هذا برواية عن الإمام الباقر عليه السلام جاء فيها: ***«قرّاء القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتخذه بضاعة واستدرّ به الملوك واستطال به على الناس، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضيّع حدوده وأقامه إقامة القدح فلا كثّر الله هؤلاء من حملة القرآن، ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن على داء قلبه فأسهر به ليله واظمأ به نهاره وقام به في مساجده وتجافى به عن فراشه فبأولئك يدفع الله العزيز الجبار البلاء وبأولئك يديل الله عزّ وجلّ من الأعداء وبأولئك ينزل الله عزوجل الغيث من السماء فوالله لهؤلاء في قرّاء القرآن أعزّ من الكبريت الأحمر»***[1].

∞

٥ ـ حجاب الارتداد

في البداية نتأمل خاشعين في الآية الكريمة التالية:

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.

(المنافقون / ٢ ـ ٣)

∞

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ هذه الآية ناظرة إلى المنافقين، وبالرغم من أنّ النفاق حجاب مستقل بحد ذاته إلّا أنّ القرآن هنا يذكر موضوعاً آخر في هذا المجال حيث يقول: **﴿بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.**

يعتقد بعض المفسرين: أنّ الأشخاص المعنيين في هذه الآية هم فريق آمنوا ظاهراً وظلّوا كفّاراً باطناً.

---

١. اصول الكافي، ج ٢، باب ١٣ النوادر، ص ٦٢٧، ح ١.

إلّا أنّ ظاهر الآية يكشف عن أنّهم في البداية آمنوا حقاً، ثم كفروا بعد ايمانهم، وكان كفرهم هذا متزامناً مع النفاق، لأنّ التعبير بـ«ثم» يدل علىٰ أن كفرهم حصل بعد الإيمان لا أنّه كان متزامناً مع الإيمان ليكون أحدهما ظاهراً والاخر خفياً، وعلىٰ هذا فالآية تتحدث عن حجاب الارتداد.

ولا عجب في أن يطبع الله علىٰ قلب من آمن وذاق طعم الإيمان وحلاوته، وشاهد أنوار الرسالة، ثم كفر كفراً تزامن مع النفاق.

إذا التبس الحق علىٰ شخص منذ البداية فعذره يمكن أن يكون وجيهاً، أمّا إذا ارتد عن الإيمان بعد ما عرف الحق وآمن به، فهذا غالباً ما يكشف عن حالة العناد عند هذا الشخص، والله يسلب نعمة المعرفة عن أشخاص كهؤلاء ويطبع علىٰ قلوبهم.

بالطبع لا دليل لنا علىٰ أنّ كل المنافقين كانوا غير مؤمنين منذ البداية، بل إنّ فريقاً منهم آمنوا في البداية حقاً ثم ارتدوا كما جاء ذلك في الآية: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسلامِهِمْ﴾.

(التوبة / ٧)

وهذا النفاق المتزامن مع العناد هو الذي يجعل حجاباً علىٰ القلوب.

ونؤكد تارة أُخرى أنّ هذا الحديث لا يدل علىٰ الجبر اطلاقاً، لأنّ مقدّمات هذا الحرمان أوجدها المنافقون بأنفسهم.

❀

٦ ـ حجاب الكذب والافتراء

في البداية نلاحظ خاشعين الآيات الكريمة التالية:

١ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾.

(آل عمران / ٢٣ ـ ٢٤)

٢ ـ ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً

فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. (الأحقاف / ٢٦)

٭٭٭

جمع الآيات وتفسيرها

خُدَع الكذب:

يقول بعض المفسرين في شأن نزول الآية الأُولىٰ:

إنّ رجلاً وامرأة من اليهود زنَيا، وكانا ذوي شرف، وكان في كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما لشرفهما، فرجعوا في أمرهما إلىٰ النبي الأكرمﷺ رجاء أن يكون عنده رخصة في ترك الرجم فحكم الرسولﷺ بالرجم فأنكروا ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: بيني وبينكم التوراة فإنّ فيها الرجم فمن أعلمكم؟

قالوا: عبدالله بن صوريا الفدكي، فأتوا به وأحضروا التوراة، فلما أتىٰ علىٰ آية الرجم وضع يده عليها، فقال ابن سلام الذي كان علىٰ ملة اليهود وأسلم.

قد جاوز موضعها يا رسول الله، فرفع كفّه عنها فوجدوا آية الرجم، فأمر النبيﷺ برجمهما فرجما، فغضبت اليهود لعنهم الله لذلك غضباً شديداً فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية[1].

يقول القرآن في هذا المجال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

ثم يضيف: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

«**يفترون**» من مادة «**الافتراء**» ومن أصل «**فري**» الذي يعني القطع وشق الجلد بهدف الإصلاح، إلّا أنّه قد تستعمل في صيغة «**الافراء**» فتعني القطع بهدف الافساد، و«**الافتراء**» معناه واسع، أي القطع سواء كان بهدف الإصلاح أو الافساد، بالرغم من استعماله في أغلب

---

١. تفسير الكبير، ج ٧، ص ٢٣٢.

الأحيان في مجال الافساد والتخريب، كما استعملت هذه المفردة في مجال الكذب والشرك والظلم[١].

أمّا «غرّهم» فمن مادة «غرور» ومشتقة من «غُر» بمعنىٰ ظاهر الشيء، ولهذا قيل للأثر الظاهر في جبين الحصان «غُرة»، كما تستخدم في القماش إذا طُوي بشكل حيث تظهر عليه آثار الطوي، كما تستعمل هذه المفردة بمعنىٰ الخداع، وكأنّ الطرف المخدوع يُطوىٰ كالقماش[٢].

أما «غَرور» فيعني الشخص والشي الذي يخدع الإنسان، كما تطلق علىٰ الشيطان الخادع[٣].

وقد قيل في كيفية أن الكذب والافتراء يخدعان الإنسان ويحجبان عنه المعرفة وما ذكر صاحب الميزان:

«إنّ الإنسان يجري في أعماله وأفعاله علىٰ ما تحصل عنده من الأحوال أو الملكات النفسانية والصور التي زينتها ونمقتها له نفسه دون الذي حصل له العلم به، كما أنّ المدمن علىٰ استعمال المواد المخدرة ونحوها يستعملها وهو يعلم أنّها مضرّة غير لائقة بشأنه وذلك لأنّ حالته وملكته النفسانية زيّنت له هذه الأمور واضفت عليها نوعاً من الجاذبية بحيث لم تدع له مجالاً للتفكر والاجتناب.

وبعبارة أُخرى أنّهم كرروا الكذب ولم يزالوا يكررونه ويلقنونه أنفسهم حتىٰ اذعنوا به أي اطمأنوا وركنوا إليه بالتلقين الذي يؤثر أثر العلم كما بينه علماء النفس فصارت الفرية الباطلة بالتكرار والتلقين تغرهم في دينهم وتمنعهم عن التسليم لله والخضوع للحق الذي أنزله في كتابه[٤].

---

١. مفردات الراغب مادة (فري).

٢. مفردات الراغب مادة (غرور).

٣. لسان العرب مادة (غرور).

٤. تفسير الميزان، ج ٣، ص ١٢٥.

إنّ هذا مجربٌ، فتارة يتفوه الإنسان بحديث كذب ويعلم أنّه كذب وافتراء، وعلىٰ ضوءِ اعـادة الحـديث يقع في شك منه، ثـم يعيده مـرات اُخرى فيصدق به، حتىٰ يـبلغ درجـة الاعتقاد بالرغم من عدم واقعيته، فيصير حجاباً أمام رؤيته العقلية السليمة.

وعلىٰ هذه فلا مـجال للقول بأنّ الكـذابين هم فريق من اليهود وأنّ المخدوعين يمثلون فريقاً آخر.

ﷻ

وقد أشارت الآية الثانية إلىٰ قوم عاد، وهم قوم ذو قدرة، كانـوا يـعيشون في الاحـقاف (جنوب أو شمال الجزيرة العربية)، وابتلوا بالـريح العاصف إثر تكذيبهم لرسولهم «هـود» وإثر ظلمهم وفسادهم في الأرض.

فالآيـة تقول: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً ... وَحَاقَ بِهِمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

إنّ الآيـة تـؤكد أن تكذيبهم المتـوالي لآيـات الله سـبَّب سـلب إدراكـهم ومـعرفتهم، فابصارهم ترىٰ وآذانهم تسمع وأفكارهم تعقل ظاهراً، إلّا أنّ الستار الحـاجب حـال دون استعانتهم بوسائل المعرفة هذه فابتلوا بعذاب الله.

«يجحدون» من مادة *«جحود»* ويعني في الأصل نفي شيء تيقن الإنسان من وجوده أو إثبات شيءٍ يؤمن الإنسان بعدمه، وبتعبير آخر: الجحود يعني انكار الواقعيات عمداً وعن معرفة[1].

إنّ التجربة أثبتت أنّ الإنسان إذا ما استمر في انكار الحقيقة، فستصبح القضايا التي يؤمن بها بشكل قطعي مورد شك وبشكل دائم، وإذا استمر الانكار أكثر فإنّ قدرته علىٰ التمييز تتبدل بحيث يرىٰ الحق باطلاً والباطل حقاً.

---

١. مفردات الراغب مادة (جحد)، كما يقول الجوهري: إنّ الجحود هو الانكار مع العلم، كما ذكر ذلك صاحب مجمع البحرين في مادة (جحد).

وهناك أسباب وعلل لهذا العمل (أي انكار الواقعيات مع العلم والمعرفة)، فتارة ينشأ عن العناد، وتارة أُخرى عن التعصب، وتارة عن الكبر والغرور، وتارة يقدم الإنسان عليه حفاظاً علىٰ مصالحه المادية التي تتعرض للخطر إذا ما كشف عن الحقائق، وتارة لأجل شهوات أُخرى، وعلىٰ أيّة حال فإنّ لهذا العمل مردودات سلبية، وهو حدوث حجاب علىٰ العقل والفطرة فتنقلبُ قدرة التمييز عند الإنسان رأساً علىٰ عقب.

ഇഇ

٧ ـ حجاب الظن القائم

إنّ اتباع الظنون والخيالات الباطلة يغير العقل تدريجياً ويحرفه عن جادة المعارف الأصيلة، ويجعل حجاباً أمام عينيّ الإنسان واذنيه.

في البداية نقرأ معاً خاشعين الآية الكريمة التالية:

﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. (المائدة / ٧١)

ഇഇ

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ هذه الآية ناظرة إلىٰ فريق من اليهود الذين عاهدوا الله علىٰ أن يتبعوا دعوات الأنبياء ويخضعوا لها، إلّا أنّهم كلما جاءهم رسول يأمرهم بما يخالف أهواءهم النفسية نهضوا ضده أو قتلوه.

ثـم تـضيف الآية: إنّهم حسبوا أن لا تكون فتنة ولا عذاب، وهذا ظن باطل نشأ عن حب الدنيا والكبر والغرور، ظن باطل تدعو إليه الشياطين والأهواء النفسية، وهذا الظن هو الذي ألقىٰ بحجابه علىٰ أفئدتهم وأبصارهم وسمعهم فحال دون أن يعقلوا شيئاً، فـلم تـعد أبصـارهم تدرك الآثار المتبقيـة من المصير المؤلم للاقوام السالفة ولم تعد آذانهم تمتلك

قدرة سماع ما يُنقل عنهم، وبهذا فقدوا هاتين الوسيلتين المهمتين للمعـرفة ـ السمع والبصر ـ من الناحية العملية وظنوا أنّهم في أمان من عذاب الله، وقد حصل لهم هذا الظن من خِلال السير في الأرض ودراسة التاريخ والأقوام السالفة، فما سمعوا عن تلك الأقوام بآذانهم، ولا شاهدوا بأعينهم، بل إنّ ابصارهم وآذانهم وأفئدتهم عاطلة عن العمل فحسبوا أن لا عذاب لهم.

إلّا أنّه بعد انقضاء وطر من الزمن أدركوا خطأهم والتزموا طريق التوبة، وقد وسـعتهم رحمة الله فقبل توبتهم.

ومرة أُخرى خدعتهم ظنونهم الباطلة فظنوا أنّهم شعب الله المختار في أرضه (بل أبناء الله)، فأسدلت ستائر العمى والصم والجهل على ابصارهم وسمعهم وطُردوا من رحـمة الله تارة أُخرى.

إنّ هذه الآية تبين بوضوح أنّ الظنون الباطلة وخاصة ظن الأمان من عذاب الله يجعل غشاوة علىٰ الباصر والمسع ويعطلهما عن العمل.

وعلىٰ هذا، فالمراد من «*فعموا وصموا*» هو أنّ أعينهم ما بصرت آيات الله والآثار الباقية من الأقوام السالفة، وأنّ آذانهم ما صغت لمواعظ الرسل.

وبديهي أنّ اتباع الظن الباطل لمرة أو مرات لا يترك هذا المردود السلبي لدىٰ الإنسان، بل الاستمرار عليه هو السبب في ذلك.

وهناك أقوال في سبب عطف الجملة الثانية علىٰ الأولىٰ بـ«*ثم*» التي تدل علىٰ الفاصل الزمني.

فقال البعض : إنّ استعمالها للاشـارة إلىٰ مصيـرين مختـلفين لليهـود، أحدهما عندما هاجمهم أهل بابـل، والثـاني عندما هاجمهم الإيرانيون والروميون وأسقطوا حكومتهم[١]، وقد جاء شرح ذلك في التفسير الأمثل في بداية سورة بني اسرائيل.

وقال البـعض : إنّ الجملة الأُولىٰ إشارة إلىٰ عهد زكـريا ويحيـىٰ وعيسىٰ حيث خالفهم

---

١. تفسير المنار، ج ٦، ص ٤٨١.

اليهود آنذاك، والعبارة الثانية إشارة إلىٰ عهد الرسول الأعظم ﷺ حيث أنكروا نبوته ورسالته[١].

وقال البعض: إنّ العبارة الأُولىٰ تبين أنّ الله لعنهم وطردهم من رحمته وأعماهم وأصمهم لأجل ظنهم الباطل من أنهم شعب الله المختار، وقد شملتهم رحمة الله بعد ذلك فتاب عليهم ورفع عن قلوبهم ذلك الظن الباطل، فأبصرهم وأسمعهم تارة أُخرى كي يلتفتوا إلىٰ حقيقةٍ هي: عدم وجود فرق بينهم وبين غيرهم إلّا بالتقوىٰ.

إلّا أنّ حالة الوعي واليقظة هذه لم تستمر عندهم، وتورط بعضهم بنفس الحسبان الخاطيء القائم علىٰ أساس التفرقة العرقية تارة أُخرى، فأعماهم وأصمهم الله ثانية[٢].

والجمع بين هذه التفاسير ليس متعذراً، ونتيجتها جميعاً واحدة وهي: إنّ الظن الباطل (كظن اليهود أنّهم شعب الله المختار) يمنع الإنسان تدريجياً عن الإدراك والفهم ويحرفه عن جادة الصواب، وإذا كان هذا الظن في بدايته فيقظة العقل محتملة، ورجوعه عن هذا الحسبان ممكن، أمّا إذا تفاقمت الظنون وتأصلت في ذاته فيصبح الرجوع عنها أمراً غير ممكن.

---

١. وقد ذكر هذا التفسير كاحتمال في تفسير الكبير، ج ١٢، ص ٥١٦ وكذا في تفسير روح المعاني، ج ٦، ص ١٨٤.

٢. تفسير الميزان، ج ٦، ص ٧١.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٣ـ الحُجب الخارجية

١ ـ حجاب القادة الضالين والمفسدين

إنّ الحجب الخارجية هي الحجب التي تكمن وراء أعمال الإنسان وصفاته وتؤثر على العقل والإدراك والشعور وملكة التمييز وتحول دون معرفة الحقائق، وهي عديدة تشكل مساحة واسعة، وقد أشار اليها القرآن بأساليب متعددة وجميلة.

١ ـ ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾. (الأحزاب / ٦٧ ـ ٦٨)

٢ ـ ﴿... وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴾. (سبأ / ٣١ ـ ٣٢)

٣ ـ ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾. (الأعراف / ٣٨)

جمع الآيات وتفسيرها

شجار أصحاب النار:

إنّ الآية الأُولىٰ تبيّن حال فريق من الكفار عندما يرون نتيجة أعمالهم عند الله، فيقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾، فما كنا نُبتلىٰ بهذا المصير لولاهم، ثم يقولون: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ (عذاباً لكفرهم وعذاباً لأنّهم أضلونا) ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾.

فهم لا يريدون سوىٰ تبرير أعمالهم بكلامهم هذا، صحيح أنّ لرؤسائهم دوراً في انحرافهم، لكن هذا الأمر لا يسلب عنهم المسؤولية تجاه أعمالهم.

وصحيح أنّ وسوسة القادة المفسدين والزعماء الضالين والمضلين جعلت حجاباً علىٰ عقولهم وأفكارهم فحال دون تفكيرهم الصحيح، إلّا أنّ مقدّمات هذا الأمر هم هيأوها بأنفسهم لأنّهم سلموا أنفسهم عشوائياً إلىٰ هؤلاء من دون احراز أهليتهم للقيادة.

وهناك خلاف بين المفسرين في الفرق بين سادتنا وكبراءنا، أو بالأحرىٰ هل هناك فرق بينهما أم لا؟

يعتقد البعض أنّ «سادتنا» إشارة إلىٰ ملوك وسلاطين المدن والدول، و«كبراءنا» إشارة إلىٰ الرؤساء المحليين، حيث عُدت طاعة السادة مكان طاعة الله، وطاعة الكبراء مكان طاعة الرسول، فقدرة وصلاحية الفريق الأول أكثر من الفريق الثاني ولهذا قُدِّم.

ويعتقد البعض أنّ السادة إشارة إلىٰ الملوك وأصحاب القدرة، والكبراء إشارة إلىٰ كبار السن، ولهذا يتبعهم بعض الناس.

ويعتقد آخرون أنّ كليهما بمعنىٰ واحد وأنّهما قد وردا للتأكيد[١].

ويبدو أنّ المعنىٰ الأخير أنسب من جميع المعاني السابقة.

وتجدر الإشارة إلىٰ أنّ «سادة» جمع «سيد» والسيد يعني رئيس السواد (أي الجمع الغفير من الناس، وقد أُطلق عليه سواداً من باب أنّه يبدو أسود اللون من بعيد) ثم اطلقت

---

١. راجع تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ٨٧؛ تفسير الميزان، ج ١٦، ص ٣٦٩؛ الكبير، ج ٢٥، ص ٢٣٢.

هذه المفردة علىٰ كل رجلٍ كبير.

وقد تحدثت الآية الثانية عن الكفار الظالمين الذين إذا ما رأوا نتيجة أعمالهم في الآخرة سعىٰ كلٌ منهم لإلقاء ذنبه علىٰ الآخر، فيقول حينها المستضعفون (أي المغفّلون) للمستكبرين (أي الظلمة وأصحاب السلطة الذين أضلوا الآخرين بأفكارهم الشيطانية): لولا وساوسكم المغرية والشيطانية لَكُنّا في صفوف المؤمنين، لقد غسلتم أدمغتنا، واتّبعناكم جهلاً، وجعلتمونا آلة بأيديكم لتحقيق مآربكم الشيطانية، وقد فهمنا الآن أنا كنّا علىٰ خطأ.

بالطبع لم يخرس المستكبرون عندها، بل يجيبون: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم﴾ الرسل بالبينات والحجج الكافية؟ إنّكم مخطئون ونحن غير مسؤولين عن ضلالتكم، ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ ومذنبين لأنّكم تركتم ما دعتكم إليه الرسل واتبعتم الأقاويل الباطلة بالرغم من إرادتكم واختياركم.

೫೦೮

وقد أشارت الآية الثالثة إلىٰ شجار «القادة» و«الأتباع» الضالين في جهنم، فكلما دخلت أُمّة لعنت الأُخرى واعتبرتها هي المسؤولة عن شقائها وعذابها في الآخرة، ويقول الأتباع يومذاك: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ عذاباً لأنّهم ضالّون وعذاباً لأنّهم أضلونا وأغوونا.

فيجيبهم الله: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾.

إنّ مضاعفة العذاب لقادة الباطل أمر متوقع وليس عجيباً، إلّا أنّ مضاعفة العذاب لأتباعهم أمر قد يبدو غريباً للوهلة الأُولىٰ، لكنا إذا دققنا في الأمر نجد ضرورة مضاعفة العذاب لهم، عذاب: لأجل أنّهم ضالون، وعذاب: لأجل اعانتهم أئمّة الكفر والذود عنهم والقتال دونهم، كما جاء ذلك في حديث للإمام الصادق عليه السلام عندما جاءه أحد أصحابه مُعلناً توبتَه عمّا قدمة لبني أمية من خدمات، يقول فيه:

«لولا أنّ بني أميّة وجدوا من يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم ويشهد جماعتهم لما سلبونا حقّنا»[1].

توضيحان:

١ـ «المستضعفون» و«المستكبرون» في القرآن المجيد

تحدث القرآن المجيد مراراً عن المستكبرين « والمستضعفين » وهو موضوع مهم وجدير بالانتباه ويمكن أن يشكل أحد المباحث المستقلة في التفسير الموضوعي، إلّا أنّه ينبغي هنا الإشارة إليه بصورة عابرة مع بيان الآيات التي وردت في هذا البحث.

يقول الراغب في مفرداته: إنّ الكبر والتكبر والاستكبار لها معانٍ متقاربة، ثم يضيف: إنّ للاستكبار معنيين أحدهما: أن يتحرّىٰ الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً وذلك متىٰ كان علىٰ ما يجب وفي المكان الذي يجب وفي الوقت الذي يجب والثاني أن يتشبّه فيظهر من نفسه ما ليس له وهذا هو المذموم وعلىٰ هذا ما ورد في القرآن، وهو قوله تعالىٰ: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾. (البقرة / ٣٤)

ثم يضيف الراغب: قابلَ المستكبرين بالضعفاء تنبيهاً إلىٰ أنّ استكبارهم كان بما لهم من القوة من البدن والمال[2].

إنّ الاستضعاف يقابل الاسكتبار وهو يعني طلب الضعف وقلة الحيلة، لكن بما أنّ هذه المادة غالباً ما تستعمل في القرآن بصفة (فعل مبني للمجهول) أو (اسم مفعول)، فتعني الضعف الذي فرض عليهم من قبل المستكبرين.

وقد استعملت في القرآن بصيغة الفعل المبني للمعلوم كما جاء ذلك في فرعون الذي استضعف بني اسرائيل:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ﴾. (القصص / ٤)

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٢ (٧٥)، ص ٣٧٥؛ سفينة البحار، ج ٢، ص ١٠٧ مادة (ظلمة).

٢. مفردات الراغب، مادة (كبر).

كما ينبغي ذكر هذه النقطة وهي: أنّ القرآن استعمل مفردة (مُستضعَف) بمعنيين: الأول المظلومون في الأرض، وهم المشمولون بألطاف الله، كما جاء ذلك بالنسبة إلىٰ مستضعفي بني اسرائيل حيث قال الله فيهم:

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾. (القصص / ٥)

والمعنىٰ الثاني وهو المستعمل غالباً في القرآن المجيد: الضعفاء فكرياً بسبب جهلهم وتقليدهم الأعمىٰ وتعصبهم، فيتبعون الظلمة والقادة الضالين عشوائياً. وهؤلاء هم الذين أشارت الآيات المذكورة في أول البحث إلىٰ شجارهم مع المستكبرين في يوم القيامة وصرحت أنّهم يستحقون العذاب المضاعف كالمستكبرين: عذاباً لأجل أنّهم ضالون وعذاباً لاجل أنّهم ساهموا في تثبيت اسس حكومة الجبارين.

٢ـ دور القادة و الأمراء في التأثير على الناس

لقد جاء في حديث للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: *«الناس بأمرائهم أشبه منهم بآبائهم»*[١].

إنّ هذا الشبه يمكن أن يكون من حيث إنّ فريقاً من الناس يتبعون الأمراء ويقتدون بهم جهلاً وغفلة ويجعلون قلوبهم ودينهم رهناً لإشارات هؤلاء الأمراء وايعازاتهم، ولهذا اشتهر الحديث *«الناس علىٰ دين ملوكهم»*.

إنّ هؤلاء الأمراء في رأي بعض الناس أبطال وقدوات نموذجية وأُسوات حسنة وأرفع شأناً من أن يُنتقدوا، وقد يقلّد البعض أنفسهم مناصب مقدسة فيغرروا ببعض الجهلة والعوام، ويجعلوا حجاباً أمام أفكارهم وعقولهم.

ومن المتعارف أنّ هناك فريقاً يعتبر «القدرة» دليلاً على «الحقانية»، ويعتبر المنتصر هو المحق فرداً كان أو جماعة، وهذا الأسلوب من التفكير جعلهم فريسة للكثير من الأخطاء

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٤٦ كتاب الروضة كلمات علي عليه السلام، ح ٥٧.

والانحرافات في حساباتهم الاجتماعية.

إنّ الملوك والقادة الجبارين أينما دخلوا أفسدوا، وذلك لاستغلال الضعف والعجز الفكري لدىٰ بعض الناس، كما جاء ذلك في القرآن علىٰ لسان ملكة سبأ: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. (النمل / ٣٤)

وبالرغم من أنّ هذا الحديث تفوهت به ملكة ظالمة، إلّا أنّ ذكره في القرآن من دون أي نقدٍ من جهة، وصدوره من شخصية ظالمة وخبيرة بما عليه الظَّلَمَة من أمثالها من جهة أُخرىٰ دليل علىٰ واقعية هذا الحديث الشبيه بالاعتراف.

ولهذا أرادت ملكةُ سبأ أن تختبر سليمان هل هو ملك أو نبي حقاً؟ فأرسلت إليه هدايا كي تعرف ردّ فعله تجاهها، وذلك لأنّها تعرف أنّ أفكار الملوك وقلوبهم رهن الهدايا والذهب والفضة والشأن والمقام، بينما الأنبياء لا يهمهم شيء سوىٰ صلاح الأُمم.

ﮧ

٢ـ حجاب الأصدقاء الضالين

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾. (الفرقان / ٢٧ ـ ٢٩)

ﮧ

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ هذه الآيات تشرح مشهداً من مشاهد يوم القيامة، وهي لحظات تأسف الظالمين وتأثرهم من أعمالهم إلىٰ درجة حيث يعضون علىٰ أيديه.

إنّ تعبير « يعضّ » من مادة « عضّ » ومعناها واضح، والتعبير بـ(يعضّ) في العربية

وكـذا في الفارسية كناية عن شدة التأسف والانزجار، وقد شوهد أنّ كثيراً من الناس إذا ما واجهوا مصيبة عظيمة ناشئة عن سوء عملهم وجهلهم عضّوا على أيديهم أو أصابعهم أو ظاهر أكفّهم، وكأنّهم يريدون عقاب أيديهم لأجل قيامها بهذا العمل.

إلّا أنّ المصيبة إذا لم تكن شديدة جدّاً اكتفوا بعضّ أناملهم كما قال القرآن حاكياً حال الكفار في الآية ١١٩ سورة آل عمران: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾، أو اكتفوا بعضّ ظهر احدى اليدين، أمّا اذا كانت المصيبة شديدة جدّاً فتارة يعضّون أيديهم اليسرى وأُخرى أيديهم اليمنى، والذي جاء في الآية الكريمة هو «يَدَيْه» وهذا يكشف عن أنّ المصيبة عظيمة للغاية يوم القيامة، وغالباً ما يقترن العضّ بالتفوه بجمل وأقاويل مفهومها التوبيخ للنفس، ويتحد حينها الكلام مع السلوك في ابراز الغضب.

ويقولون عندها: ﴿لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ إلّا أنّ هذا الخليل ما سمح لهم باليقظة.

وعلى هذا، فهم يعدّون الخليل الضال هو السبب الأساسي لشقائهم، حيث جعل حجاباً أمام أفكارهم وعقولهم حال دون رؤيتهم لجمال الحق.

وهنا أقوال في المراد من «فلان»:

احتمل البعض أنّه الشيطان، حيث ينتخبه الإنسان ـ أحياناً خليلاً، وذلك بقرينة قوله في ذيل الآية: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً﴾.

ويقول البعض: إنّ المراد منه هو نفس الشخص الذي نزلت في شأنه الآية، أي «عقبة» وهو أحد الكفار المعروفين، أسْلَمَ وارتد عن الإسلام وتخلىٰ عن الرسول لأجل خليله «أبي»، وقتل في معركة بدر، بينما قُتِل أبي في معركة أُحد[١].

لكن الظاهر أنّ مفهوم الآية ـ كما يقول البعض ـ كلّي شامل لجميع الأصدقاء الضالين والموسوسين، وأنّ شأن النزول لا يُخصّصُ الآية أبداً، خصوصاً وأنّ لمفردة

---

١. تفسير مجمع البيان، ذيل نفس الآية مورد البحث ويقول البعض: إنّ «أُبي» الإنسان الوحيد الذي قتله الرسول بيده طيلة عمره الشريف (تفسير روح البيان، ج ٦، ص ٢٠٥).

«الشيطان» معنىً واسعاً يشمل شياطين الجن والانس، كما أنّ ذكر كلمة «فلان» وبصيغة النكرة قرينة واضحة على اطلاق المفهوم[١].

وقد قيل في تفسير «شركاء المشركين» الذين ذُكروا في الآية ١٣٧ من سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾، أنّهم المتولون لمعابد الأصنام، حيث كانوا يغوون الناس ويغرونهم لتضحية أولادهم للاصنام، وبهذا التبس عليهم الحق، وأُلقي حجاب على عقولهم وأفكارهم.

وعلى هذا التفسير، فإنّ الآية تُعدُّ شاهداً واضحاً على بحثنا أي أنّ الأصدقاء المضلين يشكلون حجاباً للعقل يمنعه عن المعرفة.

❧❧

توضيح

دور الأصدقاء في التأثير على طريقة التفكير عند الآخرين:

يشاهد في الروايات الإسلامية تعابير كثيرة في هذا المجال، تكشف عن أنّ الأصدقاء المنحرفين والمستشارين الضالين يمكنهم السيطرة على فكر الإنسان وتغيير موازين عقله وإغلاق طريق الحق عليه، ونذكر هنا نماذج من الروايات التي تشير إلى ذلك:

١ ـ نصح الإمام علي عليه السلام ابنه الحسن يوماً قائلاً له:

« يا بُني إياك ومصادقة الأحمق فانّه يريد أن ينفعك فيضرك ... وإياك ومصادقة الكذاب فانه كالسراب يُقرّبُ عليك البعيد ويُبعد عليك القريب»[٢].

٢ ـ وقد جاء في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر حول المستشارين:

«ولا تُدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل وَيعِدك الفقر ولا جباناً

١. تفسير في ظلال القرآن، ج ٦، ص ١٥٦.

٢. نهج البلاغة الكلمات القصار الكلمة ٣٨.

يُضعفك عن الأمور ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور»[١].

ويستفاد من التعبير الأخير أنّ المستشارين المنحرفين يمكنهم التأثير في فكر الإنسان ويحولون دون الإدراك والمعرفة.

٣ ـ وقد جاء في حديث آخر للإمام علي عليه السلام:

«مجالسة الأشرار تُورِثُ سوء الظن بالأخيار»[٢].

٤ ـ وقد جاء في حديث للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله:

«المرءُ على دين خليله وقرينه»[٣].

وبهذا يتضح تأثير الصديق الصالح أو غير الصالح على كيفية المعرفة واسلوب التفكير.

٣ـ حجاب الاعلام و الوسط الاجتماعي

في البداية نتأمل خاشعين في الآيات الكريمة التالية:

١ ـ ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ * ... فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴾. (طه / ٨٥ ـ ٨٨)

٢ ـ ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾. (القصص / ٧٩)

٣ ـ ﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾. (الأعراف / ١١٦)

٤ ـ ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾. (آل عمران / ٧٢)

---

١. نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

٢. سفينة البحار، ج ١، ص ١٦٨.

٣. اصول الكافي، ج ٢، ص ٣٧٥، باب مجالسة أهل المعاصي، ح ٣.

٥ ـ ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾. (الزخرف / ٥٢ ـ ٥٤)

ﮂﮃ

جمع الآيات وتفسيرها

الإعلام المسموم:

إنّ الآيـة الأُولىٰ أشارت إلىٰ قصة السامري طالب الشأن والمقام، الـذي استغل غـيبة موسىٰ عليه السلام اثناء ذهابه إلىٰ طور سيناء (للقاء ربه) لمدّة أربعين يوماً، فجمع ذهب وحُلي بني اسرائيل وصنع منها صنماً في صورة عجل! ويظهر أنّه وضعه باتجاه الريح بـحيث يُـخرج صوتاً كرُغاءِ البقرة عند هبوب الرياح، وقد عبّر القرآن عن هذا الصوت بـ«خوار» أي صوت البقرة البطيء.

إنّـه انتهـز الفرصة بأُسلوب خاص، حيث قام بعمله هذا بعد مضي خمسة وثلاثين يوماً من غيبة موسىٰ، أي عندما أخذت أنوار التبليغ التـوحيدي تـتضاءل فـي قـلوب بـني اسرائيل، حيث كان المفـروض أن يَـرجِعَ موسىٰ من طور سيناء بعد ثلاثين يوماً، إلّا أنّ الله اخّر ميعاده لامتحان بني اسرائيل فـاتمهن أربعين يوماً.

يقول القرآن في هذا المجال: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.

وعلىٰ أيّ حال فإنّ انحراف بنـي اسرائيل (الـذين ينقل أنّ عددهم بلغ الستمائة ألف) عن طريق التوحيد الخالص إلىٰ الشرك والكفر وعبادة الأصنام ليس بالأمر الهين، إنّ الآيات التي جاءت في هذا المجال في سورة « طٰه » وغيرها من السور وكذا التواريخ والتـفاسير تكشف عن أنّ السامري كان يستعين بأسلوب خاص من الاعلام والتبليغ للإستحواذ علىٰ أفكار الناس وغسل أدمغتهم، بحيث جـعل حـجاباً عـلىٰ عـقولهم، فـظنوا (بـسـبب ذلك

الحجاب) أنّ هذا العجل هو إله موسىٰ؟!

والعجيب هنا أنّ الأمر بـلغ ببني اسرائيل إلىٰ حَدٍّ حيث ردّدوا ما قاله السامري: «هذا إله موسىٰ»، والتعبير بـ«قالوا» شاهدٌ علىٰ هذا.

والتعبير الأخير دليل واضح علىٰ تأثير إعلام السامري الشديد، إنّه كان يستثمر إعلامه في الجهات التالية:

١ ـ انتهاز فرصة غيبة موسىٰ.

٢ ـ تمديد غيبته إلىٰ أربعين يوماً.

٣ ـ الاستعانة بالذهب والحلي التي كانت ثمينة بالنسبة لبني اسرائيل.

٤ ـ استثمار الأرضية المساعدة والمنحرفة مثل طلبهم من موسىٰ جعل صنمٍ إلهاً عندما نجوا من الغرق في النيل، ومرّو بقوم يعبدون الأصنام: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾. (الأعراف / ١٣٨)

٥ ـ مكانته الاجتماعية عند بني اسرائيل واعتمادهم عليه إلىٰ حدٍ حيث كانوا يولون له قدسية خاصة ويعدونه ربيب جبرئيل[1]

٦ ـ حب ضعفاء الفكر لأله محسوس، وعدم التفاتهم إلىٰ أنّ الله بعيد عن التجسيم والصفات الجسمانيه، حيث بلغ بهم الأمر أن طلبوا من موسىٰ رؤية الله جهرة كما عكس القرآن ذلك في الآية الخامسة والخمسين من سورة البقرة.

إنّ هـذه الأُمور وأُموراً أُخرى سببت انحراف بنـي اسرائيل عن جادة التوحيد بالكامل، واغواءهم بتبليغ السامري واعلامه وفي النهاية عبادتهم للأصنام.

ولهذا، عندما رجع موسىٰ وعلم بهم، وبيّن القبح الشديد لعملهم هذا، استيقظوا من غفوتهم وصرخوا قائلين: ندمنا! ندمنا! واستعدوا لأجل قبول توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً كفارة لذنبهم العظيم (البقرة / ٥٤).

---

١. تفسير روح الجنان، ج ٧، ص ٤٨٢؛ تفسير روح البيان، ج ٥، ص ٤١٤؛ دائرة المعارف ـ دهخدا ـ مادة (ساري)، (بالفارسية).

وعلىٰ أيّ حــال، فإنّ الآية دليل واضح علىٰ حجاب الاعلام المضلل.

ﱡﱠ

وتحدثت الآية الثانية عن «قارون» الغني والمعروف في بني اسرائيل الذي قـام يـوماً باستعراضٍ لثروته أمام بني اسرائيل.

لقد نُقِل في التواريخ قصص كثيرة في هذا المجال، فكتب بعضهم: ظهر قارون مع فريق يُعدّ بأربعة آلاف رجل وامرأة من الخدم والحشم والجاريات، فالرجال علىٰ خيولٍ أصيلة، بألبسة حمراء، والجاريات علىٰ بغال بيض سروجها من ذهب، والجميع مـزينون بـالحلي والحلىٰ والذهب والمجوهرات[1].

وقد قدر البعض عدد أفراد قارون بسبعين ألفاً. وإذا لم نعتبر هذه الأرقام واقعية، فتعبير القرآن: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ يكشف عن عظمة تلك اللقطة. وقد يكون عمله هذا من أجل تحدي واغضاب موسىٰ عليه السلام، أو تثبيتاً لقدرته في بني اسرائيل، أو أنّه جنون عرض القوة والثروة اللتين يُبتَلىٰ بهما كثير من الـمتمولين والأغنياء، وعلـىٰ أيّ حال، فإنّ تـلك اللـقطات والاعلام المتـزامن معها كان بـدرجة من الـعظمة سـلبت عقـول الكثير من بني اسـرائيل وَأَلْقَتْ بستار علىٰ أرواحهم حتىٰ جعلتهم يتمنون أن تكون لهم ثروتـهُ وقـدرته، ويعدونه سعيـداً و«ذو حظٍ عظيم».

وبعد ما جاء ذلك اليـوم الذي خسف الله الأرض بقارون وثروته بسبب جرائمه وأعماله المشينة، وعلم الجميع بما حَلَّ بِهِ استيقظوا من غفلتهم وأبدوا سرورهم من حيث إنّـهم لم يكونوا مثل قارون.

إنّ تأثير الاعـلام لا ينحصـر على ذلك الزمـان فحسب، بـل يشمل في كل عصر وهذا أمرٌ لا يُنـكر، وان كثيراً مـن جـبابرة المـاضي والحـاضر يسـتعينون بـاستعراض قـوتهم وامكانياتهم كاستعراض قارون لأجل تخدير أفكار الناس، وتسخيفها، وسحر أعينهم، وقد

---

١. راجع تفاسير الكبير والقرطبي وروح المعاني في ذيل الآيات في سورة القصص.

جَنَوا ثمار مثل هذه الاستعراضات ولا يزالون، وإنَّ العلماء والمفكرين الراسخين هم فقط القادرون علىٰ رفع هذه الحجب عن أفكارهم وأفكار غيرهم، وتبيان الوجوه الحقيقية لهؤلاء الجبابرة.

و قد بينت الآية الثالثة جانباً من جوانب مقارعة موسىٰ للسحرة، الذين دعاهم فرعون من جميع أرجاء مصر واغراهم بالكثير من الوعود، والذين يقدر عددهم بعشرات الآلاف من السحرة طبقاً لبعض الروايات، وبخمسة عشر الف ساحر طبقاً لروايات أُخرىٰ (يحتمل أن يكون هذا العدد متعلقاً بنفس السحرة وأعوانهم وعمالهم، كما ينبغي الالتفات إلىٰ أنّ السحر كان رائجاً في ذلك العصر بكثرة).

وقد اجتمع لأجل ذلك جمعٌ غفير من الناس عند الضحىٰ في يوم كان عندهم عيداً (كما عبّر عنهُ القرآن *«يوم الزينة» و«ضحىً»* في الآية ٥٩ من سورة طه، وقد كشفت القرائن عن أنّ فرعون كان واثقاً من انتصار السحرة علىٰ موسىٰ ﷺ، وذلك لأنّه كان قد سخر جميع وسائل الاعلام لخدمة هذه القضية.

تقول الآية: **﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾.**

وينبغي هنا معرفة مفردتي «الاسترهاب» و«السحر» جيداً لفهم الآية.

جاء *«السحر»* ـ لغة ـ بمعنيين، الأول هو الخدعة، والثاني هو الشيء الذي غمضت عوامله وكانت غير مرئية، وقد أرجع البعض كلا المعنيين، إلىٰ معنىً واحد وقالوا: إنّ حقيقة السحر هي قلب الشيء من حقيقته إلىٰ شكل آخر[1].

و كما قلنا في المجلد الأول من التفسير الأمثل عند تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة: أنّ السحر غالباً ما يعتمد علىٰ الخواص الكيمائية والفيزيائية للمواد التي لم يعرفها الناس إلّا أنّ السحرة يعرفونها جيداً وقد اعتمدوا عليها كلياً، كما أنّه جاء في التفاسير حول قصة

١. راجع قاموس اللغة، ومفردات الراغب، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم، وتاج العروس.

مقارعة موسىٰ عليه السلام للسحرة، إذ يحتمل أنّ ما جاء به السحرة هو مجموعة من العصي والحبال الجلدية الجوفاء والمليئة بمادة الزئبق الفرّار، وبما أنّ الحركة والتمدد الشديد من خواصه عند ارتفاع درجة حرارته. فعندما ألقوا هذه العصي والحبال بدأت بالحركة والقفز والتقلص والانبساط بفعل حرارة الشمس أو الحرارة المنبعثة من المكان الذي يحتمل وجود مصدر حرارتي تحته[١].

وقد يستعين السحرة في عروضهم ـ أحياناً ـ بالشعوذة وخفة اليد، فيرىٰ الناسُ أشياءَ لا واقع لها، وقد شاهد كثير من الناس نماذج من هذه العروض، وقد ينشرون مواد كيميائية خاصة عن طريق العطور وتبخير اعشاب معينة بحيث تؤثر علىٰ الحاسة الباصرة وحاسة السمع بل وحتىٰ علىٰ اعصاب الحضور لتمثيل صورٍ غير واقعية أمامهم.

كما يحتمل أنّهم يستعينون بالتنويم المغناطيسي والتلقين بحيث تتمثل صور غير واقعية أمام الناس.

بالطبع هناك قسم آخر من السحر يحتمل استعانة السحرةُ به وهو تسخير الجن أو بعض الأرواح (وهذه خمسة طرق رئيسية للسحر).

وقد يطلق السحر علىٰ معنىٰ أوسع من المعاني السابقة. فيقال لمن حسن بيانه « له بيان ساحر » كما جاء في الحديث: إنّ الفتنة سحر، لأنّها تفرق بين الأحبّة. إلاّ أن الذي جاء في الآية هو « *سحروا أعين الناس* » وهو التلاعب بباصرة الحضور بحيث يجعلهم يرون اُموراً لا واقع لها، فيرون حية تسعىٰ وإن لم يكن هناك حية أبداً. والشاهد علىٰ هذا الحديث هو الآية: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾.

(طه / ٦)

(مع أنّها لا تسعىٰ ولا تتحرك لكن الزئبق ـ احتمالاً ـ هو الذي جعلها تبدو هكذا).

وأمّا « *استرهبوا* » فمن مادة « *رَهَب* » وهو الخوف المتزامن مع التحفظ والاضطراب (كما

١. راجع تفسير روح المعاني، ج ٩، ص ٢٢؛ التفسير الكبير ١٤، ص ٢٠٣؛ تفسير روح البيان، ج ٣، ص ٢١٣؛ تفسير المنار، ج ٩، ص ٦٦ وتفاسير اُخرى.

يقول الراغب في مفرداته) وقد فسر كثير من المفسرين الاسترهاب بـالإرهاب أي ايـجاد الخوف والاضطراب، والتعبير هذا يكشف بوضوح عن استعانتهم بوسائل الاعلام والتلقين إضافة إلىٰ سحر (وغالباً ما يستعين السحرة بهذين الأمرين، بل القسم الأعظم من موفقيتهم يرجع اليهما وإلىٰ حسن القيام بهما).

وقد نقل أنّ مساحة المحل الذي عُدَّ لهذا الأمر كان ميلاً في ميل [1]، كما نقل أيضاً أنّـهم أعدوا جبلاً من الحبال والعصي التي تبدو وكأنّها أفاعي تسعىٰ [2].

ثم خاطب السحرة النـاس بأقاويل مثل: أيها الناس ابتعـدوا عـن السـاحة لكـي لا تمسكم الأفاعي بضرر لأنّها خطرة ومخيفة! وأمثال هذه التعابير التي أُشير إليها في بـعض التفاسير [3]، وقد تأثر بهم الناس كثيراً لأنّهم سحروا أعينهم وقلوبهم، وبهذا ألقوا بحجبهم علىٰ حواس الناس وعلىٰ عقولهم للحيلولة دون إدراك الحقائق والواقعيات.

لقد كشفت الآيـة الرابعة عن احدىٰ المؤامرات الاعلامية التـي حـاكـها اليـهود ضـد الإسلام، والتي كان هدفها تضعيف عقيدة المسلمين بـالإسلام، وقـصتها: أنّ فـريقاً مـنهم أسـلموا وآمنوا ظاهراً في النهار وارتدوا عن الإسلام في الليل، وعندما سئلوا عن سـبب رجوعهم عن الإسلام قالـوا: إنا لاحظنا صفات محمدﷺ من قريب فوجدناها لا تتطابق مع كتبنا الدينية وأحاديث علمائنا فرجعنا عنه.

إنّ هـذه الحملة الاعلامية سـببت في ارتـداد قـوم من المسلمـين عن الإسلام، إذ قالوا: إذا ارتدّ عن الإسلام أهل الكتاب الذين هم أفهم منّا ويعرفون القراءة والكتابة، فـلابدَّ وأنّ الدين باطل ولا أسس قوية له، وبهذا استطاعوا أن يشوشوا علىٰ أفكار البسطاء من الناس

١. تفسير روح المعاني، ج ٩، ص ٢٢.

٢. تفسير المنار، وقد نقل هذا الحديث عن مفسر باسم ابن اسحاق، ج ٩، ص ٦٦.

٣. التفسير الكبير، ج ١٤، ص ٢٠٣.

ويلقوا بحجاب فتنتهم علىٰ عقولهم.

إنّ مفردة « *طائفة* » في عبارة « *وقالت طائفة* » من مـادة « طواف » وتـعني فريقاً من الناس بشكل حلقة، وكأنّهم يطوفون حول موضوع ما، والمراد منـها علىٰ ما يـقول بـعض المفسرين: هو الاثنا عشر يهودياً من يهود خيبر أو المدينة أو نجران، حيث تألموا كثيراً عند تـغير القبلة من بيت المقدس إلىٰ الكعبة، فحاكوا هذه المؤامرة [١].

إنّ التعبير بـ« *وجه النهار* » إشارة إلىٰ بداية النهار لأنّ الوجه أول شيء يواجهه الإنسان، وهو أشرف عضو، بالطبع أنّ الآية حكت المسألة كاقتراح اقترحه البعض ولم تـتكلم عـن تنفيذ هذا الاقتراح، إلّا أنّ القرائن أثبتت أنـهم نفذوا مؤامرتهم بعد ما حاكوها، وإلّا فيُستبعد أن يذكره القرآن باهتمام بالغ، والآيات اللاحقة تحكي عن هذه الأهميّة.

لكننا نعلم علىٰ أيّة حال، أنّ خطتهم الإعلامية هذه لم تترك أثراً ملحوظاً فـي قـلوب المؤمنين الذين طهُرت قلوبهم.

﴿﴾

إنّ الآية الخامسة والأخيرة بيّنت كذلك جانباً من جوانب مقارعة موسىٰ عليه السلام لفـرعون، فعندما اتّجهت الأنظار إلىٰ موسىٰ وكادت القلوب أن تـهتدي والأفكـار أن تُـصحح، قـام فرعون بحملةٍ اعلامية شديدة سعياً منه لحرف الناس عن اتجاههم نحو دين موسى، وقـد انعكس في هذه الآية جانب من جوانب الاعلام الفرعوني المضلل.

اعتمد اعلامه في البداية علىٰ ذكر شرفه العائلي ونسبه، وقال: «أنا خير من هذا الشخص مشيراً إلىٰ موسى» الذي ينحدر من عائلة فقيرة حيث يعمل راعياً وعبداً مـن عـبيد بـني اسرائيل.

و هو لا يملك قدراً من الفصاحة وأنا افصح منه.

وفضلاً عن ذلك «*فلو لا القي عليه اسورة من ذهب*» أي لِمَ لم يكن له سوار مـن ذهب

---

١. التفسير الكبير، ج ٨، ص ٨٥؛ تفسير روح المعاني، ج ٣، ص ١٧٦؛ تفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٣٥٤.

الذي كان يُعد علامة وبيان لشخصية صاحبه.

ثم انّه إذا كان صادقاً لِمَ لم يأتِ بملائكة معه كي تكون شاهداً وعلامة علىٰ صدق كلامه؟

وبهذه الحجج الأربع ادّعىٰ بطلان نبوة موسىٰ عليه السلام.

يقول القرآن في هذا المجال: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾.

إنّ «استخف» من مادة «خفيف» والمراد منه هنا هو أنّ فرعون سعىٰ لأنّ يستخف عقول قومه، جاء في تفسير مجمع البيان: إنّ فرعون استخف عقول قومه فأطاعوه فيما دعاهم إليه لانّه احتج عليهم بما ليس بدليل وهو قوله: أليس لي ملك مصر ... الخ [1] (واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لاغرابة فيه؛ فهم يعزلون الجماهير أولاً عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتىٰ ينسوها ولا يعودون يبحثون عنها؛ ويلقون في روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتىٰ تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادتهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين) [2].

والجدير بالذكر أنّ القرآن يقول في نهاية الآية: إنّهم أطاعوه واستسلموا لإعلامه، وذلك لأنّهم مذنبون وفاسقون، وهو يشير بذلك إلىٰ أنّ المؤمن الهادف والواعي لا يكون عرضة لظاهرة غسل الأدمغة، بل الفسق والذنوب هي التي تهيىء الأرضية لتقبل إعلام باطل كهذا.

وبتعبير آخر: فإنّ «النفس الامارة» من الداخل، و«الوساوس الشيطانية» من الخارج يتعاضدان فيكتمان المعرفة عن الإنسان.

ﮔﮕ

---

١. تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٥١.

٢. تفسير في ظلال القرآن، ج ٧، ص ٣٤٠.

توضيح

الجوانب المتعددة للإعلام المضلل:

إنّ هذه القضية في عصرنا الحاضر أوضح من أن تبحث أو تُناقش، كما أنّها لم تخفَ على الناس في العهود الغابرة.

إنّ الجبابرة الذين أرادوا فرض إرادتهم وحاكميتهم علىٰ الناس، توسلوا بوسائل إعلامية مختلفةٍ لغسل أدمغة الناس، بدءً بالمكاتيب القديمة وانتهاءً بالمحاريب والمنابر، وأخذاً برواة القصص والأساطير في المقاهي، وانتهاءً بالكتب العلمية.

والخلاصة : إنّهم استعانوا بجميع الوسائل المضلّلة للوصول إلىٰ مآربهم، من تحريف التاريخ، وأشعار الشعراء، وثناء المداحين، ومراكز التقديس والاحترام عند الناس، واختلاق الأساطير والكرامات والقيم غير الواقعية، وغيرها من الوسائل، فانّهم يستطيعون بوسائل الاعلام هذه أن يصوروا الشيطان ملكاً أو إنساناً محترماً، وذلك كله من أجل الوصول إلىٰ مآربهم.

وقد جاء في بعض التواريخ الإسلامية المعروفة أن طاعة أهل الشام لمعاوية بلغت درجة عجيبة، وننقل هنا عبارة المسعودي في هذا المجال:

«لقد بلغ من أمرهم في إطاعتهم له أنّه صلىٰ بهم عند مسيرهم إلىٰ صفين الجمعة في يوم الأربعاء»[1].

والقصة التالية قصة معروفة (وَلَوْ لَمْ تكن مرويّةً في كتب التاريخ لكان قبولها صعباً)، حيث إنّ رجلاً من أهل الكوفة قدم دمشق راكباً جملاً في وقت كان أهل الشام يرجعون من صفين، فرآه رجل دمشقي فقال له: إنّ هذه الناقة لي وأنت أخذتها مني في صفين، فتنازعا فاشتكىٰ الشامي عند معاوية (وكأنّها اتخذت صبغة سياسية) وجاء بخمسين شاهداً علىٰ أنّ هذه الناقة له، فقضىٰ له معاوية علىٰ أساس الشهود.

فصرخ الكوفي قائلاً لمعاوية: إنّ هذا جمل وليس ناقة (انثىٰ الجمل)، وطلب منه أن

---

١. مروج الذهب، ج ٢، ص ٧٢.

يلاحظها بنفسه، فأدرك معاوية صدق الكوفي فيما يقوله، لكن رغم ذلك قال له: إنّ الحكم صدر وانقضىٰ، وبعد ما تفرّق الناس أرسل معاوية رجلاً إلىٰ الكوفي، فأتاه وأعطاه ضعف قيمة جمله، وقال له: «أبلغ علياً أنّي أقابله بِمِائةِ ألفٍ ما فيهم من يُفرق بين الناقة والجمل»[1].

وخلاصة القول: إنّ في التاريخ شواهد ونماذج كثيرة تكشف عن كيفية إغـواء الطـغاة والساسة لأُمم عظيمة وغسل أدمغتهم بحيث ضلوا حَيارىٰ في متاهات الدروب، وابـتلوا بمصائب كثيرة، وعند استتباب الأوضاع ورجوعها إلىٰ حالتها الطبيعية، وعند سقوط الجبار المضل، وارتفاع حجب الاعلام، يستيقظ بـعض النـاس ويـنتبهون لمـاضيهم فـيتأسفون ويندمون كثيراً.

وفي العصر الحاضر اكتسب الاعلام قدرة عظيمة بدرجة انّ في بعض الدول المتقدمة ـ اصـطلاحاً ـ تأخـذ وسـائل الاعـلام بأيـدِ الشـخصيات العـلمية والمـفكرين الواعـين نسبياً صناديق الاقتراع ليصوتوا للشخصيات التي تدعو إليها وسائل الاعـلام تـلك، وقـد يتصور أنّهم احرار علىٰ الاطلاق، بينما لا خيار لهم من جراء وسائل الاعلام تلك.

إنّ اتساع وسائل الاعلام المسموعة والمرئية واستعانتها بفنون علم النفس يـزيد فـي تأثير الاعلام علىٰ النفوس بدرجة يَحارُ فيها الخارجون عن دائرة الاعلام والمتمكّنون من متابعة الأُمور من دون رأي مسبق فيها.

إنّ هذا الأمر لم ينحصر في الأُمور السياسية فحسب، بل في الأُمور الاقتصادية كذلك، فإنّ وسائل الاعلام يمكنها بحملة إعلامية أن تسوق المجتمع نحو استهلاك سلعة قد تكون اعتباطية أو مضرة أحياناً، وبهذا يُفرض علىٰ المجتمع اقتصادٌ سقيم.

إنّ الاستعانة بعناوين وقيم كاذبة مثل الاستعانة بعنوان «موديل» أحـد أوسـع وأعـقد الطرق للوصول إلىٰ هذه الأهداف غير المشروعة.

كما أنّه يستعان بالاعلام الثقافي الغامض لفرض المـذاهب الفكـرية المـختلفة عـلىٰ الشعوب، فتارة يُفرض مذهب باطل وعارٍ عن الأُسس المنطقية، وكأنـه مـذهب فـلسفي منطقي إنساني.

---

١. مروج الذهب، ج ٢، ص ٧٢؛ الإمام علي صوت العدالة الإنسانية، ج ٤، ص ٩٥٦.

وعلىٰ أيّة حال، فمما لا شك فيه أنّه ينبغي رفع هذه الحجب عن المجتمع وتصحيح اتّجاه المعرفة فيه، كما ينبغي عدم ترك وسائل الاعلام أن تفكر وتقرر بدلاً عن المجتمع، بل يحدد عملها في توعية الناس، وتهيئة الأرضية لهم لاتخاذ القرارات الصحيحة.

ينبغي أن لا يكون هدف وسائل الأعلام الجماعية هو وضع الحجب علىٰ عقول الناس والتعتيم عليهم، بل ينبغي أن يكون الهدف هو رفع حجب التعصب والجهل والغفلة والتقليد العشوائي عن العقول، وهذا هو البرنامج الراقي لوسائل الاعلام في مجتمع رشيد ونموذجي، والمؤسف في عصرنا الحاضر هو قلة مثل هذه المجتمعات.

إنّ النقص في وسائل الاعلام هو أنّها بيد الساسة، والأسوء من ذلك أنّها بيد العمالقة الاقتصاديين الذين يوجهون الناس أين ما شاءوا.

❁❁❁

٤ـ حجاب وساوس الشياطين

في البداية نتمعن خاشعين في الآيات الشريفة التالية:

١ ـ ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾. (الأنعام / ٤٣)

٢ ـ ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾. (النمل / ٢٤)

٣ ـ ﴿ وَعَاداً وَثَمُودَا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾. (العنكبوت / ٣٨)

٤ ـ ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾. (الزخرف / ٣٦ ـ ٣٧)

٥ ـ ﴿ وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾. (الأنعام / ١١٢)

٦ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ

وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾. (محمد / ٢٥)

٧ ـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾. (فاطر / ٥)

80C3

شرح المفردات:

كلمة «*الشيطان*» خلافاً لما يظنّ البعض ـ ليس اسماً خاصاً بابليس وعلماً له، بل له مفهوم عام، وعلىٰ ما يُصطلح عليه فهو «اسم جنس» يشمل كل موجود متمرد وباغ ومخرّب، سواء كان من الجن أو الانس أو شيئاً آخر.

وهنالك قولان في أصل هذه المفردة:

القول الأول هو القائل بأنه من مفردة «*شُطُون*» أي البُعد، ولهذا قيل للبئر العميق والبعيد قعره عن متناول الأيدي «*شَطون*»، ويقول «خليل بن أحمد»: إنّ شَطَن تعني الحبل الطويل، وبما أنّ الشيطان بعيد عن الحق وعن رحمة الله استعملت هذه المفردة فيه.

والقول الثاني هو القائل بأنه من مادة «*شَيط*» ويعني الالتهاب والاحتراق غضباً، وبما أنّ الشيطان خلق من نار واشتعل غضباً عندما أُمر بالسجود إلىٰ آدمعليه السلام أطلقت هذه المفردة عليه وعلىٰ الموجودات الأُخرى من أمثاله[1].

«*الغَرور*»: من مادة «*غُرور*» أي الخدعة والحيلة والغفلة عند اليقظة، وقد اطلقت هذه المفردة علىٰ الشيطان لأنّه يغرّ الناس بخدَعِه وحِيَله ويخرجهم عن الطريق الصواب، ويغيّر رؤيتهم للحق والباطل.

«*الغَرور*»: كل شيء يغرّ ويخدع، وهو أعمّ من المال والمقام والشهوة والشيطان، وإذا فسّر أحياناً بالشيطان فقط فذلك لأنّه أخبث الخادعين والماكرين.

أمّا «*التسويل*» فمن مادة «*سُؤْل*» وفي الأصل يعني الحاجة والأُمنية التي ترغب النفس

---

١. التحقيق في كلمات القرآن الحكيم؛ مفردات الراغب؛ لسان العرب ومجمع البحرين مادة (شيطان).

فيها، والتسويل يعني تزيين الشيء بشكل حيث تشتاق إليه النفس، كما جاء بمعنىٰ تزيين الأشياء القبيحة.

هذا التفسير ذكره الراغب في مفرداته، إلّا أنّه يستفاد من صِحاح اللغة وكتاب العين، أن معناها في الأصل هو الاسترخاء المتزامن مع الغرور والغفلة، ولهذا اطلقت هذه المفردة علىٰ تزيين الأُمور غير السائغة واظهار عكس ما هي عليه وبشكل سائغ، بحيث يُخدع الإنسان من جرائها ويسترخي.

وعلىٰ أيّة حال، فإنّ المراد من تسويلات الشيطان في الآيات هو إظهار القبح حسناً بشكل يخدع الإنسان ويحرفه.

جمع الآيات وتفسيرها

كيف يُزيّن الباطل؟ وكيف تُسحر العيون؟

تحدثت الآية الأُولىٰ عن فريق من الأقوام السالفة الذين أُرسل إليهم رسلٌ ليؤمنوا ويسلموا أنفسهم للحق، إلّا أنّهم اعرضوا عن ذلك، فأنزل الله عليهم بأسه، فابتلاهم بمختلف المشاكل والمصائب والحوادث الصعبة، والفقر والمرض والقحط وغير ذلك، كي يوقظهم من غفلتهم، ولكي يخضعوا للحق، إلّا أنّهم اتخذوا السبيل المنحرف بدل سبيل الرشاد والرجوع إلىٰ الحق والتوبة.

يقول القرآن في هذا المجال: لماذا لم يتضرعوا بالرغم من مجيء بأسنا لهم؟ ثم يعدُّ أسباب هذا الأمر ويقول: الأول هو ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فما كادت تخضع للحق.

والثاني هو: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، بحيث أصبحوا يرون المعاصي صواباً والقبح جمالاً، وقد نفذ الشيطان هنا من طريق عبادة الهوىٰ.

وبتعبير آخر: لم تؤثر فيهم لا مواعظ الأنبياء اللفظية، ولا مواعظ الله العملية والتكوينية، وعامل هذا الحجاب هو قسوة القلوب من جهة، ومن جهة أُخرى تزيين الشيطان لهم، بحيث سلب منهم روح التضرع والخضوع.

هناك بحث بين المفسرين في المراد من «تزيين الشيطان»، فيقول البعض: إنّه الوساوس الشيطانية التي تبدو المحاسن فيها قبائحاً والقبائح فيها محاسناً، أو العوامل الخارجية التي تزين للإنسان سوءَ أعماله، كما تُجعل المواد السامة في غلاف مُغرٍ وجميل، وكما يُدعىٰ للانحرافات الكبيرة تحت غطاء التمدن والأفكار النيرة والحرة.

وتحدثت الآية الثانية عن هدهد سليمان عندما قدم من رحلته إلىٰ بلاد الملكة سبأ، فبعد حكايته لقصة سبأ وحضارة بلادها العظيمة قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

إنّ هذه الآية تكشف عن أنّ الهدهد بالرغم من محدودية عقله وذهنيته الخاصة به وبعالمه يدرك بالاجمال حجب المعرفة، ويعرف أنّ الشيطان يجعل ستاراً علىٰ فكر الإنسان يحول دون تمكنه من إدراك الحقائق ويغلق أبواب المعرفة عنه ويحول دون وصول الإنسان إلىٰ مراده المنشود.

وقد بحثنا امكانية اطلاع الحيوانات علىٰ عالم الإنسان، كما بحثنا مدىٰ معرفتها لهذا العالم في تفسير الأمثل ذيل الآية ١٨ من سورة النمل، وفي ذيل الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

كما تحدثنا في ذيل الآية نفسها عن كيفية طي الهدهد المسافة الطويلة بين الشام واليمن ووصوله إلىٰ بلاد سبأ.

❊❊❊

وقد تحدثت الآية الثالثة عن قوم عاد وثمود وطغيانهم وعصيانهم ثم هلاكهم، كما عرضت علىٰ عرب الحجاز مدنهم الخربة التي يمرون بها عند رحلاتهم إلىٰ الشام واليمن كعبرة لهم، ثم أشارت إلىٰ السبب الأساسي في إهلاكهم وهو تزيين الشيطان لأعمالهم بحيث ما كادوا يبصرون شيئاً ولا يعقلون رغم امتلاكهم للابصار والعقول، وقد قالت الآية: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

إنّ عبارة ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ـ كما يقول كثير من المفسرين ـ تعني غفلتهم وعدم

تدبرهم في الحقائق بالرغم من امتلاكهم للعقول والحواس واقتدارهم علىٰ الاستدلال والتمييز بين الحق والباطل [١].

وقد جاء في تفسير الميزان: «إنّهم كانوا يعرفون طريق الحق بفطرتهم إلّا أنّ الشيطان زيَّن لهم أعمالهم فمنعهم عنه» [٢].

ويقول البعض: إنّ المراد من العبارة هو معرفتهم للحق بواسطة دعوة الأنبياء وتعاليمهم [٣].

إنّ الآية بجميع تفاسيرها (سواء قبلنا أحدها أو قبلنا الجميع لعدم المنافاة بينها) شاهد علىٰ ما قلناه من أن تزيين الشيطان يجعل حجاباً علىٰ عقل الإنسان وفكره.

ﷺ

وقد بينت الآية الرابعة بصورة عامة مصير الذي يعشو عن ذكر الله ويغفل عنه وقالت: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَانِ ... وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

ذكر المفسرون وأئمة اللغة معنيين لفعل «يَعْشُ». فقال بعض: إنّه ظلام خاص يحلُّ في العين يفقد الإنسان من جرائه بصره ويكون أعمىٰ أو أعشىٰ (أي لا يرىٰ في الليل) وهو من مادة «عَشَىٰ»، كما يقال «عشواء» للجمل الذي لا يرى أمامه ويخطأ عند المشي، وعبارة «خبط عشواء» إشارة إلىٰ هذا المعنىٰ.

وعلىٰ هذا فيكون معنىٰ الآية الشريفة هو: إنَّ الذي لا يرىٰ آيات الله في الكون بعينه، ولا يسمع من انبيائه، فانه سيقع في فخّ الشيطان وتسويلاته.

وقال بعض آخر: إنّها من مادة «عَشو»، وعندما تستعمل مع «إلىٰ» فتعني الهداية ببصر ضعيف، وعندما تستعمل مع «عن» فتعني الإعراض [٤].

---

١. تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٨٣؛ تفسير روح البيان، ج ٦، ص ٤٦٨، كما نقل هذا عن بعض المفسرين في تفسير القرطبي.

٢. تفسير الميزان، ج ١٦، ص ١٣١.

٣. التفسير الكبير، ج ٢٥، ص ٦٦.

٤. يقول بعض المفسرين: إنّ هذه المفردة إن كانت من مادة (عَشَا، يَعْشو)، فتعني التعامي من دون أن تكون علة في

وعلىٰ هذا فيكون المراد من الآية هو: إنّ الذين يعرضون عن ذكر الله فَنُقَيِّضُ ونسلط الشيطان عليهم [١].

إنّ «نُقَيِّضُ» من مادة «قَيض» وتعني قشر البيض ثم استعملت بمعنىٰ الاستيلاء، واستعمال هذه المفردة في الآية أمرٌ مثير، حيث يكشف عن أنّ الشيطان عندما يَنْقَضُّ علىٰ الإنسان يحيط به من جميع الجهات، ويقطع اتصاله بالخارج بالكامل كما تفعل قشرة البيض بالبيض، وهذا أسوء أنواع حجب المعرفة التي يُبْتَلىٰ بها الإنسان، كما أنّ هناك مثلاً عند العرب يقرب معنىٰ الآية للأذهان «استيلاء القيض علىٰ البيض».

والأسوء من هذا هو أنّ احاطة الشيطان بالإنسان واستيلاءه عليه ومقارنته له تستمر إلىٰ درجة تجعله يفتخر بضلالته ويحسب أنّ طريقه هو طريق الحق والهداية ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

❀❀

وقد تحدثت الآية الخامسة عن شياطين الانس والجن الذين نصبوا العداء للأنبياء والذين أعدوا أنفسهم لابطال فاعلية تعليم الأنبياء، ويوحي بعضهم إلىٰ بعض أقاويل مزخرفةً باطلةً لا أساس لها من الصحة، كما يعلّم بعضهم البعض طرق المكر والخداع، وذلك لاغفال الناس وكتم الحقائق وجعل الحجب عليها، وإبعاد الناس عن تعاليم الأنبياء.

وينبغي ذكر هذه النقطة هنا وهي: إنّ العدو ذكر بصيغة المفرد، بينما الشياطين بصيغة الجمع، وهذا قد يكون من حيث إنّ الشياطين متحدون ومتفقون في سبيل إغفال الناس وخداعهم وكأنّهم عدو واحد.

ويقول البعض: إنّ «عدو» هنا بمعنىٰ أعداء أي بمعنىٰ الجمع [٢].

بصره، أمّا إذا كانت من مادة (عَشَىٰ: يَعْشا)، فتعني حصول علة في بصره، تفسير روح البيان، ج ٨، ص ٣٦٨، وينبغي الالتفات هنا إلىٰ أنّها في الآية من باب (عَشَا، يَعْشو).

١. راجع لسان العرب ومفردات الراغب و تفاسير القرطبي وروح البيان والميزان.

٢. تفسير روح المعاني، ج ٨، ص ٤.

كما صرح بعض آخر: إنّ «العدو» تطلق على المفرد والمثنى والجمع[١].

ﻌﻠﻌ

والآية السادسة هي من آيات سورة محمد ﷺ التي أُشير فيها إلىٰ حجب متعددة من حجب المعرفة، فتارة تعدّ الفساد في الأرض وقطع صلة الرحم سبباً للعمىٰ الباطني لهم الآية ٢٣، وتارة أُخرى تعد ترك التدبر في القرآن بمثابة الأقفال علىٰ القلوب.

والآية المذكورة تعدُّ تزيين الشيطان وتسويلاته سبباً لارتداد الضالين، حيث يتبين لهم الحق ويؤمنون به أولاً، ثم ينحرفون عنه من جراء تسويلاته وتزيينه لهم إلىٰ درجة يفتخرون فيها بضلالتهم الأخيرة.

من هم المشار إليهم في الآية؟

هذا ما بحثه المفسرون وانقسموا من جرائه إلىٰ فريقين، فبعض يقول: إنّهم اليهود، حيث كانوا مؤمنين بالرسول ﷺ قبل ظهوره وذلك لوجود العلامات المذكورة في كتبهم عن ذلك الرسول، ثم سلكوا سبيل العناد والمخالفة له بعد ظهوره، ويُعدُّ هذا نوعاً من الارتداد.

وبعض يقول: إنّها تشير إلىٰ المنافقين الذين آمنوا في البداية ثم ارتدوا بعد ذلك، أو أنّهم آمنوا ظاهراً وهم كافرون باطناً، لكن مع الالتفات إلىٰ كون الآيات التي سبقت هذه الآية والتي تليها ناظرة إلىٰ المنافقين، لا يبعد أن تكون هذه الآية تشير إليهم كذلك فالمراد من الآية ـ إذن ـ المنافقون الذين آمنوا في البداية ثم ارتدوا بعد ذلك.

إنّ «*وأملىٰ لهم*» من مادة «*املاء*» أي الإمهال[٢]، والمراد منها هو الآمال البعيدة التي يوحيها الشيطان للإنسان، الآمال التي تشغل فكر الإنسان وتزين له الباطل وتبعده عن الحق.

ﻌﻠﻌ

أمّا الآية السابعة والأخيرة فقد أنذرت الناس ـ بتعبير وافٍ ـ بأن وعد الله حق، ثم ذكر

---

١. تفسير المنار، ج ٨، ص ٥.

٢. ينبغي الالتفات هنا إلى أنّ أصل هذه المادة هو (مَلْو) لا (مَلأ) ـ بالهمزة ـ.

عاملين للضلالة والانحراف عن الحق، الأول: الدنيا ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، والثاني: الشيطان ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ فتارة يؤملكم بكرمه وينسيكم غضبه، وتارة اُخرى يغويكم بشكل بحيث تنسون الله وتعاليمه، أو تبدو لكم تعاليمه بشكل معكوس.

إنّ «غرور» ـ كما أشرنا سابقاً ـ هو كل ما خدع الإنسان، سواء كان مالاً أو جاهاً أو شهوات أو غير ذلك، وبما أنّ الشيطان أوضح مصداق للخداع، أطلق عليه ذلك كثيراً، وفُسّر به[١].

يعتقد كثير من المفسرين أنّ عبارة ﴿لَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ تلميح إلىٰ أنّ الشيطان غرّ الإنسان بعفو الله وكرمه بدرجة يمكّنه من ارتكاب أي معصية أراد، ويبلغ به الأمر أن يعتقد بأنّ هذا ناشيء عن كمال معرفته لصفات الله! وهذا أمر عجيب.

وحاله كحال من يتصور أنّ جسمه قوي وذو مناعة تمكنه من مقاومة جميع السموم المهلكة، فيخدعه تصوره ويتناول السم فيموت.

وهذا هو أحد حجب المعرفة.

توضيحات

١ ـ من هو الشيطان؟

إنّ «الشيطان» ـ وكما قلنا سابقاً ـ ليس اسماً خاصاً أو علماً لإبليس، بل إنّ إبليس الذي امتنع عن السجود لآدم هو أحد الشياطين.

إنّ لإبليس جنوداً كثيرة من جنسه ومن الناس، وتطلق مفردة الشيطان علىٰ الجميع، وعلىٰ هذا فقادة الكفر والشرك والظلم والفساد في الأرض، والعاملون في الاجهزة الظالمة كلهم من جنود الشيطان، ولقد جاء في رواية أن هناك شياطينَ من الانس أسوء من شياطين الجن، حيث سأل رسول الله ﷺ أباذر يوماً: *«هل تعوّذت بالله من شر شياطين الجن*

---

١. إنّ «الغرور» صيغة مبالغة.

والإنس»؟

فقال أبوذر: وهل من الناس شياطين؟

فأجابه رسول الله ﷺ: *«نعم هم شرّ من شياطين الجن»* [١].

كما أنّ المستشفّ من القرآن هو أن للشيطان جنوداً فرساناً وراجلين كما جاء ذلك في الآية: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾. (الاسراء / ٦٤)

إنّ *«اجلب»* من مادة «إجلاب» ويعني التجمع السريع أو الضجيج والصياح لحثّ مجموعة ما على الحركة.

أمّا المراد من *«خيلك ورَجِلك»*، فيقول الكثير من المفسرين: إنّه الراجل أو الفارس الذي يخطو في معصية الله، أو قاتل في هذا السبيل [٢].

ويقول البعض: إنّ للشيطان أعواناً وأنصاراً راجلين وفرساناً حقاً.

وحمل البعض العبارة على الكناية، وقال: المراد من الآية هو أنّ الشيطان أعدّ العِدّة ووفّر جميع الوسائل لصراع ومجابهة الناس [٣].

كما يحتمل أن يكون المراد من الخيل هو قادة الكفر والظلم والفساد، ومن الرجل، الشخصيات المتوسطة الأضعف من الشخصيات السابقة.

كما يحتمل أن يكون المراد من الخيل هو الشهوات والصفات الذميمة التي تتغلب على روح الإنسان وتمتطيها، والمراد من الراجلين هو العوامل الخارجية التي تسعى لانحراف الإنسان عن الصراط المستقيم.

٢ ـ الإجابة عن سؤال

---

١. التفسير الكبير، ج ١٣، ص ١٥٤.

٢. نقل القرطبي هذا التفسير عن أكثر المفسرين.

٣. ذكر الفخر الرازي هذا التفسير كاحتمال في تفسير الكبير، ج ٢١، ص ٦، وقد جاء ما يشبه هذا الاحتمال في تفسير في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٣٤٣.

هناك سؤال يرتبط ببحثنا وهو: كيف يمكن أن يتركنا الله لوحدنا نواجه جنود الشيطان القوية والقاسية؟ وهل يتفق هذا مع حكمة الله وعدله؟

يمكننا الإجابة عن هذا السؤال بالالتفات إلىٰ نقطة، وهي: إنّ الله ـ وكما جاء في القرآن الكريم ـ يجهز المؤمنين بجنود رحمانية، أي الملائكة، ويوظف القوىٰ الغيبية التي في العالم يؤازرونهم وينصرونهم في طريق جهاد النفس والعدو:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ... ﴾.

(فصلت / ٣٠ ـ ٣١)

ﮊﮋ

٣ـ النقطة المهمّة الأخرىٰ

هي: إنّ الشيطان لا يدخل قلوبنا فجأة ولا يعبر حدود دولة الروح من دون جواز، إنّ هجومه ليس مباغتاً بل يدخل برخصتنا، نعم إنّه يدخل من الباب لا من النافذة، ونحنُ نفتح له الباب، كما يقول القرآن في هذا المجال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾.

(النحل / ٩٩ ـ ١٠٠)

في الحقيقة إنّ أعمال الإنسان هي التي توفر الأرضية لنفوذ الشيطان، وذلك ما يقوله القرآن: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾. (الاسراء / ٢٧)

إلّا أنّه لا طريق للنجاة من مكائد الشياطين المتنوعة وجنودهم في أشكالها المختلفة من الشهوات ومراكز الفساد والسياسات الاستعمارية والمذاهب المنحرفة والثقافات الفاسدة، إلّا اللجوء إلىٰ الإيمان والتقوىٰ والتظلّل بألطاف الله والتوكل علىٰ ذاته المقدّسة، وكما يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا

قَلِيلاً﴾. (النساء / ٨٣)

80C3

وقد انتهت إلىٰ هنا حجب المعرفة العشرون، فننتقل معاً إلىٰ مؤهلات المعرفة.






مؤهلات المعرفة








مؤهلات المعرفة

تمهيد:

كما أنّ البذور تنمو في الأراضي الخصبة، وكما أنّ الأزهار لا تتفتح في الأراضي المالحة بالرغم من استعمال أفضل البذور، ونزول المطر المتوالي عليها، كذلك بذور المعرفة فانّها لا تنمو إلّا في القلوب الصالحة والمؤهلة، ولا تتفتح أزهارها إلّا في الأرواح الطاهرة.

ولهذا السبب فإنّ الاطلاع علىٰ الروحيات والأعمال التي تهيىء وتُعِدّ أرضية المعرفة يعد من أهم البحوث التي تتعلق بـ«المعرفة»، وقد استعمل القرآن في هذا المجال تعابير ذات معانٍ عميقة وإشارات جميلة.

وبالرغم من أنّ المؤهلات للمعرفة كثيرة، إلّا أنّ الأُسس المهمّة والتي أشار إليها القرآن عبارة عن الأُمور التالية:

١ ـ علاقة التقوىٰ بالمعرفة.

٢ ـ الإيمان والمعرفة.

٣ ـ علاقة الصبر والشكر بالمعرفة.

٤ ـ المعرفة تهيء الأرضية للمعرفة.

٥ ـ علاقة الخوف بالمعرفة

و سنبحث كلاً من هذه الأُمور في فصل خاص بعد ذكر الآيات التي تتعلق بها، كما سنستعين بالروايات الإسلامية في هذا المجال كمؤكد وموضّح لها إن شاء الله.

☙❧

١ـ علاقة التقوىٰ بالمعرفة

في البداية نتأمل خاشعين في الآيات المباركة التالية:

١ ـ ﴿الٓمٓ * ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ﴾. (البقرة / ١ ـ ٢)

٢ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾. (الأنفال / ٢٩)

٣ ـ ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. (البقرة / ٢٨٢)

٤ ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. (الحديد / ٢٨)

۞۞۞

شرح المفردات:

إنّ «*التقوىٰ*» من مادة «*وقاية*» وتعني ـ كما يقول الراغب في مفرداته ـ حفظ الشيء من الآفات.

ثم يضيف: إنّ التقوىٰ بمعنىٰ حفظ الروح والنفس ممّا يخشىٰ مضرته، ثم اطلقت علىٰ الخوف، كما أنّ التقوىٰ في الشرع تطلق علىٰ التحفظ من المعاصي، وكمالها ترك بعض المباحات المشكوكة [١].

ولباقي أئمّة اللغة تعابير تشبه ما جاء في المفردات، فقد فسرها بعض بالصيانة [٢]، وبعض اخر بـ«الامتناع عن القبائح والأهواء» [٣].

وقد نقل عدد من المفسرين حديثاً عن بعض الصحابة أنّهم سألوا عن حقيقة التقوىٰ فاجابوا:

---

١. مفردات الراغب مادة (وقىٰ).

٢. لسان العرب نفس المادة.

٣. مجمع البحرين، نفس المادة، كما ينبغي الالتفات إلىٰ أن أصل مفردة التقوىٰ هو «وَقْوىٰ» فانقلبت الواو تاءً، كما ذكر ذلك الخليل بن أحمد في كتابه «العين».

«هل مررت بطريق مليء بالأشواك في يوم ما؟ قال السائل: نعم، قال: الم تجمع ثيابك وترفع اذيالك وتسعى للخلاص من الأشواك؟ فحالتك هذه هي التقوىٰ».

نعم، إنّ الطريق إلىٰ الله مليءٌ بالأشواك كأشواك الشهوات والميول والأهواء والآمال البعيدة والكاذبة، ومن هنا ينبغي علىٰ الإنسان أن يحافظ علىٰ ثباته فيتجنب أن يكون عرضة لهذه الأشواك، وينبغي أن لا تشغله عن مسيره إلىٰ الله سبحانه وتعالى.

و هذا لايكون إلا باليقظة والمعرفة والخبرة ومراقبة النفس علىٰ الدوام.

وبتعبير أبسط: إنّ التقوىٰ هي الوقاية من الآفات التي تعترض الروح في سيرها التكاملي، وتجنّبُ الذنوب والشبهات حتىٰ الوصول إلىٰ الملكة.

وقد ذكر بعض المفسرين معانيَ عديدة للتقوىٰ، وجاؤوا بشاهد من القرآن لكلٍ منها، وفي الحقيقة أنّ كلاً منها مصداق من مصاديق التقوىٰ، مثل التوبة والطاعة والإخلاص والإيمان (العبادة والتوحيد)[1].

ويقول البعض: إنّ حقيقة التقوىٰ هي أن يجعل الإنسان حائلاً أو مانعاً أمام آفة ما، فكما يدفع الإنسان تأثير ضربات العدو بالدرع، كذلك المتقون فانهم يصونون أنفسهم من عذاب الله بواسطة درع طاعة الله[2].

نقسّم التقوىٰ إلىٰ ثلاث مراحل: التقوىٰ عن الكفر، والتقوىٰ عن الذنب، والتقوىٰ عما ينسي الإنسان ذكر ربّه[3].

ولكن ـ كما هو واضح ـ فإنّ المعاني هذه كلها ترجع إلىٰ المعنىٰ الأساسي الذي ذُكر للتقوىٰ في البداية.

ﮋﮊ

١. وجوه القرآن، ص ٥٥؛ التفسير الكبير، ج ٢، ص ٢٠.

٢. تفسير روح البيان، ج ١، ص ٣٠ و ٣١.

٣. المصدر السابق.

جمع الآيات وتفسيرها

اتقوا كي يسطع نور العلم علىٰ قلوبكم!

يقول الله عزّ وجلّ في الآية الأولىٰ: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والتعبير هذا يثبت بوضوح تأثير التقوىٰ علىٰ المعرفة كمؤهل لها.

وهذه هي الحقيقة، فما لم تحصل في باطن الإنسان مرحلة من مراحل التقوىٰ، لا يمكنه الاستفاضة من ينابيع الكتب السماوية، وأقل التقوىٰ هو أن يسلم الإنسان نفسه إلىٰ الحق ويترك العناد، فإنّ الذين يفتقدون هذه المرحلة من التقوىٰ، سوف لا يرتفعون إلىٰ أدنىٰ درجة من درجات المعرفة ولا يتقبلون الهداية أبداً.

طبيعي أنّ الإنسان كلما كانت روح التقوىٰ والتسليم إلىٰ الحق وقبول الحقائق والواقعيات قوية عنده كانت استفاضته من ينابيع الهداية أكثر.

إنّ ينابيع الهداية وعلىٰ رأسها القرآن المجيد كالغيث الذي يحيي الأرض ويفتح أزهار المعرفة فيها، وهذا يحدثُ في الأرض الخصبة فقط لا في كل أرض.

إنّ التعبير بـ«هدىً» أي بصيغة المصدر، تأكيد لحقيقة أنّ روح التقوىٰ إذا استيقظت عند الإنسان وأصبحت فعالة، فإنّ القرآن سيصبح الهداية ذاتا (تأمل جيداً).

وفي هذا المجال يقول بعض المفسرين العظام:

«إنّ الهداية الثانية لما كانت بالقرآن فالهداية الأُولىٰ قبل القرآن وبسبب سلامة الفطرة، فإنّ الفطرة إذا سلمت لم تنفك من أن تنتبه شاهدة لفقرها وحاجتها إلىٰ أمرٍ خارج عنها، وكذا احتياج كل ما سواها ممّا يقع عليه حس أو وهم أو عقل إلىٰ أمر خارج تقف دونه سلسلة الحوائج، فهي مؤمنة مذعنة بوجود موجود غائب عن الحس، منه بدأ الجميع وإليه ينتهون ويعودون، وأنّه كما لم يهمل دقيقة من دقائق ما يحتاج إليه الخلق كذلك لا يهمل هداية الناس إلىٰ ما ينجيهم من مهلكات الأعمال والاخلاق وهذا هو الاذعان بالتوحيد والنبوة والمعاد وهي اصول الدين»[1].

---

١. تفسير الميزان، ج ١، ص ٤٢.

كما يقول الفخر الرازي:

«والبعض الآخر ذكر في حصر الهداية بالمتقين لأنّ الله تعالىٰ ذكر المتقين مدحاً ليبين أنّهم هم الذين اهتدوا وانتفعوا به كما قال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾. (النازعات / ٤٥)

وقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾. (يس / ١١)

وقد كان عليه السلام منذراً لكل الناس، فذكر هؤلاء الناس لاجل أنّ هؤلاء هم الذين انتفعوا بانذاره»[١].

وقد استنتج الفخر الرازي في بعض عباراته:

«ولو لم يكن للمتقي فضيلة إلّا ما في قوله تعالىٰ (هدىً للمتقين) كفاه لانه تعالىٰ بيّن أنّ القرآن هدىً للناس في قوله تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ... ﴾. (البقرة / ١٨٥)

ثم قال: إنّه هدىً للمتقين فهذا يدل علىٰ أنّ المتقين هم كل الناس فمن لا يكون متقياً كانه ليس بانسان»[٢].

و بالرغم من عدم تعارض التفاسير الماضية، إلّا أنّ التفسير الأول يبدو أوضح، ومن هنا يعرف عدم صحة الرأي القائل (بحمل «المتقين» في الآية علىٰ المجاز، والقول بأنّ المراد منهم سالكو طريق التقوىٰ، وذلك للحيلولة دون الوقوع في إشكال (تحصيل حاصل)، وذلك لأنّ للتقوىٰ ـ وكما قلنا ـ مراحل ودرجات، فمرحلة منها تؤهل لهداية القرآن، والمراحل الرفيعة الأُخرىٰ تكون وليدة هداية القرآن.

ويُطرح هنا سؤال وهو: إنّ الآيات التي جاءت بعد « *هدىً للمتقين* » عرفت المتقين بالذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وعلىٰ هذا، أفلا تكون هداية القرآن تحصيلاً للحاصل يا ترىٰ؟!

إنّ الإجابة علىٰ هذا السؤال تتضح بالالتفات إلىٰ نقطة في هذا المجال وهي: إنّ الوصول إلىٰ هذه المراحل المذكورة في السؤال ليست نهاية الطريق، بل هناك مراحل كثيرة أُخرىٰ ينبغي طيها لبلوغ المرحلة التكاملية اللائقة بالإنسان، وهذه المرحلة عند

---

١. التفسير الكبير، ج ٢، ص ٢١.

٢. المصدر السابق.

المتقين ستهديهم إلىٰ مراحل ارفع واسمىٰ بالاستعانة بهداية القرآن.

وتوجد تعبيرات في القرآن تشبه ما جاء في الآية السابقة، مثلما جاء في الآية: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾. (الحاقة / ٤٨)

فعدت الآية الأولىٰ القرآن «*هدىً*» للمتقين وسبباً لهدايتهم، والثانية «*تذكرة*» لهم، ونعلم أنّ «*التذكر*» من مقدّمات «*الهداية*»، ولهذا عندما وصل عدد من المفسرين إلىٰ هذه الآية أرجعوا الحديث فيها إلىٰ نفس الحديث في بداية سورة البقرة.

وعلىٰ أيّة حال، فإنّ هذه الآيات شاهد ناطق علىٰ دور التقوىٰ كممهّد للمعرفة والهداية.

❊❊❊

وقد وضحت الآية الثانية علاقة التقوىٰ بالمعرفة توضيحاً أكثر من الآية السابقة وصرحت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾.

إنّ «*الفرقان*» ـ كما يقول بعض أئمة اللغة ـ (اسم مصدر)، وادعى بعض آخر (مصدر) إلّا أنّ أغلب المفسرين يصرحون بأنّ له ـ في موارد كهذا المورد ـ معنىً فاعلياً مقروناً بالتأكيد (أشبه ما يكون بمفهوم صيغة المبالغة)، ومعناه الشيء الذي يفرق بين الحق والباطل، وله مفهوم واسع يشمل القرآن المجيد ومعجزات الأنبياء والأدلة العقلية الواضحة وشرح الصدر والتوفيق والنورانية الباطنية وغير ذلك[1].

وبهذا، فالقرآن يقول بأنّ «التقوىٰ» هي الأرضية التي تعد للمعرفة والتي يمكن الاستدلال بها تماماً في بعض المراحل، وتنطوي في المراحل الأُخرى ضمن الامدادات الإلهيّة المعنوية.

سمىٰ القرآن المجيد يوم معركة بدر «*يوم الفرقان*»، وذلك من حيث إنّه يوم شهد آيات الله البارزة تؤيد جند الإسلام ضد جند الشرك، فبالرغم من عِدَّة وعدد المشركين الذي يقدر بثلاثة أضعاف عدد المسلمين، تحملوا ضربات قاسية من المسلمين لم يتوقعها أحد.

---

١. راجع المفردات، وكتاب العين، ولسان العرب، ومجمع البحرين، والميزان، والكشاف في ذيل الآية نفسها.

إضافة إلىٰ هذا، فإنّ معركة بدر كانت أول مواجهة مسلحة بين المسلمين والمشركين انفصلت بها صفوف المسلمين عن المشركين، ولذا سميت بـ«يوم الفرقان».

وينبغي الالتفات إلىٰ أنّ «فرقاناً» جاءت بصيغة نكرة ومطلقة، فدلّت علىٰ عظمة ذلك النور الإلهي وعلىٰ سعته، بحيث يشمل المسائل الاعتقادية والعملية وكل ابداء رأي تجاه أُمور الحياة المهمّة، وعلىٰ هذا، فثمرة شجرة التقوىٰ هي الولوج في كل خير وبركة والابتعاد عن كل شرٍّ وفساد.

يقول الفخر الرازي في شرحه لهذه الآية: بما أنّ لفظ الفرقان مطلق فينبغي حمله علىٰ كل ما يفرق المؤمنين عن الكافرين، فهذا الفرقان إمّا في أحوال الدنيا وإمّا في أحوال الآخرة، والذي يتعلق بأحوال الدنيا إما أنّه يتعلق بالقلب وهي الاحوال الباطنة أو في الأحوال الظاهرة، فبالنسبة للقلب والباطن فالله يهدي قلوب المؤمنين ويلقي فيها المعرفة ويشرح صدورهم ويمحو عنها الحقد والحسد والبغض والعداوة، بينما يمتلىء قلب المنافق والكافر من هذه الرذائل والصفات السيئة، لأنّ القلب إذا تنور بنور الإيمان زالت ظلمات هذه الرذائل عنه، أمّا الذي يتعلق بالظاهر، فالله ينصر المسلمين ويفتح لهم ويمنحهم الرفعة [1].

٭٭٭

والآية الثالثة التي هي جزء صغير من أطول آية، أي بعد أن بيّنت عدداً من الأوامر الإلهيّة قالت: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾. (البقرة / ٢٨٢)

يقول القرطبي في تفسيره:

«إنّه وعدٌ من الله تعالىٰ بأنّ من اتقاه علّمه، أي يجعل في قلبه نوراً يفهم به ما يُلقىٰ إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقاناً، أي فصلاً يفصل به بين الحق والباطل» [2].

---

١. التفسير الكبير، ج ١٥، ص ١٥٣ (بتلخيص).

٢. تفسير القرطبي، ج ٣، ص ٤٠٦.

إنّ هذا الحديث لا يعني ترك كسب العلم، والاكتفاء بتهذيب النفس ـ كما يقول بعض الصوفية وأشخاص منحرفون ـ بل المراد هو أنّ التقوىٰ تهيىء الأرضية لكسب العلم الحقيقي أشبه ما يكون بالأرض الخصبة والمُعدّة لبذر البذور.

صحيح أنّ جملة «**اتقوا الله**» ليست شرطاً وأن جملة «**يعلمكم الله**» ليست جزاء لها (ولهذا أنكر البعض العلاقة بين التقوىٰ والعلم المستفادة من هذه الآية)، لكن ممّا لا شك فيه هو أن اقتران أحدهما بالآخر لم يكن اعتباطاً، بل هو تلميح إلىٰ العلاقة الموجودة بين هذين الاثنين، وإلّا فيعرض انسجام الآية للسؤال.

٭٭٭

إنّ رابع وآخر آية بيّنت العلاقة بين التقوىٰ والمعرفة بوضوح، فبينت ثلاثة أجور للذين يتقون الله ويؤمنون برسوله.

الأول يؤتيهم الله كفلَيْنِ أو نصيبين من رحمته، نَصيباً لإيمانهم ونصيباً لتقواهم، أو نَصيباً لأجل إيمانهم بالأنبياء السالفين ونصيباً لأجل إيمانهم بالرسول ﷺ، وبالرغم من أنّ المخاطبين في الآية مؤمنون إلّا أنّ الله يأمرهم أن يؤمنوا بالرسول ﷺ، كما أنّ شأن نزول الآية يبيّن أنّها بصدد فريق من نصارىٰ الحبشة الذين سمعوا القرآن وآمنوا بنبي الإسلام ﷺ[1].

والثاني: هو جعل الله لهم نوراً ـ لأجل ايمانهم وتقواهم ـ يهتدون به في صراطهم: ﴿**وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ**﴾.

وبالرغم من أنّ البعض أراد تقييد مفهوم الآية والقول بأنّ النور الذي ذُكِرَ فيها إشارة إلىٰ النور الذي يسعىٰ بين أيدي المؤمنين وبإيمانهم في يوم القيامة (كما تشير إلىٰ ذلك الآية ١٢ من سورة الحديد: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم**﴾). (الحديد / ١٢)

لكن لا دليل لهم علىٰ هذا التقييد، بل إنّ مفهومها ـ وكما يقول صاحب الميزان ـ واسع

---

١. «الكِفْل» ما يعيل الإنسان ويرفع حاجته، ويعتقد البعض أنّ هذه المفردة حبشية دخيلة علىٰ العربية.

يشمل الأنوار الإلهيّة كلها في الدنيا والآخرة، وعلىٰ هذا فتكون الآية شاهداً علىٰ العلاقة بين «التقوىٰ» و«المعرفة».

أمّا الأخير فهو: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا كله لأجل إيمانهم وتقواهم.

توضيحات

١ ـ علاقة العلم بالتقوىٰ في الروايات الإسلامية

وفي الروايات الإسلامية أيضاً تمّ بيان مدىٰ تأثير التقوىٰ علىٰ مسألة العلم، هذه الروايات تبيّن بوضوح أنّ تطهير القلب والروح بالتقوىٰ يعد الأرضية لتلقي المعارف الإلهيّة.

نذكر هنا الأحاديث التالية كنماذج لما جاء في الروايات الإسلامية:

ونقرأ في حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«من غرس أشجار التقىٰ جنىٰ ثمار الهدىٰ»[1].

٢ ـ وجاء أيضاً في احدىٰ خطب نهج البلاغة أنّه عليه السلام قال:

«أمّا بعد فانّي أُوصيكم بتقوىٰ الله .. فإنّ تقوىٰ الله دواء داء قلوبكم وبصر عمىٰ افئدتكم وشفاء مرض أجسادكم وصلاح فساد صدوركم وطهور دنس أنفسكم وجلاء عشا أبصاركم»[2].

٣ ـ وفي حديث عنه أيضاً أنّه عليه السلام قال:

«للمتقي هدىً في رشاد وتحرّج عن فساد»[3].

٤ ـ ونقرأ أيضاً في نهج البلاغة أنّه عليه السلام قال:

---

١. غرر الحكم.

٢. نهج البلاغة، خطبة ١٩٨.

٣. غرر الحكم.

«اين العقول المستصبحة بمصابيح الهدىٰ والأبصار اللامحة إلىٰ منار التقوىٰ» [1].

٥ ـ ونختم حديثنا بحديث ذي معنىً عميق عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله حيث قال: جاء في وصيّة الخضر لموسىٰ عليه السلام: *«يا موسىٰ وطّن نفسك علىٰ الصبر تلق الحلم واشعر قلبك التقوىٰ تنل العلم وَرَضّ (روّض) نفسك علىٰ الصبر تخلص من الإثم»* [2].

٢ ـ كيفية الارتباط بين ينابيع العلم والتقوىٰ؟

ما هو تأثير التقوىٰ واجتناب الذنوب وترك التلوث بها علىٰ مسألة المعرفة؟ وبتعبير آخر: ما هي العلاقة المنطقية بين العلم والأخلاق؟

في الحقيقة أنّ لهذين الاثنين علاقة تقارب قوية، وأي علاقة أقرب وأوثق من العلاقة المتبادلة بين هذين الاثنين؟ فالتقوىٰ ينبوع العلم، كما أنّ العلم ينبوع التقوىٰ، وليس هذا بأمر طبيعي فحسب بل إنّه أصل أساسي للسير في طريق المعرفة.

فيمكن الاستدلال علىٰ تأثير التقوىٰ علىٰ العلم بالطرق التالية:

أ) إنّ السنخية والتنسيق تسببان الجاذبية والإرتباط دائماً.

فعندما تتطهر روح الإنسان وتزكىٰ بالتقوىٰ تحصل جاذبية قوية بينها وبين المعارف والعلوم الحقيقية «فالسنخية تبعث علىٰ الإرتباط العجيب».

ب) إنّ منجل التقوىٰ يحصد جميع الأشواك من مزرعة روح الإنسان، ويُعدّ القلب ويهيئه لنمو بذور العلم والمعرفة، بل إذا دققنا النظر فإنّ بذور العلوم جميعها قد بذرها الله في هذه المزرعة، والمهم في الأمر هو حصد الأعشاب المزاحمة وإرواء المزرعة.

وقد جاء في حديث للمسيح عليه السلام مخاطباً فيه أنصاره قائلاً:

«ليس العلم في السماء فينزل اليكم، ولا في تخوم الأرض فيصعد عليكم، ولكن العلم

---

١. نهج البلاغة، خطبة ١٤٤.

٢. منية المريد للشهيد الثاني (ينقل عن بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٧).

مجبول في قلوبكم مركوز في طبائعكم، تخلقوا باخلاق الروحانيين يظهر لكم» [١].

ج) نعلم أنّه لا وجود للبخل والحسد في مبدأ عالم الوجود، وعلىٰ ما جاء في الآية:

﴿وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾. (الحجر / ٢١)

فإنّ خزائن النعم غير المتناهية عند الله، ما ينقصه زيادة كرمه وكثرته شيئاً، بل إنّ جوده وكرمه يتجلّىٰ أكثر *«ولا يَزيدُهُ كثرةُ العطاءِ إلّا جُوداً وَكَرَماً»*.

وعليه، فإنّ الحرمان سببه عدم أهلية الأشخاص، إنّ التقوىٰ تجعل الإنسان أهلاً للفيض الإلهي، وأي فيضٍ أرفع شأناً من المعارف والعلوم الإلهيّة؟

إنّ القلوب كالأوعية كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: *«إنّ هذهِ القُلُوب أوْعِيَةٌ فخَيْرُها أوعاها»* [٢] والمهم هو أنّ نوسع هذه الأوعية، وأن لا تكون مقلوبة لا تسع ولو لقطرة واحدة، وهذا الأمر ممكن في ظل التقوىٰ.

أمّا التأثير المتبادل بين العلم والتقوىٰ: فهو أنّ العلم الحقيقي يمحو جذور الرذائل الأخلاقية وينابيع الإثم والذنب، ويمثل أمامه عواقب الأمور، وهذه المعرفة تعين الإنسان علىٰ تبلور التقوىٰ في قلبه وعلىٰ ابتعاده عن الإثم، ويتضح من هنا أنّ العلم ينبوع للتقوىٰ، كما أنّ التقوىٰ ينبوع للعلم، غاية الأمر أنّ مرحلة من التقوىٰ تسبب مرحلة من العلم، وتلك المرحلة من العلم تسبب مرحلة أرفع من التقوىٰ، وعلىٰ هذا المنوال فإنّ كلاً منهما يؤثر في الآخر تأثيراً متبادلاً، وقد تكون الآية: مشيرةً إلىٰ هذه النقطة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُّبْصِرُونَ﴾.

(الاعراف / ٢٠)

أي أنّ التقوىٰ تكون في البداية، ثم التذكر، ثم البصيرة، والنتيجة هي النجاة من وساوس الشياطين.

---

١. تفسير الصراط المستقيم، ج ١، ص ٢٦٧.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ١٤٧.

٣ـ استغلال العلاقة بين «العلم» و«التقوىٰ»

بالرغم من أنّ علاقة المعرفة بالتقوىٰ علاقة لا يمكن انكارها، سواء من وجهة نظر القرآن المجيد، أو من وجهة نظر الدليل والعقل (وقد بينا ذلك بالتفصيل)، إلّاأن هذا الحديث لا يعني ترك طرق كسب العلم والمعرفة المتعارفة، والاستغناء بتهذيب النفس بحجّة أنّ تهذيب النفس سيقذف العلم والمعرفة في صدورنا كما ظن ذلك عدد من الصوفية الذين اتخذوا هذه المسألة حجة لمقارعة المعرفة وكسب العلم وظلوا في جهل دامس.

إنّ الإسلام أوجب كسب العلم بدرجة حيث اعتبر الحضور في مجلس العلم كالحضور في روضة من رياض الجنّة: ***«مجلس العلم روضةٌ من رياض الجنة»***.

كما عدَّ النظر إلىٰ وجه العالم عبادة: ***«النظر إلىٰ وجه العالم عبادة»***[١]، وكل خطوة يخطوها في سبيل العلم فهي خطوة نحو الجنة[٢].

وقد عدَّ مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء[٣].

وحفظ الحديث وكتابته من الفضائل العظيمة[٤].

ويدعو الإسلام ـ من جهة اُخرى ـ إلىٰ تهذيب النفس وتزكيتها لأجل تهيئتها لقبول المعارف والعلوم الإلهيّة.

وعلىٰ هذا، فأولئك الذين تركوا طلب العلم وأوصوا زملاءهم وأتباعهم بتركه، والتوجه إلىٰ تصفية الباطن وتزكيتها علىٰ خطأ، لأنّ التزكية هذه غالباً ما تنحرف عن جادة الصواب بسبب عدم اقترانها بالعلم والمعرفة، وكذلك أولئك الذين انهمكوا في كسب العلوم الرسمية وأهملوا تهذيب النفس، فانهم في ضلالة، نعم ينبغي السعي نحو كليهما.

٢٠٠٣

---

١. غرر الحكم.
٢. بحار الأنوار، ج ١، ص ١٦٤.
٣. المصدر السابق، ج ٢، ص ١٤.
٤. المحجة البيضاء، ج ١، ص ١٥.

٢ـ الإيمان والمعرفة

تمهيد:

إنّ روح الايمان هي التسليم للحق والخضوع أمام الحقائق، وبما أنّ أكبر حقيقة في عالم الوجود هي ذات الله المقدّسة، فإنّ روح الإيمان تتمحور حول التوحيد ومعرفة الله.

إنّ الإيمان يفسح المجال أمام عقل الإنسان لأنّ يدرك الحقائق كما هي حقاً، سواء كانت مرّة أو حلوة، وسواء كانت ملائمة لمزاجه وطبعه أم لا.

إنّ معلومات أولئك الذين لم يسلموا للحق هي تصوّرٌ وتمثلٌ لرغباتهم وأهوائهم، لا لنفس الحقائق الموجودة في الخارج، أنّهم يرون الدنيا بالشكل الذي يرغبون فيه، ولا يرونها بشكلها الواقعي.

وبهذا التمهيد تتضح علاقة الإيمان بالمعرفة اجمالاً، ونتأمل الآن خاشعين في آيات القرآن في هذا المجال:

١ ـ ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا... ﴾. (الأنعام / ١٢٢)

٢ ـ ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾. (النور / ٤٠)

٣ ـ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ... ﴾. (الحديد / ١٩)

٤ ـ ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾. (الزمر / ٢٢)

جمع الآيات وتفسيرها

تأثير الإيمان على الرؤية الصحيحة:

تحدثت الآية الأُولىٰ عمّن كانوا موتىٰ ثمّ أحياهم الله وجعل لهم نوراً يهتدون بـه فـي الطريق.

والمراد من الموت والحيـاة هنا هو الإيمان بعد الكفر، كـما جاء ذلك في الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾. (الانفال / ٢٤)

وعلىٰ هذا فالحياة هي حياة الإيمان الحقيقي والصادق، الحياة المقترنة بالنور والضياء والمعرفة.

والجـانب المقابل لجانب الأحياء، هـو جانب أولئك الذين ضـلوا في ظلمات الكفر ولم يخرجـوا منها أبداً ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾.

يعتقـد كثير من المفسرين أنّ هذا النور هو نور القرآن، وقـد فسّـره بعضهم بنور الدين، وبعضهم بنور الحكمة [١]، وقـد أضاف البعض على ذلك نور الطاعة [٢]، لكن المسلم أنّ لهـذا النور مفهوماً واسعاً يشمل جميع أنواع المعرفة، ومن البديهي أنّ مـراد القـرآن هـو اكـمل مصاديقه.

إنّ التعبير بـ«*يمشي به في الناس*» يتناسب كثيراً مع الحياة الاجتماعية في الدنيا، كما يكشف عن أن «الايمان» يَعِدُّ أرضية «المعرفة» في قلب الإنسان ويـحول دون ارتكـاب الأخطاء في الحياة الدنيا.

8003

وقد شبهت الآية الثانية غير المؤمنين (أو أعمالهم) بظلمات أعماق بحرٍ لُجّي تـتلاطم الأمواج علىٰ سطحه، وسمائه ملبدة بالغيوم بحيث إذا أخرج شخص يده لم يكد يراها أحد.

---

١. التفسير الكبير، ج ١٣، ص ١٧٢؛ تفسير القرطبي، ج ٤، ص ٢١٤؛ تفسير المنار، ج ٨، ص ٣٠.

٢. تفسير روح الجنان، ج ٥، ص ٥٠.

وقد أكدت في النهاية: أنّ الذين لم يجعل الله لهم نوراً فمالهم من نور أبداً.

إنّ عبارات هذه الآية تثبت بوضوح أنّ الكفر وعدم الإيمان ظلمات، وأنّ الإيمان والإسلام نور.

إنّ الأخطاء التي تصدر من غير المؤمنين ومن المنحرفين بدرجة من الكثرة بحيث يحارُ الناظر اليهم كيف أنّهم لا يكادون يرون حتىٰ موضع أقدامهم؟! وكيف أنّهم لا يستطيعون تمييز ما ينفعهم عما يضرهم؟

حقاً أنّه لا ظلام أشدّ من الظلام الذي رسمته الآية، فإنّ طبيعة أعماق البحار هي الظلام، لأنّ نور الشمس لا ينفذ إلاّ لمدىٰ أقصاه سبعمائة متر، وبعد ذلك لا شيء سوىٰ الظلام الدامس، هذا إذا لم يكن البحر لجياً، وإلاّ فلا تنفذ أشعة الشمس إلّا لمدىٰ قريب جداً من سطح البحر، وفضلاً عن هذا فإنّ الغيوم تمنع من وصول أشعة الشمس أساساً.

ويقول البعض: إنّ المراد من الظلمات الثلاثة في الآية هي ظلمات الكفار في الاعتقاد، وظلماتهم في الكلام، وظلماتهم في العمل.

ويعتقد بعض أنّ المراد منها هو: ظلمات القلب وظلمات الباصرة وظلمات السمع، وأضاف بعض آخر: أنّ هذه الظلمات عبارة عن: أنّه لا يعلم ولا يعلم أنّه لا يعلم، ويظن أنّه يعلم[1]، ولكن لا منافاة بين هذه التفاسير، ومفهوم الآية يسع جميع هذه التفاسير.

ꕤ

والآية الثالثة، بعدما وصفت المؤمنين بـ«*الصديقين*» و«*الشهداء*» أضافت: «*لهم أجرهم ونورهم*».

إنّ «*الصدّيق*» صيغة مبالغة لصادق، وتعني كثير الصدق، ويقول البعض: إنّها تعني الشخص الذي لم يصدر منه كذب أبداً، ويعتقد بعض آخر: إنّها تعني الذي اعتاد علىٰ الصدق بحيث يمتنع عليه الكذب عادةً، وبتعبير آخر: حصلت له طبيعة ثانوية علىٰ أساس الصدق وعدم الكذب.

---

١. التفسير الكبير، ج ٢٤، ص ٨.

ويقول البعض: إنّها تعني الشخص الصادق في اعتقاده وكلامه، يكشف سلوكه عن صدق اعتقاده [١].

وتجتمع جميع هذه المعاني في القول بأنّها صيغة مبالغة لصادق، لأنّ المفهوم آنذاك يكون شاملاً لجميع المعاني المتقدمة، وعلىٰ هذا فالمسلم أنّ المراد ليس جميع المؤمنين بل المؤمنون أصحاب الدرجات الرفيعة في ايمانهم.

أمّا «*الشهداء*» فقد يكون المراد من ذلك هو أنّ المؤمنين الصديقين لهم أجر كأجر الشهداء، كما جاء ذلك في حديث للإمام الصادق عليه السلام عندما جاءه شخص يطلب الدعاء له بالشهادة، فاجابه الإمام عليه السلام: «*إنّ المؤمن شهيد*» ثم تلا الآية: ﴿وَالَّذِيْنَ آمَنُوا ...﴾ [٢].

كما يحتمل أن يكون المراد من الشهداء، هو الشهداء علىٰ أعمال الناس، لأنّ المستشفّ من آيات عديدة هو أن فريقاً من المؤمنين (الأنبياء والأئمّة) يشهدون علىٰ الأمم.

ولا يبعد الجمع بين هذين المعنيين [٣].

إنّ «*الأجر*» في عبارة «*لهم أجرهم ونورهم*» تعني جزاء الأعمال، أمّا «*النور*» ففسّره البعض بأنّه النور الذي يسعىٰ بين أيدي المؤمنين الذي يفتح الطريق نحو الجنة يوم القيامة، إلاّ أنّه لا دليل علىٰ هذا التحديد، وقد جاء هنا مطلقاً، فينبغي القول بعمومية مفهومه وشموله للنور الذي يجعله الله للمؤمنين في الدنيا كما يشمل النور الذي يهتدي به المؤمنون إلىٰ الجنة يوم القيامة [٤].

---

١. المفردات ومجمع البحرين مادة (صدق)، تفسير الميزان، ج ١٩، ص ١٨٦؛ تفسير المراغي، ج ٢٧، ص ١٧٤؛ تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٣٦.

٢. تفسير مجمع البيان، ج ٩، ص ٢٣٨.

٣. احتمل البعض أنّ جملة ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ليست عطفاً علىٰ الجملة التي سبقتها، وأنّها جملة مستقلة مركبة من مبتدأ وخبر، إلاّ أنّ هذا الاحتمال بعيد جداً.

٤. الظاهر من تعبير بعض المفسرين أن الضمائر في جميع هذه الجمل ترجع إلىٰ المؤمنين، بينما يصرح صاحب الميزان بأنّ الضمير في «لهم» يرجع إلىٰ «الذين آمنوا» والضميرين الآخرين يرجعان إلىٰ «الصديقين» و«الشهداء»، أي أولئك الذين لهم أجر الصديقين والشهداء ولهم نورهم، إلاّ أنّ هذا الاحتمال بعيد.

وقد طرحت الآية الرابعة والأخيرة استفهاماً تقريرياً قائلة: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّنْ رَّبِّهِ ﴾؟ وهذا دليل واضح علىٰ أنّ قبول الإيمان متزامن ومقترن مع شرح الصدر، وشرح الصدر أرضية خصبة للنور الإلهي، النور الذي يضيء العالم أمام أعين المؤمن، ويكشف له حقائقه كما هي.

إنّ المراد من «*شرح الصدر*» هو اتساع الروح إلىٰ درجة تكون مستعدة لاستيعاب حقائق كثيرة، وما يقابل شرح الصدر هو «*ضيق الصدر*» أي تضيق الروح بدرجة لا تتمكن من استيعاب شيءٍ من الحقائق، وبتعبير آخر: إنّ شرح الصدر هو اتساع وعظمة الروح الذي يُعَدُّ الإرتباط بالذات اللامتناهية أحد عوامله، نعم إنّ الروح التي تتخذ صبغة الله وتتسع تكون أهلاً لقبول العلوم والمعارف الإلهيّة.

إنّها لا تتسع فحسب، بل تلين وتختصب وتتهيء لنثر بذور المعرفة فيها، ولهذا صرحت الآية في النهاية: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللهِ﴾.



توضيح

علاقة الإيمان بالعلم في الروايات الإسلامية:

١ ـ جاء في حديث عن الإمام الصادقعليه السلام أنّه قال: «*إنّ المؤمن ينظر بنور الله*»[١] فطلب أحد الصحابه بيان معنىٰ الحديث فقالعليه السلام: «*هذا إنّما هو لأجل أنّ الله تعالىٰ قد خلق المؤمن من نوره واحاطه برحمته*».

٢ ـ ونقرأ في حديث آخر عن الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله أنّه قال:

«*اتقوا فراسة المؤمن فانّه ينظر بنور الله ثم تلا: إنّ في ذلك للمتوسمين*»[٢].

٣ ـ وفي رواية أُخرىٰ عن الإمام موسىٰ بن جعفرعليه السلام عن آبائه الكرام عن رسول اللهصلى الله عليه وآله

---

١. بحار الأنوار، ج ٦٤، ص ٧٤، ح ٢.

٢. المصدر السابق، ح ٤.

قال: «*إيّاكم وفراسة المؤمن فإنّه ينظر بنور الله تعالىٰ*»[١].

٤ ـ ونجد أنّ هذه الأمثال اتخذت أهميةً كبرىٰ كما هو المشاهد في بعض الروايات حيث ينقل نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «*اتقوا ظنون المؤمنين فإنّ الله سبحانه جعل الحق علىٰ ألسنتهم*»[٢].

٥ ـ وجاء عنه عليه السلام في نهج البلاغة أيضاً أنّه قال: «*وبالصالح يستدل علىٰ الإيمان وبالإيمان يعمر العلم*»[٣].

٦ ـ ونختم البحث بحديث عن الإمام الباقر عليه السلام يقول فيه: «*ما من مؤمن إلّا وله فراسة ينظر بنور الله علىٰ قدر إيمانه*»[٤].

وكما قلنا في بداية البحث، فإنّ الإيمان الصادق يجعل الإنسان عاشقاً للحق والحقيقة ومذعناً أمام الواقعيات والحقائق، وبهذا تتحرر روح الإنسان من جميع القيود وتتهيأ لقبول جميع المعارف.

٣ـ علاقة «الصبر والشكر» بـ«المعرفة»

في البداية نقرأ خاشعين الآيات الشريفة التالية:

١ ـ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾. (ابراهيم / ٥)

٢ ـ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾. (لقمان / ٣١)

٣ ـ ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ

---

١. بحار الانوار، ج ٦٤، ص ٧٥، ح ٨.

٢. نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة رقم ٣٠٩.

٣. نهج البلاغة، خطبة ١٥٦.

٤. عيون الأخبار، ج ٢، ص ٢٠٠ (ينقله عن كتاب الحياة، ص ٩٢).

وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. (سبأ / ١٩)

٤ ـ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾. (الشورىٰ / ٣٢ ـ ٣٣)

جمع الآيات وتفسيرها

السير في الآفاق والأنفس مع الصابرين:

تحدثت الآية الأُولىٰ عن «*بني اسرائيل*»، حيث بُعثَ فيهم موسىٰ عليه السلام بمعاجز وآيات إلهية واضحة، وكان موظَّفاً بأن يخرجهم من ظلمات الشرك والكفر والفساد إلىٰ نور التوحيد الذي هو ينبوع جميع البركات والخيرات، ولأن يذكرهم بأيام الله، ثم قالت الآية في النهاية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

ما المراد من أيام الله؟

هناك بحث بين المفسرين في هذا المجال، فمنهم من فسرها بالنِّعَم والابتلاءات الإلهيّة[١]، ومنهم من فسرها بأيام انتصار الرسل والأمم الصالحة، ومنه مَنْ اعتبرها إشارة إلىٰ أيّام عذاب الأقوام الطاغية والعاصية والظاهر عدم التعارض للأيّام بين هذه التفاسير لأنّها كلها من «أيّام الله».

إنّ معناها الواضح، واضافتها إلىٰ الله «*اضافة تشريفية*»، والمراد منها هو جميع الأيّام المهمّة من حيث أهميّتها البالغة، أو من حيث إنّ فيها نعمة إلهية شملت أقواماً صالحين كالانتصارات العظيمة علىٰ جند الشرك والظلم، وكالنجاة من الظَّلَمَة والطواغيت وكالموفقية لأداء الجهاد أو فريضة عظيمة أُخرى.

أو من حيث شمول عذاب الله ونقمته لأقوام عصاة وهلاكهم، أو شمول نبذة من العقاب الإلهي لهم ليستيقظوا من غفلتهم ويعوا، كل هذه هي «*أيام الله*» وداخلة في مفهومها الواسع.

---

١. لقد جاء هذا التفسير في عدد من الاحاديث النبوية. تفسير الميزان، ج ٥، ص ١٥ و ١٦؛ تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥٢٦.

أما سبب كون هذه الآيات عبرة للصابرين والشاكرين فقط دون غيرهم (ينبغي الالتفات هنا إلىٰ أنّ « صبور » و« شكور » صيغةُ مبالغةٌ، الأُولىٰ تعني كثير الصبر والثانية كثير الشكر)، فذلك لأجل أنّ دراسة دقائق هذه الحوادث وجذورها من جهة، ونتائجها من جهة أُخرى يحتاج إلىٰ صبر وتأنٍ.

إضافة إلىٰ هذا، فانّه لا يستفيد من هذه الحوادث إلّا أولئك الذين يقدّرون نعَم اللهِ ويشكرونه عليها، وعلىٰ هذا، فالصبر والشكر أرضيتان ملائمتان للمعرفة والعلم.

كما يحتمل أن يكون تقارن الصبر مع الشكر لأجل أنّ هؤلاء مجهزون بالصبر عند المصائب، وبالشكر عند النِعَم، وعلىٰ هذا فلا يركعون أمام المصائب، ولا يغترون عند نزول النِعَم، فلا يضِلون أنفسهم علىٰ أيّة حال، فهم مؤهلون لتقبل المعرفة وأخذ العِبَر والدروس من هذه الحوادث العظيمة.

في الآية الثانية والرابعة جاءت هذه العبارة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وقد ذُكِرَت بعد التعرض لحركة السفن في البحار والمحيطات التي تتم بإيعاز من الله وبالاستعانة بالرياح فتطوي المسافات البعيدة وتصل إلىٰ مقاصدها بسرعة.

بديهي أنّ هذا الموضوع هو إحدىٰ آيات الله التكوينية، وآية من آيات النظام الإلهي وقدرة الله.

لكن هل يا ترىٰ يكون استثمار هذه الآيات الإلهيّة الموجودة في عالم الوجود وحتىٰ الكامنة في هبوب الرياح ممكناً للجميع، أو أنّه خاص بأُولئك الذين يدرسون ويتابعون نظام الخلق العجيب بدقة وصبرٍ وتأنٍ إلىٰ المستوىٰ الذي يتيح لهم العلم البشري فرصةَ الاستثمار، ومن جهة أُخرى فإنّ الدافع نحو «شكر المنعِم» نفسه عامل للسعي والحركة في طريق المعرفة.

يقول «القرطبي» في تفسيره:

«والآية: العلامة، والعلامة لا تتبين في صدر كل مؤمن إنّما تتبين لمن صبر علىٰ البلاء وشكر علىٰ الرخاء»[1].

---

١. تفسير القرطبي، ج ١٤، ص ٧٩.

وقد جاء في تفسير *«روح البيان»*:

«مبالغ في الصبر علىٰ المشاق فيتعب نفسه في التفكر في النفس والآفاق»[١].

والجميل هنا هو أنّ الهواء الذي يحيط بالكرة الأرضية من ألطف الموجودات، وبالرغم من ذلك فهو عندما يتحرك ويتنقل فانه لا يحرك السفن العظيمة في البحار فحسب، بل كذلك الغيوم التي تُعَدُّ ينابيعَ للغيث، فيأخذ بها نحو الصحاري والأراضي الميتة فيحييها، كمابانتقال الهواء الحار إلىٰ المناطق الباردة والهواء البارد إلىٰ المناطق الحارة تتهيأ الأراضي الميتة للحياة، واضافة إلىٰ هذا فإنّ الهواء يلقح النباتات كالزهور والأشجار ويحمل احياناً البذور فتُزرع في الأماكن التي تسقط فيها، ألَمْ تكن هذه من آيات الله؟ ومن يمكنه استثمار هذه الآيات غير الصابرين والشاكرين؟

وقد جاء في حديث للرسول الأعظمﷺ: *«الايمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر»*[٢] وهذا الحديث تأكيد لما جاء في الآيات.



وأخيراً فإنّ الآية الثالثة أشارت إلىٰ قوم سبأ، حيث شملهم التوفيق الإلهي فاستطاعوا أن يوجدوا سداً عظيماً بين الجبال في *«اليمن»*: وادخروا فيه الماء الكثير، وتمكنوا من ايجاد بساتين كثيرة، فغُمروا في النِعَم والفرح، إلّا أنّهم سلكوا طريق كفران النعمة، فتسلطت الأقوام المرفهة علىٰ الأقوام الضعيفة ظلماً وجوراً فعَمَّ مساكنَهُم الخرابُ والدمار، بحيث هلك الحرث والنسل لانفجار السد، فتفككوا وتشتتوا بشكل حيث جعلهم الله أحاديث للآخرين ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ وأهلكهم جميعاً ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾، ثم أضاف القرآن: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

وذلك لأنّهم يستخلصون الدروس والعِبر بدقتهم وتأنيهم.

---

١. تفسير روح البيان، ج ٧، ص ٩٨.

٢. تفسير مجمع البيان، ج ٧، ص ٣٢٣؛ تفسير الكبير، ج ٢٥، ص ١٦٢؛ تفسير المراغي، ج ٢١، ص ٩٧؛ تفسير القرطبي، ج ٥، ص ٣٥٧١ وتفاسير اخرىٰ.

ومن جهة فإنّ هذه الحقيقة تثبت، وهي: أنّ بين الحياة والممات مسافة قصيرة جدّاً، بحيث يمكنك البحث عن الممات في قلب الحياة، فإنّ وفرة الماء التي سببت تقدم قوم سبأ وإزدهار بلادهم وتطور حضارتهم، سبب هلاكهم يوماً ما!

ومن جهة أُخرى فإنّ هذا يكشف عن شدة ضعف هذا الإنسان المغرور، وذلك لأنّه يقال إنّ السدّ (الذي أُطلق عليه سدّ مأرب)، قد ثُقب بواسطة الجرذان الصحراوية ثقباً صغيراً في البداية ثم توسع الثقب إلىٰ أن أدّىٰ بالسدّ لأنّ ينهدم بالكامل، وبهذا نرىٰ أن جرذاناً صحراوية أبادت حضارة عظيمة.

ومن جهة ثالثة، فإنّ المستكبرين من قوم سبأ الذين لم يَرُق لهم رؤية المستضعفين بقربهم، وحسبوا أنّه ينبغي وجود فاصلة أو سد عظيم كسد مأرب بين أقلية الأشراف والأكثرية المستضعفة، طلبوا من الله أن يبعد مدنهم عن مدن المستضعفين كي لا يتمكنوا من السفر مع المستكبرين، ويبقىٰ امتياز السفر خاصاً بهم ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، (سبأ / ١٩) إلّا أنّ الله فرقهم يشكل حيث لا هم بقوا ولا ظنونهم الباطلة.

ومن جهة رابعة، فإنّ حياتهم المرفهة أغفلتهم عن ذكر الله، وما صحوا إلّا بعد أن انتهىٰ كل شيء.

وعلىٰ هذا، فيمكننا بالتأمل والدقّة والاستعانة بالعقل أن نستشف آيات كثيرة من هذه القصة وهذا الحديث[١].

النتيجة:

إنّ المستشف من الآيات الأربع الماضية هو: أنّ كل من كان أدق وأكثر صبراً في دراسته لاسرار الخلق والحياة الاجتماعية، ولكل من كان شاكراً للنعم ومستعيناً بوسائل المعرفة فإنّ له نصيباً أوفر وأكثر من المعرفة، ولهذا كان الصبر والشكر أرضيتين ممهدتينِ للمعرفة.

---

١. ينبغي الالفتات إلىٰ أنّ مفردة «أحاديث» التي جاءت في الآية، منتهى الجموع وتكشف عن وجود أحاديث وقصص كثيرة في ماضي قوم سبأ لا قصة واحدة.

٤ـ المعرفة تهيء الأرضية للمعرفة

تمهيد:

المعروف هو أنّ الثروة تجلب الثروة، أي أنّ مقداراً من رأس مال يكون أرضية لربح رأس مال أكبر، وكلما ازداد مقداره ازداد مورد الإنسان من رأس ماله.

أنّ هذا الأمر ينطبق على العلوم والمعارف كذلك، فالذين يملكون رأس مالٍ من العلوم تتوفر عندهم الأرضية الخصبة لتقبل علومٍ ومعارف أُخرى، ولهذا قلنا: إنّ المعرفة تهيء الأرضية للمعرفة أي لنيل معارف أُخرى هي أرفع وأوسع.

وقبل الخوض في البحث نمعن خاشعين للآيتين التاليتين:

١ ـ ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾. (الروم / ٢٢)

٢ ـ ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾. (النمل / ٥٢)

جمع الآيات وتفسيرها

مالم تكن منّا لن تطلع على اسرارنا:

إنّ الآية الأُولىٰ من جملة الآيات الكثيرة في سورة الروم التي أشارت لآيات الآفاق والأنفس، وعدت بعضاً من آيات الله في العالم الأكبر (الكون) وبعضاً من آيات العالم الأصغر «الإنسان» فاشارت الآية إلىٰ العالم الأكبر من جهة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾، ثم أشارت إلىٰ بعض دقائق خلق الإنسان من جهة أُخرى ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾.

الاختلاف ليس في الألسنة والألوان الظاهرة فحسب، بل في السنة الفكر وألوان الأذواق والبواطن، فانّها مختلفة إلىٰ درجة بحيث لا يمكن العثور علىٰ شخصين متشابهين

بالكامل، وهذا الاختلاف جارٍ حتىٰ بالنسبة للتوأم.

إنّ هذا الاختلاف يسبب ـ من جهة ـ التعارف والاختلاف بين الناس، لأنّه إذا لم يكن تمايز بين الناس اختل النظام الاجتماعي للحياة، كما هو الحال بالنسبة للتوأم فالذي يعاشرهم كثيراً يقع في اخطاء تجاههم، فقد يقدم أحدهم من السفر ويقوم صديقهم بزيارة الآخر الذي لم يسافر، أو يتمرض احدهم فيزور الآخر وهو صاحٍ، أو يعطي الابوان الدواء للسليم لعدم التمييز بينهما.

تصوروا ما الذي يحصل لو كان الناس جميعاً متشابهين من جميع الجهات؟!! ومن جهة أُخرى، فإنّ هذا التنوع والاختلاف يسبب انخراط كل مجموعة من الناس في جانب من جوانب الحياة وبهذا الاختلاف في الأذواق والقابليات تسدّ جميع احتياجات البشر الاجتماعية فلا يحصل خللٌ في هذا المجال، ألم تكن هذه الدقّة العجيبة في هذا النظام من آيات الله؟!

والجدير بالذكر أنّ المفسرين ذكروا احتمالات عديدة في تفسير (اختلاف الألسنة) فتارة قالوا: إنّ المراد منه هو الاختلاف في اللغة، حيث نعلم أنّ اللغات الموجودة حالياً أكثر من ألف لغة، وهذا التنوع الذي لا نريد الخوض في تفصيلاته فعلاً، جيد لتتعرف الأقوام المختلفة علىٰ بعضها البعض.

وتارة قالوا : إنّ المراد هو اللهجات وكيفية حديث الأشخاص التي تختلف من شخص إلىٰ آخر اختلافاً كبيراً، فلكلٍ منطق وأسلوب في البيان يعبّر عن شخصيته.

وتارة قالوا: إنّ المراد هو الأصوات أو ما يصطلح عليه بـ*«الذبذبات الصوتية»* التي تختلف عند الأشخاص اختلافاً فاحشاً، ولهذا فإنّ الأعمىٰ يميز الأشخاص من أصواتهم، كما أنّ البصير يميزهم من وجوههم.

ومن هنا يتضح أنّ اقتران اختلاف الألسنة والألوان بخلق السموات والأرض في الآية هو لأجل الإشارة إلىٰ أنّ جميع موجودات العالم ـ صغيرها وكبيرها، وأبسطها وأعقدها ـ بحسب الظاهر ـ تحكمها قوانين وأنظمة دقيقة، وهي آيات لعلم الله وقدرته وينبغي الإشارة

إلىٰ أنّ الآية صرحت في النهاية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ نعم إنّ العلماء هم الذين يدرسون أسرار الكون ويتفحصونها واحدة تلو الأُخرى، وهم الذين تكون معرفتهم السابقة أرضية خصبة لمعارفهم الأكثر والأدقّ.

ﮪﮫ

وقد تحدثت الآية الثانية عن مجاميع صغيرة مفسدة تعيش في *«وادي القرىٰ»* بين قوم صالح (على ما يقوله المفسرون)، وكان عددهم تسعة رهط (أي مجموعات صغيرة)، وكانوا يفسدون في الأرض دائماً كما يصفهم القرآن الكريم: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾. (النّمل / ٤٨)

أمهلهم الله كثيراً كفرصةٍ للتوبة والرجوع إلىٰ أنفسهم، لكن ما زادهم الأمهال إلّا غروراً، وكان نهاية أمرهم أن أنزل اللهُ عليهم صاعقة من السماء، وزلزلة من الأرض ختمت حياتهم.

يقول القرآن فيهم: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي خالية منهم بسبب ظلمهم وطغيانهم.

ثم يضيف: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

إنّ عبارة: ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ تدل علىٰ أنّ الظلم هو السبب في دمار البيوت وخرابها، وقد نُقِل عن ابن عباس أنّه قال: إنّي وجدت هذه الحقيقة في كتاب الله وهي: إنّ الظلم يهدم البيوت، ثم تلا الآية المذكورة.

وقد جاء في التوراة: *«يابن آدم لا تظلم فيهدم بيتك»*[1].

وينبغي الالتفات هنا إلىٰ أنّ مفردة *«خاوية»* تعني ـ في الأصل ـ خالية، إلّا أنّ كثيراً من المفسرين فسرها بالخربة، وهذا قد يكون لأجل أنّ البيت إذا خلىٰ وهُجِر خرِبَ وانهدم[2].

---

١. تفسير روح المعاني، ج ١٩، ص ١٩٤.

٢. ذكر صاحب تفسير روح البيان معنيين لمادة (خوىٰ) أحدهما الخلو والثاني السقوط والانهدام، ومن هنا يعبر ☜

النتيجة:

من المعلوم أنّ آيات الله ـ سواء كانت آفاقية أو انفسية أو تعلقت بدروس وعبر تاريخ الأقوام الغابرة ـ تخص الجميع، وبما أنّ الجميع لا يستفيد منها ولا يستثمرها، يقول القرآن عنها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وتارة يقول: «*للمتقين*».

وتارة يقول: «*لكل صبّار شكور*».

وهذه إشارة إلىٰ أنّ هذه الفرق ـ هي التي تنتفع بهذه الآيات وتستفيد منها دون سواها، لِما عندهم من أرضيّه خصبة لهذا الأمر.

وهناك آيات كثيرة في القرآن المجيد لا تخلو من الإشارة إلىٰ حقيقة أنّ المعرفة تعتبر أرضيّة معدّة وخصبة لمعارف أكثر، كما جاء ذلك في الآيات التالية:

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. (الاعراف / ٣٢)

﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. (يونس / ٥)

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. (فصلت / ٣)

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. (البقرة / ٢٣٠)

كما اتضح ـ ممّا مر ـ الجواب علىٰ السؤال عن حاجة العالمين لشرح وتبيين الآيات الإلهيّة.

٥ـ علاقة الخوف بالمعرفة

تمهيد:

إنّ الإنسان ما لم يشعر بالمسؤولية لا يلتفت إلىٰ مصادر المعرفة وسوف لا يبالي بآيات الله ومواعظه.

عرب الجاهلية عن النجم إذا سقط (خوىٰ النجم) إلّا أنّ الظاهر أنّ المعنىٰ الأولي لهذه المادة هو: الأول فقط، ويستعمل تعبير (خوىٰ النجم) إذا ما غرب نجم أو افل بلا مطر (حيث كان يعتقد عرب الجاهلية أنّ طلوع كثير من النجوم متزامن مع المطر وإذا لم يكن هناك مطر استعملوا التعبير السابق لذلك النجم).

ومن هنا ينبغي القول بأنّ الاحساس بالمسؤولية والخوف من الله هو احدىٰ أرضيات المعرفة التي تُعِدُّ روح الإنسان وتهيئها لتقبل علوم ومعارف مختلفة.

وبالالتفات إلىٰ هذا التمهيد نتأمل خاشعين في الآيات التالية:

١ ـ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾. (هود / ١٠٢ ـ ١٠٣)

٢ ـ ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾. (سبأ / ٩)

٣ ـ ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾. (الذاريات / ٣٧)

ℰℴ

شرح الآيات وتفسيرها

المعرفة والشعور بالمسؤولية:

إنّ الآية الأُولىٰ بعدما أشارت إلىٰ ماضي بعضٍ من الأقوام السالفة (مثل قوم لوط وشعيب والفراعنة) ونزول أنواع من العذاب عليها، قالت: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ ثم قالت في النهاية: ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ثم قالت: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ أي في قصص الأمم السالفة وعقابهم ونزول العذاب عليهم آية واضحة لمن خاف عذاب الآخرة.

لقد جاءت مفردة «آية» نكرة، وذلك للاشارة إلىٰ عظمة وأهميّة هذه الآية الإلهيّة ودور العبرة فيها، والتعبير بـ ﴿ لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ إشارة إلىٰ الأرضية المُعدَّة للمعرفة عند أولئك الذين يخافون من عذاب الآخرة.

أمّا أولئك الذين لا يخافون عذاب الآخرة فلا يدركون علاقة هذه الذنوب بأنواع العذاب الإلهي، إنّهم يعدون العذاب أمراً قهرياً وجبرياً، أو يرجعون أسبابه إلىٰ حركة الأفلاك

والنجوم وأوهام وخرافات أخرى، ولا يدركون الأسباب الحقيقية له[1].

إضافة إلىٰ هذا، فإنّ الإنسان لا يقطع بالعذاب الدنيوي ما لم يقطع بالعذاب الأخروي، لأنّ كليهما وليد شيء واحد وهو معرفة الله ومعرفة عدالته.

إنّ جملة « *وهي ظالمة* » تلميح إلىٰ أنّ الأخذ والدمار كان بسبب ظلم تلك القرىٰ، وبتعبير آخر: فإنّ جميع الانحرافات العقائدية والسلوكية داخلة في مفردة الظلم.

والآية الثانية بعدما أشارت إلىٰ آيات الله في السموات والأرض: وبيان قدرته علىٰ كلّ شيء أكّدت بأنّ الله لم يعجز عن عذاب أولئك العصاة الذين سخروا بآيات الله واتهموا الرسول الأعظم ﷺ بالجنون، واعتبروا المعاد محالاً، إنْ شئنا خسفنا بهم الأرض، أو أسقطنا عليهم من السماء أحجاراً سماوية: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ﴾.

إنّ « *كِسَف* » جمع كِسْف ويعني القماش المقطّع قطعاً قطعاً، وقد استعملت هذه المفردة هنا إشارة إلىٰ بعض الكرات السماوية التي تنفجر تحت ظروف خاصة وتتحول إلىٰ قطع متعددة تسبح في السماء، وإذا ما دخلت في مدار الأرض، تحولت (بايعاز من الله) إلىٰ أمطار من حجر، أو سقطت علىٰ وجه الأرض بصورة قِطَع حجرية كبيرة، كلٌّ منها يمكنها تدمير منطقة واسعة من سطح الأرض، كما أنّ العلماء اكتشفوا نماذج من هذه الكُتَل الحجرية في منطقة «*سيبيريا*».

ثم قالت الآية في النهاية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي لكل عبد راجع الله وخائف من عذابه ومتخذ سبيل التوبة.

المسلم هو أنّ هذه الآيات عامة لجميع البشر، لكن لا ينتفع بها إلّا من خاف الله وشعر بالمسؤولية[2].

---

١. لقد اشير إلىٰ هذا الأمر في التفاسير التالية: تفسير روح المعاني، ج ١٢، ص ١٢٣؛ تفسير الكبير، ج ١٨، ص ٥٨؛ تفسير روح البيان، ج ٤، ص ١٨٥.

٢. تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٥٣٤٦.

وبتعبير آخر: فإنّ جملة ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ بمثابة بيان لسبب جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾، أي أنّ الالتفات إلىٰ حقيقة العبودية والتوبة والإنابة سبب للانتفاع بهذه الآيات[1].

وفي الحقيقة، إذا ما درسنا حقيقة مفهوم العبودية، رأينا لا يخلو من التوبة والإنابة عند اقتراف الذنب.

❀❀❀

أما ثالث وآخر آية في البحث، فقد أشارت مرّة أُخرى إلىٰ المصير الرهيب لقوم لوط ذلك المجتمع الذي بلغ من العار أقصاه، وسخر من جميع قيم الإيمان والإنسانية وغمر في وحل الفساد والفحشاء...

إنّ الآية بعدما أشارت إلىٰ تدمير مدنهم وتخريبها قالت: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يعتقد الكثير أنّ مدن قوم لوط كانت في الشامات قرب «البحر الميت» أو بين الشام والحجاز، وكان يطلق عليها «المدائن المؤتفكة»، ويقال: إنّه عندما زلزلت الأرض من مدنهم هدمتها، ثم نزلت عليهم أمطار من الأحجار، وانشقت عندها الأرض شقاً نفذ فيه ماء «البحر الميت»، وبدل هذه المدن إلىٰ مستنقعات نتنة، ولهذا يدعي البعض العثور علىٰ آثار من الأعمدة وغيرها من هذه المدن في أطراف البحر الميت.

وعلىٰ أيّ حال، فإنّ هذه الآثار الباقية ـ سواء كانت في اليابسة أو تحت المستنقعات الآسنة ـ درس وعبرة، ولا ينتفع بهذا الدرس إلّا الذين يخافون عذاب الله، ويشعرون بالمسؤولية (وتواجدت فيهم أرضية المعرفة).

وبتعبير بعض المفسرين:

آية العبرة هذه هي لأُولئك الذين من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوي القلوب القاسية فانهم لا يعتدون بها ولا يعدونها آية ودليلاً[2].

❀❀❀

---

١. تفسير روح المعاني، ج ٢٢، ص ١٠٤.

٢. تفسير روح المعاني، ج ٢٧، ص ١٣.

النتيجة:

إنّ الخوف سواء كان بمعنىٰ الخوف من الله أو من عذابه أو من الذنب والمعصية (لأنّ جميعها ترجع إلىٰ معنىٰ واحد)، يُعِدُّ الأرضية لروح الإنسان لتقبل الحقائق والمعارف، الإنسان ما لم يشعر بالمسؤولية لا يتجه نحو مصادر المعرفة ولا يبحث في آيات الآفاق والأنفس والتكوين والتشريع.

وخلاصة الحديث، أنّ الحركة نحو العلم والمعرفة كأي حركة أُخرى تحتاج إلىٰ محرك، والمحرك يمكنه أن يكون أحد الأمور التالية:

١ ـ جاذبية العلم والعشق للمعرفة التي أُودعتْ في روح الإنسان منذ البداية.

٢ ـ الاطلاع علىٰ النتائج المثمرة والآثار القيمة للمعرفة، ووصول الإنسان إلىٰ المراحل الرفيعة تحت ظلها.

٣ ـ الشعور بالمسؤولية والخوف من العواقب المؤلمة لفقدان المعرفة والجزاء الترتب عليها.

إنّ كلاً من هذه الأمور يمكنها أن تهيء الأرضية المناسبة لطيّ هذا الطريق المليء بالتعرجات، وإذا ما تعاضدت هذه الأمور مع بعضها البعض، فإنّ الحركة نحو المعرفة ستكون أسرع وأعمق وأكثر ثماراً.

80CB

وآخر الحديث: إنّ أكبر فخر للإنسان هو العلم والمعرفة، والجاهلون هم موتىٰ الأحياء.

إنّ بلوغ مرحلة المعرفة الكاملة، لا يتم إلّا مع توفر الأسباب ورفع الموانع والحجب وتهيئة الأرضية المناسبة.

وما أجمل ما قاله الشاعر:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله   فأجسامهم قبل القبور قبور
وإنّ امرءاً لم يحيي بالعلم ميتة   فليس له حتى النشور نشورُ

ﮰ

ربّنا علّمنا المعارف الحقيقية، والأرفع من ذلك أي
معرفة ذاتك المقدّسة الطاهرة وصفاتك الجليلة.
إلهي! نعلم أنّ أعظم فخرنا هو علمنا ومعرفتنا،
والاطلاع على أسمائك وصفاتك وعالم خلقك أي أفعالك،
إلّا أنّه لا يتيسر طيّ هذا الطريق الصعب إلّا بتوفيقك، فوفقنا
وثبت أقدامنا.
يا مولانا! إنّ شياطين الدرب كثيرون، وأوديته
خطرة، وموانعه عديدة، ولا يمكن رفع هذه الموانع إلّا
بامداداتك، فزودنا بها وبألطافك الخاصة.
آمين يا رب العالمين
نهاية المجلد الأول من نفحات القرآن
(التفسير الموضوعي)
صباح الجمعة ـ ٨ رجب ١٤٠٨ هـ. ق
الموافق لـ ٧ / ١٢ / ١٣٦٦ هـ. ش


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفهرس

القرآن و ضرورة المعرفة / ٣٩

مصادر وسُبُل المعرفة / ٩٣

حُجُب المعرفة وآفاتها / ٢٢٧

حُجُب المعرفة وآفاتها (بالتفصيل) / ٢٤٥

مؤهلات المعرفة / ٣٣٧